

نقوش على الحجر

عبد السلام، رضا

نقوش على الحجر

نيوبوك للنشر والتوزيع

14 × 21 سم

تدمك: 9789776519886

رقم الإيداع: 29272/2017

1 - المذيعون والمذيعات

2 - العنوان

دار النشر: نيوبوك للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: نقوش على الحجر

الكاتب: رضا عبد السلام

رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبعة: 2018

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر



نيو بوك للنشر و التوزيع

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملاً أو جزئياً، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع

6 عمارات الدفاع الوطنى - حدائق القبة - القاهرة

تليفون: 01092673274

newbooknb@gmail.com

نقوش على الحجر

رضا عبد السلام

تقديم

د. عمرو شريف



المحتويات

13.....	ملحمة رضا عبد السلام: بقلم د. عمرو شريف
27.....	مقدمة

الجزء الأول: سنوات الميلاد وصناعة الأمل

43.....	الفصل الأول: ساحات الأماكن ودنيا الأشخاص
43.....	عزبة الفرخ والشيخ إبراهيم
45.....	مسجد للمقام
48.....	ساحة شجرة الجميز
52.....	الجرن والنورج والساقية
54.....	الحاج سيد أبو خليل والحاج على عبد الدايم
55.....	ستى آمنة وحسن الطويل
61.....	صول في سواحل السويس
64.....	وداد وأخواتها في بلاد غريبة
66.....	دقوا المزاهر
71.....	حسن وياسر
74.....	موت آمنة
77.....	الفصل الثانى: ليلة ميلاد الصدمة
77.....	الداية والضوء الخافت
78.....	لحظات الصدمة الأولى
81.....	ثبات أب
84.....	اسمه رضا
87.....	ليالٍ قاسية
89.....	دعاء المضطر والدكتور رمزى فرج
95.....	الفصل الثالث: خطوات وثيدة فى طريق الأمل
95.....	الخروج للحياة وخوف الأم
97.....	إنه يجبو

99	تعالوا لتروا.....
101	الخروج الأول وإثبات الذات
104	ردع الطوبه من الرجل الشمال
106	حريقة رضا
110	إنه يركل الكرة
115	يد بديلة وستيفن هوكنج
119	أبو الريض
123	الفصل الرابع: المقابلة الحاسمة وفتح الأبواب
123	لست محتاجاً لعطف أحد «درس للحياة»
126	الطبلية ولمبة نمره خمسة
129	القلم وقبضة الإصبعين «برافو يارضا»
132	إنهم يقتلون الأمل
135	المقابلة الحاسمة
139	أبله فادية
143	داخل الفم معجزة
144	الأستاذ حسنين محمد حسنين
150	سنوات الدراسة وشخصيات لا تنسى
164	نور الكهرباء
169	90 ٪ ونهاية مرحلة
175	الفصل الخامس: إعدادى وثانوى
175	بيصوا الى له؟!
178	المرأة وأمنية النوم وسؤال إلى الله
183	زملاء جدد
190	تدريس ومدرسون
194	الأدب والنصوص إعدادى وثانوى
201	فرح الإعدادية
203	ملحق رياضيات ودرس لاينسى
208	ثانى قويسنا

212.....	شوفوا مين الى جاى؟! موت المجاهدة
215.....	أم جديدة
219.....	الفصل السادس: كلية الحقوق
219.....	حقوق طنطا
224.....	فى قاعة المحاضرات.. لومبروزو والشيخ السلفى
230.....	الاشتراط لمصلحة الغير.. ثالث دفعة
236.....	ليسانس الحقوق
241.....	روح يا بنى مش هايخدوك!!
245.....	وداعاً كلية الحقوق
249.....	عبد الوهاب مطاوع وأحلام اليقظة

الجزء الثانى: وهل دانت الثمار

255.....	الفصل الأول: صديق الإذاعة
255.....	قرآن الثامنة وراغب غلوش
260.....	الإذاعة فى رمضان
264.....	صديق الإذاعة
280.....	أقدار الله وأمانى البشر
283.....	الفصل الثانى: باب الإذاعة
283.....	باب 4
289.....	أخصائى متابعة برامج وعجلات المترو!!!
295.....	إذاعة وسط الدلتا
305.....	سعيد العيلى.. جسر الوصول
309.....	حلمى البلك.. ماذا تفعل يا بنى؟!
317.....	صالح مهران وكمال بشر وهالة الحديدى
321.....	الفصل الثالث: فى إذاعة القرآن الكريم
321.....	مذيع هواء
326.....	إبراهيم مجاهد ومحمد زعتر
331.....	فرحة الميكروفون وزلزال 92

337	برامج ومواقف
352	سفير الإذاعة
360	شخصيات لا تُنسى في مسيرتي الإذاعية
365	الفصل الرابع: معركة الحب والزواج والأسرة
365	تمهيد واجب
366	في نفس الشارع
371	لا أناقش اختيارك ولكن..
375	عملية زواج متعسرة
380	فرحة المسجد والذفن الطويلة
385	ورقة أخى محمد والموقف الصعب
390	عبد الرحمن.. من غرفة الولادة إلى طب الأزهر
398	فجيرة النفس والروح.. موت أبى

الجزء الثالث: حياتى وفكرى

407	رحلتى مع القرآن
417	«وسيق»... شتان بين الأولى والثانية
421	تسلف
426	خطب الجمعة وكلية الدعوة الإسلامية
432	أدب وشعر
448	مرحلة الشيخ الغزالي
460	سيرة ومسيرة.. في رحاب عقول مصر الكبيرة
471	خاتمة..
471	مع أبى وأمى
473	زوجتى وأولادى
474	إخوتى وأصدقائى
476	هذه حياتى

إهداء

إلى أبي وأمي ..

عطاءٌ بلا حد، لولاهما ما كنت وما كنت لي حياةٌ..

«رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا»

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: 50)

ملحمة رضا عبد السلام

د. عمرو شريف

الملحمة هى حكاية بطولية تتناول حركة جماعات أو قبائل أو شعوب، وهى نموذج إنسانى يُحتذى به، يجد المرء فى حياة وسلوك أشخاصها ما يطمح لتحقيقه. وإذا كان أبطال الأسطورة هم عادةً من الآلهة فإن أبطال الملحمة يكونون من البشر.

إن السيرة الذاتية التى بين يديك - قارئى الكريم - هى حكاية ملحمة بحق، أبطالها هم جماعة صغيرة، «رضا عبد السلام» ووالداه، الذين بذلوا جميعهم جهوداً مضنية هى بحق «نقوش على الحجر».

لقد أدركت الطابع الملحمى لحياة تلك الأسرة الصغيرة عندما كنت أراجع مع الصديق رضا عبد السلام فصول هذه السيرة فصلاً بفصل. وأثناء هذه المراجعة قفزت إلى خاطرى ملحمتا هوميروس، الإلياذة والأوديسا، وأعمال تولستوى الملحمية، التى طالعتهما فى فترة مراهقتى، بل لقد أحييت الفصول التى كتبها رضا مشاعر الدهشة والانبهار، والقلق والترقب، والإعجاب بالأبطال وتضحياتهم، تلك المشاعر التى عشتها منذ أكثر من نصف قرن مع هوميروس وتولستوى. وليس ذلك

غريباً إن كان بطلنا نفسه قد تأثر في فجر شبابه بعمق بالأديب البريطاني العظيم تشارلس ديكنز وشخصياته ومعاناتهم.

وإذا كانت الأعمال الملحمية تقوم على الصراع ضد القدر، وأحياناً تجسد صراعات بين الآلهة والبشر، ويشوبها دائماً إحباطات وعجز ويأس عميق، فإن ملحمة بطلنا قد اتسمت بالتفاعل والتجاوب مع القدر الذي حكم عليه منذ مولده بإعاقة غياب الذراعين، في إطار من الرضا والتسليم والسلام النفسى، وكأنها انعكاس مباشر لاسم صاحبنا رضا عبد السلام.

وعادة ما تشتمل الأعمال الملحمية على مبالغات تضافى على العمل صبغة أسطورية، أما ما ورد في ملحمة رضا عبد السلام مما تتزلزل له النفوس وتدمع له العيون وربما ينهمر منها الدمع، فهو أحداث صادقة ونقش حقيقى على الحجر.

والأعمال الملحمية تُصاغ دائماً شعراً ونقرأها نثراً مترجماً، أما ملحمتنا فقد أبدعها قلم صاحبنا بلغة سهلة راقية بعيدة عما يشوب كتابات البعض من تقعر وتصنع.

وقد تمثلت ملحمة سيرة رضا عبد السلام ومسيرته في نحت أحداثها حدثاً حدثاً نقوشاً على صفحة الأيام الصلدة القاسية، ولا أقول إن ذلك قد تم بأدوات عاجزة قاصرة بالمقاييس الفيزيائية، لكنه تم - بصدق - بما وهبه ربى - عز وجل - من روح وثابة متطلعة وعزيمة وإرادة لا تلين.



القارئ الكريم... قصدت فيما مضى من التقديم التعرض لسمات

الأعمال الملحمية، لتؤكد أن هذا العمل الذى بين يديك يستحق أن يندرج ضمنها. وبقي أن أحدثك عن العمل نفسه ثم عن رضا عبد السلام.

* * *

عادة ما تكون السير الذاتية تسجيلًا لظروف نشأة أبطالها واستعراضًا للعوامل المجتمعية والأسرية التى شاركت فيها، ثم تتبعًا لتطور أصحابها الفكرى والمهنى، حتى أننى أصف تلك السير بأنها رحلات «تربوية فكرية» لأصحابها. وهذه البنية ظاهرة فى معظم ما يزين مكتبتنا العربية والعالمية من سير ذاتية، مثل «أيام طه حسين وتأملات العقاد وروايات توفيق الحكيم وحواراته، وأيضًا بذور وجذور وثمار حياة د. عبد الوهاب المسيرى»، رحمهم الله جميعًا.

أما السيرة التى بين أيدينا، وإن كان يتوافر فيها المنحى التربوى الفكرى، فإنها رحلة «نفسية إنسانية» فى المقام الأول، نجح صاحبها فى أن ينقل لنا خلجات قلوب وترددات أنفاس صدور أبطالها، لذلك لا أصفها بأنها عمل «فكرى إنسانى» بل هى عمل «إنسانى فكرى».

وأختار من المواقف العديدة التى عبرت عن هذا المنحى النفسى الإنسانى فى السيرة ثلاثة مواقف تجسد فيها عمق هذا التوجه.

لعل أعمق المواقف النفسية الإنسانية وأكثرها هولًا فى هذه السيرة هى تلك اللحظة التى استقبل فيها الوالدان طفلها المرتقب، التى انقلبت فيها آمالهما وأحلامهما آلامًا وإحباطات بعد أن عاينا إعاقة الطفل، وأستطيع أن أتصور مشاعرهما وقد وصلت بهما إلى تمنى لو لم يكن هذا الطفل قد وُلد أو لو أن تنشق الأرض وتبتلعه أو تبتلعهما. ولا شك أن بطلنا رضا

عبد السلام قد أبدع في تصوير أهوال هذه اللحظة، ليس على الوالدين فحسب ولكن على كل من حضرها.

أما الموقف الثاني، الذي يعتبره رضا عبد السلام ميلاده الثاني، فقد دار حول امتحانه للقبول كمذيع في الإذاعة. لقد وصل بي رضا إلى درجات عالية من التوتر والترقب وهو يحاول مرة تلو الأخرى التقدم للامتحان غير أبه بالرفض المتكرر، وازدادت حدة التوتر أثناء امتحانه حتى كنت أشعر كأنني أنا الذي أخوض الامتحان. وقد وصلت المشاعر إلى ذروتها حتى كاد القلب أن يقفز من بين الضلوع وأنا أترقب نتيجة الامتحان في لجنة الأستاذ حلمى البلك، فهدأ قلبي ودمعت العينان من الفرحه مع إعلان نجاحه كمذيع هواء.

والموقف الثالث والأخير، الذي أقتطفه من أحداث السيرة، ولعله من أهم ما جاء فيها، ولعله أيضًا أهم أسرار نجاحها، هو موقف يجسد حرص كاتبها على أن يكون شديد الصراحة والصدق والأمانة مع قارئه. لم يَسعَ رضا لأن يكون بطلاً مثاليًا لا ينكسر، ينتقل من إنجاز إلى إنجاز ومن نصر إلى نصر، بل إنه لم ينجل، بل حرص، على أن يُعرَى ضعفه البشري في مواقف عانى فيها مما نعانى جميعًا مما يشوب سلوكنا وأفكارنا بل ومشاعرنا من طينية الإنسان. في هذا الموقف حملنا رضا إلى مدينة قويسنا عند التحاقه بمدرستها الإعدادية، وهناك أخذ الناس ينظرون إليه نظرات غير التي اعتادها من أهل قريته الذين يعرفونه، كانوا باندعاشهم ينهشون هذا الفتى في أخرج مراحل حياته، مرحلة المراهقة التي يسعى فيها كل إنسان لإثبات ذاته وتميزه ويتمرد على محاولات الآخرين للانتقاص منه. وبالرغم من أن والداه طَيَّبَ خاطره واستغل الموقف لتزويد ابنه القَلِقِ الضَّجِرِ بدرس جديد يعينه في حياته، إلا أن

رضا كان عميقًا للغاية. يصارحنا رضا أنه في هذه الليلة وقف أمام المرأة ينظر بضيق شديد إلى يديه القصيرتين القاصرتين، فغلبه البكاء الشديد، وأخذ يردد: لماذا أنا هكذا؟ ولماذا يداى قصيرتين عاجزتين بهذا الشكل؟ ثم قصد المسجد وصلى ودعى بحرقه أن يهبه الله ذراعين طويلين وكفين كبيرين وأصابع خمسة في كل يد، وذهب إلى فراشه لينام على هذا الأمل، وعندما استيقظ في الصباح أخذ يتأمل يديه وكأنه سيجد الأمر قد تغير!! وفرضت فترة المراهقة أن يستمر هذا الحال معه مدة طويلة، خشى بعدها إلى يكون موقفه هذا بمثابة عدم رضا بقضاء ربه، حتى صار كلما وقع له مكروه يعتبره عقوبة إلهية على ذلك!

عندما قرأت هذا الموقف بقلم رضا، استشعرت كم يكون الإنسان عظيمًا وراقيًا عندما يكون صادقًا صريحًا أمينًا ولو على حساب نفسه. كما أدركت أحد أسرار ما حققه رضا من نجاحات في حياته وما ستحققه هذه السيرة والمسيرة من قبول بإذن الله.

ولتعميق هذا البعد النفسى الإنسانى، لم يكتف رضا بالإبداع في تصوير المشاعر والانفعالات بصدق أخذ، لكنه لجأ أيضًا إلى وصف الشخصيات والأماكن والظروف الاجتماعية الزمانية باستفاضة حتى يستشعر قارئه كأنه قد سافر بألة الزمن إلى حيث تجرى الأحداث في زمانها المحدد.

ولتعميق البعد الإنسانى المجتمعى فى السيرة، استخدم رضا عبد السلام أسلوب الانتقال من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى العام، والانتقال من الشخصى إلى الموضوعى ومن الموضوعى إلى الشخصى، حتى يستشعر القارئ أن ظروف رضا لم تدفعه إلى الانعزال عن مجتمعه ووطنه، بل تجده يقفز فوق إعاقته ليشارك في الحراك المجتمعى

والوطني والإنساني، بعمق يفوق مشاركة الكثيرين من عامة الناس ومفكرهم.

ولعلك - القارئ الكريم - ستدرك عمق الجانب النفسى الإنسانى لهذه السيرة والمسيرة بعد صفحات قليلة من بداية إبحارك فيها.

وأحسب أن هذه السيرة تأريخ وذاكرة إنسانية لمصر فى مكانين وزمانين. المكان والزمان الأول، هو مجتمعاتنا القروية فى النصف الأخير من القرن العشرين، وبالرغم من أن فارسنا لم يكن قد وُلد فى بدايات هذا النصف لكنه ينقل لنا الكثير عن هذه الفترة على لسان الجيل السابق له، بل إن ما يرسمه بقلمه لا يمثل هذه الفترة فحسب لكنه ضارب فى أعماق تاريخ الريف المصرى.

ينقل لنا رضا عبد السلام ما كان يسود هذا المجتمع فى هذا الزمان من قيم وأخلاقيات وعادات وتقاليد، بإيجابياتها الكثيرة وسلبياتها القليلة. ومن حسن طالعنا أن رضا قد عاصر نقلة فارقة فى تاريخ هذا المجتمع وهى «دخول الكهرباء» وما سببته هذه النقطة من تغيرات حضارية جذرية خطيرة فى بنية المجتمع وقيمه ومفاهيمه.

ولا شك أن من عايشوا كل هذه النشاطات والمفاهيم الريفية سيشعرون أن رضا يرجع بهم إلى أيام خلت عزيزة على قلوبهم، أما الشباب فقد يرون فيها حياة قريية من حياة «أليس فى بلاد العجائب».

أما المكان الثانى والزمان الثانى، فهو الإذاعة المصرية طوال ثلث القرن الأخير. لا أقول أن رضا عبد السلام قد نجح نجاحًا كبيرًا فى أن يرسم لنا صورة لمجتمع الإذاعة فى هذه الفترة، بل إنه قد نقلنا أحياء لنشارك المجتمع الإذاعى حياته. وقد قام بذلك من خلال استعراض

محاولاته لتحقيق حلمه في الالتحاق بإذاعة القرآن الكريم كمذيع هواء، وما لاقاه من صعوبات خلال هذه المحاولات، ثم من خلال ممارسته لمهام المذيع المتعددة وأيضاً من خلال إطلاعنا على بعض تفاصيل وأسرار العمل الإذاعي. وقد جعلنى ذلك - بصدق - استمع إلى البرامج الإذاعية بأذن وعقل أكثر وعياً مما كنت أمارسه من قبل.

لا شك أن هذا الجزء من مسيرة رضا عبد السلام يُعد تأريخاً وأرشيفاً وذاكرةً للإذاعة المصرية، يحفظ لنا شخصيات رجالها وسيدات العظام الذين حملوا على عاتقهم المهام الشاقة التي تقف وراء هذه المؤسسة العظيمة الرائدة في المنطقة العربية. كذلك يحفظ لنا الكثير من آليات وأسرار العمل الإذاعي في مرحلة عاصرت تطوراً كبيراً في تقنيات العمل. وقد أخبرنى رضا عبد السلام أن هذا الهدف المهم كان نصب عينيه وهو يخطط سطور هذه المرحلة من المسيرة، حتى لا تضيع هذه المرحلة من عمر الإذاعة من ذاكرة تاريخ مصر.

ويبقى في ختام هذا الاستعراض السريع للمسيرة والمسيرة أن أشير إلى أحد أهم موضوعاتها، وهو ما قام به رضا عبد السلام من «تسريح نفسى عميق» لمعظم من مر فيها من شخصيات، فهو لا يكتفى بوصف كل شخصية ظاهرياً، لكنه ينفذ إلى قراءة في باطنها، ولا يكتفى بذلك بل يقوم بعمليات تحليل نفسى لهذه الشخصيات ليصل إلى الدوافع وراء سلوكها الإيجابى أو السلبي تجاهه. وليتك - قارئى الكريم - تضع هذا المفهوم المهم أمام ناظريك وأنت تبهر مع الشخصيات العزيزة في هذه السيرة.

إن هذا المنهج لرضا عبد السلام يكشف لنا جانباً شديد الأهمية في شخصيته، وهو: كيف ينظر رضا إلى من يتعاملون معه. إنها النظرة المتفحصة المتأمله المحللة المتعمقة، وليست النظرة السريعة العابرة التي

تكتفى بما يمكن أن تقدمه له هذه الشخصيات من دعم أو ما يمكن أن تسببه له من إعاقة وإحباط.

لذلك أقول أنه إذا كان رضا عبد السلام قد حلل هذه الشخصيات حتى وصول إلى دوافعها، فإن منهجه هذا قد حلل لنا شخصيته! وجعلنا ندرك كيف ينظر هو إلى الآخرين.

وإذا كنا ننظر إلى شخصيات هذه السيرة - ومنها رضا عبد السلام ذاته - على المستوى النفسى، فدعونى أختم هذه الوقفة بمفهوم نفسى شديد العمق والأهمية فى شخصية فارسنا، وهو كيف ينظر رضا عبد السلام إلى من يبذلون الجهد من أجل منعه من أن يحيا حياة سوية كريمة يحقق فيها أحلامه المشروعة بما لديه من قدرات عقلية ونفسية، أى هؤلاء الذين يريدون أن يحرّمونه من أبسط حقوق الإنسان. إن رضا يعتبر أن هؤلاء يعانون من «إعاقة نفسية» يسقطونها على الآخر الذى يسعون جاهدين لإحباطه.

صدقت والله يا أخى الفاضل...

أما علاقتى بهذه السيرة الذاتية فعميقة أصيلة، تبدأ بفكرة ميلادها. فإننى أفتخر بأننى قد مارست على الصديق رضا ضغوطاً ليخرج لنا فى هذا التوقيت هذه الملحمة التى احتضنها بين أضلاعه سنوات طوال، لتكون أول تعرّف لقراء العربية على الكاتب المبدع رضا عبد السلام الذى عرفته أذانهم جيداً عبر موجات الأثير.

وأيضاً أفتخر بأننى كنت القارئ الأول والناقد الأول لكل فصل تتم كتابته من هذه الملحمة أولاً بأول، ثم المراجع للعمل بعد أن اكتمل تمهيداً للدفع به إلى المطبعة، كذلك يشرفنى أننى كنت الشخص الأول الذى تعلم الكثير مما تحمله هذه السيرة والمسيرة من دروس إنسانية غاية فى الأصالة والعمق.

كذلك كان لى شرف المشاركة فى اختيار عنوان هذه الملحمة. فعنوان «نقوش على الحجر» يحمل فى طياته - بل يجاهر بوضوح - بالمشقة والمعاناة التى واجهها صاحب الرحلة وهو يدون على صفحات أيامه كل حرف من حروفها، وقد تمثل لنا هذا العنوان بعد أن قرأت الفصول الأولى من العمل فأضأت فى أعماقى صورة الفنانين العظام من أجدادنا المصريين القدماء وهم ينحتون بمعاولهم الثقيلة وأدواتهم الدقيقة نقوشاً على الأسطح الجرانيتية والكلسية للأهرامات والمسلات والمعابد والمقابر، يسجلون فيها إنجازاتهم الحضارية.

كذلك تحمل هذه الملحمة مواقفاً أأمل أن تبقى عبر الزمن، كالنقوش على الحجر، دروساً ينهل منها شبابنا وكبارنا الباحثين عن القدوة الحقيقية التى تُعينهم على مواجهة الصعاب وبذل أقصى الجهد لتحقيق الأحلام.

وإذا كانت أحداث هذه الملحمة هى بحق نقوش على الحجر عبر الأيام والسنين، فإن نقش هذه السيرة والمسيرة فى هذه الهيئة التى بين يديك كان عملاً لا يقل مشقة عن نقش أحداثها على صفحات الزمن. لقد رفض رضا عبد السلام أن يملأ أحداث ملحمة على آخر ليكتبها، كما وجد أن تدوينها بالقلم الذى يمسك به بين أسنانه - كما اعتاد - لن يترك له الفرصة ليعتصر الأحداث ويتأمل أعماقها ليخرجها لنا سلسبيلًا رقيقًا.

بقى أمام رضا البديل الأصعب لتدوين ملحمة، وهو أن يرصها حرفاً حرفاً بأن يطرق بالقلم الذى يمسكه بأسنانه على مفاتيح لوحة الحاسوب، وكثيراً ما احتاج الأمر لتعامل مزدوج مع المفاتيح، فكان يستخدم إصبعاً متصلاً بكتفه مع قلم الأسنان فى وقت واحد، وقد أخبرنى رضا أن هذا الوضع الذى قد نعجز عن تصوره هو أشق خطوات الكتابة. ما أضناه من عمل، جعل رضا يتحسب له كثيراً كلما أقدم على

كتابة فصل من الفصول، وما كان ينتهى من الفصل إلا وقد أنهكه الجهد وتصبب من جسمه كله العرق وتشنجت منه العضلات، حتى صارت كتابة كل فصل من الفصول تدفعنى فى صباح اليوم التالى للاتصال به مطمئناً على صحته.

لقد شاء ربى عز وجل ألا تقف ملحمة سيرة رضا عبد السلام ومسيرته عند مكاببتها يوماً بيوم، بل ساعة بساعة، وربما دقيقة بدقيقة، لكنه عز وجل قد شاء أن تكتمل الملحمة بظروف وأسلوب تدوينها.

* * *

يبقى فى هذا التقديم أن أحدثك - قارئى الكريم - عن رضا عبد السلام كما عرفته.

ترجع علاقتى بالأستاذ رضا إلى سنوات قليلة بحساب السنين، لكنها كانت كلقاء روحين تصاحباً وتصافياً فى برزخ الغيب فى زمان ومكان لا يعرفهما إلا الله عز وجل، وربما كان ذلك خارج الزمان وخارج المكان.

كان اتصالاً سريعاً من مذيع إذاعى كبير، استمعت إليه كثيراً وسمعت عنه كثيراً، يطلب أن يسجل معى بعض الحلقات لبرنامج «سيرة ومسيرة» الذى يقدمه فى إذاعة القرآن الكريم، ذلك البرنامج الذى يستضيف فيه أعلام الفكر والعلم والفلسفة والدين والأدب، مما أصبغ على هذه الإذاعة طابعاً معاصراً جديداً عميقاً. والتقىنا فى «كافيه سيلانتر» الذى اتخذته صالوناً لى.

لست فى حاجة - القارئ الكريم - لأن أصف لك الدهشة حين رأيت رضا لأول مرة، فقد كنت أظن - كأستاذ للجراحة - أن مثل هذه الإعاقة

لا تسمح لصاحبها بتحقيق التفوق الفكرى والتميز المهني في مثل هذا المجال. لكنى تجاوزت هذه المشاعر في لحظة دون جهد، فأنا أدرك - والحمد لله - أن الرغبة والإرادة والهمة والمثابرة هى المفاتيح الحقيقية للنجاح وليست القدرات الفيزيائية المادية، عندها انقلب اندهاشى إلى إعجاب وانبهار.

تحدثت مع رضا عن سيرتى ومسيرتى قرابة الساعتين والنصف، حتى قال فى نهاية اللقاء؛ ليتنا كنا سجلنا حديثك الذى ذكرت. وأهديته كتيبى العشرة التى صدرت حتى ذلك الحين، وافترقنا على وعد بلقاء بعد أن ينتهى من مطالعة الكتب والإعداد للحوار.

بعد أسابيع كان لقاءنا الأول فى عيادتى بمصر الجديدة، وتكررت اللقاءات حتى أتممتنا تسجيل عشر حلقات بعد أن كان الاتفاق أن نسجل ثلاثاً فقط.

لم يقف انبهارى برضا عند حرفيته واحترافه، المتمثلين فى سعيه إلى مكان ضيفه، حتى ولو تطلب ذلك السفر لمئات الكيلومترات، وفى استخدامه لأكثر من جهاز تسجيل حتى لا تضيع المادة المسجلة بسبب أى خطأ غير متوقع، وفى تدوينه للملاحظات بالقلم الذى يمسك به بأسنانه أثناء الحوار. أقول إن حرفية واحترافية رضا لم يكونا أهم ما يميزاه من سمات، لكن الأهم كان جديته واحترامه لضيفه وفكره، الذين انعكسا فى قراءته لكل ما يتوصل إليه الضيف من إداعات. لقد بهرنى بحق أن رضا عبد السلام قبل محاورتى حول أى كتاب من كتيبى كان يخرج بعض الصفحات التى دون فيها أسئلته حول أفكار هذا الكتاب، والذى يكشف بيقين أنه قد غاص بين صفحات الكتاب ووصل إلى جوهره ومقصودى منه.

لقد أدركت قيمة هذا الجانب من أسلوب رضا عبد السلام، وهو اطلاعه على فكر من يحاوره بمثابرة وإخلاص، عندما قارنته بخبرات مخزية سابقة مع بعض معدى البرامج والمذيعات والمذيعين الكبار في الإذاعة والتلفزيون والفصائيات، حتى أن إحداهن، بعد أن جلسنا في صالون الإذاعة الهوائية وكادت الكاميرات أن تبدأ في التصوير، حتى سألتني عن اسمي والمعلومات التي أحب أن تُعرفني بها، ثم سألت مُعدة البرنامج عن طريق الساعات الدقيقة؛ «هو احنا ها نتكلم في إيه؟!»!

وما أن تعرفت على رضا، وعرفت موسوعيته وجديته وإخلاصه، حتى صرت من مدمنى متابعة برنامجه «سيرة ومسيرة» كل أسبوع، وقد اعتدت أن أدون ملاحظاتي أثناء الحوار لأتواصل معه هاتفياً عقب كل حلقة، محلاً وناقداً ومعلقاً، وحتى صرت أسئلة عن ضيفه التالى بعد أن تنتهى حلقات أحد ضيوفه. لقد صار الحوار بينى وبين رضا حول حلقات برنامجه من الطقوس الثابتة مساء يوم السبت من كل أسبوع فور انتهاء البرنامج، وإذا تأخرت في القيام بهذا الطقس بادر هو بالاتصال ليطمئن علىّ أولاً ثم ليستمع إلى رأيى فى البرنامج.

ولم تقف نجاحات رضا عبد السلام عند المجال الفكرى والمهنى الإعلامى، لكنه حرص على تحقيق النجاح فى حياته الخاصة مثلما حققه فى حياته العامة. فكون أسرة سعيدة هو ربهها، وصار خير زوج لخير زوجة وخير أب لخير أبناء.

عندما دعوت المذيع الكبير رضا عبد السلام لأن يدون سيرته الذاتية تَرَدَّد كثيرًا، تَرَدَّد مقدر المسئولية وخطورتها، وكثيرًا ما كان يتذرع بأن ليس لديه ما يستحق أن يسجله! وكنت أخالفه فى ذلك دائماً. فدون أن أعرف تفاصيل حياته، كنت على يقين بأن فى حياته الكثير الذى ينبغى

أن يسجله ليستفيد منه شبابنا، وليدرك الأصحاء منهم قبل غيرهم أن الإعاقة الحقيقية هي إعاقة الإرادة والعزيمة.

لقد كنت واثقاً تماماً من قدرة رضا عبد السلام على إخراج الدرر والجواهر من هذه المسيرة المفعمة بالصعاب، وقد تأكدت من صدق حدسى بعد أن طالعت الفصول الأولى من الملحمة. فكتبت إلى رضا قائلاً: «إن كلى ثقة فى قدرتك على الإبداع، فمقومات النجاح التى جعلتك مديعاً كبيراً هى نفسها المقومات التى تجعلك كاتباً كبيراً؛ فعندك القضية، وعندك الأفكار، ولديك القدرة على التحليل العميق، ولديك ملكة العرض، ولديك الإمكانيات اللغوية، فكان طبيعياً أن يولد قلمك عملاقاً»...

هذا قليل من كثير عن شخصية رضا عبد السلام صاحب هذه الملحمة.



القارئ الكريم...

عادةً لا يتم التقديم للسيرة الذاتية، ليكون الأمر تواصلاً مباشراً بين صاحب السيرة وبين قارئه.

لكن، عندما طلب منى رضا عبد السلام أن أُصدّر سيرته ومسيرته بكلمات أقدمها بها للقراء كنت سعيداً للغاية، فقناعتي أن هذه الملحمة تستحق كل الاحتفاء والتقدير، وتستحق أن يعرف القارئ مقدماً قيمة ومنزلة هذا العمل.

وقناعتي أن هذه الملحمة ستظل علامة بارزة بين السير الذاتية التى تزدان بها أرفف مكتبتنا العربية.

وقبل أن أتركك مع هذه الملحمة، ربما كان أفضل ما أختتم به هذا التقديم ويليق بها بحق، هو بعضًا مما ختم به أستاذنا د. عبد الوهاب المسيرى - رحمه الله - سيرته الذاتية.

لقد ختم د. المسيرى رحلته الفكرية بـ «حكاية فنان مدينة كورورو».

ذلك الفنان الذى كان دائب المحاولة للوصول إلى الكمال، وذات مرة أراد أن يصنع عصا بديعة حتى لو استلزم الأمر ألا يفعل شيئاً آخر فى حياته. بذل الفنان أقصى الجهد المضنى فى بحثه عن عود الخشب المناسب، وفى نحت العصا وتزيينها بالجواهر واللالئ. لقد استغرق الأمر آلاف السنين! وبلغت أسرة كندهار الحاكمة نهايتها، والفنان فى عمله الدؤوب، وفى سعيه لبلوغ الكمال زالت مدن وأسر قديمة وحلت محلها مدن وأسر أكثر جلالاً.

وما أن انتهت العصا، حتى أصبحت أجمل المخلوقات طُرّاً، عندها أدرك الفنان أنه لم يمر من الوقت إلا القليل:

«لقد كانت مادة عمله نقية صافية، وكان منه نقيّاً صافياً.

فكيف كان يمكن للنتيجة ألا تكون رائعة؟».

ينطبق هذا الوصف تماماً على حياة بطل هذه الملحمة، التى نقش أحداثها، دقيقتها وعظيمها، بفن ومهارة وصبر، وهمة وعزيمة لا تلين، على صفحة أيامه ولياليه الصلدة القاسية، بارك ربي فيك ولك وبك، يا صاحب الملحمة، يا رضا عبد السلام...

مقدمة

كلما هممت أن أكتب عن رحلة حياتي أخذتني حالة من التَهَيَّب والتردد ليس لأنها رحلة لا تستحق أن تروى أو يُكتب عنها، ولكن لأنني دائماً ما أتهم نفسي بالتقصير في بلوغ الأهداف؛ فكيف - والحال كذلك - أَرْضَى عنها كل هذا الرضا؟.. وربما على الأرجح أنأى بنفسى أن تكون رحلة حياتي محلاً للكتابة أو للعرض على الناس؛ خاصة وأن النجاحات التي تحللت هذه الحياة وزينتها ليست بعيدة المنال أو مما يستحيل تحقيقه على من يجتهد ويجد وتكون الحياة بالنسبة له معركة حسم لتحقيق الأهداف.

ومع ذلك، فالذى دعانى إلى أن أمسك بالقلم بضمى عوضاً عن يد وكف وأصابع وأضغط عليه بأسناني وأخط به على الورق الأبيض - كما فعلت طوال عمري - لأكتب أحداث ومواقف هذه الرحلة؛ هو تفردا الإنسانى أى أنها كانت حالة إنسانية مختلفة بل وفريدة من حيث الطبيعة ومن حيث الظروف والأحوال وكذا الأشخاص ومن حيث المواقف التى شاء الله أن تنطوى عليها حياتى بل ووجودها نفسه الذى كان مفاجأة مذهلة لمجتمع لم ير نموذجاً يماثلها من قبل ولا عاصرها

ولا حتى سمع عنها، ولم يتسن له أن يتعرف على الصعوبات التي واجهتها من مختلف الفئات، سواء القريبة أو البعيدة المؤيدة والمعاونة منها أو المثبطة والمحبطة من جهات الرفض وعدم القبول، بل والسعى في زرع اليأس والقنوط من رحمة الله في أن يكون لصاحب هذه الحياة موطن قدم في دنيا الناس، فغدت نموذجاً يستحق التأمل هو ومن معه من أب وأم ومن ساندتهم لعبور السنوات الأولى من التجربة القاسية المريرة التي كانت ثقيلة، لأن مستقبلها كان دائماً مجهولاً، مجهول المعالم والتائج، ورغم ذلك ينبلج منها نور الأمل وأشعة طريق تظهر خافئة من بعيد، ويحتاج إلى مواصلة الطريق حتى يمسك - صاحب هذه الحياة - بأصبعيه اللذين تنتهي بهما يده التي لا يزيد طولها على بضعة سنتيمترات بقوة شعاع النور ليسكنه عقله ويضيء به قلبه ويرفع عن عينيه غشاوة احتقار البشر والتمييز بينهم، ويتحد هو ومن معه ممن كان يسانده ويشد من أزره في سبيل إثبات الذات وفي سبيل التدليل الواضح على استحقاق المبادئ الإنسانية الذي خلق الله الناس عليها.

هكذا هي الإرادة الإنسانية حينما تُمتحن صلابتها وحينما تُوضع على المحك؛ إما أن تنجح وتثبت أن صاحبها يستحق أن يكون إنساناً مسؤولاً وأن يواصل حياته رغم العوائق الإنسانية الطبيعية التي يولد بها الإنسان ولا يكون له دخل بوجودها وتكون امتحاناً له في حياته أو ابتلاءً يعلم أنه من الله ليرقيه به، وإما أن يرضى أن يكون كماً مهملاً يعيش لا عمل له ولا طموح ويرضى أن يكون عالة على من معه من أهل أو ممن تُلقى لهم الصدقات يوماً بيوم..

إذاً فالسبب الذي دعاني لكى أكتب عن هذه الرحلة أنها رحلة مختلفة

لأكثر من سبب. الأول: أن صاحبها وُلد بلا ذراعين أو بالأحرى بضمور في الذراعين لا يستطيع معه أن يؤدي كل شيء من ضرورات الحياة مما تعارف عليه الناس، خاصة وأن اليدين هما اللتان تشبعان حاجات الإنسان عندما يريد أن يقوم بمعظم مهامه اليومية؛ فهما الأداة الموصلة للطعام والشراب حين يأكل أو يشرب وكذلك الوسيلة التي يستطيع الإنسان بها أن يتواصل مع الأشياء والأشخاص فهو يلبس بها ويكتب بها ويلعب بها، وهما الجناحان اللذان يطير بهما الإنسان فوق الأرض ولو للحظات ليستقيم عوده ولا يسقط في وهدة الفشل كما أنها كذلك كمال للشكل الإنساني الذي يسعد به الإنسان من الناحية النفسية، فعدم وجودهما أو وجودهما بهذا الشكل الذي سنفصله بعد ذلك ساعد في خلق حياة حملت كل ألوان الإبداع الإنساني في التحايل على العجز بل وهزيمة هذا العجز وجعله معدومًا أو شبه معدوم، وهذا الإبداع هو في الحقيقة إلهام ممن خلق فسوى - سبحانه وتعالى.

والسبب الثاني: المواقف الناجمة عن الاحتكاك بأصناف مختلفة من البشر وما رأيته منهم من مواقف لا بد أن تُحكى ولا بد أن يعرف بها الناس لكي تكون لنا دروسًا على الطريق ولكي نعرف بها معادن الناس ذهبها الأصيل وصفيحها الرخيص، فهناك من كان بطلاً بحق وإنسانًا بصدق تشبعت نفسه بكل معاني الإنسانية ورسخت في نفسه مبادئ دين يكرم الإنسان من حيث هو إنسان.

وأول النماذج، ذلك الرجل العظيم «أبي رحمه الله» الذي آمن أنني إنسان وأن الله ما دام قد أراد لي الحياة فإنه قد كتب لي القدرة على أن أعيش هذه الحياة، فنفخ في نفسي روح المثابرة والأمل ورسم لي صورة

للطريقين: الأول طريق التعب والصبر والجِد والسهر وعدم الالتفات إلى المثبطين والمحبطين ونهاية هذا الطريق احترام نفسك واحترام الناس ومن قبل ذلك وبعده رضا الله سبحانه وتعالى. والطريق الثانى: أن تتكفف الناس وأن تعيش عالة على من حولك حينئذ تكون قد أهنت نفسك فتكون هيناً على الناس وتصبح أداة لمصمصة الشفاه ودموع أصحاب القلوب الرحيمة وتكون حينئذ لا قيمة لحياتك جئت إليها وخرجت منها بلا أثر يذكر.

وثانى نموذج هو هذه السيدة العظيمة «أمى رحمها الله» التى رأت شكلاً لمولود لم تر له شبيهاً فى دنيا الأطفال على امتداد حياتها. زاد على ذلك أن المولود الذى تراه هو ابن بطنها الذى تخلق فيها ونما وأصبح جنيناً يضرب برجليه الصغيرتين فى أنحاء بطنها وكأنه كان يُعلن عن غضب لما قد يراه بعد نزوله إلى الدنيا الواسعة، جاء بوجوم رسمه شكله على وجوه الحاضرين، وبدت اليدان قصيرتين جداً والأصابع قليلة وقصيرة جداً عن الطفل العادى. ومع هذه الصدمة والصاعقة أخذته هذه السيدة العظيمة التى أضاءت فطرتها النقية نور بصيرتها وألهمها قلبها الوضىء أن تأخذه فى حضنها ترضعه الأمل وتغذيه بالحب وتغدق عليه بالحنان لينشأ سوى النفس بلا عقد ولا التواء نفسى..

ونموذج آخر لسيدة وقور هى المعلمة الأولى «أبلة فادية» التى كانت تقدمه على أقرانه لأنه يستحق التقديم، وتعامله كما تعامل زملاءه لا تبخسه حقاً له ولا تميزه على أحد ولا تميز أحداً عليه إلا ما يستوجبه السبب. إضافة إلى كم لا يحصى من البشر المحمل بالأخلاق العالية والقلوب التى امتلأت جنباتها بالحب ففاضت على هذا الإنسان على

رأسهم «أمى الثانية» التى شملتنى برحمتها وعطفها وهى التى جاءت لتكمل المسيرة بعد وفاة أمى الأولى وهذه سيكون لها فضل الأم وسيكون لنا معها فى سيرة الحياة مواقفها المضيئة.

وإذا كان للناس أم واحدة فإن مثلى له أمهات كثر فزوجتى التى حملتنى وقامت برعايتى هى أم أخرى حملتنى فى قلبها وعينها حقاً وحملت معى الأمانة وحملت أعباءً جسام بحق، فهى تتحمل كل صغيرة وكبيرة فقد أصبحت مدينًا لها بدين ليس عند أحد من البشر لأن أجره ليس إلا عند من خلق الرحمة فى قلب كقلبها.

و«أختى» التى حملت فى بداية عهدها بالحياة كل حاجاتى وكانت إذا رأتنى من بعيد تفرغ نفسها تمامًا لكل ما أريد... و«ابنتى» التى ما أن أشير حتى تسرع بالشئ الذى أريد وهى فى أشد حالات الرضا. و«ابنى» الذى يشبهنى فى كثير من شخصيتى بل وتفكيرى وأحس أننى أرى نفسى تتحرك أمامى لكن فى روح أخرى. و«إخوتى» الذين جمعنا بيت واحد وأصبح لنا قلبان نستقى منهما روح الحياة والحياء والأدب هما قلب الأب وقلب الأم.

هؤلاء هم الذين أعطونى فى مسيرة الحياة الثقة التى تدفع إلى الأمام، فكل واحد منهم كأنه عَيْنَ نفسه خادماً لى فى كل أمورى، لم تأت على واحد منهم لحظة غضب ولا ضجر ولا قال واحد منهم يوماً كلمة تغضبنى، بل كنت أنا الذى أغضب عندما لا يكون ما أريد، فهم دليل على القلوب النقية والنفوس الصافية وعلى تربية أثمرت ملائكة كرام.

أما أصدقاء العمر ومشوار الحياة الذين نشأت معهم فلم أحس يوماً معهم أننى مختلف أو أن هناك شيئاً ينقصنى. فدون أن أطلب أجد الجميع يحمل عنى منذ أن كنت طفلاً صغيراً إلى أن جلست على كرسى فى

أستوديو الهواء يخرج منه صوتى إلى الدنيا، ليعبر عن الشكر لكل هؤلاء الأخوة والأصدقاء الذين مازالوا يحيطوننى بالحب الصادق والمودة المخلصة.. كُلُّ له موقف فى مرحلة من مراحل الحياة، فهؤلاء الذين كانوا فى بداية الطفولة وأول الصبا والخطوات الأولى فى فصول المدرسة الابتدائية القديمة فى قريتنا الصغيرة ومواقف طبعت فى ذاكرة كل واحد منا؛ طفل زميل لهم بهذه الصورة، كيف تعاملوا معه؛ هل أهانوه؟ هل خافوا منه فتخلوا عنه وتركوه؟ هل كان مهملاً؟ فى الحقيقة كنت فى عيونهم وكانوا هم أيضاً فى قلبى يجلسون، ذلك لأنهم من أصحاب المعادن النقية الصادقة الذين يجب أن يتعلم منهم من كان ذا قلب يعرف معنى الأخوة وعقل يعرف معنى الإنسانية.

وسأحكى عمن شاركتهم وشاركونى متعة الحياة بالإخلاص لكى يعرف أصلهم الطيب كل من يطالع هذا الكتاب، إلى أن اتسعت الدائرة حين خرجت إلى رحاب أوسع فى مدرسة المساعى الإعدادية فى مدينة قويسنا بأصدقاء جدد أصبحوا علامات فى دنيا النجاح والتفوق ليس فى المنوفية فقط بل فى مصر كلها بعد ذلك، مثل: «إبراهيم عيسى الكاتب والصحفى الكبير، والدكتور هشام عبد الرحمن الأستاذ فى كلية طب بنها، والمرحوم الأستاذ الدكتور حاتم عبد السميع الأستاذ فى كلية الهندسة - الذى كان موته فجيحة لى ولكل جيل - وصديق عمرى الأستاذ أحمد جمال»، ومواقف لا تنسى فى بيوتهم وبيتى الريفى البسيط وفى حوش المدرسة وفى فصول جمعت قلوبنا البريئة حينئذ كل واحد من هؤلاء الأعلام وغيرهم كثير. كان لنا معاً مواقف تُحكى وتُروى، وتعلمت منهم

دروسًا لا بد أن يعرفها الجيل الجديد، حتى يعلم أن النجاح والتفوق في الحياة له معالم لا بد أن ينتهى إليها كل من أرادها وخطب ودها. فالأخوة والصداقة لها في قلوب ذوى المروءة مكان رفيع ومكانة محفوظة.

وتصل سفينة الرحلة إلى مرحلة الجامعة، وهؤلاء الأعلام من أساتذتي العظام الذين عرفتهم في قاعات المحاضرات وعرفت بعضهم وجهًا لوجه إنسانيًا: كالأستاذ الدكتور حسين فتحى أستاذ القانون التجارى والذي أصبح بعد ذلك عميدًا لكلية حقوق طنطا الذى كان السبب في دخولى الإذاعة بعد ذلك، وكيف كانت علاقتي بعميد كلية الحقوق الذى أصبح بعد ذلك رئيس جامعة طنطا الأستاذ الدكتور عماد الشربيني، وله معى قصة وعد وعدنى به ولكن للأسف أنا الذى أخلفت الوعد وعله كان خيرًا لى فى حياتى بعد ذلك، لكن ما هو الوعد؟ وما هو نوع إخلاف الوعد؟ الذى حدث منى سأحكى لكى يتعلم كل الأساتذة أن الكبير منهم من يُعين مجتهدًا ويحفزه ومن يمهّد الطريق لكى يأخذ أصحاب الحقوق حقوقهم ويسند الأمر إلى أهله. سأحكيه شرفًا لهذا الرجل العظيم.. ولا أنسى أستاذى الأستاذ الدكتور مصطفى عفيفى أستاذ القانون الدستورى. وأساتذة كثر فى هذه الفترة الخصبة من حياتى.. حيث كنت معروفًا فى أنحاء الكلية كلها نظرًا لأن مجموعى فى الثانوية العامة كان أكبر مجموع لطالب فى هذه الكلية.

كما أتطرق للمواد الدراسية التى صاغت طريقة تفكيرى، مثل مادة أصول الفقه ونظريات الإجرام والعقاب وفقه الأحوال الشخصية والقانون المدنى والجنائى، ودنيا واسعة من أعمال الفكر كانت بمثابة الروح التى عشت بها حياة العقل والفكر بعد ذلك.

ثم نصل لمرحلة الإذاعة، ليحضرني موقف لا يُنسى بين قامة إذاعية كبيرة وبين من جاء من ريف مصر المهمش المهمل بقصة من قصص الخيال البشرى الممكن وليس المستحيل، يلتمس مقعداً في غرفة البث الإذاعي كي يقول ما عنده وظن أن الأمر هين، ولكن هذه القامة جاءت عنده وخفضت رأسها لتعلن في أذنه بأنك في عهدي يستحيل عليك أن تكون شيئاً عندنا. ولكن الله شاء بعد ثلاث سنوات من الشقاء والتعب ومحاولة إثبات الذات بجميع الطرق أن يعوض نفساً ذاقت آلام الكفاح بكلمات الثناء من هذه القامة الإذاعية الكبيرة بعد أن رأتني ضيفاً في برنامج تليفزيوني فنشرت على مسامعي في طرقات الإذاعة الطويلة كثيراً من حروف الثناء المعطرة لتكون شهادة النجاح ممن كان يوماً لا يريد لي أن أكون صوتاً ينشد الحياة.

وكانت مسيرتي في إذاعة القرآن حافلة ببرامج سُجلت في تاريخ إذاعة عظيمة سميت باسم الكتاب المبين القرآن الكريم... سأسرد رحلتى على مدى حوالى ربع قرن عشتها أمام ميكروفون الإذاعة، سأحكي كيف أصبح المولود بلا ذراعين - والذى تمنى أحدهم في قريته الصغيرة حينما رآه أن يرحمه الله بالموت - أول مذيع للهواء في العالم بهذا الشكل يخلق صوته في فضاء كوننا العظيم. وسأروى حكايات عن أساتذة وزملاء في فنون الكلمة المذاعة وفي إعلام يحترم عقل المستمع ويقدم له ما يفيد من القيم الأصيلة في أشكال يقبلها ويُقبل عليها.

بجانب سرد مسيرة إذاعة القرآن منذ دخلتها صوتاً يقدم نفسه وروحه وثقافته ووعيه في خدمة مستمع يريد أن يعرف الطريق أو يستدل على حق يريد ألا يحيد عن سبيله، محظوظ أنا بأن لى كل هذه القلوب التي

حملتني كما تحمل الأم جنينها حباً ورعاية وحناناً ووداً لا يعرف قدره إلا من عاين وشاهد، وهؤلاء كثر على امتداد هذه الحياة.

وعلى الجانب الآخر، هؤلاء الذين وقفوا في طريقي وأرادوا أن يوقفوا المسيرة، لا لشيء إلا لعجز دفين في عقولهم وقسوة طبعت في قلوبهم، لا يرون في شخصي إلا العجز، فتراهم يؤخرونني حين أستحق التقديم، وتراهم يبخسون حقي لا لشيء إلا لأنني أطالب بحقي وأتمسك به، في حين أن بعضهم نظراته تفضحه أو لفظ يخرج منه يدل على خبيثة نفسه. وهؤلاء سنجدهم مواقف كثيرة على امتداد هذه الرحلة، وما أقسى نظرة العجز التي يصوبها من ملأ العجز كيانه ولم يدرك أن العجز في نظرتهم تلك. كثيراً ما كنت أشفق على من كان يفعل هذا لأنه ساقط الإنسانية ومحروم المشاعر قليل العقل خالي القلب، وكثيراً ما كنت أنفجر فيه لأقتل فيه معنى الغفلة وأثبت بهذا الانفجار حقي في الحياة، لكن هيهات لمن مات حسه أن تعيده صرخة أو انفجار. فذات مرة قال لي أحدهم «أنت عنيد يا أخى لن أسمح لك أن تذهب حيث تريد» وكان حقي وظللت أكافح بعد صبر طويل حتى أصبح هو من قدمني بعد ذلك وأصبح أكثر الداعمين لي.. وكثير من هؤلاء سنراهم على صفحات ورق أبيض ناصع البياض يمحو ما كان لهم من سواد النية وسوء الطوية.

وهناك نوع آخر سنصادفه في السيرة أيضاً، وهو الذى يريدنى أن أجلس بلا عمل وأن أعيش بلا قيمة، ويتذرع بأنه لا يريد أن يسب لي عتاً ولا جلباً لمشقة وتعب، فهذا وإن كانت نيته حسنة فعمله هذا يهين النفس التى تريد أن تحيا حياة الكرامة الإنسانية وتعيش كما يعيش الناس من كد أيديهم وثمره أعمالهم. وهؤلاء سأحكي كيف كنت رقيقاً

بهم مشفقاً على عجزهم عن فهم حقيقة الإنسانية وقيمة الإنسان في هذه الدنيا.

وما دعاني أيضًا لأن أكتب هذه السيرة هو أن يتعلم الناس - كل الناس - أن الإرادة الإنسانية قد أوجدها خالقها لكي تعمل عملها فتسعد وتُسعد الناس حولها، وأردت أن يكون هذا مثالاً لمن يضعون أقدامهم على أول الطريق ليعرفوا أن النجاح ينتظر من يخوض مثل هذه التجربة سواء كان معاقاً أو سليم الأعضاء معاف.

ويحضرني في هذا السياق موقف للدلالة على هذا المعنى، وهو أن الأستاذ عمرو الليثي قد استضافني في برنامج له لكي أحكى عن تجربتي في الحياة، وبعد إذاعة البرنامج اتصل بي أحد الزملاء في الإذاعة وقال لي إن أحد الناس يريد أن يتحدث معك بشأن هذه الحلقة، وجاءني بعد قليل صوت هذا الرجل - وكان شخصية مهمة - عبر التليفون وعرفني بنفسه، وبعد التحية قال لي: «إن لي بنتاً تعيش في الولايات المتحدة وأنها وضعت منذ عدة شهور مولوداً بنفس شكلك أنت وبنفس الضمور الذى في ذراعيك وبنفس الأصابع، فأصيبت بحالة من الحزن الشديد إلى أن شاهدت الحلقة التى ظهرت فيها مع عمرو الليثي فذب فيها الأمل من جديد فطلبت منى أن اتصل بك». أحسست بعد أن كلمتها كم كان لزاماً على أن أنقل صورة هذه الحياة إلى كثير ممن يضعون أقدامهم على أول طريق الحياة وهذا ما قصدته من عرض هذه الحياة، الزاخرة بطاقات الأمل المشحونة بالطموح المشروع لمن قدم الثمن من جهد وتعب، ولكي نقول للناس - كل الناس - إن الحياة الكريمة لا بد لها من ثمن يدفعه كل ناجح يستوى في ذلك من كان سليم الأعضاء أو كان ممن أصابه ابتلاء.

وهذه السيرة صحيحة في وجه مجتمع يتكلم كلامًا معسولًا عن فئة عددها خمسة عشر مليون شخص في مصر حسب تقدير الأمم المتحدة ولا يقدم لها في الحقيقة شيئًا كما يقول الشاعر:

يُعطيك من طرف اللسانِ حلاوةً ويروغُ منك كما يروغُ الثعلبُ

نهدف من وراء عرض تجارب هؤلاء إبراز صحيحة أن القانون حبر على ورق وأنه هو والعدم سواء - كما يقول القانونيون - وأنه غير مفعّل، وأن الأنظمة السياسية تتعامل معهم كشعارات فقط، وأن جميع المشروعات والخدمات التي قدمت لهذه الفئة ماتت برحيل كل نظام، مثل جمعية الوفاء والأمل التي أصبحت كيانًا خربًا يسكن حيطانها العنكبوت وتعشش فيها اليوم بعد رحيل جيهان السادات عن مواقع التأثير الحاكمة، وتحولت الفكرة إلى سراب وتهميش لفئة من المجتمع يعكس الاهتمام بها مدى تحضر الأمم. فعلى سبيل المثال، في إنجلترا كان دافيد بلانكيد وهو كفيف البصر وزيرًا للداخلية ثم وزيرًا للتربية في حكومة توني بليز، كذلك وزارة للمعاقين في فرنسا على رأسها وزير يجلس على كرسي متحرك.

سيعلو صوتنا بأن هذه الفئة لا بد أن تُحترم حقوقها وتُفعل قوانينها ولا تكون على هامش الحياة، ولكن لا بد أن تسير عجالاتها السريعة بقدراتها الفائقة في الطريق الصحيح لكي تعلن أنها قادرة دائمًا على العطاء والتقدم.

وفي نهاية هذه المقدمة، أعلن أن الحياة التي عشتها لا أدعى فيها بطولة ولا أقول إنني فعلت ما لم يفعل الآخرون، وإنما إذا جازت البطولة فيها فهي ليست بطولة مطلقة بل بطولة جماعية لكل من ساعد وأيد وشجع

وقال كلمة حق ينتصر فيها لإنسان من حقه أن يعيش كما يعيش الناس، لكي يبدو فيلم هذه الحياة بهذه الحبكة الدرامية المؤثرة وتبدو مشاهده على شاشتها جلية لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وقد عدت إلى ما قرأت من سير ذاتية للأعلام من المفكرين وقادة الفكر خاصة في الفترة الأخيرة، فقفز إلى ذهني السيرة الذاتية للمفكر الكبير جلال أمين - أستاذ الاقتصاد في الجامعة الأمريكية - والتي قرأتها منذ حوالي ثلاث سنوات، والذي عرضها بلسان المتكلم وبدأ في عرض المواقف والأحداث التي عاشها وعلق عليها، وهو في ذلك أيضًا يمكن أن يمدح أو يقدر، يحیی أو ينقد. وقد أتاحت له هذه الوسيلة في العرض المرونة في الانتقال من مكان إلى مكان ومن موقف الراوى إلى مقعد المحلل أو الناقد. وهذه الطريقة في العرض تناسب عرض رحلة حياتي لأنها حكايات تبدو في أغلبها غريبة لغرابة الحالة الإنسانية واختلافها. لذا سأعرض المواقف والأحداث بلسان المتحدث الذي عاش الحدث وعينه حتى نغطي كل معالم الصورة للموقف أو للحدث وحتى يشعر معنا القارئ بأنه المتحدث الذي يقص ما عايشه وعينه وقد ينتقل للحديث عن غائب بعد أن يحكى حكايته أو يقص قصته إذا اقتضى الأمر. سوف أعرض الأحداث كما كانت وقت حدوثها من وجهة نظر من عايشها ورآها متسلحًا بالأمانة في العرض معرضًا عن الخوض في خلافات ومشاكسات لا تفيد من يقرأ هذه السيرة، وإن كنت سأنتقد بعض المواقف لبعض أشخاص السيرة بل لصاحبها نفسه حينما أجد ما يستحق النقد، ولا يمكنني أن أعرض تفاصيل شيء أرى أنه في دائرة الخطأ الذي كان فلتة لم تحدث كثيرًا أو حدث في تجربة لا أحب أن أخوض في تفاصيلها التي قد لا تفيد لا كاتب السيرة ولا من يطالع، ولكن سوف

يشار إليه بين السطور، وفي هذا النقطة بالذات يقول الدكتور جلال أمين في سيرته الذاتية: «ماذا علمتني الحياة».

ولكن لا بد من الاعتراف بأن حذف بعض الحقائق لم يكن دائماً بدافع برىء تماماً، ذلك أن ذكر كل الحقيقة لا بد أن ينطوى على ذكر بعض الفضائح المتعلقة بنفسى أو بغيرى بما لا أحب ذكره. لقد كتب جورج أرويل الكاتب الإنجليزى الشهير بصراحته المعهودة وقال: «إن كتاباً فى السيرة لا يمكن أن يصبح محلاً للثقة إلا إذا كشف بعض الأشياء التى تشين صاحبها». وسأنتقل من ذاتية الموقف الشخصى إلى القضية العامة أو من الخاص إلى العام حتى نكون بالحكاية فاعلين فى وضع الصورة المثلى حينما نرسم معالم الاختلاف بين ما هو ذاتى وبين ما هو عام لكى نقول كلمتنا علّها تكون صيحة لمجتمع نريده أن يسير فى طريق الصلاح والفلاح.

ولا أستطيع أن أختم دون أن أشكر أستاذى الدكتور عمرو شريف الذى دفع بكلماته المحفزة وفكرته الصائبة ودفعه المخلص لى لكى أكتب رحلتى لكى تكون مثلاً لقدرة الله على خلق الإرادة الإنسانية التى تستطيع أن تعيش ناجحة قادرة منتجة، ولا أنسى دوره معى الذى أقابله بامتنان من يعرف للكبار قدرهم.

الجزء الأول

سنوات الميلاد وصناعة الأمل

الفصل الأول

ساحات الأماكن ودنيا الأشخاص

عزبة الفرخ والشيخ إبراهيم

هذه قريتي التي وُلدت وعشت فيها أيام عمرى كله، ولم أشأ أن أتركها وأسكن في القاهرة لشيء ما يربطني بها، لعله الأمان الذى أحس به فيها والدفء الذى يلتف حول مشاعرى من الفيض الزاخر الذى يحيطنى به الناس وأبادهم دفئاً بدفء، أو لعلها روح المكان التى تأتلف مع روح الإنسان منا فيحب كل منهما الآخر ولا يطيق البعاد عنه ولا مفارقتة.

وهذه القرية سميت في ميلادها الأول باسم عائلة يقال إنها أول من سكنها في بداية القرن السابق، وكان اسم هذه العائلة «عائلة الفرخ» فسميت في بدايتها عزبة الفرخ، وكثر الناس في هذه المنطقة وحوها وأصبحت نواة قرية صغيرة. وكانت إحدى عائلات هذه العزبة «عائلة عطوى» وهذه العائلة رأيتها بعد أن دلت عليها الأيام وبعد أن كانت قائدة ورائدة وثرية ومُهابة أصبحت خلاف ذلك.

من عائلة عطوى كان عمدة عزبة الفرخ، الذى رأى في المنام

أن «إبراهيم بن أدهم» الولي المعروف يأمره أن يبنى له مقامًا في مكان حدده له فقام من نومه فبنى هذا المقام لإبراهيم بن أدهم - رحمه الله - الذى لم يكن من أهل هذه البلدة ولا سمع بها فى حياته. ولكن لعل هذا يعبر عن حب الناس فى مصر للدين والولاء له ولأوليائه والعمل على أن يكون له وجود ظاهر فى حياتهم، وبخاصة إذا كان من سيقام له الضريح بهذه السيرة الطيبة التى تزخر بالكرامات والبركات المسطورة فى كتب الصوفية، وخاصة أيضًا إذا كان هؤلاء الناس ليس لديهم إلا فطرة سليمة وعاطفة تأخذهم حيث ترتاح القلوب مع واحد من هؤلاء الذين اصطلحوا مع الله ومع أنفسهم ومع الناس، وكان بطل المنام الذى جاء لعطوى عمدة العزبة، كذلك حيث كان له ذكر وتاريخ فى كتب الصوفية، فقد ذكر إبراهيم بن أدهم فى كتاب «حلية الأولياء» وذكر فى كتب أهل الحديث أنه أحد رواة الأحاديث، فقد ذكره البخارى فى التاريخ الكبير.

وسميت العزبة التى كانت تُعرف بعزبة الفرخ بقرية كفر الشيخ إبراهيم، نسبة لهذا العارف الذى لم يدفن فى هذا المكان ولكن تعطر المكان باسمه ونسبت القرية إليه، وكثيرًا ما كنت أفتخر بأننا نتسب لهذا القطب الكبير والعالم الورع والصوفى المتبتل. وكان يقوم على المقام خادم من أهل القرية، يقوم بتنظيفه وفتح زواره القلائل الذين عادةً ما يكونون من أهل البلاد المجاورة، ولا أذكر أننى دخلت إلى هذا المقام إلا مرات قليلة. وكان المقام يلبس ثوبًا أخضر فاقع اللون وعلى رأس القبر عمامة بيضاء، وكان بيت أبى أمام هذا المقام الذى كان قليل الزوار، لكن مع ذلك كان

حل التقدير والتبجيل من كل الناس، وكانت بعض النساء تذهبن إلى هذا المقام وتطعمن فيه وتعطين لخدمه بعض الأموال.

إلا أن هذه الصورة كانت قليلة الحدوث ولم أراها كثيرًا، ربما لتأكيد الخطباء في المساجد - ممن لدعوتهم الثقة عند الناس - أن هذا جرح للتوحيد الخالص ونيل من العقيدة السليمة، وأن النذر لا يكون إلا لله حتى وإن كان هذا المقام قبر لأحد الأولياء أو لاسمه في الحقيقة، دون التكفير والإشراك الذى حمله إلينا السلفيون من بلاد النفط بعد ذلك. ولذلك كانت هذه الصور للتبرك والتي لا أراها كثيرًا هي التي جعلتني لا أقبل الممارسات التي تخرج عن التعبير عن الحب للولى إلى شيء آخر لا أقبله، كمن يُقبل الأعتاب أو يطوف حول القبر، ولكن أقف أمام المقام احترامًا وتبجيلًا ورهبة لتاريخ هذا الولي، وأدعو الله ربى ورب هذا الولي، وكذلك كنت أفعل دائمًا بعد أن أصبحت مذيعةً أنقل الصلاة على الهواء من مساجد آل البيت كالإمام الحسين والسيدة زينب - رضى الله عنهما - والإمام الشافعى وغيرهم كثير فى ربوع مصر على امتدادها التي تظهرت تربتها بالصحابة والتابعين والأولياء الصالحين. والمسجد الذى أحس فيه دائمًا بغاية الأمان النفسى والاطمئنان القلبى والهدوء الروحى هو مسجد السيدة نفيسة - رضى الله عنها - لا أدري لماذا؟ لعلها كانت تعطف على المساكين من أمثالى، وها هي سيرتها كلما دخلت المسجد أشعر معها وفيها وبها بهذا الشعور..

مسجد للمقام

وكان بجانب المقام مسجد سُمى باسم مسجد سيدى إبراهيم بن أدهم، وكان مبنياً من الطوب اللبن وكان له منبر يصعد إليه من خلف

المحراب، والمنبر مصنوع من أعمدة خشب يصل إليها الخطيب بيده مطمئن اليد، وكان المسجد يتسع لأهل القرية في نهاية الستينيات حيث طفولتي الأولى. وكان على يمين الداخل إلى المسجد مراحيض ثلاثة بشكلها القديم، ويأخذ من يدخل إليها بعض الماء في إناء صغير وكانت صنابير الماء مصفوفة على امتداد يمين الداخل للوضوء.

وكان المسجد ينتشر فيه نور النهار حتى يلف الليل ظلامه على نوافذه وأبوابه، فيأتي خادم المسجد الشيخ «بدر الكرمانى» ويرهب ظلام الليل بأشعة تنبعث من مصباح وقوده بلتر من الكيروسين، فما أن يشعل عود الثقاب في شريط المصباح المعتق بالوقود حتى يملأ النور كثيرًا من جنبات المسجد ويبقى البعيد عن المصباح يلهث وراء النور الذى جاء عنده خافتًا يشكو ضعفه إليه. وكان فرش هذا المسجد من الحصير الذى كان يطبع صورة أعواده المنتظمة على جبهات المصلين لكى يشهد لهم عند الله بالصلاة والتقوى.

وكنت أقف وراء الرجال المصلين فى الصف الثانى دائماً، وكان المؤذن الشيخ «بدر الكرمانى» يصعد على ظهر المسجد ليرفع الأذان للصلاة بصوته الخاشع الجميل المزين بتجويد الأداء وتحسينه وتطويل أواخر الكلمات، وكان يأتي قبل صلاة الفجر ويرفع صوته بالدعاء والابتهالات وبمجموعة من الأشعار التى كانت تحرق الصمت بالمعاني الصوفية الرائعة التى كانت أمى عندما تسمعها تنهمر دموعها، ودائماً ما كانت تذكر التواشيح كما كانت تسميها. وكان هذا الرجل الطيب الذى كانت طبيته هذه تضيق وقد تصل للغضب عندما كنا نفتح صنابير المياه أو نحدث جلبة فى المسجد أو يجرى بعضنا وراء بعض - كما يفعل

الأطفال - وكان أحياناً يقف إماماً وكان يبهرنى بصوته الأجش قليلاً والذي يمكن أن تشبهه بالقارئ الكبير «محمود عبد الحكم» وكان يتلو في الصلاة بسورة البينة بطلاقة، وسبب الانبهار أن هذه السورة بالذات قد أخذت منى وقتاً طويلاً لكي أحفظها فكنت أرددها معه كأننى أختبر نفسى.

وخطيب المسجد الذى عاصرتَه وأنا فى سنوات عمرى الأولى هو الشيخ «محمد القاضى» واسمه الحقيقى محمد حسنين، وسُمى بالقاضى لأنه كان مأذون القرية فى وقت كان لقب القاضى يطلق على المأذون، لذا عُرف فى عرف الناس بمحمد القاضى. وكان يخطب الجمعة وهو يمسك بكتاب يقرأ منه الخطبة التى لم أكن فى سن تمكننى من الحكم عليها. وبعد الشيخ محمد القاضى جاء على منبر هذا المسجد فرسان دار المعلمين الذين حملوا الواء الدعوة فى أهل القرية بعد ذلك، وكان واحد منهم هو «حسين ابن الشيخ محمد القاضى» الذى حمل هو وزملاؤه راية التعليم والدعوة معاً فى هذه القرية الصغيرة وكان لهم معنى دور سيأتى فى ثنايا الحكايات حيث الحروف والكلمات والمعانى والمباني والتربية والاخلاق.

وكان لى فى هذا المسجد مشاهد لاتمحي من ذاكرتى، ولعلها هى التى علمتنى بعد ذلك ورسخت فى يقين نفسى احترام المسجد، حيث كان أبى يصحبنى منذ سنوات عمرى الأولى، ورغم أننى كنت دائم التحرك والتنقل وكنت أحب اللعب إلا أننى فى المسجد - خاصة عند الصلاة - كنت أهدأ تماماً، وقد يكون ذلك راجعاً إلى موقف الناس فى الصلاة وخشوعهم ووقوفهم بانحناء رؤوسهم الخاشعة، وقد يكون لمعاملة الناس التى كان يملؤها الحب. وكنت أخاف عندما أدخل

المسجد بين المغرب والعشاء فأجد نفسي وحيداً، فأخرج على بابه حتى يأتى أحد الداخلين إليه لكى أستأنس به. والصورة الأخرى التي طبعت في ذاكرتى صورة الشيخ «عبد الرحمن يوسف» الذى كان يمسك بالمصحف ويقرأ فيه بالساعات الطويلة خوفاً من أن يفلت منه القرآن، وانتقل بهذه الصورة إلى المسجد الجديد وظل كذلك لا يفارق المصحف يده حتى تحس أحياناً أنه منفصل عن العالم مع محبوبه، وإن كان لذلك أثره في مجانبته للناس ومجانبة الناس له، حيث يخلو بمحبوبه - القرآن الكريم - وظل هذا المسجد قبلتنا للصلاة على مدار عشر سنوات من عمرى وترك في نفسى أثراً لا يُمحى، حيث القرب منه أمان والدخول إليه تعليم وتربية والصلاة فيه عبادة ورياضة روحية ورقى بالمشاعر التي كانت تتشكل في هذه الفترة.

طبع هذا المسجد في قلبى أول ركعة ركعتها الله فيه، وفتحت لى في ساحته أبواب رحمة ربى، وكان لى واحة للسكينة التي كنت أحس ببردها في أنحاء روحى. هذا المسجد يذكرنى بالأساس الذى يوضع للبيوت العملاقة لكى تثبت مدى الحياة، هكذا كان لهذا المسجد البسيط المبنى العظيم المعنى في بداية مشوار العمر. ثم بدأ بناء مسجد جديد حمل نفس الاسم وهو مسجد سيدى إبراهيم بن أدهم وتحول مسجدنا القديم إلى حضانة للأطفال بعد أن فتح المسجد الجديد أبوابه للمصلين.

ساحة شجرة الجميز

يقع بيت أبى على ناصية شارع طويل ينتهى بحارة ضيقة، والخارج من هذا الشارع يكون على يمينه المسجد وبجانبه المقام وعلى يساره بيتنا ثم يخرج إلى ميدان واسع، هذا الميدان كان أوسع الميادين في القرية وكان

ملتقى لكل من يأتى من اليمين أو اليسار حيث يبدأ منه الشارع يميناً وينتهى إليه يساراً. ويُعرف شارعنا بشارع داير الناحية أى الذى يدور من أول البلد إلى آخرها، فهو كالحزام الذى يلف القرية من بدايتها إلى نهايتها ثم ينتهى إلى هذا الميدان، وفى جانبه تقف شجرة الجميز الكبيرة بساقها العريضة التى كان لحاؤها يبدو كثياب مقطعة من تجريح الصغار له. ورقها كأنها شماس خضراء تمنع لهيب الشمس أن يحرق الرؤوس، وتبدو كأنها أم يأتى أولادها لكى ينعموا فى نهارهم بالأمان من لفحة القيط، وبالليل بمؤانسة ساقها التى تستقبل الضيوف كل ليلة لكى يحكوا تحتها وحوها حكايات المساء.

وكان هذا الميدان يشمل الجميع، فتجد فيه نهاراً البائعات من النساء اللاتى ضربن المثل فى الاعتماد على النفس حتى يعشن ويعيش أولادهن فى هذا المجتمع الفقير على اختلاف صورهن، وكن يضعن الطماطم والخضار فى الميدان ويطلقن أصواتهن وينادين المشترين بالاسم، فهذه تعرض بصوتها ما معها من فواكه وخضر، وتأتى أخرى وتأخذ جنباً آخر وتضع ما معها فى مشنتين وتجلس بلا صوت وبأنتها زبائنها يشترى، وتبدأ مع عملية الشراء حكايات النساء عن الأزواج والأولاد.

ووسط الميدان يتبارى اللاعبون بالكرة من الأطفال الذين كنت واحداً منهم، نركل الكرة ونجرى وراءها وننطحها برؤوسنا ونحز الأهداف، وبجانبنا يسير الناس فى أعمالهم جهة اليمين وجهة اليسار، فهذا يمشى على قدميه وهذا يعتلى حماره وهذا يمسك بخطام بهيمة يسوقها إلى حقله، وهذه سيدة تحمل وليدها لعلها جاءت به لتترك بالمقام، وهكذا كان الميدان دنيا تعج بالحياة طوال النهار.

نشأت في هذا الميدان، وتركت نفسى له وللناس، فيه أرتشف منهم طعم الحياة التى كنت أراها حياة كد وتعب، رأيتهما فى عيون الفلاحين الذين كانت تأكلهم الأرض قبل أن تخرج لهم حد الكفاف الذى لا يكاد يكفيهم هم أولادهم.. تعلمت فى هذا الميدان أن السعى الذى كنت أعاينه فى وجه بائعة الخضار التى كان ينطلق صوتها من أجل أن يكون ابنها طبيباً أو مهندساً أو مدرساً وقد كان، وفى الإصرار على الحياة الكريمة رغم غصة الفقر التى كانت فى عين بائعة الترمس التى تعود من بيعها بحد الكفاف أو أقل وهى راضية، فعزاؤها فى أمل تنتظره فى ولدها أو بنت ترجو أن يكون لهما شأن فى حياة ليست كحياتها.

ويأتى الليل يخيم على الميدان بل على البلدة كلها بخيمة ظلامه، فى بلد لم يكن نور الكهرباء قد حل بها أو زارها، ولكن نور القمر فى الليالى التى يبرز فيها يحول الميدان وكأنه شاشة من بياض يظهر فيها أبطال كثر فى فيلم المساء، فهذا بيتنا مفتوح بجانب الميدان يجلس فى مقدمته أبى رافعاً صوت الراديو بقرآن الساعة الثامنة فى البرنامج العام مع رفعت أو مصطفى إسماعيل أو عبد الباسط، وبعده تأتى نشرة الثامنة والنصف، ويأتينا صوت الراديو ضعيفاً من بعيد ونحن تحت شجرة الجميز لكى نقضى ليلنا ونلعب ألعابنا فيه.

ومن الألعاب التى لا أستطيع أن أعبها كانت لعبة «صَلَح» التى يقف فيها أحدهم معطياً ظهره للآخرين واضعاً يده اليمنى تحت إبطه الأيسر ثم يفرد كفه ويضع كف يده اليسرى على وجهه حتى لا يرى من يضرب، ثم يضربه أحد الواقفين خلفه على يده اليمنى، ثم ينظر إليهم ليختار من ضربه، فإذا أصاب الاختيار حل محله الضارب وإذا

أخطأ ظل لتبدأ ضربة أخرى، وهكذا.. وكنت أقف متفرجاً في الوقت الذى يحاول من يقف أمامهم أن يحصل منى على إشارة أو تلميح بمن ضرب، وكان وقت الضرب تنطلق الصيحات على حسب قوة وضعف هذه الضربة، وفي النهاية كانت «صَلَح» لوناً من ألوان الترفيه الرقيق. أما الألعاب التى كنت أحب أن ألعبها وكنت أنا وباقي الأطفال نتفق على طريقة لاشتراكى فى لعبها معهم هى «الاستغماية» وفيها يضع أحدنا وجهه للحائط حتى يختبئ كل من الآخرين فى مكانه، وبعد فترة ينطلق ليبحث عنهم فى أطراف الميدان ويحاول أن يمسك بواحد منهم فجأة، ومن يمسك به يأتى عليه الدور لكى يعطى وجهه للحائط وتعاد اللعبة مرة أخرى، وكنت أجرى وراء من أريد أن أمسكه حتى إذا وصلت إليه أضربه برجلي وبهذا أكون قد أمسكته... ولعبة أخرى هى السباق، فكنا نجرى من أول الميدان إلى آخره، وهذه اللعبة كنت من فرسانها حيث كان جسمى خفيفاً وكنت أصل إلى النهاية بسرعة. هذه الألعاب كانت فى الليالى المقمرة أما فى الليالى الأخرى تلك التى كانت تبدو فيها النجوم وكأنها لؤلؤ منشور فى صفحة سماء كون الله العظيم ففيها يجلس فى الميدان مجموعات من الأطفال، منهم من يحكى الحكايات والحواديت ومنهم من يتحدث فيما يجب أن يقضى غداً فى الغيطان والحقول ومنهم من يفرض خصومة بين فتتين من إخوانه وهؤلاء يأخذون مكاناً بعيداً عن جلبة الأطفال والشباب.. كان هذا الميدان فى تكوينى النفسى فى بداية الحياة مثلاً على الحركة والعمل وعلى السعى وراء لقمة العيش لكل الفئات التى رأيتها وعاشتها، وكان ملعباً ومرتعاً لأحداث ومواقف طفولتى الأولى إذ كان أول ما رأيت عندما خرجت إلى دنيا الناس فى قريتى الصغيرة.

الجرن والنورج والساقية

كانت توجد منطقة واسعة من الأرض الفضاء في الميادين الكبيرة في القرية يُسمى كل منها جرن، يضع فيها الفلاحون زراعاتهم، فكانوا يضعون القمح أو الشعير أو الفول بعد الحصاد. وترى الخير يعم في كل هذه الميادين، لأنه وقت حصاد ما تعبوا فيه عدة أشهر، وكانت هذه المحاصيل بأعوادها وما فيها من حب تُلقى في الجرن بطريقة دائرية على امتداد الميدان أو الجرن. ويأتي «النورج» وهي آلة من الآلات الزراعية التي كانت بمثابة أريكة أو كنبه عريضة من الخشب على كل جانب من جانبيها يد خشبية كبيرة يمسك بها الجالس على النورج، وأسفلها عجلات حديدية حادة، ويشدها حمار أو بهيمة، ويجلس عليها الفلاح فتبدأ العجلات في تقطيع عيدان القمح أو الشعير أو الفول حتى تصبح تبنًا تأكله الحيوانات، ويأخذ الفلاح حبات القمح أو الشعير أو الفول بعد أن يرفع التبن. هذه الآلة كنا نركبها ونجلس عليها بعد أن تؤدي عملها، وكنت ترى الفلاح في هذا الوقت فرحًا بمحصوله الذي يعيش عليه هو وأولاده لأنه وقتها لم يكن يبيع القمح وإنما كان خزين بيته من الخبز، فكان لكل بيت من البيوت صومعة يوضع فيها قمح العام مع مادة لا تسمح بأن يصل إليه السوس والعفن، وكان القمح إذا وجد يرفع الجوع حتى ولو لم يكن معه طعام آخر..

وكان هناك جرن القطن الواسع الكبير.. وقت أن كانت مصر قبله القطن طويل التيلة في العالم كله، وكانت تُجمع فيه أكياس القطن التي لا تعد لكثرتها، على كل كيس اسم صاحب القطن ورقم الكيس والموازين والموظف الموكل إليه بالوزن. ولم يكن هذا الميدان أو الجرن بعيدًا عن

بيتنا، فكنا نذهب إليه لنرى هذه الصور التى تتكرر كل عام فى هذا الوقت، ونرى وجوه الفلاحين المتطلعة للأموال التى يحصلون عليها بعد زرعة القطن الذى عاشوا معه زراعةً ورياً وجمعاً، هذا الجمع الذى كان الواحد منهم يلبس له جلباباً واسعاً ثم يربطه عند خصره ويضع القطن الذى يجمعه فيه حتى يمتلأ فيفرغه فى المكان المخصص ثم يرجع ليعيد الكرة، هكذا طوال اليوم فى حر الظهيرة الملتهب، لذا فهو يتطلع لياخذ ثمن تعبته فى محصول القطن الأبيض فى هذا الجرن جرن القطن، وترى أثر ذلك فى حياته وفى أولاده.

وعلى حواف الحقول والغيطان ترى الساقية التى كانت فى نهايات عمر خدمتها للفلاح، والتى كان الفلاح يسخر فيها البهيمة أو الحمار بأن يضع على رقبتة خشبة ثقيلة تسمى النير تنتهى إلى عمود الساقية، ويوضع على عيني البهيمة (الجاموسة أو البقرة) غطاءً سميكاً يسمونه «الغما»، ويضرب الفلاح البهيمة فتلف فى شكل دائرى لترفع المياه إلى قناة صغيرة، ثم تجرى هذه المياه حيث يريد الفلاح. وتجد الفلاح يقف بجانب البهيمة كلما وقفت ينادى عليها بأن تواصل بقوله بصوت أجش «حالا» فتستمر فى الدوران حتى يروى زرعته.

هذه المشاهد رأيته وعشتها من بعيد فى سنوات عمرى الأولى، حيث لم يكن أبى فلاحاً، ولكن هكذا كان المجتمع، وهذه صورته التى طُبعت فى ذهنى وطُبعت معها صور للأرض وللناس وللزراع الأخضر والآلات الزراعية البدائية بالقياس لما ظهر بعد ذلك، فكان لذلك إدراك أن لكل زمن حاجاته ونظمه وآلاته، وأن الزمن والناس والأيام فى تطور مستمر، وإن كان هذا التطور لم يقابله تطور وتجويد فى الأخلاق والمبادئ بل قد يكون العكس هو الصحيح، وسنرى مع الأيام والسنين.

الحاج سيد أبو خليل والحاج على عبد الدايم

الشخصيات الكبيرة هى التى تنقل المجتمعات وتحدث الفرق وتبنى
أبنية يأوى إليها البشر لكى يعيشوا حياة الكرامة الإنسانية، والتعليم
والتربية هما الأساس لهذه الكرامة الإنسانية، وهاتان الشخصيتان هما
اللتان وضعتا اللبنة الأولى للتربية والتعليم فى قريتي، وما رأيت أحدًا
منذ وعى عقلى يتحدث عنهما إلا بالتبجيل والاحترام والتوقير، ولهما فى
نفوس الأجيال التى عاشت معهما هذه المشاعر التى نقلوها إلينا فعشقنا
سيرتهما وكانت سبيلًا لكل من أراد أن ينجح فى الحياة، فقد حفظا القرآن
فى بداية العمر أى فى أوائل القرن الماضى.. وللقرآن تأثيره العميق عندما
يحفظه المرء وهو مؤمن به عامل بأحكامه يحفظه فى نفسه ومع الناس. ثم
تعلم الحاجان حتى حصلا على شهادة الكفاءة ثم دار المعلمين، ليأتيا إلى
القرية التى كانت تخطو خطواتها الأولى بعد أن كانت عزبة صغيرة، وأنشأ
أهل هذه القرية المدرسة على طرفها البحرى ليتولى إدارتها هذان الشابان
اللذان حفظا القرآن ولهما الحب فى القلوب خاصة وأن سيرتهما فى الناس
كانت طيبة. فواحد منهم وهو الحاج على عبد الدايم كان صوفيًا يهوى
الذكر واجتماع الناس فى بيته على ذكر الله وقراءة القرآن ولا يخلو البيت من
الذكر الجماعى بترديد أذكار الصوفية أو مدح النبى ﷺ بالبردة البوصيرية
أو بنهجها الشوقى، ومازال هذا الشكل من الذكر فى هذه الأسرة إلى
الآن. وأما الآخر الحاج سيد أبو خليل فكان كما وصفه تلاميذه جادًا
جدًّا، وكان يهتم اهتمامًا كبيرًا بالتربية والأخلاق، وكان يقدس التعليم
ويعتبره عبادة لله سبحانه وتعالى، ولأنه كان مسموع الكلمة عند كل
الناس فقد أنتج هو وزميل الدرب إنتاجًا وفيرًا:

أولاً: لقد نقلًا التعليم في البلد إلى أولوية في اهتمامات مجتمع لم يعتد على ذلك.

ثانيًا: رسماً صورة رائقة جميلة طاهرة صافية محترمة للمعلم.

ثالثًا: ساهما في إنشاء جيل يحمل الراية بعدهما، هذا الجيل الذي بدأ في أواخر الخمسينيات من المعلمين الذين حفظوا القرآن الكريم في الكتاتيب التي زرعت النور في قلوب الصغار، فإذا بهذا النور يخرج إلى عالم الناس في قريتي بل في مصر كلها التي كانت تنهج هذا النهج في قراها ومدنها، هؤلاء التلاميذ كانوا من درّسوا لنا فأخذنا منهم وارتشفنا الأخلاق والتربية وتقديس التعليم، هؤلاء الذين خُطّوت معهم في بداية عمري أولى خطواتي في مشوار صعب، وكان لهم معي مواقف شتى، فمنهم من انتظر وترقب ماذا يفعل هذا الطفل، ومنهم من آمن أن هذا الطائر سيظهر رغم فقد الجناحين، ومنهم من كان ينظر نظرات ريبة في النجاح لكنهم جميعاً قد وجهوا لطريقي أعمدة النور التي في قلوبهم من قرآن حفظوه يوماً ما.

ستى آمنة وحسن الطويل

ما تمنيت في حياتي أن ألتقي بشخصية ممن رحلوا من عائلتي مثل هذه الشخصية، ستى آمنة جدتي لأبى، هذه السيدة التي اجتمعت فيها صفات قلما تجدها في سيدة. فصورتها توحى إليك بهيئة تطل من الوجه، وبعينين ترسلان شعوراً بالود، وبياض وجهها وبسمتها الخفيفة يدعوان إلى التفاؤل، وغطاء رأسها الأسود يدلّك على التزام فرضه دين وعرف وبیت من البيوت الكبيرة في هذا الزمان، فهي ابنة رجل من رجال

قومه وابنة عائلة «أبو مريم» وهى أكبر عائلة فى القرية، تزوجت من جدى لأبى التاجر الذى يعمل فى تجارة المواشى بيعاً وشراءً وارتحل إلى القاهرة بعد أن تزوجها وسكن منطقة إمبابة، ولأنه كان طويل القامة عريض الصدر - كما وصفه أبى - أطلق عليه لقب «حسن الطويل»، وكان ذا شهرة واسعة فى المكان، وكان من ينزل عليه من أقاربه فى إمبابة يرجع ليحكى كيف كان الكرم الذى لقيه من حسن الطويل وزوجته السيدة آمنة، حتى أن أحدهم - كما تحكى هذه الطرفة - لما أكل اللحم وشبع وعز عليه أن يترك ما بقى من اللحم وهو كثير فوضعه فى منديل ولف المنديل ودسه فى جيبه، حتى أصبحت طرفة مما يقال فى كرم حسن الطويل وآمنة مع من كان يأتى لزيارتها وخاصة من عائلة حسن التى كان معظمها من الفقراء.

وكانت آمنة ضمن عدة أخوات كلهن كن ميسورات الحال إلا واحدة وهى خضرة، التى ستشهد بعد ذلك لحظة ميلادى الصادمة فى الليلة الحاسمة. وظلت آمنة كلما رزقت بطفل إما يموت فى بطنها قبل أن يتخلق وإما بعد أن يشم ريح الحياة، يتركها ويرحل ويرحل معه الأمل فى ولد يحمل اسم أبيه. ولما ولد أبى سماه والده عبد السلام واختارت له أمه آمنة اسمًا يبعد عنه عين الحاسد فقالت «عباطة»، وكان والدى دائمًا ما يتندر بهذا الاسم عندما كان يذكر هذه الأيام، فكان لا يستطيع أحد أن يسميه أمامها باسمه الحقيقى بل باسمه الذى اختارته له لكى تحفظه من الحاسدين عل الله يكتب له الحياة بعد تجاربها القاسية مع أولاد رحلوا قبل أن تدب أقدامهم على أديم الأرض.

وشاء الله أن يكتب الحياة لولدها ووالدى الذى نشأ فى نعيم والد

ثرى وحياة مرفهة وأم تلف عليه مشاعرها التى انتظرتة طويلاً. وهكذا الحياة لا تدوم على حال ولا يستقر لها بال؛ فجأة سقط حسن الطويل ومات دون أن يشكو مرضاً، فكانت صدمة العمر لآمنة التى أصبحت الأب والأم لولدها الذى ترك فترة الصبا وفى أولى خطوات الشباب، فجمعت ماكان من ثروة زوجها الراحل وجاءت لتعيش فى القرية التى رحلت عنها مع زوجها، وها هى تعود إليها مرة أخرى ولكن وهى مسئولة عن شاب فى مقتبل العمر. ولما جاءت وكان لها حقها فى بيت أبيها فتركته للوارثين، وآثرت أن تعيش فى بيت مستقل مع ولدها وبها زوجها الراحل.

واستعانت ستى آمنة بابن أخيها أبو زيد، هذا الشاب الذى يعمل فى كل شىء، فكان يعمل مقاولاً ومزارعاً وتاجرًا، وقد عارك الحياة فعركها وعركته، لذلك اعتمدت عليه فاشتري لها بيتاً كان لرجل من الصالحين فى البلدة وهو الحاج قاسم الفلاح، هذا البيت الذى وصفنا موقعه عندما تحدثنا عن ساحة شجرة الجميز، وكان يبدأ باب كبير من الخشب كان يسمى بوابة، يليه صالة صغيرة تسمى الدهليز، على يمينها غرفة كبيرة وأمام الداخل من الباب غرفة أخرى كبيرة أيضاً، وعلى شمال هذه الغرفة مكان واسع فيه الفرن الذى يُخبز فيه الخبز، وهذا الفرن كان لا بد من وجوده فى كل بيت، وعلى اليمين على بعد خطوتين من الفرن تأخذك رجلاك إلى السلم الأرضى المبنى من الطوب اللبن كبقية البيت تصعد عليه، وبعد بضعة درجات تجد غرفة صغيرة على يمينك كانت تستخدم كمخزن لأهل البيت يضعون فيه حاجاتهم التى لها موعد فى التنفيذ والقضاء لم يحل بعد، وبعض الناس كانوا يستعملونها فى تخزين

اللبن ومنتجاته مما يفيض به الله عليهم من بين فرث ودم. ثم يسلمك السلم للسطح الذى ترى منه القرية من علٍ، وترى الأسطح كلها بنفس الشكل: الحطب الذى جفت عيدانه وبعض من الروث الذى جف ليكون وقودًا للفرن الذى يصنع روح الحياة وهو الخبز، وعلى كل سطح ترى صومعة عبارة عن بناية أسطوانية صغيرة كوعاء ملفوف ومجوف يوضع فيه القمح ومعه مادة تمنع التسوس ووصول الماء إليه، ولا ترى فرقًا فى جميع البيوت على امتداد البصر إلا بيوت قليلة بُنيت بالطوب الأحمر وبشكل مختلف، وكان أعلى السطح عندنا غرفة صغيرة كانت تسمى «المقعد».

هكذا كان البيت الذى اشتريته آمنًا لتعيش فيه هى وابنها الذى كان مسكنًا لهما، والذى أصبح بعد ذلك بيتًا يجمع أمًا وأبًا وثمانية أولاد وحياة فيها كل ما فى حياة البشر من مواقف وأحداث كنت فيها فاعلاً ومفعولاً به، كنت فيها شاهداً ومشهوداً كنت فيها أخاً وابنًا وصديقاً وستسرد الحكايات كل هذه الأحوال.

أنهى «عبد السلام» الابتدائية للتو، وبدأت المناقشات هل يكمل دراسته؟ أم هناك طريق آخر؟ وظلت آمنة تبحث مع وحيدها وهى ترقب العيون وهى تشكك فى قدرة هذا الولد الذى ولد بملعقة من ذهب فى فمه أن يعرك الحياة وأن ينجح فى اتخاذ قرار مع أمه التى لا تريد من الدنيا إلا أن يعيش سعيداً، وفجأة أخذ عبد السلام القرار. سأذهب إلى الجيش، وأصر على رأيه فكان ما أراد، هنا تحولت الأم إلى داعم له فى خطوة حياته ووقفت معه وقالت بلسان الحال والمقال: «ستنجح وستثبت للجميع أنك إنسان مسئول وسأفخر بك ولا تخف

من الإقدام»، ولعل هذا الموقف هو نفسه ما حدث معي في تجربة الحياة من عبد السلام أبى لأنه وعى الدرس عندما نجح وبنفس ألفاظ المقال ولسان الحال، وكأن الزمن كان يعيد نفسه لكن بتغير في الزمان والمكان والمواقف والأشخاص. وذهب عبد السلام ليقف في البرد القارس في الشتاء والحر الشديد في الصيف وحبات الرمل تلسع رجله العاريتين حيث كانوا يلبسون شورتاً قصيراً إلى الركبة، ونجح وأثبت للجميع أنه خرج عن الطوق - طوق أمه - بل أصبح مسئولاً عنها، وما رأيت أبى يتحدث عن أحد بهذا التكريم والتبجيل والاحترام والوفاء كما تحدث عن أمه، بل كانت عيناه كلما ذكرها تذرغان بالدموع ووجهه يكسوه الخشوع لهذه السيدة المثال.

وكان زواج عبد السلام يوماً من أيام حصاد رحلة آمنة الطويلة، حيث تركت له البيت راضية مرضية لكي يعيش حياته مع زوجته هانئاً وفي هئائه هناؤها وسعادتها، وصعدت إلى غرفة «المقعد» هي وصديقتها أسمهان التي كانت تلازمها ولا تتركها حتى إنها كانت تنام معها.. وكانت أسمهان التي توفيت في سنوات عمرى الأولى شديدة الطيبة والعطف، وأذكر من كلام أمى - رحمها الله - أن ستي آمنة كانت الأم الحانية التي أخذتها في صدرها وصارت لها بنتاً. وتحكى أمى كيف كانت هذه السيدة قوية وحانية في نفس الوقت، كيف تعلمت منها الحسم في الأمور وكيف تعلمت منها الاهتمام بالطفل ورعايته وكانت المرجع لها حين تستحيل عليها الأشياء أو يخرج زوجها عن حنانه المعهود فتلجأ لمن يعيد لها قلبه.. وولد في حياتها أخواى حسن عام 1962 الذى سماه أبى على اسم أبيه حتى يسعد أمه آمنة، ويأسر عام 1963، واستعدت بطن الأم لتحمل نطفة هذا المولود القادم.

وفي ليلة من ليالى ربيع عام 1964 اشتكت أم حسن من التعب الذى تعانيه فى القيام بولديها على الرغم من مساعدة جديهما لها، فقالت لها آمنة وكأنها كانت تنعى نفسها قائلة: «إذا كان كل ما لديك ولدان وأنا أساعدك فماذا تفعلين حينما يكونون ثلاثة أولاد وتكونين وحدك»، فأمسكت الأم برأسها وقبلتها وبكت على صدرها وراحت آمنة ترسل يدها على ظهر أمى كأنها تواسى قلبها لما سيأتى به القدر، وهل يستطيع أحد أن يوقف يد القدر، أن تعمل عملها..

بعد هذه الكلمات بعدة أيام، وقبل أن ترى عيني هذا المولود - الذى أشرف على النزول - نور الحياة، وقبل أن ترى عين قلبى هذا الحب النادر الواعى من هذه السيدة العظيمة ستى آمنة رحلت هذه الروح الجميلة، رحلت بعقلها الواعى وفطرتها السليمة النقية ووجهها الراقق وبسمتها الحانية، رحلت هذه السيدة جدتى التى ما تمنيت أن أرى إنساناً من أهل قرابتي أكثر منها، هذه الطيبة المؤمنة الراكعة الساجدة الواعية التى تركت أثراً عند كل من عرفها وعاشها، ولعل والدى فيه من هذه السيدة كل هذه الصفات التى اتصفت بها، لكن الفرق بينهما أن هذه السيدة كان لها ولد واحد أما ابنها فكان عنده جيش من البشر، وأن الزمان غير الزمان، وأن هذه السيدة لم يكن عندها مشكلة رضا كما عند ابنها عبد السلام.

كانت صورة ستى آمنة معلقة على الحائط، ومنذ وعيت ونشأت كنت أعرف أن هذه السيدة جدتى أم أبى، ولعل ما عرفته عنها وعن قوتها ودينها وأخلاقها وحنانها مع أمى وأبى ومع الناس جعلنى منذ صغرى أقدر هذه الصفات بل وأنظر إلى كل الكبار هذه النظرة، خاصة وأن العمر سترخر أيامه بمثل هؤلاء، ولعل هذه السيرة لهذه السيدة جعلتنى أيضاً أحس أن لى أهلاً ذو كرم وذو أدب جم وذو دين قويم.

صول فى سواحل السويس

كان «محمد مرسى» جدى لأمى من العائلة التى منها جدتى آمنة، عائلة «أبو مريم»، عمل فى حرس السواحل الذى كان يسمى حرس الحدود والمصايد والجمارك فى مدينة السويس، وكان عملاً شاقاً وخطيراً يتطلب نظافة اليد والحيلة والحذر، ويتطلب أيضاً أن يكون صاحبه فى أشد حالات الانتباه واليقظة.

وأخذ محمد مرسى يترقى من شاويش إلى أن وصل إلى رتبة صول وتزوج من «بهية»، وهو اسم على مسمى، بهية الشكل وبهية الخلق والخلق، وهذه شهادة لكل من رآها وعاصرها وعاشها، هى من نفس عائلته، حملت معه الحمل الثقيل، كانت تنتظره كل أسبوع وقد أدت ما عليها من قيام بالبيت والزرع والبهايم القليلة التى كانت مصدرًا لشىء من سعة الرزق.

ورزق الله محمد مرسى وبهية بمرسى، الولد الأول والوحيد بين خمس بنات كانت أمى أولهم بعد مرسى البكرى، وتلتها وفاء وفاطمة وباتعة وآخرهم نبيلة. وقد ولدت بهية عام 1925، وشاء القدر أن تحدث المأساة اختباراً لهذا الرجل ونكبة للصغار بأن ترحل بهية عام 1955 وهى فى سن الثلاثين من عمرها وتترك الرجل مع ستة أحمال بشرية ثقيلة وهو الذى يعمل فى بلد غير بلده، وليس هناك مكان لهم فى هذه البلاد البعيدة. ورحلت بهية وكان سن خالى البكرى أربعة عشر عاماً وسن أمى وقتها ثلاثة عشر عاماً والثلاثة الآخرون تتراوح أعمارهم من اثنى عشر عاماً حتى ثلاث سنوات، فلم يجد جدى إلا أخت بهية التى غادرها قطار الزواج الحاجة مبروكة التى يؤست من الزواج فخرجت للحج وهى

في سنها الصغيرة، وكانت قوية الشكيمة ذات شخصية مهابة لا ترضى بسهولة ولا تخلو شخصيتها من بعض ما يخاف المرء منه، فتزوجها عليها تكون عونًا وشيئًا من المواساة للملاك الراحل، وأخذها معه إلى بلاد غير بلادهم لم يألفوها، وظلوا هناك خمس سنوات ثم أنهى خدمته وجاء ليعمل تاجرًا حتى رحل في أوائل الستين من عمره.

توفي جدى هذا وأنا في العاشرة من عمري، لذا فصورته بوجهه المستبشر المبتسم مرسومة في ذهني بشاربه الكث وسماره النيل الذى يشير إلى أرض طيبة أخرجته وأنبتته ورعته، ولكن لا أنسى وجهه عندما يكسوه غلالة الحزن التى تبدل وجهه حزنًا وألمًا وغضبًا يظهر فى تنوءات وجهه فتستحيل مكفهرة ملتوية متجعدة، وإذا عيناه شاخصتان إلى أمى ينتظر منها جوابًا عما يلاقيه من أقرب الناس إليه فلا تجد أمى إلا كلمات رقيقة تواسيه بها.

وأذكر درسًا لا أنساه له - رحمه الله - حيث كان فى حائط من حوائط غرفة لنا دولاب بعمق نصف الحائط وعليه ضلفتان، وكان هذا إبداعًا للتحايل على المسكن الضيق بفتح فراغات فى الحائط لتكون مكانًا يستخدمه أهل البيت، ودخل أحد الأولاد كنا نعرفه وفتح هذا الدولاب وسرق منه مبلغًا كبيرًا فى وقته، فلم تستطع أمى - بعد أن تأكدنا أنه السارق - أن تواجهه، ودخل جدى فى هذا الوقت فأخذ يضرب كفيه وأقسم على أمى أن تأتى بالولد وقال لا بد أن يعاقب لأنه سارق، وجاء الولد وظل جدى وراءه على الرغم من أن هذا الولد أقام مسرحًا للتمثيل حتى يخرج من ورطة السرقة، إلا أنه هددته بأن هناك شهودًا على أنه سرق هذه القروش، فخارت قوى الولد واعترف. وهنا

كان الدرس الذى تعلمناه من هذا الرجل، عندما قال لنا جميعاً: لا تسمح لنفسك أن تأخذ ما ليس حقك حتى لا تقف موقف هذا الولد المهين، ولا تسمح أن تهين نفسك بالحرام أبداً وأن ما تأخذه من حقوق الناس يكون وبالأعلى عليك.

كان جدى صديقا لنا أنا وإخوتى جميعاً، وكانت أجمل لحظاته تلك التى يلعب فيها معنا، إضافة إلى معاملتى الخاصة عندما كانت أُمى تشكو له منى فى أخذنى بين ذراعيه ويقول لها: «هو أنتِ عندك زى رضا». وفى مرة لا أنساها طلبت منه طلباً غريباً أمام أُمى؛ قلت له: يا سيد - وكان هذا نداءنا له - «أريد أن ألبس الساعة». فنظر إلى وجهه يعلوه العجب، ولما سمعت أُمى كلامى اعترأها ما اعترى وجه جدى، ولكنه قال لى: «كيف يا رضا»، فمددت له يدى التى لا يزيد طولها على سنتيمترات قليلة وقلت: ساعتك بأبزین ويمكن أن تعلقها على يدى كما تعلقها على يدك، فعلا صوت أُمى، فهدأ روعها، ثم فتح ساعته التى كان الأستيك الخاص بها من القماش ووضعها على يدى ولفها عليها، ولما لم يجد ثقباً يضع فيه سن الأبزین ظل يضغط على السن حتى اخترق القماش، ولبست الساعة وحقق حلمى الصغير فى أن ألبس ساعة ولو للحظات كما يفعل بقية الناس، وكأنه كان يمهد لمن يأتى بعده أن اسمعوا لهذا الولد لعل أحلامه أن تتحقق يوماً..

وفى ليلة من ليالى الشتاء ذهب وعى جدى وراح فى غيبوبة ظلت معه حتى رحل، هذا الرجل الذى ترك فى حياتى ذكريات لا تنسى؛ من نظرة للأمل لا أنساها، هذه النظرة التى كنت أحسها عندما لا يفرق فى المعاملة بينى وبين أخوى حسن وياسر اللذين يكبرانى، ولا أنسى ضمته لجسدى

التحليل بين ذراعيه حين يلقاني، ولا نظرت له المؤملة عندما دخلت المدرسة وقوله لأُمى يطمئنهما:

«والله يابتنى هيكون حاجة كبيرة».. هذا وجه رجل لا يُنسى بأثر الزمن ولا يُمحى من ذاكرة الأيام عندى... رحمه الله.

وداد وأخواتها فى بلاد غريبة

«حرية» كان اسم أُمى - رحمها الله - الذى اختاره جدى لها، ولا أعرف لماذا سميت بهذا الاسم على الرغم من أنه لم يكن مما يسميه الناس كثيرًا، ولم أجد سببًا لذلك إلا وطنية هذا الرجل الذى كان يعبر بهذه التسمية لابنته عن شعور عام يسرى فى دماء كل المصريين بالحرية فى هذا الوقت، خاصة وأن ميلاد أُمى كان عام 1943، حيث كان كل المصريين فى هذا الوقت يتوقون للحرية قبل ثورة يوليو بما يقارب عشر سنين. ولعل ذلك الموقف يمثل دلالة من فئة من فئات المجتمع المصرى التى لم تعمل بالسياسة وحياتهم ليس فيها نهم الغنى والترف، ولكن مصر كانت تعيش داخلهم، لعل الاسم الذى اختاره جدى كان يشير إلى هذه المعانى.

ولكن المجتمع الذى عاشت فيه هذه البنت - التى جاء ترتيبها الثانية ضمن ستة من الأبناء؛ ولد واحد وخمس بنات - سبها وداد، وكانت هناك بالفعل، شحنة من الود تنطلق فى شخصية هذه البنت الصغيرة وهذه الشابة الجميلة وهذه الزوجة المسؤولة وهذه الأم الحانية فكانت اسمًا على مسمى فى جميع مراحل حياتها. عاشت أُمى مع أمها ثلاثة عشر عامًا، وكانت بشهادة كل من عاصروا أمها تشبها جمالًا فى الشكل وكمالًا فى الأدب وتمايًا فى الخلق.

ولما رحلت الأم وجاءت الحالة وحكم الزمن بالرحيل إلى بلاد بعيدة وإلى أناس لا يعرفونهم، كانت وداد هي التي حملت الحمل الثقيل.. كانت أمى تحكى هذه الصورة وقد اعترها الآسى والحزن؛ لقد كانت تحمل «نبيلة» آخر أخواتها التي كانت في سنواتها الأولى وتمسك «ببائعة» أختها قبل الأخيرة التي كانت تمشى ببطء وعلى رأسها ملابس العائلة كلها وتساعد أختها «وفاء» التي تصغرها ببضع سنين والتي حملت معها شيئاً من هذا الحمل، وتذهب إلى مكان معين لغسيل هذه الملابس وتأخذ دورها مع سيدات كبريات ثم لما يأتى دورها تترك أختها على الباب وتدخل لتبدأ رحلة الغسيل الشاقة، وتعود بعد كل هذا التعب لكي تنظف الغرفة الوحيدة الواسعة التي استلمها والدها من الحكومة وكانت تسمى مساكن الحكومة.

وظلت أمى على هذا الحال سنوات طويلة، لذا كان كل واحدة من خالاتى يعتبرنها الأم وخاصة الخالتان الأخيرتان. وبعد ما كبر الجميع وأصبح لكل منهن بيت وأولاد كانت هي الموئل الذى يستقبل الشكاوى من الجميع، فيحس من يأتياها منهم أنه قد أفرغ ما عنده من هم فيخرج وقد استراحت نفسه وهذا باله. وكنت أرى ذلك بنفسى وكنا نعجب منها عندما لا تواجه أحداً منهم بما يكون من خطأ وقع فيه تجاه الآخر، ولكن كان لها معهم طريقة فى الكلام الذى يجمع ولا يفرق، يلم الشعث ويوحد القلوب ويزرع الحب ويقتلع الحقد والكراهة، لذا كانت تحل كل مشاكلهم تحلها معهم بأن تهدئ الثورات وتزرع فى النفوس بكلماتها ثمار الصلح بينهم، وكثيراً ما يجمعهم بيتها، فكأن همّاً لم يكن وكأن حزناً لم يحل وكأن العُقد قد حلتها حروف الإخلاص وكلمات الود من صاحبة الود.. وداد.

كانت الفترة التي تلت وفاة أمها حتى تزوجت هي محتتها الكبرى، وكانت حوالى أربع سنوات طوال، حيث كانت مسئولة عن كل شيء حتى تزوجت، ولعلها كانت تدريباً عملياً لها بعد ذلك، حيث ستحمل إلى الدنيا عشر بطون وستعيش فيها حياة ليست كأى حياة، وستلد يوماً مولوداً يقال عنه ما لم تكن تتوقع أن تسمعه في حياتها لعل الأربع سنوات كانت تدريباً من القدر لما قد سيأتى بعد من قَدَر.

دقوا المزاهر...

منذ رأت عيني الحياة وأشخاصها ومواقفها وأحداثها في أواخر الستينيات، وأنا أرى المرأة في الريف - وخاصة في عمر أمى - التي لم تنل من التعليم شيئاً، وإن كان الاهتمام بتعليمهن قد زاد فيما تلا مع بداية السبعينيات. فالفصل الذى تعلمت فيه في المدرسة الابتدائية كان نصفه تقريباً من البنات، وكانت الأولى علينا دائماً هي واحدة منهن، وهذا ملمح مهم في التطور الاجتماعى للقرية التي نشأت وعشت فيها.

وكانت أمى دائماً تحثنا على المذاكرة والتحصيل الدراسى، وتحكى لنا كيف خرجت من المدرسة بعد وفاة والدتها قسراً على الرغم من حباها للمدرسة، ولكن في هذا الوقت لم تكن البنات ولا أهليهم ولا المجتمع يسمح لهن بمواصلة الدراسة وحتى لو كانت مجتهدة، وإذا حاولت أن تكمل دراستها تجد العوائق كثيرة؛ إما فقر لا يتيح لهن أن يتعلمن لضيق ذات اليد، فما يأتى به رب البيت يكفى بالكاد أن يعيشوا عيش الكفاف فمن أين يأتى بالمال لمن يتعلم؟ خاصة وأنه إذا تقدم في تعليمه لا بد له من مال كثير في ظل تعليم لم يكن مجانياً بعد فترة التعليم الإلزامى، وإما

جهل ينظر لتعليم البنت على أنه خطيئة وأن العار يلحق بمن يعلم بناتها، وأن البنت ليس لها إلا الزواج وإنجاب الأولاد والقيام عليهم، وأن شخصيتها لا بد أن تذوب في شخصية الزوج.

هذه كانت الصورة لتعليم البنات في بواكير عمر أُمى، لذا خرجت من المدرسة في أعوامها الأولى وبدأت رحلة معاناة طويلة بعد وفاة أمها مع أخواتها الصغار، ولما قاربت سن السادسة عشرة بدأ الكلام في خطوبة من أحد الأقارب لجدى، وفي الوقت نفسه كانت آمنة جدتى لأبى قد وضعت عينيها على هذه البنت التى تحمل فى وجهها براءةً وجمالاً وتبدو روحها طيبة وتبدو نفسها طيبة وهى ابنة محمد مرسى ابن عمها، فلما علمت ستى آمنة بمن يحوم حول حمى البيت ليخطب هذه البنت سارعت بمن يفتح الموضوع، وماهى إلا أيام قليلة حتى أعلن أن عبد السلام ابن حسن الطويل وآمنة قد خطبا وداد بنت محمد مرسى وبهية.

وكانت مراسم الخطوبة أن يذهب أهل العريس إلى بيت والد العروس ويطلب العريس أو والده أو كبير العائلة أمام الحضور - وعادةً مايكونون من أهل العروسين والمعارف والأصدقاء من الجانيين - يد العروس. وكان مَنْ طلب يد العروس من جدى هو أبو زيد ابن أخ ستى آمنة الذى كان المتحدث الرسمى باسمها فى هذا الوقت. ولما تمت الموافقة، علت الزغاريد فى أنحاء البيت ووزعت أكواب الشربات الأحمر الذى كان هو المشروب المفضل وقتها عند الجميع قبل أن تتطور هذه الأشكال ببذخ يُخرج الفرحة عن طبيعتها ويُخرج المناسبات السعيدة أحياناً عن كونها مناسبات لجمع أسرتين إلى مناسبات للفتاخر والإسراف والتبذل بينهما، وما يجره ذلك من تأكيد ليس على المبادئ والقيم ولكن على المظاهر الكاذبة والصور المزيفة.

تمت الخطوبة وأصبح والدى - رحمه الله - فردًا أصيلًا من هذه الأسرة، وأصبح أخًا لمرسى الأخ الأكبر والوحيد لأمى وأخواتها والذي كان سنه تسعة عشر عامًا، وكان أبى يكبره بخمسة أعوام، وأصبح هو الفاكهة لهذا البيت وخاصة الصغيرتين نبيلة وباتعة اللذين شارف عمرهما على ثمانى وتسع سنوات. وكانت أختها فاطمة التى تكبرهما شخصية مستقلة تعمل مع أبيها وتأتى ببعض البضاعة مما تحتاجه بعض الفلاحات والبنات وتتاجر فيها وتكسب أموالًا تساعد بها أباهما وتدخر لنفسها لعل العريس يطرق الباب يومًا، وفاطمة هذه كان القدر يحبها المهمة كبيرة فى حياتنا سوف تأتى فى مستقبل الأيام.

ويحكى الجميع عن هذه الفترة كيف كان أبى يهتم بهم جميعًا ويسعى فى قضاء المصالح الخاصة لهم، لكن كان هناك من لا يطيق أن يراه فى هذا البيت، إنها السيدة التى حلت محل أختها بهية جدتى لأمى التى ماتت فى الثلاثين من عمرها، لكن لماذا لا تطيقه؟ هذا السؤال سمعته كثيرًا من أمى بل رأيت بنفسى وأنا صغير وبعد ما كبرت هذه السيدة تحقد على أبى بكلمات تنز بالكره، ورأيت جدى - رحمه الله - ينهرها بل ضربها ذات مرة بعصا كان يمسك بها عندما ذكرت أبى بما لا يليق، ولا أجد إلى الآن سببًا لهذا الشعور السلبي من هذه السيدة - رحمها الله وغفر لها - إلا أنها كانت ترى الجميع يلتف بمشاعر الود والامتنان لهذا القادم الجديد إلى هذه الأسرة فملك الحسد قلبها وراحت تغذى نفسها بالحقده عليه دون أن تقف يومًا لتراجع هذه النفس، ومع ذلك لم أر أبى يبادلها هذه المشاعر أبدًا، بل كان دائمًا ما يلقى بحبل المودة لها، بل رأيته بنفسى يسعى بها عند طبيب ليعالجها، وفى الطريق عبرت له عن كرهها له! فهى للأسف أخذت مع نفسها قرارًا بالحقده عليه ولم تحدث نفسها يومًا بالرجوع.

ولأن يد القدر غالبة، فقد تزوج أبى وأمى، وكان الفرح كما الخطوبة، يتجمع فيه الأسرتان والأهل والأقارب من الجهتين، ويلبس العريس ثيابه التى تناسب شخصه، فإذا كان فلاحاً يلبس جلباباً وشالاً يضعه على كتفيه، وإذا كان أفندى مثل عبد السلام يلبس بدلة وكرافته أول الستينيات. ويبدأ الفرح بليلتها السابقة التى كانت تسمى ليلة الحنة، تتجهز فيها العروس بكل ما يلزمها، ويؤتى بالحنة لتوضع فى قبضة يدها وفى أصابعها وتضغط عليها لبعض الوقت. وكذلك العريس، يأتى المزين لكى يخلق شعره ويزين وجهه ويلقط الشعر الزائد فى وجهه لكى يزيده جمالاً، ويتجمع معه أصدقاؤه، وتكون ليلة من ليالى العمر لا تُنسى وتظل محفورة فى ذكرى الأيام.

وفى اليوم التالى، يأتى مأذون القرية، وكان فى هذا الوقت الشيخ «محمد القاضى»، وبدخوله يقف الغناء ويصمت الجميع إلا من همهمات قليلة، وتتوجه جميع الوجوه إلى حيث يجلس المأذون ويجلس على يمينه أبو الزوجة وهو هنا جدى وعلى يساره العريس ويكون فى جيبه منديل - عادةً ما يكون أبيض - ويسلمه للمأذون، ويضع العريس يمينه فى يمين والد العروس ويضع المأذون المنديل على هذه المصافحة المعلنة لإنشاء أسرة جديدة بين الاثنين، ويعلن أمام جميع الحضور الإيجاب والقبول ليكون عبد السلام زوجاً حرة المعروفة بين الناس باسم وداد.

وتنطلق الأغاني والزغاريد، ويذهب عبد السلام إلى أمه ليقبل يدها ويذهب محمد مرسى إلى ابنته وهو يغالب دمعته، فإذا هى ترمى نفسها على صدره فيقبل رأسها فى اللحظة التى أمسكت فيها يديه لتعبر بالقبلات عن امتنان بنت لأب رحيم.

وتدخل وداد بيتها الجديد على جهاز العروس الذى كان غاية فى البساطة وغاية فى الرضا لهذا الوقت، فهو سرير ودولاب رأيتهما فى بداية عمري، وفرش كان عبارة عن نوع من السجاد اليدوى يطلق عليه «الحَمْل» كان يوضع على الأرض التى كانت عليها طبقة من الأسمنت المبلط، أى الذى ينعمه ويسويه من يضعه على الأرض. وكان فى البيت الفرن الذى كان يملأ بالخطب حتى يشتعل ثم يوضع فيه العجين بعد أن تهدده المرأة على قطعة من الخشب تسمى «الطَّرَاحَة» حتى تفرده ثم تلقى به فى عين الفرن أو فى عين المحمة كما كانوا يسمونها، فيخرج الرغيف بشكله المبهر الجميل للأكلين بالهناء والشفاء. وكان بجانب الفرن يوجد حائطان صغيران لا يزيد الواحد منهما على نصف متر يلقى بينهما بالخشب والخطب ثم يوقد فيه النار وكان يسمى «المنقد» أو «الكانون» وهذا كان أحد ما يُعد للعروس لكى تنجز مهامها فى إعداد الطعام خاصة ما يحتاج إلى نار قوية كاللحوم التى كانت نادرة على موائد الناس فى هذا الوقت. ذلك إضافة إلى «وابور الجاز» الذى كان بثلاثة أعمدة ومخزن يوضع فيه الجاز وطربوش تخرج منه النار بعد أن يُضرب الكباس ليدفع الجاز إلى أعلى فتلقطه النار ويظل كذلك حتى يطهو كل ما تريده من طعام وشراب. هكذا كان جهاز أُمى عندما بدأت حياتها فى أول الستينيات.

وفى يوم الصباحية أى اليوم الذى يلى يوم الزواج تأتى النساء للمجاملة فتحمل كل منهن صينية عليها مجموعة من الفطائر المعمولة من السمن البلدى، فتجد العروس أمامها الكثير من هذه الفطائر، فتهدى بها حماتها وجيرانها وأسرتها لتأليف القلوب. وتضع العروس بعضا من الكعك والبسكويت الذى صُنع خصيصاً لهذه المناسبة فى كل صينية حُملت إليها

تعبيراً عن الشكر وردّاً للمجاملة بشكل غاية في البساطة وبعيداً عن التكلف.

هكذا بدأت الحياة في هذا البيت الذى جمع سيدة البيت آمنة التى أخذت صديقتها أسمهان وصعدتا إلى غرفة المقعد لتعيشا فيها، وهى راضية بما قدمته لابنها داعية له أن يوفقه الله في حياته الجديدة. وهى مرحلة جديدة من مراحل حياة عبد السلام تبدأ مع زوجته الشابة التى ستحمل معه أعباء حياة سيكون فيها ما في الحياة من شتى أنواع المواقف التى يعيشها البشر، من فرح وحزن، من ضيق وسعة، مع أولادهم زينة الحياة الدنيا وفتنتها، فماذا يا ترى سيكون مستقبل الأيام في هذا البيت الجديد؟

حسن وياسر

مرت الأيام الأولى من الزواج وقد امتلأ البيت فرحاً وسعادة بكل المهنيين من العائلتين ومن أصدقاء ومحبي العروسين، والعادة أن المهنيين يهدون العريس والعروس هدية مالية مبلغاً، من المال حسب استطاعة المهدى ويسمى «النقطة»، وكان في هذا الوقت بضعة جنيهات. وتساعد هذه النقطة في سد ما يكون من ديون الفرح والجهاز، وهذا لون من ألوان التكافل الاجتماعى موجود في القرى عموماً وبين الأهل والأصدقاء. وكان لأبى مجموعة من الأصدقاء الذين كانوا مثلاً في الأخوة والصداقة، وكانت أمه تعتبرهم أبناءها، واستمرت صداقتهم له حتى رحل عن الدنيا، وكانوا جميعاً قد حصلوا على مدرسة المعلمين وأصبحوا مدرسين في مدرسة البلد الابتدائية، وكان لهم في جميع النفوس احتراماً وتبجيلاً، وكذلك كان المعلم في هذا الزمان.

وبعد فترة لم تطل، بدأت أعراض الحمل تظهر على العروس التى لم يمر على زواجها شهران تقريباً، فامتلاً البيتان فرحاً، بيت آمنة وبيت محمد مرسى، فهذا أول مولود سيولد لهما وها هو يتخلق فى بطن أمه، فاحتضنت آمنة زوجة ولدها الوحيد وراحت تغذيها بكل أنواع الغذاء روحياً ونفسياً وجسدياً كما تفعل الأمهات الحكيمات للمحافظة على جنينها وهو يخطو خطوات حياته الأولى فى ظلام الرحم، ونزلت من المقعد لتساعدها فى أعمال البيت وهى لا تكاد تصدق نفسها، ها هو ابنها الذى جاء بعد أن حُرمت كثيراً من أن يعيش لها ولد قد حفظه الله وكبر وتزوج، وها هى ستعيش لحظة أن ترى له مولوداً من صلبه.. وتمر الشهور وتأتى اللحظات الحاسمة حيث يقضى الله بأن تخرج روح من روح وينزل جسد إنسان كامل من بطن أم تصرخ، لكن الصراخ يحمل فرحة لا يحسها إلا قلبها، تترجى لهذا المولود أن ينعم بنور الحياة، وإن كان ضعيفاً إلا أنه آية فى تكوينه الإنسانى وآية فى إبداع الخلق من رب الرحمة الرحمن الرحيم.

ولد المولود الأول على يد الداية التى كانت أختاً لآمنة، ستى «خضرة» ومعها زوجة ابنها «دولت» التى كانت تساعدها فى عملية الولادة، وكانت ستى خضرة ودولت خبيرتين بموضوع الولادة، حيث كانت تكشف على الأم وترى بحساسية يدها إن كانت الرأس - أى رأس المولود - فى الحوض أى متجهة وجاهزة للنزول، وكانوا يسمونها إذا كانت كذلك «الراس طشة»، أما إذا كانت غير ذلك فإنها تبلغ أهل الأم أن يرسلونها لطبيب. وفى حالتنا كانت «الراس طشة» والأمر جاهز وماهى إلا ساعات قليلة حتى سُمع بكاء الطفل ليعلن الفرحة والسعادة

في هذا البيت، وتأخذه ستي خضرة وتمسح ما عليه من دم وتسمى الله «بسم الله ما شاء الله». ولأنها تعرف قيمة هذا المولود عند أختها وأنها كانت تنتظر هذه اللحظة فقد سمّت الله ووضعته على يد آمنة التي سمّت الله، وكانت هذه العادة عند جميع النساء في حمل الأطفال، فقالت «بسم الله» وحملت وحضنت جسمه الصغير، فهذا ابن وليدها، وفكرت في جده حسن الطويل الذي كانت تتمنى أن يشهد هذه اللحظة.

ودخل عبد السلام وقد امتلأت الغرفة فرحًا وسعادة، فقبل رأس زوجته وربت على كتفيها وهنأها وقبل رأس أمه ورفعت أمه، إليه ولده البكرى الذي نزل توًا من رحم زوجته ليعلن قيام سلسلة نسل عبد السلام. ولأن عبد السلام كان عاشقًا لوالده الذي رحل في بواكير عمره، ولأنه يعلم أمنية أمه، فقد أعلن أمام الجميع في هذه الغرفة اسم المولود الأول على اسم جده عليه يعيش كما كان جده خلقًا ودينًا وهيبة، اسمه حسن، إذاً هو حسن عبد السلام حسن في عائلة جديدة برب للعائلة جديد في رعاية وحفظ أمانة الرشيدة الحكيمة..

ومرت الأيام مع المولود الجديد بتجارب تتعلمها الأم لأول مرة، تساعد أمانة وتحمل عنها كثيرًا مما تعانى. وبعد حوالى شهرين، بدأت بطن أم حسن تعلن عن تخليق جنين جديد وحسن مازال يرضع من لبن أمه، وزادت الأعباء على الأم التي لم تتم بعد العشرين عامًا، فهي تقوم بواجبات زوجها وبأعمال بيتها وبكونها أمًا لطفل في فترة المهد، وها هي بطنها تعلو لتعلن عن قرب وafd جديد، وها هو الوafd قد حل، المولود الثانى في عائلة عبد السلام، وجه أبيض كوجه أبيه وأمّه لكن يميل في الشبه إلى أبيه. وقد أثبتت الأيام أن هذا المولود قد ورث شكلاً وموضوعاً

وأخلاقاً ودينًا من أبيه الذى سماه ياسر بينما كانت أسرة أمه تريد له اسمًا آخر، ولكن أباه أصر على اسم ياسر تيمنا بالصحابى الجليل «ياسر أبو عمار بن ياسر». وها هى الأعباء قد زادت على الأم الشابة ولكن ما أجمل هذه الأعباء رغم التعب عندما تنظر فى وجه حسن أو تداعب أصابع ياسر، فيضىء وجه هذا بضحكة طفولية بريئة تزيل الهم وتذهب التعب ويضغط ذاك بكفه على كف أمه وكأنه يرد لها شكرًا واجبًا عليه.

موت آمنة

الحياة مع الكبار دروس لا تُنسى على مدى العمر طال أو قصر، والرحيق الخالص الذى نرتشفه من فيض الحكمة التى تجسدها أفعالهم أو تنطق بها ألسنتهم هو ترياق الحياة لمن أراد أن يحيا كريمًا عزيز النفس لا تصدمه نزغات الشر ولا تضربه صدمات المحن ولكن يبقى صامدًا أمام عوادى الليالى والأيام..

كانت ستى آمنة من هؤلاء الكبار، فقد اتصفت بصفات يتصف بها كل عزيز أراد أن يحيا فطرته السليمة وعقله الواعى وقلبه الحى وشعوره المرهف، هذه السيدة التى عاشت طفولتها وبداية الصبا والشباب مُنعمَةً ثم تزوجت لتصبح فى ظل رجل حافظت عليه وعلى ماله، واختبرها الله بالحرمان من الأولاد الذين كانوا ينزلون من بطنها ضيوفًا لأيام ثم يرحلون وهى صابرة تشش بالورع وتتوسل بالدعاء، إلى أن شاء القدر أن يكون لها ولد وأن يكبر على عينيها وأن تفسح له ما بين القلب والعقل مكانًا فتحبه بقلبها وتربيه بعقلها، حتى شب عن الطوق رجلًا مسئولًا يحمل على يديه مدفعًا فى جيش بلده ويحمل على كتفيه مستقبلًا لأولاده

الذين هم على صفحات غيب لم يحن أوانه بعد. وهامى قد تمت فرحتها واكتملت سعادتها وصفت نفسها وعلت روحها بحسن وياسر حفيديها من حبة عينها عبد السلام، وكأن الله أراد أن يطمئنها قبل أن ترحل على ولدها الوحيد.

وفي ليلة من ليالى الشتاء كانت آمنة فى غرفتها وكان معها حسن الصغير وهى تداعبه، وتدخل وداد عليها تشتكى تعباً ومعها الابن الثانى ياسر وهى حامل فى جنين يتخلق فى بطنها وتشكو لها كثرة الأعباء، فقالت لها: كيف الحال عندما يكون الأولاد ثلاثة وتكونين وحدك فبكت وداد وارتمت على صدرها وأخذت تدعو لها بطول العمر. ولكن شاء الله بالرحيل وقضى الأمر، وماهى إلا أيام حتى انتقلت آمنة إلى العالم الآخر تاركة تاريخاً لسيدة قوية صلبة علمت ابنها وزوجه، وتركت كذلك صفات للمرأة المثل سواء فى بيت أبيها أو فى بيت زوجها أو فى بيت ابنها الوحيد مع زوجه، لتكون ومضات تضىء طريق السائرين. ولو أن هذا المجتمع كان يتيح للمرأة أن تتعلم وأن تأخذ دورها فى الحياة لكان لهذه السيدة شأن آخر..

كان موت آمنة علامة فارقة لعبد السلام وزوجه؛ هل سينجح فى مقبيل الحياة أم أنه سيسقط فى وهدة الأحداث، وبخاصة أن القدر نجى لهما مفاجأة تذهل العقل ويطيش معها الوعى فى هذا المولود القادم بعد حسن وياسر الذين نزل كل منهم فى حلبة الحياة سليم الأعضاء كاملها، وهكذا كل طفل يولد فهل يتصور العقل غير ذلك، وماذا يكون الحال لو حدث ونزل على شكل غير شكل أخويه؟

وماهى إلا أوجاع الأيام الأخيرة التى تسبق النزول إلى ساحات الدنيا والكل ينتظر ماذا يحمل الغد للمولود الجديد؟

الفصل الثانى

ليلة ميلاد الصدمة

الداية والضوء الخافت

سمعت روايات كثيرة لمن شهدوا هذه الليلة.. ليلة ميلاد الصدمة التى نزلت فيها إلى الدنيا نزولاً أثار العجب لهذا الشكل غير المعهود، وأستطيع أن أصف ما حدث كأننا نشاهده لحظة بلحظة، ولعل التفاصيل هنا تعطى إشارات ولمحات وصورة كاملة لما حدث من مواقف وما كان من مشاعر ولحظات الثبات ولحظات الخور التى تنتاب الإنسان وقتما يفجؤه الحدث أو تنتابه لحظات صعبة أو يحدث أمامه ما لم يكن يتوقعه.

وأبدأ هنا بالغرفة التى كان معلق فى جانب منها اللبنة البنور نمرّة عشرة، تلك التى يتخلل نورها بين ظلام الغرفة فيبدو النور حولها قوياً وخافتاً فى جنبات الغرفة الأخرى حيث تجلس الداية «ستى خضرة»، هذه العجوز التى يبدو فى وجهها رضا وفى كلماتها طيبة مصحوبة فى نفس اللحظة، بيدها تحنو على من تكلمه، أقول هذا الكلام عنها لأنى عاصرتها بعدما كبرت وصرت طفلاً ورأيت هذا بعينى قبل أن ترحل.

وأستطيع أن أصف ما حدث في هذه الليلة من هذه السيدة الطيبة الوقور ومعها مساعدتها «دولت» التي شربت من معين طبيبتها ومن إناء خبرتها؛ فأصبحت معها في كل ولادة تتعلم وتتقن وتجرب حتى أصبحت خبيرة بهذا الفن، فن إخراج إنسان من إنسان آخر على سُنَّة الخالق المبدع، الله سبحانه. وفي الغرفة أيضًا بعض النسوة الأقارب لأمي منهم الحاجة مبروكة خالتها وزوجة أبيها. وأخذت أمي تمشي في الغرفة واضعة يدها أسفل ظهرها ومقدمة بطنها بما تحمله أمامها، وقد ارتسمت على وجهها علامات الألم ونزغات الوجع الذي تعبر عنه بصك أسنانها ببطء وتدعو بين الفينة والأخرى «يارب يارب»، وجميع من في الغرفة يعبر عن التضامن معها بكلمة مطمئنة أو بيسمة أمل ونظرة تشجيع تخرجها من جو الألم، أو تقوم إحداهن وتمسك يدها وتمشي بها في الغرفة، أو تحكى الداية عن فلانة التي لم تحس أبدًا بالولادة وأنها ومولودها الآن في أحسن حال هي ومن ولدت، فتبعث برسالة اطمئنان إلى قلب الأم التي تنتظر نفس اللحظات الصعبة.

وخارج الغرفة، في ساحة البيت الصغيرة أو ما يسمى بالدهليز، تتجمع الخالات تحملن حسن وياسر، حسن عمره ستان وياسر عمره سنة، يجلس معهم الأب الذي يأكله القلق، ليس أمامه إلا التسبيح لله سبحانه وتعالى كي يثبت القلب ويهدئ النفس ويكبح جماح القلق وقام يتوضأ وصلى ركعتين وجلس جلسته ينتظر ماذا يأتي به القدر، وإن كانت الولادتان السابقتان في منتهى السهولة علَّ هذه الولادة تكون كذلك، وأخذ يطمئن نفسه بهذه الخواطر التي تزور باله في هذا الوقت.

لحظات الصدمة الأولى

عندما اشتد وجع الولادة بدأت الأم تخرج أنفاسها بعد أن تملأ بها

صدرها ثم تدفعها لتدفع به المولود وكأنها تدفع ثقلاً من أعلى إلى أسفل، وأخذت الداية تشجعها وتشد أزرها بكلمات معهودة في هذه اللحظات مثل «قولى يارب». وامرأتان كل واحدة منهما تمسك يداً والأم تحاول أن تدفع، وفي نفس شديد وصرخة متمكنة تدفع المولود إلى أسفل كأنه أمر يرفع عنها كل هذا الألم وكل هذا العناء بفرحة النزول. وها هو ينزل على يدي الداية، وجميع العيون في الغرفة ترقب اللحظة الأولى لهذا القادم الجديد، فمنهن من ترى من قريب كالداية ومساعدتها، ومنهن من ترى من بعيد كاللاتى يمسكن يدي الأم ومن كانت تجهز المياه للأم بعد الولادة، وعيونهم تترقب لحظة النزول والأم تنتظر أن ترى مولودها الجديد.

وفي هذه اللحظة سكّت الجميع وخيم وجوم وصمت مطبق وفتحت الأفواه جميعاً، ولم يشق جدار هذا الصمت إلا صراخ المولود يعلن عن حياة له على الأرض أصبحت، عن قدرة على التعبير يظهرها صوته الصارخ في فضاء الغرفة. وبعد لحظات قليلة خرجت من فم الداية - بعد أن تماسكت وثبتت - البسملة وأخذت تردد: «بسم الله ماشاء الله»، ولما وجدت الوجوه الحاضرة قد أجمتها صورة المولود نظرت نظرات فيها غضب لكل الحاضرات. ولما رأت الأم كل من في الغرفة قد التزم الصمت وعلى وجوههن نظرة العجب، وبدأت هذه الوجوه في نفس هذه اللحظات ترسل لها نظرات المواساة وكأننا في مهمة عزاء وليس في فرحة ولادة. وفي لحظة صاعقة شديدة انطلق صوت صراخ من الحاجة مبروكة، وكأن المولود قد مات فنهرتها الداية وطردتها من الغرفة.

ماذا يحدث؟... تتساءل الأم - في تعجب - إذا كان صوت المولود

يملاً أنحاء الغرفة إذاً فهو حى فلماذا إذاً تصرخ خالتها الحاجة مبروكة؟ ولماذا تطردها الداية؟ ولماذا هذه النظرات الحزينة؟ وأين الفرحة الواجبة فى هذه اللحظات؟ وسألت الداية ومساعدتها ماذا حدث؟ فطمأنتها وقالت إنه مولود جميل فطلبت الأم أن ترى المولود.. فترددت الداية الحكيمة ومساعدتها التى ربت على كتف الأم وأخذت تقسم لها أنه بصحة جيدة وأن وجهه يدل على أنه مثل أخويه حسن وياسر فلم تطمئن الأم، هنا حملت الداية المولود وأعطته لأمه ووضعت مساعدتها ذراعها من خلف الأم كى تعتدل فى جلستها حتى تستطيع أن تحمل وليدها. وكانت الداية قد لفت المولود بلفائف كعادة أهل الريف بحيث لا يظهر منه إلا وجهه، ونظرت الأم إلى وليدها الذى نزل تواء وأحدث كل هذا الصمت فرأت وجهه وجه طفل أبيض الشكل كأخويه مكتمل أعضاء الوجه ويصرخ صراخ المولود تواء، ثم رفعت لفافة من اللفافات فظهر جزء من بطنه، مازالت الأمور تسير سيرها العادى، ثم رفعت لفافة أخرى لتجد المفاجأة المذهلة وصورة الصدمة.

أين يده؟ أين كفه الذى ينتهى بأصابع؟ أين ذراعه؟ ما هذا؟ كل هذه الأسئلة وردت على بالها فى نفس اللحظة، لكن أعاد لها الأمل أنه يتحرك وأن شكله هو شكل إنسان طبيعى وأن صوت صراخه يملأ أنحاء الغرفة فأعادت النظر والفحص مرة أخرى، ورفعت اللفافة التى تحيط بصدر المولود فوجدت الذراع اليمنى عبارة عن قطعة من اللحم تتحرك بإرادة المولود، طولها لا يتعدى بضع سنتيمترات قليلة تنتهى بثلاثة أصابع تتحرك مع تحرك الذراع القصيرة، وفى الذراع الشمال نفس هذا الوصف، إلا أن هناك أصبعين وليست ثلاثة. فنظرت الأم الملتاعة

إلى وجه الداية ومساعدتها وكل من في الغرفة وكأنها تسأل؟ ما هذا؟ فرد الجميع بالصمت، ولم يستطع أحد أن ينظر إلى الأم في هذا الموقف العصيب، وأصبحت جميع الوجوه في الغرفة حائرة ينظر بعضهم إلى بعض ويهرب من لقاء وجه الأم الذاهلة حتى لا تبكى من هول ما رأت فهي لم تستوعب الشكل، ولا تريد أن تصدق بل تتمنى أن لو كان حلمًا وستفيق منه بعد قليل، فبرغم أنها توثقت بعينيها لكنها مازالت في وقع حدث لم تعمل له حسابًا ولا خطر لها في يوم على بال، والداية ومساعدتها تواصلتا عملهما في تجهيز أمور ما بعد الولادة الخاصة بالأم والمولود.. ومرت هذه اللحظات قاسية على الأم التي كانت قد أعدت نفسها لاستقبال مولودها الثالث الذى يشعل فتيل الفرحه بعد أن انطفأت بموت آمنة سيدة البيت وعمود الخيمة فيه، وها هي تتمنى وجودها في هذه اللحظة بحكمتها وخبرتها.. لكن هل يستطيع زوجها ابن آمنة ووالد هذا المولود أن يكون بديلاً عنها أو تلميذًا في مدرسة الأم آمنة.

ثبات أب...

حكى لى أبى هذا الموقف بكل تفاصيله وكيف كان الموقف صعبًا، لكن في الوقت نفسه حكى لى كيف يحمى الإيوان صاحبه، وماذا يفعل الثبات في المواقف الحرجة في نفوس من يعيشون الحدث، ومن يكون واجبًا عليك أن ترفعهم من وهدة اليأس وتنقذهم من سقوط الفكر والعقل وترغبهم في تلك اللحظة في رحمة الله الواسعة حتى ولو كنت مهمومًا مصدومًا..

عندما صرخت الحاجة مبروكة صرختها داخل الغرفة أحس الأب أن

شيئاً ما ليس طبيعياً حدث بالداخل، وهو على الباب يسمع بكاء الطفل وصراخه إذاً فالأم قد أصابها شيء، ولكنه يسمع همهمات الأم ثم سمع كلامها وهي تسأل الداية: ماذا حدث؟ ولكنه لم يستطع أن يتنظر فإذا بالحاجة مبروكة تخرج من الباب وكأنها تهرب ممن يلاحقها فتهيب أن يسألها لأن شكلها يوحى بشيء ما غير سعيد بالداخل، فاستجمع قوته وضرب الباب بيده ودخل.

رأى عبد السلام خالته خضرة الداية، هذه السيدة الحكيمة الطيبة، سيدة الموقف، ثم نظر إلى زوجته الوالدة فقرأ الذهول مكتوباً على صفحة وجهها، ورأى الحيرة وقد تملكت كل الحاضرين، ثم أرسل عينيه إلى المولود الذى يخرج صوته مكتوماً بعد أن كان منطلقاً، وكأنه كان يرى كيف كان الاستقبال له فَبَدَّى ذلك فى صوته المكتوم، سأل بصوت متهدج ماذا حدث؟ لتجيبه الداية وسط صمت الجميع: ولد هاتسميه إيه؟.. فنظر إليها نظرة المستفهم عما يرى أمامه من ذهول وحيرة فأمسكت بالمولود ووضعتة على يديه، وما أن حملت يداها الولد حتى أحس بشيء ما من الأمان والسكينة قد حلت فى أنحاء نفسه، لكنه فى نفس الوقت أحس بأن شيئاً ما مختلفاً فى هذا الولد، هنا سأل الداية، فلم تستطع أن تجيبه، فرفع اللفافات فوجد ما رأت زوجته منذ قليل.

هنا ثبت الأب ثباتاً يقول هو عنه لم أعرف من أين جاءنى هذا الثبات، فقام بطبع قبلة على جبين هذا الطفل ثم ضمه إلى صدره وسلمه إلى زوجته التى اقترب منها وقبّل جبينها وربت على كتفيها وأفسح مكاناً لنفسه بجوارها وراح يمحطها بوابل الأمن والسكينة والثبات، وقال لها أمام الجميع ممن كانوا فى الغرفة بوجوههم الحائرة: «الله الذى خلقه

والله هو الذى يوفقه فى حياته، لا تخافى.. فى هذه اللحظة بكت الأم فأمسك بها وأخذها فى صدره وأخذ يربت على كتفيها ويطمئننها، وتحول جميع من فى الغرفة إلى جانب الزوج، تحاول كل منهن أن تدلى بدلوها فى زرع الأمل بقلب الأم بعد أن رأوا أمامهم قوة الأب وثباته. ثم قام الأب والطفل على يديه فمشى به فى الغرفة وهو ينظر إليه ثم وضعه بنفسه بجانب أمه وترك الغرفة وذهب مباشرة إلى المسجد الذى يقابل البيت.

أراد عبد السلام أن يخلو بنفسه وبربه فى هذه اللحظات الصعبة، فتوضأ ثم دخل إلى ساحة المسجد ووقف يجهز نفسه للصلاة، ونوى أن يصلى ركعتين عليهما يرفعان عنه ما أهمه مما رأى وعاین من مفاجأة ثبته الله فيها أمام الناس، لكن رغم ذلك فهو يحتاج إلى قوة يعلم يقينا أنها هنا فى المسجد وفى هاتين الركعتين اللتين يعلم أنهما لرفع الهم والحزن، ورفع يديه إلى أذنيه يدفع بهما نزغات النفس وأوهام الشيطان وكبر «الله أكبر» ودخل فى الصلاة. وأثناء سجوده جادت عينا الأب المكلوم بدمع دافئ، فراح يبكى على أعتاب رحمة الله، وانطلق لسانه بهذه الكلمات: «يارب أنت خلقت هذه الصورة وأنت الذى بيدك أمره فأعنه وساعده وأعنا وساعدنا يارب».. وظل يردد ويدعو «يارب يارب» عدة مرات، وهو كان ينطق بالكلمات يستدعى شكل الطفل أمامه وهو ساجد حتى انتهى من الركعتين.. وبعد أن سلم عن اليمين وعن الشمال أحس بهدوء قد اعتراه وسكينة قد ملكت عليه كيانه وكأن الرسالة قد وصلت وكأن الركعتين قد آتتا أكلهما، فخرج من المسجد بغير الشكل الذى دخل به.

ها هو عبد السلام يدخل إلى البيت ومازالت آثار الصدمة مطبوعة على وجه كل من فيه حتى الأطفال الصغار. فدخل على زوجته ومن معها

في الغرفة وقد رسم على وجهه بسمه وفرحة وتفاؤلاً، كان ذلك واضحاً في قسماته التي أضاءت بفعل الركعتين، وأقسم أمام الجميع أنه على يقين أن الله سوف يعينه.. وضرب لهم مثلاً بطه حسين الذي كان قد سمع عنه، هذا الذي كان أعمى ومع ذلك كان وزيراً وكان أديباً كبيراً، وأخذ يتكلم والكل ينظر إليه في حالة الذهول التي مازالت حاضرة، لم ينبج منها إلا الداية ستي خضرة التي أنهت عملها، وها هي تغادر المكان بعد أن أنهت مهمتها التي لم تشاهد مثلها في حياتها، وربت في حنان وود على كتف الأم، وأخذت ابن أختها عبد السلام في يدها وخرجت به خارج البيت وأخذت تمل عليه ما يفعله مع زوجته في هذه الأيام الأولى وألا يتركها وحدها وأن يساعدها في كيفية التعامل مع الطفل وأن يقويها في هذه المحنة وأن يتفقا على كل ما يلزم هذا الطفل في شئونه، وأمسكت بيده بقوة وعيناها في عينيه وكأنها تقول له أثبت وكن رجلاً وودعته وذهبت.

اسمه رضا...

في هذه الأثناء بدأ الأمر يشيع، وبدأت الألسنة تتحدث عن هذه الولادة الغريبة وهذا الطفل الذي ولد بهذا الشكل الذي لم يُعهد له مثيل من قبل. بدأت ردود الفعل بالشارع الذي كنا نساكن فيه، فجاءت النساء لتطمئن على الأم ولترى هذا المولود الذي أحدث هذه الضجة، وكانت الأم لا تسمح لمن يأتي لزيارتها برؤية مولودها، بل كانت لا تسمح لواحدة منهن أن تقترب منها.. وتحكى - رحمها الله - وتقول: «كنت أحس أن منهن من جاءت لترى وتشاهد، ومن جاءت للزيارة والاطمئنان». وتحولت وداد بحيث أصبحت كالقطة التي لا تسمح لأحد أن يقرب ولدها، وأما

صاحباتها اللاتي كانت تربطها بهن علاقات حب وصداقة فكانت تفتح لهن قلبها وتبث لهن ما تعاني من ألم وما ألم بها من حزن وخوفها على مستقبل هذا المولود الجديد. وكانت صاحباتها ينقلن لها ما كان يحدث بالخارج وما يشاع في القرية.

وكان هذا الحدث في 20 يولية عام 1964 في قرية من قرى مصر، حيث كانت الخرافة هي المسيطرة على عقول الناس في ذلك الوقت، كالجنية التي تخرج من التربة وتكلم الفلاحين بالليل وهم يروون أرضهم، وادعى أحدهم أنه رآها تمشط شعرها على شاطئ هذه التربة وأنها كانت تراوده عن نفسه، والعفاريات التي تخرج بالليل، فدخل المولود الجديد في هذا الفضاء كمادة للخرافة! وأشيع بأن زوجة عبد السلام قد أنجبت ولدًا بلا يدين ولا رجلين!!! ومن قال إنه ليس إنسانًا وإنهم لا يعرفون كيف يتعاملون معه، ومن قال إن أمه لا تريده وتتمنى أن يموت، وأنها ترفض أن تقترب منه وأنها ستتركه حتى يموت وحده، ومنهم من تزيد وقال أنها ولدت ولدًا أشبه بالإنسان لكنه ليس إنسانًا.. كانت هذه الأقوال والشائعات التي يتناقلها الناس تنتهي إلى سمع الأم عن طريق صاحباتها وجيرانها المخلصين. وكانت امرأة معينة من القرية هي التي تشيع معظم هذا الكلام، بل وتجلس مع الناس لتردد هذه الشائعات التي تكذبها حقيقة الطفل.

وتحكي أمي التي عشت معها ثمانية عشر عامًا لم أجدها خلالها طرفًا في خصومة ولا شجار ولا عداوة مع أحد، وتقول: خرجت بعد فترة النفاس بعدة أيام لكي أشم نفسي، وجلست بجانب بائعة للخضر والفاكهة كان اسمها «أم ريشة» وباركت لي بأدب وذوق على المولود الجديد، وبعد

لحظات رأيت هذه السيدة التي كانت تطلق هذه الشائعات عن ابني، عندها تمالكت نفسي وهممت بالانصراف، وما أن اعتدلت وجدتها أمام مشنة البائعة ووجهها في وجهي وهي تقول لي: «هو أنت خلفتي ولد بدون أيدين ورجلين» فإذا بي أتحوّل إلى إنسانة أخرى لا أعرفها، لأرى في تلك اللحظة أمامي ما كان يقال لي من شائعاتها التي تروّجها عن ولدي فأمسكتها من شعرها وجذبتها إليّ جذبة شديدة فاستسلمت لي وجررتها وقلت لها: «تعالى لتريه لتغلقي فمك تعالى لتري طفل عادي وليس كما تشيعين» وقذفتها بعيداً عني، وأخذت البائعة التي كانت معروفة ومشهورة بطبيعتها وحسن كلامها تمطر هذه السيدة بكلمات التشفي لأنها سمعت منها الكثير من هذه الشائعات وأخذت تطيب خاطر أُمّي. وقالت لي أُمّي: «وكأن هذه الواقعة كانت رغم أنها غريبة على شخصيتي المسالمة إلا أنها علمتني كيف أحافظ على ابني وكيف أدافع عنه وكيف أن حبي لهذا الولد قد تعرض لاختبار، وأحسست أنني قد نجحت فيه أيما نجاح حتى ولو كان عنيفاً بعض الشيء لكن أظنه كان مناسباً».

وبعد بضعة أيام وبعد أن مرت لحظات وأيام الصدمة الأولى تردد السؤال عن اسم المولود، فقيلت عدة أسماء، قالها من كانوا يجلسون مع أمه، ثم دخل الأب فنظر الجميع إليه وسألوه بإذا تسمى المولود؟ فقال سنسميه «رضا» فاستحسن الجميع الاسم ورأوا أنه اسم على مسمى، وقال لهم الأب هذا رضا من الله ونحن نعلن بالاسم عن قمة الرضا بما جاد به الله علينا بهذا الولد، وحتى يكون له بعد ذلك علامة على رضانا عن الله عل الله يرضى عنا وعن هذا الولد وأن يرضيه في الدنيا والآخرة.. ولما سألت أبي عن ذلك قال لم يكن في بالي هذا الاسم ولكن كان تعبيراً عن رضائي التام والمطلق عن قدر الله الذي سيكون - حتماً - هو خيراً لنا وله.

ليال قاسية

بعد أن انفض الناس من حول الأب والأم، وبعد أن أصبحت وجهًا لوجه أمام هذا المولود والابن الثالث في أسرتهما، وقد أصبح إنسانًا لا بد أن تهيأ له حياته وأن تذلل له الصعاب وأن يعيش كما يعيش أى طفل في سنه، دارت بعض الأمور ببالهما وهما يجلسان على السرير وبجانبيهما الوافد الجديد وأخذوا يرددان مع بعضهما هذه الأسئلة التى تبدو طبيعية في مثل هذا الموقف: إذا كان طول كل من الذراعين بضعة سنتيمترات كيف سيلبس ملابسه؟ وإذا كان الولد العادى تمسكه الأم من تحت ذراعيه فكيف تمسك به؟ وإذا كان الطفل العادى يمسك الأشياء بيديه فكيف يمسك بها هو؟ وإذا كان الطفل العادى يمسك القلم بيده فكيف يمسك القلم ويكتب به وكيف يتعامل مع الكتب؟ وكيف يأكل؟ وكيف يشرب؟ وكيف؟ وكيف؟

وفي هذه اللحظة، وكأن الطفل كان يستشرف القادم في بطن الغيب، إذا بيديه القصيرتين تنفضان الغطاء الرقيق الملقى عليه ويحاول أن يحرك يديه ويظهر أثرًا لأصابعه الثلاث في يمينه وأصبعيه الاثنين في يسراه من خلال الكم الطويل الذى يخفيهما. وظل الأب والأم ينظران إلى هذا المشهد البديع وكأنها رسالة تحوى أملًا في القادم من أيام هذا الطفل. وكانت مهاراته التى حباه الله بها تتكشف يومًا بعد يوم وكانت تهون قسوة الأيام والليالى وتجعلها تقل شيئًا فشيئًا، إذ كان كل يوم يحمل جديدًا في شخصيته.

ودائمًا ما كانت تحكى أمى - رحمها الله - عن أول مرة تغسل جسمى تقول إنها تهيبت وخافت أن أسقط منها أو لا تستطيع أن تتحكم فى

جسمى، وبعد تردد أخذت القرار وأعدت إناء الماء الدافئ والصابون وخلعت ملابسى بعد أن أحكمت إغلاق باب الغرفة والشباك، كانت هذه أول مرة ترى الطفل منذ ميلاده وهو عار تمامًا، إلا وأحست بشعور مزدوج في وقت واحد، شعور بالخوف عليه إذ كيف يكون طفل بهذين الذراعين اللذين لا يستطيع أن يقضى بهما حاجات طفل عادى، وكيف يدبر بهما أمور حياته؟ وكيف يتواصل مع الناس ومع زملائه؟ وكيف يتعلم؟ كل هذا يتردد في نفسها وهو بين يديها ينعم بالماء الدافئ. لكن الشعور الآخر كان بالاطمئنان عليه أولاً لأن الله موجود ولأن يديه القصيرتين دائماً ما كانتا تتحركان يميناً وشمالاً، وتكاد كل واحدة منها لا تهدأ أبداً في إشارة إلى إرادة الحياة عند هذا الولد التى لا يعلم سرّاً لها إلا خالقها سبحانه وتعالى. وفي تلك اللحظة يطرق باب الغرفة طارق يبادر بالنداء عليها، فتعرف أنه أبوها محمد مرسى فتنادى عليه وتقول له تعالى وأغلق الباب بسرعة، فدخل جدى محمد إلى الغرفة ورأى حفيده الصدمة لأول مرة فسمى الله وقال بسم الله ما شاء الله، لكن عندما تملى فيه أراد أن يطمئن ابنته وقام وقبله وهو بين يديها، لكنه لم يخف حزناً بدى في قسماط وجهه وفي جفنى عينيه اللذين أسبلا في تلك اللحظة، لكنه أقسم بالله أن مثل هذا الولد سيكون له شأن عظيم لأن من خلقه هو الذى سيسر له أمره.

وبعد أن أخذ رضا حمامه الأول على يدي أمه في هذه الغرفة التى شهدت لحظات ميلاده الصعبة، وأخذ والدها يحكى لها عن هؤلاء الذين سمع عنهم من بلاد الغرب الذين كانت لهم ظروف أصعب من رضا ومع ذلك كانوا عظاماً، وقال لها إنه سمع في الراديو عن فتاة أمريكية اسمها هيلين كيلر كانت صماء وعمياء وبكماء ومع ذلك نجحت في

حياتها وأصبح العالم يتحدث عنها، فردت الأم كيف وهى عمياء وبكماء وصماء فأقسم لها أنه سمع هذا فى الراديو وقال إن شاء الله رضا يكون حاجة كبيرة لكن يحتاج تعب منك ومن أبيه وأنا لو عشت سوف أذكرك بهذا.. وانتهى هذا الموقف لكنه ترك أثراً طيباً فى نفس الأم عندما علمت بأن أشخاصاً بهذا الشكل الأصعب والموقف الأقسى ومع ذلك كان لهم شأن، فربما شاء الله لابنى أن يكون له شأن، فكانت تنظر إليه ويتصارع داخلها الشكل الذى تراه والمستقبل التى تتمنى أن يكون مشرقاً لهذا الطفل... لكن فى كل الأحوال هى قد أعدت نفسها لمهمة صعبة ليس فقط مع رضا لكن بجانبه أخويه حسن وياسر فهى فى معركة متعددة الميادين فليعنها الله.

دعاء المضطر والدكتور رمزى فرج

يهرع المتدين الذى ارتبط بالقرآن ارتباطاً وثيقاً إليه فى الملمات، يجرى لكى يحتفى بآياته وقت المحن، يرتله ويتأمله ويتدبر آياته ويعيشه لكى يجعل منه وقاءً لما يلم به. كان هذا أحد الأشياء المهمة التى تعلمتها من أبى - رحمه الله - وقد حكى لى أنه بعد ولادتى كان كثيراً ما تهاجمه الأسئلة التى لا يجد لها جواباً على الأقل فى اللحظة الحاضرة، لأنه لا يعلم ماذا فى بطن الأيام سيولد بعد... ثم إن الضعف البشرى يفرض سيطرته على العقل، فيضحي العقل ضعيفاً عندما يواجه بأسئلة لا يدرى لها جواباً، فكان فى هذه اللحظات يهرع إلى القرآن. وأثناء قراءته فى سورة النمل أخذ والدى يتأمل بعض الآيات التى بدأت بقول الله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ ٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا

كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿١٠﴾ وعلى مدى عدة آيات بعد ذلك تنتهى كل آية بهذا السؤال الاستنكارى، وقد وقف عند آية منها تقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١١﴾ هنا بعد أن قرأ والدى هذه الآية وتأملها دمعت عيناه وكأنه يدعو إلى الله دعاء مضطر يرجو رحمته بهذا الصبى، وكأنه يدعو الله أيضًا ببقية معنى الآية والتي تقول: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ ﴿١٢﴾، فالله قادر على أن يجعل هذا الولد يومًا من البارزين الناجحين وقادر على أن يفتح له القلوب وأن يمهّد له الطرق وأن يزرع محبته في قلوب عباده، هنا يمكن أن يكون خليفة في الأرض كما تقول الآية. هكذا كان والدى في هذا الأمر يفرغ إلى القرآن ليحتمى به.

وفي يوم من الأيام فاتحت أمى أبى فى ختان الولدين حسن وياسر، وكانا قد أمهلا هذا الموضوع لما بعد ولادتي، والختان فى الريف فى هذه الفترة كان يعد أحد الأفراح التى تقام للأطفال سواء جرى عقب الولادة أو جرى بعد مرور سنوات قليلة منها، فاتفقا على إجراء الختان للولدين ويدخل معهم رضا حتى تنجز المهمة كاملة، واتفقا مع من يقوم بهذه المهمة فى البلد - ولم يكن طبيبًا بالطبع فى هذا الوقت - وكانت هذه عملية جراحية كاملة بلا أدنى شىء من مخدر حتى ولو موضعى، بل كان هذا الرجل يمسك بقطعة الجلد ويفصلها عن العضو تمامًا ثم يقطعها بموس أو شفرة يضعها فى المطهر أولاً. وتكون هذه اللحظة من أقسى اللحظات فى حياة الطفل الذى يمسكه عادة أحد أقاربه لأن أبويه لا يستطيعان أن يحضرا هذا الصراخ الدامى للطفل الذى تُقطع منه قطعة من جسده وهو حاضر العقل

كامل الإحساس، ثم يوضع الطفل مفتوح الرجلين حتى لا يلمس الجرح الذى جمد دمه قليلاً الفخذين، إذ لو حدث لمس من أى شىء فإنه سينزف. وأخذوا الأولاد الثلاثة وأمسكوا بهم جيداً حتى لا تنزف جروحهم التى لا تزال رطبة قابلة للنزيف فى أى لحظة، وظل هذا الوضع عدة ساعات حتى تجلط الدم وخلد الثلاثة إلى النوم.

وبعد يوم دام قُطعت بالموس والشفرة فيه زيادات الأطفال حتى يصبح الطفل نظيفاً فى هذه المنطقة الحساسة من جسده، ولو أنها تتم بشكل لا يليق بالإنسان ولا بتحضره، ولكن الزمن والثقافة والوعى والحرمان من التعليم كان لا يتيح إلا هذا الشكل من أشكال الحياة. وما إن وضع الأب والأم رأسيهما بجانب الأطفال حتى راحا فى نوم عميق استيقظا منه على صراخ رضا صراحاً يوحى بأن يتوجع منه، فقاما بسرعة وكشفا على الجرح فكانت المفاجأة الدم يملأ المكان الذى ينام عليه بعد أن أصبحت اللقافة التى حول وسطه مليئة بالدم، بل إن الدم بدأ ينزل من المرتبة التى ينام عليها نقطة نقطة، وفى تلك اللحظة سأل الأب نفسه ماذا يفعل فتذكر أنه كان فى البيت مطهر فأخذ يضعه على الجرح، ولكن الدم مازال ينزف فلبس ما وجده أمامه من ملابس، فسأله زوجته إلى أين فرد إنه سيذهب إلى الدكتور «رمزى فرج» فعجبت كيف؟! أفى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟! ومن سيخرج معك والطريق مخيف وما بيننا وبين قويسنا صحراء قد يكون فيها شىء يضر ك.. فقال لها سوف أجرى إليه وحدى ويحدث ما يحدث، المهم أننى أصل إليه، وخرج يملؤه الفرع - كما حكى لى بعد ذلك - من صورة الدم الذى يسيل من ابنه وأخذت الوسائس فى مهاجمته وهو يجرى، تحدثه بأنك لا تلحق به وسينتهى أمره قبل أن تأتى بالدكتور، ويمكن أن يرفض الدكتور أن يأتى

معك، كل هذا كان يدور في نفسه وهو يجرى في هذا الطريق الذى يخافه أى سالك له فى الظروف العادية فما بالك بهذا الوقت من آخر الليل، ولكن الأب عندما يرى خطرًا على ابن له فهو ينسى الخوف ولا يفكر إلا فى النجاة يأتى بها بأى ثمن حتى ولو المخاطرة بنفسه ليحفظ الحياة لفلذة كبده.

وظل والدى يجرى حتى وصل إلى بيت الدكتور رمزى فرج ووضع يده على جرس الباب وظل يكرر ذلك عدة مرات، حتى خرج إليه الدكتور بنفسه يلبس روبًا فوق بيجامة النوم، فلما رآه وكان يعرف أبى من خلال أخوى ياسر وحسن اللذين كانا فى الستين الماضيتين من مرضاه الدائمين، فاعتذر الوالد له عن مجيئه له فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولكن الأمر جد خطير وأن هذا الولد بين الحياة والموت وحكى له ما حدث بعد ما دخل الوالد فى غرفة ملحقة بالبيت والدكتور رمزى يستمع بإنصات، ثم قال له: إن هذا الولد قد ولد بشكل معين وبإعاقة فى يديه، فكأن هذا شجع الدكتور على تلبية الطلب الذى كان مستعدًا له، ودخل يبدل ملابسه وعبد السلام يفرك يديه ويرفعهما إلى السماء يارب اكتب لنا وله الخير واشفه يارب.

وخرج الدكتور رمزى من غرفته وذهب إلى الجراج وأخرج السيارة، وجلس الوالد بجانبه والدكتور رمزى فى هذا الوقت من الستينيات هو الدكتور الوحيد تقريبًا فى مدينة قويسنا الذى يعرفه جميع الناس لأنه كان مدير إدارة الصحة فى قويسنا، وكان مسيحيًا يعامل الجميع بمعاملة واحدة بنفس الأسلوب الذى عامل به والدرضا، وكان يتمتع بصفة الأناة والصبر على المريض.. لعله كان يعرف أن المجتمع الذى يعيش فيه ومعه كان مجتمعًا فقيرًا لم ينل أبناؤه قسطًا وافراً من التعليم لذا كان رقيقًا بهم، وكانت عيادته الكائنة إلى الآن باسم ابنه من أشهر الأماكن فى قويسنا لأنها كانت تواجه

مركز الشرطة وبجانب مدرسة المساعي ومسجدها، وكان هو ذا قامّة طويلة وجسم مملوء ووجه يشبه زكى رستم الممثل الكبير.. وأخذت السيارة تطوى الطريق حتى وصلا إلى البيت، فدخل الوالد يفتح الطريق للدكتور ودخل إلى حيث يرقد رضا وكان يمسك بحقيبة جلدية تحوى أدوات الجراحة، فتحتها وبدأ يتعامل مع الصبى الذى ينزف وظل حوالى ربع الساعة حتى أنهى ما جاء له وأعطى بعض النصائح للأم وطمأنهم عليه وحث الأم على رضاعته حتى يعوض ما نزل من دم.

ثم اتجه د. رمزى إلى والد الطفل وكأنه يستفهم، ففهم الوالد ووضع يده بحذر ورفع اللقافة عن صدر الطفل فرآه الدكتور فلم تَحْطُ الدهشة طريقها إليه وبدا وكأنه لم يَر شيئاً عجيباً بل ثبت وذهب ووراءه والد رضا إلى السيارة، ونظر إليه وطمأنه وأخذ يشجعه ويضرب له مثلاً يعرفه كل المصريين وهو الدكتور طه حسين وكيف أصبح وهو كفيف من عظماء المفكرين والأدباء، وحثه على الاهتمام بهذا الولد الذى سيصبح له شأن فى المستقبل. وسأله الوالد لماذا ولد بهذا الشكل وبهذا النقص، وليس فى العائلة من الجانبين أحد ولد بهذا الشكل؟ فبين له أن هذه طفرة لاعلاقة لها بالوراثة وأن هذه قدرة الله سبحانه وتعالى وأنها تحدث قليلاً جداً جداً، وقد أراد الله أن يختبرك، ولعل الله يجعل من هذا الولد بعد ذلك رجلاً ذا شأن. وظل د. رمزى يسأل عنى ويذكر والدى بهذه الليلة وخاصة عندما تفوقت فى الابتدائية وعلم بذلك، فطلب الوالد وذكره بهذا الموقف وطلب منه أن يواصل اهتمامه بهذا الولد الذى أنقذته العناية الإلهية على يديه.

الفصل الثالث

خطوات وئيدة فى طريق الأمل

الخروج للحياة وخوف الأم

مرت الأيام والشهور، وبدأت العلاقة والحميمية تتوثق بين الأم ووليدها الذى يراها دائماً أمامه، وكانت الأم تزورها السكينة أحياناً ثم يعاودها القلق يقْض مضجعها، خصوصاً عندما يكون زوجها عنده نوبتجية وسيقضى الليل بعيداً عن البيت فى الجيش، وتسأل نفسها دائماً وتلح عليها بهذه الأسئلة: كيف يخرج من البيت؟ وكيف سيستقبله الناس؟ وكيف سيَقضى حاجاته وما يلزمه كما يفعل الأطفال؟

وكانت أمى عندما تريد أن تخرج من دائرة الأسئلة تحملنى، ويمشى وراءها ابنها حسن ويأسر وتذهب بنا إلى بيت جدى محمد مرسى، وما أن نصل حتى يقام الفرح بقدوم الأطفال. وكان بيت جدى به صالة طويلة ومستطيلة يمرح فيها أخواى، وترك أمى رضا ينتقل بين أخواتها الأربعة كُلّ منهن تريد أن تستأثر به وتحاول كُلّ منهن أن تجعله يضحك أو يبتسم وإذا فعل طاروا به فرحاً، وكانت أمى تحكى أن جدى هذا

الرجل الطيب كان يأخذنى لأجلس فى حجره ويطل النظر إلى وجهى ثم ينظر إليها ويحاول أن يسعدها ويطمئنها ويقسم لها بالله أنه سيبارك لك فى أولادك وخاصة رضا، وكان ينظر إلىّ ويظل يمطرنى بوابل من الأوصاف الجميلة التى تهدئ بال الأم فيتسلل إليها الأمان والاطمئنان على وليدها.

وكان جدى يتمتع بفطرة سليمة وسيرة حياة لم تعرف سوى النية الصادقة المخلصة والعمل الدؤوب لإعالة بناته وولده الوحيد، فقد عاش حياته مسالمًا لم يسع أبدًا فى إيذاء أحد، بل كان كالنسمة التى تلتطف حر الدنيا التى تضيق أحيانًا بما يفعله أشرار البشر.. علمته الحياة وتركت فى نفسه بعد كل ما تعرض له أثرًا من حكمة وسهًا من عقل يستطيع بهما أن يكون صائبًا فى حكمه على الأشياء والأشخاص. وكانت جميع خالاتى فى هذا الوقت لم يتزوج منهن إلا واحدة، وهى خالتى وفاء التى كانت آية من آيات البشر فى الطيبة التى كانت تطبع على وجهها رضا وقبولًا، وكانت تضى بجمال وجهها ودًا وجبًا لكل من يقترب منها أو يتعامل معها، وكانت قوية شديدة فى الحق، لذا كان يخافها كل من جار وظلم. وكنت أحبها كأمى، وكانت هى كذلك بقلبها الكبير وفطرتها السليمة وروحها الفياضة الجميلة. رحلت مع زوجها إلى كفر الدوار حيث يعمل فى مصنع الغزل والنسيج الذى كان علامة على ما يقوم به الرئيس جمال عبد الناصر فى هذا الوقت من بناء قلاع صناعية هدمتها يد الخصخصة بعد ذلك.

وأما الباقيات من خالاتى فقد كن يفرشن البيت بالألفة والود، ويخرجن كل ما خفى من أطايب الطعام وزينة الكلام ونور المشاعر،

وكانت خالتي فاطمة هى التى تتولى مهمة الضيافة الفاخرة للوفد الممتاز، وكأنها كانت باهتمامها هذا يخبئها القدر لمهمة عظيمة، بعدما تتبدل الأحوال وتتداول الأيام ويموت من يموت من البشر الذين حملوا أمانة الحياة وتركوها ورحلوا..

إنه يحبو

كان حديث أبى وأمى فى هذه الفترة المبكرة من حياتى يدور حول أن الطفل العادى عندما يحب فإنه يبدأ بوضع يديه على الأرض ثم ينقلهما ليأخذ خطوة ثم يتبعهما برجليه اللتين تدفعان جسمه إلى الأمام لكى ينطلق. وتبدأ مرحلة أخرى من مراحل تعرفه على العالم حوله عندما يمشى، ويحتاج ذلك إلى أن يحفظ اتزان جسمه بيديه فيفردهما يميناً ويساراً، يقع مرة ويثبت مرة حتى يستقيم عوده، فما بال رضا الذى ليس لديه الوسيلة اللازمة للحبو وهى اليدان اللتان للولد العادى، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كيف سيقف ويحفظ توازنه ليبدأ فى المشى وليس هناك ما يحفظ هذا التوازن، وهما يشاهدان أخويه حسن وياسر يعيشان حياتهما طفلين ينعمان بكل هذه الحالات الإنسانية للبشر فى الحياة؟

وكانت المفاجأة التى تقول عنها أمى فى حكايتها وهى تتذكر وعينى فى عينها - وكأنها قد حدثت تواً أمامها - بشيء من الامتنان لله خالق هذا الولد ومن الفخر بأنه ولدها. لقد رأت أمى أن تترك رضا فى مكان ما بعد أن عرف كيف يجلس ويحفظ توازنه بعد فترة من الوقوع والقيام، وذهبت هى لكى تقضى حاجات بيتها ورجعت فلم تجده فى مكانه وإنما وجدته وقد بُعدَ خطوات قليلة فعجبت كيف حدث هذا؟ ونظرت فى أنحاء بيتها الذى كل ما فيه غرفتان وصالة صغيرة فلم تجده فى مكانه

وإنما تحرك بعض خطوات قليلة أخرى وحسن وياسر حوله يلعبان، ماذا حدث؟! فتركته وراقبته من بعيد، فإذا به قد اتخذ من المقعدتين وسيلة للحبو وبدأ يتحرك بهما، فكان يثبت كعبيّ رجله في الأرض ثم يدفع نفسه وجذعه إلى الأمام فيأخذ خطوة ثم خطوة. وماهى إلا أيام قليلة حتى طاف رضا بالبيت كله بهذه الطريقة المبدعة والجديدة في الحبو ولم يترك مكاناً في البيت إلا زاره بهذا الشكل الذى كان وسيلة ابتكرها ولم يرها أحد من قبل ولا خطرت على بال أحد أبويه. لقد كان هذا الموقف حبلاً متيناً من حبال الأمل الذى بدأ ينسل من سماء قدر الله العالية ولمحة من لمحات الفيض الإلهى للبشر عندما يتمسكون بالحلم.

وبعد فترة، حدث مشهد آخر من مشاهد فيلم الحياة لهذا الطفل الذى بدأت أقدار الله تمهد له السبل كما تمهد للطير فى أوكارها كيف تعيش وهى معلقة بين السماء والأرض. تحكى أمى - رحمها الله - أنه بعد منظر الحبو الأسر كان صاحبنا عندما يريد أن يقف لا يترك نفسه للهواء لفقد الجناحين اللذين يحفظ بهما توازن جسمه ولكن كان يحبو حتى يكون قريباً من الحائط أو باب من الأبواب ثم يحاول الوقوف، حتى إذا اختل توازنه استند إلى الحائط فلم يقع، ويحاول مرة بعد مرة حتى استقام عوده ووقف دون أن يستند إلى الحائط، وكأنها كان يصنع عوده المستقيم ليقابل أيامه الصعبة.

ثم لما توثق رضا من وقوفه دخل مرحلة المشى، التى بدأها بأن يقترب من الحائط فيكون عن يمينه أو شماله ويبدأ خطوة خطوة، حتى إذا اختل توازنه احتتمى بالحائط مرة بعد أخرى كى لا يسقط ثم تابع، وبعد فترة من الوقت حاول فيها ثم حاول ولم يشنه السقوط مرات من المتابعة حتى

أتقن الوقوف ثم المشى.. وها هو يدب بقدميه على كل ناحية من نواحي البيت دون أن يساعده أحد ودون أن يستند إلا إلى رحمة رب لا يخلق عباده سدى، ومستعيناً بإرادة بدأت تتحدث عن نفسها وتعلن في أرجاء بيت صغير عن ميلاد لحلم عله يصبح حقيقة يوماً من الأيام، وما الحقائق في الدنيا إلا أحلاماً كانت تسكن في صدور الحالمين.

تعالوا لتروا...

ومضات الأمل ولو أنها تبدو خافتة في أول الأمر إلا أن سرها في النفس الإنسانية له فعل السحر، ذلك أنه ينقلها من حفرة يأس يمكن أن تكون قبراً للحلم الذي قد يصبح يوماً ما حقيقة في واقع الحياة والأحياء، وهذا ما حدث لأُمى وأبى بعد هذه الومضات التي عاينوها وكانت بمثابة إجابة عن بعض ما كان يدور في بالهما منذ أيام قليلة، وها هو رضا يجيب عملياً عن كل هذه الأسئلة الحائرة التي كانت دائماً تداهمها، فإذا يا ترى تحمل الأيام القادمة؟ هل سيجيب رضا عن بقية الأسئلة الحائرة فيما يتعلق بباقي شؤونه؟ وكيف؟ لكن ما حدث في الأيام السابقة كان مبشرات لما هو قادم بالطبع..

ويحكى الوالد عن أواخر الستينيات حيث القرية خالية من كل مظاهر المدنية مثل الكهرباء وما يتبعها من وسائل إعلام مختلفة، إلا الراديو الذي تجده عند أصحاب اليسار من أهل البلدة. والناس في جلساتهم كانوا يسهرون جزءاً قليلاً من الليل، ثم بعد صلاة العشاء تجد الجميع نائماً لكي يصحو مبكراً لصلاة الفجر ولزعرته التي يُطعم بها عياله وبهيمة التي يأخذ منها اللبن فيشربه ويبيعه ليعيش كما يعيش معظم أهل القرية.

هكذا كان شكل القرية في هذا الوقت قبل أن تستبيحها شاشات تحركها أفكار ورؤى وإيديولوجيات وعقول ودول حولت هذه الطبيعة البشرية للناس من ألق الفطرة ونورها إلى ظلمة المادة وسُعارها، فلا هم أصبحوا أولاد قرية الستينيات ولا هم أصبحوا أولاد الألفية الثالثة. لقد أصبحوا خليطاً مهجناً لا معالم واضحة له؛ فالفلاح الذي كان يعتمد في حياته على ما يزرع أصبح عالة على نفسه وعلى الناس، وأصبحت القرية تعيش حياة المدن بلا إمكانات، فأضحت لا هي قرية منتجة ولا هي مدينة منتجة.

وكان والدى - رحمه الله - في هذا الوقت يسهر مع أصدقائه في مكان في القرية يسمى «الدوار» لقربه من دوار العمدة، وكانت هذه المنطقة تمثل حوالى ربع القرية مساحة وسكاناً، وتتميز بشراء معظم ساكنيها لوجود عائلة العمدة وعائلة أبو مريم وهما أكبر وأعرق وأغنى عائلتين في البلد. وهذه المنطقة كانت تحتوى على ملعب القرية الذى شهد لأبى صولات وجولات، حيث كان لاعباً مهماً من فريق القرية، وكانوا في الليل يسهرون بجانب الملعب بجوار بيت صديق عزيز لأبى هو الإمام عبد الخالق، الذى كان ذا نفس طيبة مخلصه خفيف الظل ذا قفشات جميلة ورقيقة.

وفي جلسة من هذه الجلسات التى يكون فيها سمر الأصدقاء وتكون أيضاً محلاً لنقل الأخبار أو تحليلها لما يحدث من الناس، سأل أحدهم أبى سؤالاً صفيقاً وقحاً، قال له: «أخبار ابنك أيه يقولوا أن الكل يتمنى أن ربنا ياخذه!!!» كان الكلام صادماً ويحمل الكثير من سوء الأدب، ولكن الوالد تمالك أعصابه ورد ردّاً سيطر به على الموقف بجرأة المدافع عن قيمة مهمة هذا وقتها ومكانها وشخصها، فقد شبهه من يقول كلاماً ليس

عليه دليل واضح بأنه فاسق لابد من أن نتوثق من كلامه وتلى الآية: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا....» وأضاف: هذا الكلام كاذب تمامًا وأن من يردد هذا الكلام يكون شريكًا فاعلاً في هذه الجريمة التي تؤثر في نفوس أصحاب الشأن؛ وخصوصًا أم الولد التي يتناهى إلى سمعها هذا الكلام الأخرق وهي لا تتوانى لحظة عن ابنها الذي تترجيه هو وأخواه من الدنيا، ولكي أثبت لكم أنا أدعوكم لتروا كيف مَنَّ الله على هذا الولد، بحيث يمكن أن يفعل كل ما يفعله الطفل العادي من حبو ومن مشى، وأمه التي تُتهم بأنها تريد التخلص منه هي التي تدفعه لذلك. وهنا قام صديقه الإمام عبد الخالق واعتنقه، وكذلك أصدقائه الآخرون، وجاءه من سأل هذا السؤال معترضًا. لكن كانت هذه الواقعة إعلامًا انتشر في القرية عن طريق الجالسين فيها لتبشر بمرحلة جديدة لرضا الذي بدأ الناس يتبعون أخباره. ولما رجع أبى إلى البيت وحكى لأمى ما حدث فرحت بقدر ما حزنت، فرحت لوصول الرسالة قوية من أبى إلى هؤلاء الناس، وحزنت لأن بعض الناس صغرت نفوسهم فلا يمررون ما يسمعون على قلوبهم وعقولهم، وقالت في نفسها لو الأمر أمرى لصرخت في كل الناس تعالوا لتروا.

الخروج الأول وإثبات الذات

كان الخروج من البيت وقت أن حملت قدماى جسمى مفاجئًا للناس في أول الأمر، وكانت العيون تحتلس النظرات في وجود الأم أو الأب وتمعن في البهجة والفضول، بل وتقرب حال وجود الطفل وحده،

وبعضهم كان يقترب منه ويلاعبه وهو يراقب حتى لا تغضب أمه التي كانت تخاف عليه في بداية خروجه. ولأن البيت كان أمام بابه مساحة منخفضة من الأرض، ويحيط بها سور منخفض جداً من الطمي، حتى لا تنزل مياه المطر في البيت، فقد كنت كما حكى لى أمى أستند إلى قائم الباب وأصعد شيئاً فشيئاً حتى أصل إلى سور الطمي فأتمسك به ثم أدفع بنفسى إلى نهر الشارع.

في هذه السن الصغيرة وفي السنوات الأولى من عمرى أصبحت صديقاً لكل من يذهب أو يأتى من الشارع والمنطقة التي نعيش فيها في القرية. واطمأنت أمى تجاه أهل الشارع والمنطقة، بل أصبحت أخبار هذا الطفل الذى قد لا تتكرر صورة خلقه كثيراً حديث القرية، وكان من رأى والدى - رحمه الله - أن يدع لهذا الطفل حرية الاكتشاف لما حوله من أشياء وأن يسلك كيف يشاء ما دامت تحمله قدماه؛ وما دامت ليس هناك خطورة من أن يصيبه مكروه؛ وما دامت أيضاً عينا أمه تراقبانه ولو من حين إلى حين. أما الأم فكانت خائفة عليه وكانت توصى أخويه ألا يغفلا عنه وألا يقعدا عن تلبية ما يريد وألا يرفضا له طلباً. لكن هيهات، فقد خرج الطفل ولم يستطع أحد أن يجاريه، فهو سريع في خطواته يقتحم المواقف التي تجعله كل يوم يأتى بجرح هنا وخدش هناك، ولا يدع أحداً في حاله، فهو خرج إلى الدنيا ويريد أن يعيش كما يعيش طفل في مثل سنه، وليس عنده حسابات الكبار من الحيلة والحذر الواجبين عندما يجل الخطر، لذا كان لا بد أن يرى أثر ذلك في هذه الحوادث اليومية.

وهنا لا بد من التأمل في قضيتين كانتا متوازيتين طوال حياة هذا الطفل، الذى سيصبح في قابل الأيام وكما قدرت أقدار الله صوتاً تسمعه

الدنيا، وهى قضية إثبات الذات وقضية رد الفعل من رضا ومن الناس، وهاتان القضيتان يلحظهما كل من تعرّف على هذه المسيرة أو اقترب منها أو عايشها.

فإثبات الذات كان دائماً هو الشغل الشاغل والههم الأكبر لهذه الشخصية؛ لأنه يرى فى عيون الناس فى أول الأمر أنه عاجز لا يستطيع no cannot، ومن ثم فهذه النظرة المحبطة تولد عنده شعوراً بالتحدى وبأنه قادر I can، ويشحد فى إثبات ذلك قوى نفسه ويسن لها أسلحته، من عقل وقلب ومشاعر، ثم من أعضاء يسد بعضها نقص بعض، ويبحث عن نقصه الذى يعلمه بالفطرة ويحسه إنسانياً، ثم يبدأ فى تنفيذ الفعل وهو ممتلىء بالحماس تدفعه الحاجة الإنسانية التى يريد أن يقضيها من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يثبت لمن اتهمه - ولو بالنظرة - بالعجز. إن هؤلاء لا يعرفون أبعاد إرادة إنسان يُتهم فى إرادته وإنسانيته. وقد كانت الحياة كلها وسقطت إلى نهايتها ميداناً لإثبات الذات، لأنها أصبحت طبيعة لصيقة بصاحبها، صنعتها الأيام والمواقف ونظرات العجز ومصمصات الشفاه ودعاوى الإحباط وسلب الكراسى المستحقة. لذا إذا كانت الحياة صعبة فى هذا السبيل الذى لا يخلو من مشقة، لكنها تصبح جميلة ورائعة عندما تثبت الذات الإنسانية أنها جديرة بإرادتها وعزمها وإخلاصها لأن تتوج بتاج الكرامة الإنسانية، هذه هى القضية الأولى.

أما القضية الثانية؛ فهى رد الفعل عند رضا نفسه، وقد أتعبنى ذلك فى رحلة الحياة لكثرة دخول المعارك التى لا تنتهى، وما يصاحب ذلك من صناعة الأصنام - المتوهمة أحياناً - من فرط حذره من قادم البشر والأيام ثم تكسيها. هذا تحليل صديق الطفولة وبداية الصبا والشباب الكاتب

الكبير إبراهيم عيسى حول إصرارى الزائد عن الحد وعدم النوم والقلق والإرهاق تحسبًا لما يمكن أن يأتى من الغير من مشكلات. أعترف أنني قد أتعبت نفسى بسبب من كان لا يريد أن يعطينى حقى فى الحياة. وقد كانت ردود أفعال الناس على أنواع شتى، فمنهم من كان نصيرًا لحقى فى الحياة، ومنهم من انتصرت عليه نظرة العجز المحبطة، ومنهم من وقف كأنه وثن ليس له سمع ولا بصر ولا قلب شهيد، ومنهم من لم يكن عنده إلا شعور متدفق بالحب يصل قلبى بقلبه وحسى بحسه، فأشعر أنه أنا، يريد لى ما يريده لنفسه، وهؤلاء كثر من منن الله على مثلى، وهكذا الحياة لمن وضعته أقدار الله فى هذا الطريق.

ردع الطوبى من الرجل الشمال

كل كائن حى يحيا فى هذه الدنيا يصنع لنفسه حدودًا ليأمن فى حياته من المغيرين عليه ومن الذين يريدون أن يفرضوا سطوتهم وسلطتهم على كل من يشاركوهم أمور الحياة، وعندما يفعل ذلك يضمن لنفسه حياة كريمة عادلة آمنة. وفى محيط الإنسان ككائن حى له ميزة العقل الواعى والفكر المتدبر والحس الراقى والقلب النابض بالحياة نجد هذه الحدود هى التى تردع الآخرين من التخطى فى ساحات الحرم الإنسانى، فلكل إنسان حرمة الذى يجب على كل من حوله أن يراعيه ويحترمه، وما الحروب والنزاعات التى تعيشها البشرية منذ خلقت إلا من هؤلاء الذين تخطوا الحدود فقتلوا وسفكوا الدماء، حتى أصبحت صفحات التاريخ مليئة بهذه الفظائع التى يندى لها تاريخ البشرية.

كانت هذه الحقيقة من أهم ماوعيت فى بداية عهدى بالحياة وفى بداية

خروجي للناس وجهًا لوجه، وإن كانت الحدة في الشعور وفي الفعل أو بالأحرى في ردة الفعل كانت سمة تمسكت بها طبعًا إنسانيًا في بداية عمري، وإن كنت بعد مرحلة النضوج العقلي أصبحت الحدة أقل، ولكن قد يردني فعل ما لما كنت عليه من حدتي الأولى بل أكثر.. لذلك بدأت أستبدل أعضائي جميعًا بوظيفة اليدين اللتين لا تستطيعان حملًا ولا ضربًا ولا حماية وأنا طفل في السنوات الأولى من عمري ومعى أطفال لهم حاجاتهم، فكان لزامًا من أن يضع رضا هذه الحدود وأن تكون عنده خطة ردع لمن تسول له نفسه أن يعتدى، وكانت هذه المشاهد والصور تستدعى عند رؤيتها الصفات التي تجمع جميع الكائنات الحية واللازمة لكي تعيش وتحافظ على حياتها.

من هذه المشاهد، أن الطفل الذي كان يعتدى على صاحبنا وهو يظن أنه ضعيف وأنه لا يستطيع دفاعًا عن نفسه كان يتلقى ضربة قوية من قدمه، ولأن اليدين ليس لهما تأثير يُذكر كان رضا يقترب من المعتدى ويفاجئه بضربة كتف يضع فيها قوة دفع الجسم كله فيسقطه أرضًا. أحس الأطفال من هذه المواقف أن صاحبنا هذا خط أحمر لا يستطيع أحد الاقتراب من جدار حدوده، وكان - كما هو معلوم عنه - مسالم مع من سالموه، وفي نفس الوقت يتخطى الحد في العقاب إذا اعتدى عليه أحد، لذا كان له في نفوس أقرانه مكانة فيها مع الخوف من حدته الود الطفولي الذي يسمح للأطفال بالرجوع إلى بعضهم البعض.

ومن المشاهد والصور التي انطبعت في أذهان الناس في تلك الفترة، أنه عندما كان لا يستطيع أن يأخذ حقه ممن اعتدى عليه أو إن كان أكبر منه سنًا أو هيئة أو جسمًا، كان صاحبنا يذهب بعيدًا فيمسك بالطوبة بقوة بالإصبعين الأكبر في قدمه الشمال ويقذف بها على من يريد عقابه، ولأنه

كان أعسر يجيد العمل بالشمال كانت الطوبة تذهب حيث يريد لها فتكون عقاباً لمن يستحق العقاب، ويمكن أن تكون في إطار مسابقة في قذف الطوب لأطول مسافة، كل المتسابقين يقذفون بأيديهم وهو بأصبعي قدمه. ويمكن أن تكون الطوبة مرسلة تجاه شجرة الجميز حتى تجبرها على أن تجود بجميزة طيبة الطعم، ويمكن أن تكون لشجرة النبق التي كانت لسيدة عجوز بجوار المسجد. ولا مانع أن تكون الطوبة عقاباً لمن يطيل إليه النظر ويمصمص شفتيه، وهذه كانت إحدى الصور التي تغيظه وتدفعه للانتقام ممن يشعره أنه شخص مختلف، وكان يسأل أمه عندما تريد أن تعاقبه على هذه الفعلة لماذا ينظر إلى هذا الشكل؟ وعادة لا يكون من يقترب هذا الجرم من أهل القرية، ولكن يكون من القرى المجاورة جاء لقضاء حاجة فأوقعه حظه العسر مع طوبة الرجل الشمال لهذا الطفل.

حريقة رضا

في السنوات الأولى من العمر، كانت التجربة عندي هي القاعدة التي أعيش بها، أجرب كل شيء، وكنت مقتحماً، لأن الحياة بالنسبة لطفل بهذا الشكل لا بد فيها من المغامرة والتجريب، لأنه لو سكن ولم يتحرك ستدوسه عجالات النسيان، لذا يجب أن يقتحم الأشياء والأماكن التي حوله، ووسيلته في هذا التجربة.. وكانت التجربة إما تنجح وتؤتى أكلها ويصبح الفعل واقعاً في حياتي، كتلك التي تحدثت عنها من وسائل الردع التي تحفظ لي كياني أمام الأطفال، أو من إيجاد السبل التي تجعل حاجاتي كطفل في هذا العمر متاحة وممكنة، وإما لا تنجح وأتركها ليأسى من الوصول فيها لما أريد. فمثلاً لم أستطع أن أرتدى ملابسى بنفسى، وحاولت أن أفعل مرة بعد مرة فلم أستطع، لأن ملابسى كانت عبارة

عن بيجامة لها أزرار تحتاج لمن يضع كل منها في مكانه من الجانب الآخر، وهذه لم أستطع أن أفعلها، وكانت أُمى تنهرنى عندما ترانى أحاول أن أرتدى ملايسى، حرصًا منها بالطبع على ألا تسبب لى شيئًا من العنت أو التعب أو الإحباط. وكنت كلما أحتاج الأمر للحمام أو غيره من هذه الأمور أهرع إلى أُمى التى كانت أعبأؤها كثيرة، لكنها كانت تقدم حاجتى على كل مالدتها من أعمال.

وفى تجربة من التجارب كانت النتيجة كارثة كادت أن تودى بالبيت وما فيه ومن فيه. قصتها أننى كنت أرى أُمى تشعل أعواد الكبريت لتوقد بها ما عندنا من وسائل، كوابور الجاز الذى يُطهى عليه الطعام أو الكانون الذى كان يستخدم فى طهى «الزَفَر» كل أسبوع أو كل أسبوعين أو الفرن الذى يُخبز فيه العيش الذى يُعد عمودًا لكل بيت من بيوت القرية. وكنت أرى أُمى - رحمها الله - وهى تشعل عود الكبريت فتحك العود بسرعة على مكان خشن فى علبة الكبريت فيصنع شعلة اللهب، فغافلت أُمى وأخذت علبة الكبريت وانتحيت جانبًا من داخل الدهليز، وهو صالة البيت الصغيرة، بحيث لا يرانى أحد، وأمسكت بالعلبة بإصبعى يدي الشمال التى أحس أنها أقوى من اليمنى وأن أصبعاها الاثنان أشد من اليد اليمنى بأصابعها الثلاثة، وهذا أدركته تمامًا منذ أن وعيت وتعرفت على أعضاء جسدى. حاولت فتح العلبة بأن أمسكتها بقمى، وحاولت أن أخرج الكبريت فلم أستطع، فتركتها، لكننى لم آيس من المحاولة، فأخذتها ثانية وأخفيت نفسى عن عيني أُمى وقلت بينى وبين نفسى فلأجرب رجلاى فى هذا الأمر، وفعلاً وضعت العلبة على الأرض وأمسكتها بين الإصبعين من رجلى الشمال، ثم بإصبع من رجلى اليمين زحزحت الدرج

الداخلي الذى به الأعواد حتى ظهرت، وأسقطت العلبة فنزلت بعض الأعواد على الأرض، فأعدت العلبة إلى حالها الأول وأمسكت بأحد عيدان الكبريت بأصبعى رجلى الشمال، وثبتت العلبة ثم حككت العود فى جانبها، فإذا باللهب يشتعل فى العود ثم ينطفئ، فأجرب غيره، ولأنها أول تجربة ظل العود يلسعنى كلما أشعلته، وظللت هكذا عدة مرات، حتى أمسكت بى أمى وحذرتنى من ذلك.

وتحت ضغط الأم والخوف من أن ترانى والبيت ضيق وحتماً سوف ترانى، فكرت أين المكان الذى لا تتصور أمى أن أكون فيه كى أجرب دون أن ترانى، فلم أجد إلا السطح الذى كان عبارة عن تلال صغيرة من الحطب ومن روث الحيوانات اليابس لاستخدامه كوقود للفرن، وجلست مولياً ظهرى لحائط الغرفة التى على السطح وكنا نسميها المقعد، ووجهى تجاه الأسطح التى على مرمى الأفق، وأخذت أعيد إشعال الكبريت دون أن يرانى أحد، وظللت أجرب حتى أشعلت العود تلو العود، ثم هممت بالنزول. وعندما نزلت إلى ساحة البيت رأينا من يأتى وهو يجرى مسرعاً إلى داخل البيت وينادى على أمى «حريقة حريقة».

والحريقة فى هذا الوقت كانت كارثة، لأن البيوت كانت من الطوب اللبن «النىء» والنار لا بد لإطفائها من الماء وبالتالي فإن الحوائط ستتهار. أخذ الجميع كعادة أهل القرية يهرولون، فمنهم من يحاول إطفاءها بجوال، ومنهم من يأتى بالماء، ومنهم من يقف لكى يُسَلَّم من يقذف الماء، والنساء ترفع أصواتهن لكى يتجمع الناس لأطفاء الحريق. وفى هذه الأثناء جمعونى أنا وأخوای حسن وياسر خارج البيت، وجاءت الحاجة لبيبة أم الحاج حافظ الفلاح، هذه السيدة التى شارفت على الثمانين من

عمرها، واشترت بعض الحلوى وأجلستنا حولها والناس تحاول أن تطفئ هذا الحريق. وأثناء هذه الأجواء المشحونة والنار المشتعلة والأم تصرخ والناس تحاول إطفاء النار، وكان الكل يهمس: ما سبب هذه النار؟ وتسأل الحاجة لبيبة إحدى النساء عن سبب هذه النار فتقول إحداهن إن هذه النار هي إهمال من أم الأولاد.

وهنا ينطق رضا بالعجب الذي أسكت الجميع وأدهشهم ليبراً أمه وأدان نفسه واعترف بتفاصيل الجريمة، وحكى أمام الجميع تفاصيل ما حدث، وأنه قد ترك النار مشتعلة ونزل وظن أنها ستنتطفئ، وهنا جحظت العيون وارتسمت علامات التعجب الكبيرة على الوجوه وسمع رضا مالا يسره، فتركهم وأطلق لرجليه العنان بعيداً عن ملاحظة العيون وبعيداً عن غضب الوجوه وبعيداً عن وجه الأم التي حرك صراخها القلب من مكانه. ولكن مع ذلك، الله سلم، فالحريق لم يأت إلا على الخطب فقط، وباب المقعد أصابه بعض التلف من الحريق لكنه مازال واقفاً مكانه، ولم تمس النار باللهيب شيئاً من البيت ولا من غرفة المقعد، وصاحبنا هرب إلى مكان غير مكان الساحة التي يلعبون فيها أمام البيت وانتظر أن يأتي والده، ويا ترى ماذا سيصنع معه؟

كان الحريق في الصباح وجاء الوالد بعد صلاة العصر، وأرسل أخويه لكي يأتيابه، فجاء منكساً رأسه ووالده يتفقد آثار الحريق، فلما رآه ضمه تحت يمينه أولاً حتى يذهب ما به من خوف ثم قال له: احك لى ماذا حدث، وكيف فعلت هذا؟ ومن أشعل النار؟ فلما أحس صاحبنا بالأمان أخذ يحكى بالتفصيل ماذا حدث، ولم يكن الأب يعلم أنه يستطيع أن يشعل الكبريت فلفه العجب وأخذته الحيرة؛ من علمك؟ أين رأيت هذا؟ فأجاب بما كان من مراحل حتى أشعل الكبريت. هنا دار حوار بين

الأب وابنه، هذا الحوار علمنى مدى حياتى أن أنظر إلى نتيجة ما أفعل، وأن أحتاط لنفسى، وألا أضع نفسى مرمى لكلام الناس، بين لى أبى أن أتبين نتيجة الفعل، وإذا أردت أن أجرب فليكن الاحتياط حتى لا أؤدى إلى كارثة، وهدد أنه يمكن أن يضربنى لكن سيعطى لى الفرصة، وضمنى إلى يمينه مرة أخرى، وكان كثيرًا ما يتندر بالموقف طوال حياتى معه على سبيل الفكاهة.

هذا الموقف من أبى - رحمه الله - كان من المواقف التى لا أنساها، لأن الرجل سلك معى فيه سلوكًا تربويًا غايةً فى الرقى رغم صغر سنى، لأنه كان يعلم أننى أنتظر علقه ساخنة لهذا الفعل، فأراد أن يجعلنى وأنا فى هذه السن أحس بالندم الذى يجعلنى لا أعاود أبدًا الرجوع إلى هذا الفعل ولا الرجوع إلى وضع نفسى فى هذا الموقف المهين أمامه وأمام أمى وأمام الناس التى أخذت عيونهم تنهشنى تعجبًا وازدراء، وقد خرجت من هذه الواقعة بمكسب نفسى كبير، ولو أن خسائرى مع الناس كانت ثقيلة لكن لعل الأيام تعقد الصلح بينى وبينهم.

إنه يركل الكرة...

منذ سنوات العمر الأولى، كان النزوع الدائم للحركة التى اتخذت أشكالًا وصورًا شتى. وكانت حركة رضا فى البيت لا تهدأ، وتتسبب أحيانًا فى مشكلات تتطلب العقاب بأنواعه المختلفة، الذى غالبًا ما يكون تهديدًا بأشياء لا يستطيع أن يستغنى عنها مثل عدم الخروج والمنع من اللعب وهذا عقاب شديد لا يُحتمل، وقليلًا ما يكون العقاب الضرب ولا يحدث إلا عند الاعتداء منه على الآخرين. وكانت حركته بين الأولاد

في نفس العمر أو أكبر أو أصغر في السن محاولة منه لإثبات الذات كما قلنا، وليقول للجميع إنني لست أقل عن أحد.

وكان من الألعاب التي يلعبها ولا يمنعه عنها مانع لعبة تسمى «السبع طوبات»، توضع فيها سبع طوبات فوق بعضها ثم يحاول واحد من الفريق ضرب هذه الطوبات بكرة صغيرة في يده، فإذا أوقع الطوبات فر من فوره وجرى وراءه واحد من الفريق الآخر ليضربه بالكرة، في الوقت الذي يحاول أصحاب الأول وضع الطوبات كما كانت، فإذا وضعوها قبل أن يصل إليه بالكرة فإنهم يعيدون الكرة مرة أخرى، إما إذا وصل إليه بالكرة قبل أن يعيدوا رص الطوب فإنهم يتولون أمر الطوبات السبع. وكنت من نجوم هذه اللعبة، وكانوا يستخدمون أيديهم في ضرب الطوبات بالكرة حتى تقع، وكنت أنا أستخدم رجلي، وكنت قليلاً ما أخطئ، وكنت أسرع فلا يكاد يلحق بي أحد.

ولا شك أن المشكلة في هذه اللعبة وفي غيرها كان كيف يتم استبدال عضو بعضو آخر، وكانت المشكلة تثار فقط في البداية وعند الاختبار، فكان السؤال الطبيعي: كيف؟ وما هي الوسيلة؟. كنت أجهز نفسي تمامًا وأشحذ ذهني وأعقد العزيمة بعد التأكد من الوسيلة ومنطقيتها رغم صغر سني، لعلها طبيعة الإنسان عندما يريد أن يحيا كما يحيا غيره، فهو في بحث دائم بفطرته وقلبه وعقله وحسه وشعوره عن الحل لذا كانت النتيجة غالباً ما تكون مرضية، ويتعود الجميع على الاختلاف، بمعنى استبدال عضو بعضو آخر ما دامت النتيجة واحدة ولا تختلف.. وهذا في نظري ما مكن الصبي من دخول عالم الحركة مع عدم وجود الجناحين كاملين، لأنه كان يحسب لكل حركة حسابها.

واللعبة الأخرى التى مارسها الصبى كانت «العدو من مكان إلى مكان»، وهذه عندما أتأملها الآن يصيبني العجب حيث كنت أفوز مرة وأخفق مرة، ومثار العجب أن الطبيعى أن يفوز من ينافسنى فى العدو دائماً لأنه يستخدم يده فى دفع نفسه إلى الأمام فى الوقت الذى ليس لى فيه هذه الوسيلة، ومع ذلك كنت أحياناً أفوز! ولا يمكن تفسير ذلك إلا بأننى كنت أبذل أضعاف جهده لكى أعوض هذا النقص. وهذه كانت إحدى الصفات التى أصبحت لصيقة بى، نعم كانت مصدرًا للعنت والتعب فى حياتى لكنها فى نفس الوقت كانت شعورًا بالرضا لا يحسه بهذا الشكل وفى هذه المواقف إلا من على شاكلتى.

لكن تاريخى مع الكرة يجعل القصة مختلفة بعض الشيء، لأنى كانت فيها نجمًا يشار إليه بالبنان، ولأنى بلغت فيها مبلغ الذى عشقته الكرة فلانت ودانت له وأطاعت كل ما يأمرها به. وتبدأ الحكاية منذ سنوات العمر الأولى، حيث الكرة هى أهم لعبة كان الأطفال والشباب والكبار يلعبونها، وكان يلهب ذلك مباريات الكرة التى كان يتابعها الصغير والكبير. وكانت ساحة شجرة الجميز هى الملعب الذى يشهد التنافس الحماسى فى المباريات، وبدأت الكرة أولاً فى صورة الكرة الشراب التى كانت عبارة عن بالونة متوسطة الحجم وتملاً بالهواء وتربط من العنق رباطاً محكمًا، ثم تلف ببعض الخرق الخفيفة، ثم تعصب بخيط يمسكه أحدهم بين أصبعيه حتى تبدو الكرة مدورة لانتواءات فيها، ثم توضع فى فردة شراب ليركلها اللاعبون كُلٌّ حسب مهارته. ثم تطورت الكرة إلى الكرة الجلد التى أخذت الشكل المعروف للكرة الآن، فهذا مدافع يحفظ مكانه، وهذا مهاجم يراقص بالكرة حتى تمر فى طريقها لإحراز هدف،

وهذا حارس مرمى يطير في الهواء لكى يحافظ على مرماه نظيفاً دون أن يهز شباكه هدف.

وكانت أول مرة أركل فيها الكرة فى سنوات عمرى الأولى مع أبى - رحمه الله - لأنه كان لاعباً كبيراً فى هذه الرياضة، وكنا دائماً ما نذهب معه إلى الملعب فيضع الكرة ويقول لى «شوط»، فأستجمع قوتى وأركل الكرة. ومن هنا بدأت علاقتى بالكرة التى كانت مجالاً آخر لإثبات الذات، ففى خلال سنوات قليلة كنت مع الكرة أشبه بالساحر الذى يعلق الكرة برجله فلا تفارقها، لدرجة أننى فى مرحلة متقدمة كنت أضع الكرة على قدمى الشمال وأضربها ضربات خفيفة تجعلها تعلو وتهبط حتى أطوف حول الملعب كاملاً وهى على قدمى كأنها مأمورة لا تغادره. وكنت أضع الكرة على رأسى وأضربها لتعلو ثم ترجع إلى رأسى وتستمر كذلك مدة طويلة فى مشهد كان يجذب إليه كل من يشاهده، خصوصاً أن من يفعل ذلك هو هذا الولد الذى رغم صورته تلك فإنه يحفظ توازنه ويبقى الكرة بهذا الشكل حتى يبدو أنه هو وهى فى اتفاق على أن تطيعه ولا تفارق مكانها.

هذا إضافة إلى المباريات التى كانت ملتبهة، حيث الدورات التنافسية بين الفرق وحيث البلاد تتجمع فى مكان واحد، ويكون هذا اليوم يوماً للتنافس ينتهى بحصول البلد الفلانى على كأس الدورة. وكنت أحد اللاعبين لهذه الفرق، وكانت الدورات الرضائية التى تقام على ملعب الساحة فى مدينة قويسنا وهو مقر لمركز شباب قويسنا. وكانت المباريات تبدأ من بعد صلاة التراويح إلى ساعة متأخرة من الليل، وكنت مع فريقى نجوماً يأتى زملاؤنا ومحبونا للمؤازرة والتشجيع، وكانت

خماسية أو سداسية، وكانت تُظهر مهارات اللاعبين لأن الملعب ضيق ويحتاج للنجم الذى يستطيع الوصول للمرمى بسهولة. وكثيراً ما كان يضربنى مدافع لأننى دائماً أنتظر الكرة فى منطقة جزاء الفريق المنافس، وكنت عندما تأتىنى الكرة أحاذر من ضياعها، فهى إما لزميل لى بجانب المرمى أو مررها غالباً من وراء المدافعين فى لحظة عين وإما فى التحام مع المدافع أحاول أن أمر منه لأحرز الهدف. وكنت صاحب لعبة اشتهرت بها فى كل الملاعب وكان كل لاعب يدخل علىّ يحذر منها، إذ تجعل الناس تضحك عليه لسرعتها الشديدة ولأنها إذا نجحت تحرز هدفاً محققاً. لقد كنت عندما تأتىنى الكرة أحاول أن أخدع المدافع كأنى سأمررها لزميل لى، لكنى أدفع جسمى بعيداً عنه قليلاً ثم فى أقل من ثانية أحمل الكرة فوق قدمى وأقذف بها من فوقه فيضحك عليه الناس فى اللحظة التى أنفرد فيها بحارس المرمى ويكون الهدف.

وفى مرة، كانت آخر مرة ألعب فيها هذه اللعبة فى قرية مجاورة لنا اسمها كفر وهب، وعندما تركنى المدافع وظننت أننى سأمر منه، إذا به وقد اطمئنت الكرة على صدرى يلف جسمه ويطلق رجله فى صدرى ويضربنى ضربة المنتقم، فكدت وقتها أن تخرج روحى، لقد كان فى الحقيقة كان يريد أن يحفظ كرامته الكروية، فهو يعلم أننى سأخدعه وهو لا يستطيع دفعاً إلا بهذا الشكل العنيف، فنال علقه ساخنة من كل المشجعين لى من قريتى وهم كُثُرُ وجاء واعتذر لى. لكن رغم ذلك كنت أحتاط لنفسى، فكان الالتحام مع الخصم قليلاً جداً، وإنما أصل إلى المرمى بالتمريرات الذكية دائماً.

وظللت ألعب الكرة فى صباى، وكنت ضمن فريق المدرسة

الإعدادى، وأذكر الأستاذ «ظريف ميخائيل» الذى كان شديد الأدب معنا وكان يشجعنا على الرياضة بأنواعها وكان يحثنى دائماً على تجنب الالتحام حتى لا يدفعنى أحد، وكان معجباً جداً بكونى لاعباً للكرة. وظللت كذلك فى المدرسة الثانوى وفى فريق كلية الحقوق. لكن اهتمامى بالكرة بدأ يقل فى الكلية، لأننى بدأت أنظر إلى مستقبل العلمى الذى كانت بواده قد اتضحت فى حصولى على المركز الثالث فى السنة الثانية للكلية، فبدأت أعرض عن لعب الكرة وبدأت أشعر أن هذه فترة من حياتى يجب أن أتجاوزها.

هكذا كانت فترة ركل الكرة فى حياتى فترة ثرية جداً، لأننى عشت فيها كما يعيش أى طفل أو شاب عنده موهبة للتحكم فى الكرة دون النظر إلى ما يراه الناس من عجز لم أره أنا، بل كانت لعبة الكرة وما شهدته الملاعب من مهارتى تتضمن تجاوزاً لكل المعوقات من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت ضرباً للمثال فى الإرادة عندما تصر أن يعيش صاحبها كما يعيش أى شخص عادى، وثالثاً كانت زرعاً لبذور الثقة فى نفسى؛ أنك حينما تدرس ما أنت مقدم عليه جيداً وتسبر أغوار أبعاده المختلفة ثم تقرر أن تخوض التجربة فلتفعل ولا تخف من عيون الناس فإنك ستنتجح حتماً.

يد بديلة وستيفن هوكنج

طفل فى مقتبل حياته بلا ذراعين، يده كل واحدة منها لا تزيد على بضعة سنتيمترات قليلة، تنتهى اليمنى بثلاثة أصابع وهذه اليد يصعب تحريكها إلا بتحريك الكتف، واليسرى تنتهى بإصبعين وهذان الإصبعان

هما اللذان يفعلان ما يقدران عليه، فهما يحملان بعض الأشياء ويمكن أن يمسك بهما قطعة خبز، يخفض رأسه قليلاً حتى يستطيع أن يلتقطها من بينهما، ولا مانع أيضاً من أن يطيح هذان الإصبعان مع اليد على وجه من تسول له نفسه الاعتداء أو مجاوزة الحد.. وهكذا كانت الصورة التي بدت أمام الأب فكان لابد من أن يبحث عن وسيلة طبية أو ما كان شائعاً وقتها من يد صناعية تعلق في كتف الطفل يحاول من خلالها أن يعيش حياة طبيعية أو أقرب إلى ذلك.

وأذكر وأنا في سنوات عمرى الأولى أننى سافرت كثيراً مع الوالد - رحمه الله - إلى القاهرة للعرض على أطباء في هذا المجال، فكان الرد أنه يمكن تركيب أجهزة تعويضية لكن لا تصلح له الآن، لأن جسمه مازال في طور التشكيل ولا يستطيع أن يحمل هذا الجهاز، وسوف يكون حملاً ثقيلاً عليه. وأذكر أن الوالد في هذه المرحلة الأولى من العمر كان لا يتوانى عن السؤال والسفر إلى الأطباء في مصر كلها.

وسعى والدى لتخطى كثيراً من العقبات بالنسبة لحاجتى الأساسية، كحاجتى إلى إطعام نفسى حيث أمسك الملعقة بإصبعى يدي اليسرى وأملؤها بما أريد من طعام، وبحث لى أبى عن ملعقة طويلة نسبياً حتى أتمكن من بلوغ ما أريد على طبلية الطعام، ومازالت هذه الملعقة تتنقل معى من مكان إلى مكان حتى استقرت فى بيتى بعد الزواج وإلى الآن. وكذلك الساندوتشات التى أمسك بها كما أمسك بالملعقة وأخفض رأسى قليلاً حتى أكون فى مستوى يتيح لى أن أطعم نفسى ما أريد من طعام بيدي.. ومن المشاهد والصور التى لا أنساها حين كنا نذهب خارج البيوت لكى نأكل التوت الأسمر والأبيض، فكنا نقذف الطوب

على الشجرة فينزل التوت فيهرع إليه الجميع، فاخترعت طريقة أستطيع بها أكل حبات التوت بعد أن أنظفها بأن أمسك بحبة التوت بين إصبعي قدمي الشمال بحيث لا تنفرك الحبة ثم أرفعها في مستوى الفم ثم أقوم بنفخها قليلاً قبل أن أمسك بها بشفتي ثم أحاول تنظيفها مما يكون قد علق بها من ذرات التراب ثم أقذفها في مجرى فمي بالهناء والشفاء. وكان أقراني يعرضون عليّ أن يجمعوا لي بعض التوت فكنت أرفض فقد حملت نفسي بنفسى وكفيت نفسي بنفسى، كل هذا قد جعل التفكير في أجهزة تعويضية للبدن غير مجد، وهذا لم يكن تقصيراً ولا تكاسلاً، وإنما الأمور كانت مدبرة بحيث أصبحت الحاجة إليها قليلة، فالحياة تسير بسهولة ويسر دون أية عوائق اللهم إلا أشياء قليلة في الملابس وقضاء بعض الحاجات التي يستحيل قضاؤها إلا بالمساعدة.

وهنا أتوقف قليلاً عند شخصية العبقري العالمى وأحد أكبر فيزيائى العالم «ستيفن هوكنج» الذى يجلس على كرسى متحرك منذ سنوات بعيدة.. وما أريد أن أتوقف عنده ويتصل بموضوعنا أن الرجل هيات له التقنية العلمية والتكنولوجية أدوات تساعد له على ما وصل إليه. فهذا الرجل منذ أن أصيب بهذه الإعاقة وكل شىء مهياً له للعمل وإجراء الأبحاث وكتابة الكتب وإجراء اللقاءات، حتى إن صوته لم تخرجه أحباله الصوتية فإذا بجهاز كمبيوتر يستطيع أن يكتب له من خلال عينيه ما يريد، ثم ينطق بجهاز الكمبيوتر بالكلام الذى يريده ستيفن هوكنج. وهكذا يشارك التقدم العلمى الإنسان فى نجاحه إن صح القول، شريطة أن يأخذ بأسبابه.

لذلك كنت أرى أن حياتى وحياة من هم مثلى وفى نفس هذه الظروف

كانت ستكون أقل كلفة وأكثر راحة وأرحب إنسانية إذا كانت قد أتيت لنا هذه السبل التي تمكننا من أن نتجاوز الكثير العوائق الحياتية والأشياء التي تبدو مستحيلة وأيضًا تجاوز البشر الذين يكونون بلا قلب أحيانًا، فلا يمد إليك حبل نجاة ولا يترك كلمة في طريقك تكون نورًا يهدي إلى أمل قادم في تلك الأيام الصعبة التي عاشها كل من له هذه الحياة. وعلى الرغم من تخطى العقبات الكبيرة والكثيرة في حياتي دون الاستعانة بأحد هذه الأجهزة ألا أنني رغم ذلك أتمنى أن تتاح هذه الأجهزة لكل من له نفس الظروف وأن تيسرها له الدولة، وهذه لعمري من أبجديات وظيفة الدولة تجاه مواطنيها إعمالاً لميثاق حقوق الإنسان الذي يفرض على الدول رعايتهم، وهذه من أخص حقوق الرعاية.

وقبل أن أختتم هذه الفكرة أحكى هذه الحكاية: اتصل بى صديق وقال لى إن طبيبًا كبيرًا قد عرض أن يصنع لك جهازًا تعويضيًا ليديك بعد أن سردت له قصتك، وهو يريد أن يراك، فراقت لى الفكرة وذهبت إليه وعرض على وجهة نظره وتحمست قليلًا، وبعد أن ذهبت إلى البيت وتصورت نفسى وشكلى فى هذا الجهاز الذى قال لى إنه سيكون ثقيلًا بعض الشيء لكن إمكاناته قد تغنيك عن القليل الذى تحتاج فيه إلى الناس، فخلعت قميصى ووقفت أمام المرأة ونظرت إلى نفسى، وقرأت فى وجهى وجسمى ويدى القصيرتين أن ثلاثة وخمسين عامًا قد مرت من عمري أكرمنى الله فيها بفضلها وكرمها، فقلت بينى وبين نفسى قبل أن أغادر المرأة «آه لو جاء العرض فى مقتبل العمر لكان الوضع مختلفًا». وأمسكت بالتليفون؛ ألوه يا دكتور أشكرك وأعتذر عن قبول العرض، لأننى سأكمل حياتى بيدى اللتين عاشتا معى وعشت معهما وسأنهى حياتى وهما معى وأنا معهما، يا سيدى شكرًا جزيلًا.

أبو الريض

كانت علاقتي بوالدي - رحمه الله - بمثابة العروة الوثقى التي تربط على حياتي برباط الأمن وتمنحني جداراً من الثقة لا أجده إلا عنده، وتلهب عندي حماسة الوصول إلى ما أريد وما يتمنى هو لى مما يرى أنى قادر على تحقيقه والوصول إليه، ويشحذ عقلى بما يطيقه من الفكر. وبالإضافة إلى ذلك كانت الزاد الروحى الزاخر الذى ينقله لى بشخصه فى البيت والمسجد وبقراءته الدائمة للقرآن أماناً فى البيت. كل هذه الصور شكلت علاقتى بوالدى - رحمه الله - الذى آمن بى إنساناً يستحق أن يعيش كما يعيش البشر، ووقف معى لنشكل معاً نحن الاثنين فريقاً ندافع أحياناً ونهاجم أحياناً ونحرز الأهداف كثيراً، لكن فى بعض الأحيان كانت تغلبنا أعاصير البشر فلا نأس ونحاول بلا ملل. وهكذا نشأت تلك العلاقة التى تحمل داخلها علاقات كثيرة؛ فهى علاقة أبوة يكون فيها الأب الحانى أحياناً الصارم والحاسم أحياناً أخرى، وعلاقة صداقة يفضى فيها الصديق إلى صديقه. فكثيراً ما حكى لى حكايات طفولته فى حى إمبابة وعابدين، وحكايته مع أبيه حسن الطويل الثرى الذى كان مضرب المثل فى زمانه سواء فى إمبابة حيث كان يسكن أو فى قريته التى غادرها والذى توفى وابنه فى فترة الصبا، وأمه التى قامت عليه ورعته وجاءت به إلى القرية بعد وفاة أبيه، وحكايات دخوله الجيش وفترات المناوبة مع زملائه فى الصحراء الواسعة التى كان فيها الرمل الذى تحملها الريح العاصفة وهو يلهب رجله العاريتين حيث كان يلبس شورت فى بداية التحاقه بالجيش، وزملاؤه فى هذه الفترة، ورأيه فى جمال عبد الناصر الذى خُذع فيه بعد ما حدث فى نكسة 1967، حكايات كثيرة من حكايات الصديق لصديقه.

وكنت أشعر وأنا أسير مع أبى أنه فى غاية الفرح، وكأنه يريد أن يؤكد بالصورة والموقف كم هو معتر بهذه الأبوة لهذا الولد الذى قد يظن من ليس له قلب ولا مشاعر أنه عبء عليه أو أنه يريد أن يتخلص منه كما كان يقال. وما أعجب ما أقرؤه اليوم فى الصحف عن بعض الآباء والأمهات الذين يخفون أولادهم الذين ولدوا بنقص ما فى أعضاء أجسادهم إخفاءً قسرياً ويدخلونهم سجنًا أبدياً ويرمون عليهم ستائر نسيان كثيفة، حتى يصبح الواحد منهم كأنه ميت وهو على قيد الحياة، أى قلوب هذه!!! وأى مشاعر تلك التى تحكم بالموت على من أراد الله له الحياة!!

وفى الحقيقة عندما أذكر أبى وأمى وكيف كانت معاملتهما معنا نحن الثلاثة، أخى حسن الكبير والذى يليه ياسر ثم أنا أدرك كيف تكون الفطرة الإنسانية عندما تستقيم وتطهر ولا يصيبها دنس ولا يلحقها طمع ولا تزورها دوافع الشر وتبقى على خلقتها الأولى نقية صافية، فإنها لا تفعل إلا الخير ولا تبتغى إلا الصلاح للإنسان أينما كان زمانه ومكانه وكيفما كانت العلاقة التى تربطه بأخيه الإنسان.. فالألم رغم مشاغلها التى لا تنتهى حتى تسقط نائمة فى آخر النهار، إلا أنها فى المعاملة تكون فى منتهى الطيبة والحنان ومنتهى الحسم أحياناً، وإن كانت فى كثير من الأحيان تتراجع أمام دمعتين من أحدنا.. وأما الأب فكانت معاملته معنا دروساً عملية فى التربية سواء فى قول يبين المراد منه، أو فى حرص منه على الصلاة فى المسجد وحرصنا بالتالى معه على ذلك دون أمر مباشر منه إلا إذا وجد تكاسلاً، والمساواة بيننا فى المعاملة، فالثواب لمن أحسن وأجاد والعقاب لمن أساء أو أخطأ. وكان لاعباً كبيراً فى الملاعب وكان معروفاً بأخلاقه الطيبة فى الملعب، فهذه كانت درساً تربوياً عملياً تعلمنا منه بعد أن شهدتنى الملاعب ألاعب الكرة وأركلها وأمررها، ومعها ألترم بكل ماتعلمته من أبى أخلاقياً داخل الملاعب.

ومن أظهر الدروس الرائعة في شخصية أبي - رحمه الله - إحساس كل منا نحن الثلاثة بأنه قريب إلى قلبه، وكان لكل منا اسم يدللنا به، فحسن «أبو على»، وياسر «أبو اليسر»، أما رضا فكان اسمه «أبو الرضى». وكان يناديني بهذا الاسم أمام الناس وفي البيت وحين دخوله من عمله، ظل يناديني به حتى توفاه الله رحمة الله عليه. وكان كثيرًا ما يحكى لنا ماذا حصل في يومه، خاصة أنه كان يسافر بالقطار وكان يأخذ في يده كرسيًا من الحديد يفتح ليجلس عليه طول الطريق، ويحكى قصصًا عن زملاء القطار وعن أصدقائه في المعهد الفني للقوات المسلحة حيث استقر به المقام، وكيف كانوا يمثلون أسرة مع بعضهم البعض، ويحكى عن مسئوليته عن الرياضة في المعهد وعن رياضة العدو التي كان يعشقها بجانب الكرة وحقق فيها بطولات على مستويات كبيرة، سواء في الجيش أو في المسابقات المدنية والميداليات التي حصل عليها ومازالت تملأ أدراج بيتنا القديم. وكان كثيرًا ما يقول لنا ونحن صغار - لذكرنا - أننا أعز ما يملك في حياته، وأن الله إذا كان قد كتب عليه ألا يكون له أخ في الدنيا فإنه قد من عليه بأن جعل له ثلاثة إخوة. هكذا كان يفيض علينا من روحه وينشر علينا أثواب عطفه الجميل وينثر فوق رؤوسنا حبات نبل وكرم وود، لا تراه ولا تسمع به إلا عند الطيبين من عباد الله الذين لا يريدون إلا رضا الله مختومًا به على قلوب ووجوه أبنائهم.

كانت هذه الفترة تمهيدًا لدخول معارك حامية من أجل البقاء، إما أكون أو لا أكون، إما إنسان له حق الحياة الكريمة وإما كم مهممل ملقى في زاوية من زوايا حياة البشر لا قيمة له في الحياة ولا نفع منه لنفسه ولا للناس.. ترى أى حياة له ستكون؟

الفصل الرابع

المقابلة الحاسمة وفتح الأبواب

لست محتاجاً لعطف أحد «درس للحياة»

هذا ما نشأت عليه وما تعلمته وما وَقَر في نفسي وما جاءني في صورة أمر واضح وصريح، سواء بالحال أو بالمقال، من والدى منذ خرجت للحياة. وكان أشد ما يحرص عليه أن يقضى تماماً على صورة العاجز، كما كان يقال وتتفوه بها أفواه الناس، عندما يصفونني في موقف ما وتتبعها مصمصات الشفاة والصوت الذي يخرج الفم من فرط الأسى على الصورة التي تراها العين ولا تحتملها لهذا الذي يحتاج إلى مساعدة الآخرين، أو صورة الطفل البركة الذي تستدر به البركات، فكل من يراه يتمسح في ثيابه أو يُقبل يديه أو هذه الأشكال من الجهل بالدين والعقل والفطرة السليمة من الناس، والتي كانت منتشرة ومازالت لها آثار في حياتنا المعاصرة. وهنا يجب أن نفرق بين هذه الصور الكريمة وبين استجلاب البركة بسؤال الصالحين الدعاء والتقرب إليهم وحسن معاملتهم والتماس مجالستهم، لأن القرب من الصالحين فلاح. ومنذ عقلت، وأنا أبذل الجهد بقدر ما أستطيع حتى أتصل بمن أرى فيه

صلاًحاً وتقى وقرباً من الله أطلب منه الدعاء، وأفعل ذلك في جميع شئونى ولا أرى فيه خروجاً عن الدين الصحيح والعقل الواعى والفطرة السليمة. أما أن أتبرك بفلان وأجعل منه وسيلة وزلفى لا أصل إلى الله إلا عن طريقه بحيث يكون هو الباب فهذا ما فهمته من النهى الجازم والصريح من أبى فى هذه الفترة.

ولا أنسى موقفاً لأحد الناس اقترب منى وأمسك بيدى وأراد أن يقبلها، فعنفه أبى بل زاد فى الموقف فأبعده عنى وتوعده إن فعلها سيوجعه ضرباً. من هذا الموقف ومن معاملته السوية معى التى لا تختلف عن إخوتى الذين انضم إلينا رابع وهو أخى محمد؛ فكان لا يفرق فى المعاملة ولا يعمل أدنى حساب لظروفي، إذ كان يريد أن يستقر فى نفسى أنك مسئول أمامى تماماً كإخوتك، وأن الخطأ ستعاقب عليه والصواب ستكافأ وتُثاب عليه.

وأذكر واقعة لا أنساها ما حييت وكانت فى سن خمس أو ست سنوات، حيث كان هناك فرح لواحد من عائلة الفلاح الذين كانوا فى هذا الوقت يسكنون المنطقة معنا، وكان العريس يجبنى كثيراً ويلاعبنى كلما كان يمر بنا فى الطريق أو أثناء اللعب أو إذا صادفنى فى المسجد، وكأنها كانت صداقة بين هذا الشاب وبينى، وفى يوم عرسه حيث تجمع الناس وهو يمشى بين أصدقائه وأحبائه لمحنى فتركهم وجاء إلى وأخذنى من بين جميع الأطفال، منهم أخواى حسن وياسر، وأدخلنى البيت وجاء بطعام وأطعمنى بيده وانتهى الموقف، ورجعت إلى البيت فوجدت الموقف قد انتقل بالصوت والصورة إلى أبى الذى امتلاً غضباً، فلما رأيت وجهه حاولت ونجحت فى الإفلات من نظرات عينيه وكان يجلس فى دهليز البيت كعادته.

وظننت أن الأمر قد انتهى، وأنها نظرات عابرة لغضب يخص غيري، ولكن دب إلى نفسى الرعب وأحسست أن شيئاً كبيراً قد حدث، وفي أثناء ذلك تذكرت عزومة الفرح ودعوة العريس، وفاجأني أبى بالسؤال: أين كنت؟ فتلعثمت ولم أستطع أن أرد فقال: أنت كنت فى الفرح، فأشرت برأسى نعم، ثم قال: والعريس أخذك أمام الناس جميعاً ووضع لك الأكل وهو الذى أطعمك بنفسه، وظل يردها عدة مرات، ثم انهال على ضرباً لم أره منه فى حياتى إلا فى هذه الليلة. وبينما كان يلهينى بسياط ضربه المبرح كان يردد قوله: «أمام الناس»، وبعدما تعب من الضرب وبعدما بدأت روحى تذهب مع البكاء وتأتى وأصبح النفس الداخلى إلى صدرى والخارج منه من أثر البكاء والصراخ ثقيلاً، علا صوته وقال: لست محتاجاً لعطف أحد ولا تسمح لنفسك أن تكون محلاً للشفقة ولا تجعل الناس تنظر إليك فى موقف ضعف فأنت لست مختلفاً عن الناس.

هذه الليلة وهذا الموقف حفرا فى نفسى واستقرا فى كيانى، وتعلمت ألا أسمح لأحد أن يتبرع بمساعدتى إلا إذا طلبت أنا المساعدة، بحيث تكون حسب ما يتطلبه الموقف، وتعلمت أن أشكر من يعرض المساعدة وأعتذر عن تقبلها ما دامت فى مقدور نفسى. ويحدث هذا كثيراً خصوصاً فى حفلات الطعام أو عند شرب أى من المشروبات، ولو أحسست أننى سألاحق بالعيون فإنى أعتذر عن الطعام والشراب تنزهاً عن وضع نفسى فى موضع شفقة أو عطف لا يروقان لمن علمه أبوه «أنك لست محتاجاً» لعطف أحد، ويجب أن تعتمد على نفسك ولا تركز إلى الناس إلا فيما لا حيلة لك فيه ولا بد منه.. هذا درس حياتى الذى تعلمته فى هذه الليلة بعلاقة ساخنة لم تتكرر، لأن الدرس قد استوعبته النفس وأصبح سلوكاً ومنهجاً فى الحياة.

الطبلية ولمبة نمره خمسة

هذا الزمان عشته وأنا في سنوات عمرى الأولى قبل دخول المدرسة، في نهاية الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضى، حيث كان بيتنا الذى كنت أعيش فيه مبنى من الطوب اللبن «النّى»، وكان عرض الحائط كبيراً يصل إلى نصف المتر حتى يكون متماسكاً من ناحية وحتى يحمى البيت من رخات المطر وهى تخط خطها في الجدار الذى لو كان رقيقاً لسقط بفعل المطر عامًا بعد عام من ناحية أخرى. كذلك كانت الجدران السميكة - التى يلتصق بعضها ببعض بالطين الذى يعجن من التراب والماء - بمثابة جهاز تكييف، حانية لطيفة في حر الصيف دافئة في برد الشتاء. وكنت ترى الناس أمام البيوت في الشتاء يوقدون النار في وعاء من الصاج أو الحديد في الخشب والحطب وغيرها من الوقود التى يعرفها الناس في ذلك الوقت، لكى يستدفئوا بها ويدفئوا المكان الذى يجلسون فيه وينامون، وكانت هذه المدفئة تسمى «الرَّكِيَّة». وأما في الصيف، فقد كان الناس يخرجون إلى الساحات ويسمرون مع بعضهم البعض بجانب البيوت.

ومما علق بذهنى من صور في هذه المرحلة المبكرة من حياتى فترة ما قبل الإفطار في رمضان بساعة أو ساعتين، حيث ألواح الثلج التى يتجمع الناس حولها لكى يأخذ كل واحد منها نصيبه ويشتريها لكى يبرد بها الماء وكوب التمر الذى يفطرون عليه. ومن أظهر ما كنت تراه ولا تخطئه عينك البساطة وعدم التكلف والرضا المختومة صورته في وجوه الناس وكأئنه به معاملاتهم وثرية به قلوبهم رغم قلة ذات اليد... من هذه الصور أن تطلب جارة من جارتها «بعضشى» من الملح أو «ندعة» زيت

كما كانوا يقولون في هذا الوقت أو رغيين عيش إلى أن تحبز، وجارتها تعطى برضا لأنها تفعل نفس الشيء في وقت آخر.

وكانت توضع في صالة البيت - الدهليز - اللبة الجاز نمرة عشرة، حيث كانت جلسة أبى - رحمه الله - وأمى ونحن حولهما نجلس نستمع إلى الراديو، ويدور الحديث بالفكاهة مرة وبالحوار مرة وبالسؤال عما جرى في يومنا من مشاكل مرة وبشكوى الأم التي كانت تعاني طوال اليوم من حركة أولادها الثلاثة التي لا تهدأ وما يتبع ذلك من توريط في المشاكل، وقد يتخلل ذلك بعض الفقهشات من الوالدين أو من أبنائهما الثلاثة، هذا في ليالى الصيف.

أما في ليالى الشتاء فكان الكل يتجمعون في غرفة واحدة، وتوضع الطبلية في منتصف الغرفة، وهى عبارة عن قطعة مدورة من الخشب على أربعة أرجل بحيث تثبت على الأرض، وتكون محلاً للمائدة الطعام حيث تتحلق الأسرة حولها، وتكون أيضًا مكتبًا للمذاكرة وتحصيل الدروس التي بدأت في هذا البيت مع حسن الذى أصبح في الصف الثانى الابتدائى، ويأسر الذى يليه في الصف الأول الابتدائى، وكانت لمبة نمرة خمسة توضع في منتصف الطبلية حيث يكون الضوء قويًا، ويجلس الوالد وعلى يمينه حسن وعلى يساره ياسر وتبدأ المذاكرة التي ترى فيها اللين أحيانًا وترى الشدة أحيانًا أخرى، وقد ترى فيها كفاً شديداً يطرق على رأس أحدهما فيصطدم على إثره بالطبلية فينزل الدم من الأنف ويبدأ البكاء، وتستمر المناهدة بين الأب وابنيه طوال الساعتين أو الثلاثة، وتنظر الأم - رحمه الله - وهى جالسة على السرير، تفرح عندما ترى كلمات المدح والثناء، وتبكي في نفسها عندما ترى اصطدام الرأس

بخشب الطبلية دون أن تصدر أى صوت، فصوت بكائها مكتوم حتى لا يتأثر بها أحد الولدين.

وكان الوالد - رحمه الله - شديد الحرص على التعليم وعلى المتابعة لكل صغيرة وكبيرة تخص الولدين فى كل ما يُحَصِّلون من مواد دراسية رغم قلتها فى البداية.. وكانت جلسة المذاكرة تكاد تكون بقداسة الصلاة عنده، وكان هذا طوال عمره معنا حتى انتهينا من تعليمنا الجامعى، ولعل عدم إتمامه للتعليم جعله حريصًا ألا يفوت أولاده ذلك وأن يزرع فيهم حب التعليم، وكان كثيرًا ما يحمس نفوسنا بمآل من يتعلم كأن يرغبنا فى أنك ستصبح مهندسًا أو دكتورًا أو مدرسًا كالذى تراه فى فصلك. وكنت فى سن الخامسة أجلس أمام الطبلية بجانب أبى وأرى ما يدور بينه وبينهما، وحاولت فى هذه الفترة أن ألتقط بعض العبارات مما يردده أخوى حيث كان كتاب القراءة والمطالعة فى هذا الوقت عن عادل وسعاد، وكنت أردد كثيرًا العبارات التى ألتقطتها، مثل عادل يلعب فى الحديقة وسعاد تلعب فى الحديقة، وهذه العبارات المكتوبة أسفل الصورة التى يراها التلميذ فتساعده على التخيل.

وكان والدى - رحمه الله - يجلس معى بين فترات مذاكرة أخوى ويسمع منى ما التقطه منهما أثناء المذاكرة، ويكون شديد السعادة حينما يرانى أردد ما سمعت منها. ولعل وجود أخوى فى سنتين سابقتين عنى قد منحنى فرصة أن أعرف مواد الدراسة قبل أن يعرفها زملائى، ثم إن هذه الجلسات قد فتحت لى ولأبى بابًا، ففتحت لى نافذة للتعليم الأولى الذى يكون فيه الطفل متجوابًا مع ما يسمع مما يعطيه الثقة فى نفسه بعد ذلك فى قابل الأيام، وأما أبى فقد فتحت له باب الأمل فى هذا الولد الذى كان مشغولًا دائمًا بأسئلة لم يدر لها جوابًا، مثل هل سيتعلم هذا الولد بشكله

هذا؟ هل ستنتج عملية تعليمه؟ كيف سيمسك الكتاب؟ كيف يكتب؟ كل هذه الأسئلة كانت تدور في أعماق نفسه فجاءت هذه الجلسات الأولى لتفتح له باب الأمل في هذا الولد الذى يحفظ ما يردد أمامه من عبارات وأناشيد لأخويه، ثم لإقباله الشديد على التعليم وحبه لجلسة المذاكرة، ثم بعد فترة وهو جالس فى جلسة المذاكرة وجد رضا يحاول الإمساك بالقلم بإصبعى رجليه الشمال الكبير والذى يليه لتبدأ مرحلة جديدة.

القلم وقبضة الإصبعين «برافو يارضا»

لعل هذا الموقف من أهم العلامات فى المسيرة الحياتية على امتدادها، لأنه كشف عن وازع يحرك صاحب القدم الذى أمسك القلم، وازع بحثه على أن يكون فى واقع الحياة التى يعيشها البشر فاعلاً بما عنده من ملكة ابتكار تعوض ما فاتته من نقص أراده له القدر، وهى فى نفس الوقت إشارة لمن حوله أننا أمام مثال لمن لا يرتمون فى حضن يأس عارض يقتل فيه الطموح ولا أمام أمنيات ليس لها فى واقع الحياة وجود.. عِلِمَ كل من حولى وخاصة أبى هذه الحقيقة، وكعاداته لم يفوت فرصة حماس ابنه المتقد وإنما شجعه وبدأ معه، كيف يمكن أن يمسك بإصبعى القدم قلمًا يخط به على الورق ما يجعل الحياة تفتح الذراعين له مرحبة؟

كان الأمر صعباً جداً فى البداية حتى إن الأب قارب على اليأس وخاف من فشل التجربة، فقال له: سنجرب فى وقت آخر، لكن رضا ترك أباه وراح يتدرب على الإمساك بالقلم ويعيد المحاولة بينه وبين نفسه؛ يضع القلم على الأرض ثم يمسكه بالقدمين ثم يفتح مابين الإصبعين ليدخل القلم ويستقر فى مكانه، وأخذ يحاول حتى أجاد تماماً كيف تكون عملية وضع القلم بين الإصبعين سهلة وأصبح ذلك كل شغله.

وعندما أعاود التفكير في هذا الموقف أعجب، هل يرجع الإصرار على النجاح في هذه الخطوة إلى إدراك رضا لأهميتها؟ لكن كيف وهو طفل صغير لا يرقى فكره إلى تمثل المآلات والمرامي من الأفعال التي يأتيها الإنسان، وخصوصاً وهو في سنوات عمره الأولى؟

أعاننى على الوصول إلى إجابة هذا السؤال موقف قفز إلى ذهني للمعجزة البشرية هيلين كيلر، عندما تعرفت على العالم من حولها لأول مرة عن طريق معلمتها آن سوليفان، فكتبت في كتابها «قصة حياتي العجيبة» تقول: «وقامت معلمتي بوضع يدي في الماء المتدفق، وبينما كان تيار الماء البارد يتساقط على يدي راحت المعلمة تتهجى بلمساتها على اليد الأخرى ببطء أولاً ثم بسرعة كلمة «ماء»، وقد وقفت ساعتها هادئة وكل انتباهي موجه نحو حركة أصابعها، عندها تكشف لى أحد أسرار اللغة إذ علمت أن «م ا ء» تعنى ذلك الشيء البارد الرائع الذي كان يتدفق على يدي.. لقد أيقظت تلك الكلمة الحية روحي وأطلقتها من سجنها»، وتضيف هيلين كيلر: «لقد تعلمت في ذلك اليوم عددًا هائلًا من الكلمات، أتذكر من بينها كلمات: «أب وأخت ومعلم». لقد كان من الصعب العثور في الدنيا كلها على طفل أكثر منى سعادة حين رقدت في سريري في تلك الليلة، ورحت أتقلب في ألوان السرور التي جلبها لى ذلك اليوم.. وإذا بى لأول مرة أتطلع في شوق إلى طلوع اليوم التالي».

هكذا كان الموقف مع رضا عندما نجح في تثبيت القلم بين إصبعي قدمه الشمال، الكبير والذي يليه، ولأنه كان يعرف رسم الحروف والأعداد مما كان يراه مع أخويه فقد كانت الكتابة ورسم الحروف

وكتابتها سهلة بعض الشيء، وعَلِمَ أبوه بهذه المفاجأة المذهلة فكانت ليلة الاحتفال به. لكن كيف سيجلس وهو يكتب وكيف سينظر إلى ما يكتبه وهو بعيد عن عينيه؟ أجاب رضا عملياً وفي نفس اللحظة، بأن وَصَعَ الكتاب الذى سيكتب منه أمامه ثم جلس ووضع رجله اليمنى تحت مقعديه وأقام رجله اليسرى كالزاوية القائمة ثم جاء بالقلم الرصاص وعلقه بين إصبعيه، فدهش أبوه كيف فعلت هذا؟ فقلت حاولت عدة أيام حتى نجحت الفكرة كما ترى. وبدأ الأب متحمساً جداً وأخذ في صدره وهو يقبل رأسه وربت على كتفيه، وأخذ يردد كثيراً وبصوت عالٍ: «برافو يا رضا برافو يا رضا»، وترك هذا الإطراء والمدح من الأب أثرًا لم يمح على مر حياتي، ذلك لأننى أدركت أهمية الخطوة ورمزيتها في سبيل يعرف الطفل أنه سيكون شاقاً وصعباً، وتكون هذه الخطوة لبنة قوية في بناء الثقة في نفسه وفي دفع العجز المتوهم من الناس تجاهه.

ورغم أن هذه المعانى تبدو بعيدة عن ذهن طفل في مقتبل عمره ولكنها «غريزة حب الحياة» هى التى دفعت هذا الطفل لكى يعرف أهمية هذه الخطوة في حياة كل العيون إليها شاختصة. هذه هى الإجابة عن سؤالنا السابق عن سر إصرار رضا على النجاح وأيضاً إصرار هيلين كيلر.

وبدأ الأب يعلم طفله كيف يكتب وكيف يُحسن خطه وكيف يضع النقاط وكيف يصنع للفاء والقاف رقبة وكيف تختلف عن الميم، و...، واستجاب صاحبنا، بل كان يكتب برجله كثيراً على تراب الأرض ما يستحيل عليه، حتى يدرب نفسه وينجح في كتابته عندما يستقر القلم بين قبضة الإصبعين. وظل الطفل كذلك حتى وصل إلى مرحلة متقدمة

جدًّا، حيث استطاع أن يكتب اسمه واسم أبيه واسم جده: رضا عبد السلام حسن، ويكتب الحروف منفردة ويكتب أيضًا الأعداد، حتى أصبح يكتب ما يكتبه تلميذ في أول سنة دراسية.

ومن الفكاهات التي كنا نتندر بها ونحن صغارًا، عندما يسأل بعضنا بعضًا مثلًا: خمسة زائد أربعة تطلع كام؟ فكان كل من زملائي يفردون أصابعهم العشرة ويقول الواحد منهم مشيرًا إلى أصابع إحدى يديه الخمسة ثم يطبقها ويعد الأربعة من اليد الثانية، أما أنا فكنت أشير إلى أصابع القدم وأقول الخمسة ثم أعد من أصابع اليدين الأربعة الأخرى وأنا أفردهما دون أى شعور بالخرج. وكان الموقف رغم ما يحمله من فكاكة إلا أنه كان تعبيرًا عن البحث الدائم عن البديل الذي لا يقل في نتيجته وهدفه عن الأصل. وما زال هذا الشاء الجميل من هذا الرجل العظيم والدى - رحمه الله - يرن في نفسى وتسمعه أذنائى عبر رحلة الحياة كلها «برافو يا رضا برافو يا رضا».

إنهم يقتلون الأمل

كان تمكن رضا من الكتابة بالشكل الذى أنجزه وشجعه عليه والده السبب فى ثقة الجميع من قبوله فى المدرسة، وكان دخول المدرسة بمثابة العيد للطفل الذى يأتى عليه الدور لدخولها. فقبل الدخول، تستعد الأسر لى تجهز أبناءها حسب الإمكانيات فى هذا الزمان. فلبس المدرسة فى أول السبعينيات من القرن الماضى كان عبارة عن مريلة «تيل نادية» طحينية اللون بحزام من الوسط للجنسين، الأولاد والبنات، يلبسها الطفل طوال العام، ولم تكن هناك هذه الأشكال المختلفة والمتنوعة مما

يُفرض في المدارس الخاصة والعامة في وقتنا الحاضر، والتي يتنافس المجتمع وإدارة المدرسة وأولياء الأمور أنفسهم على المغالاة فيها. وكانت معظم الأسر في ذلك الوقت لا تستطيع أن تُفصل مريلتين، فكانت الأم تغسل المريلة يوم الخميس ليذهب بها ابنها إلى المدرسة يوم السبت. وكانت حقبة المدرسة عبارة عن كيس من نفس قماش المريلة، ويكون له يدًا طويلة، يحملها الطفل على كتفه أو ظهره بعد أن يملأها بجميع كتبه وكراريسه، وكان يحملها غالبًا وهو منحني إلى الأمام قليلًا لثقل ما تحويه الحقبة التي كنا نسميها «الشنطة».

وكان المصروف اليومي في هذا الوقت «تعريفة» أى خمسة مليات، وعندما يكون الأهل أكثر يسارًا يكون «قرش صاغ» أى عشرة مليات، وكانت التعريفة تشتري رغيف عيش وقرصين طعمية، وكان قرش الصاغ يوسع على الطفل إذ يتيح له أن يشتري حلوى مما يجلس بها بعض البائعين حول المدرسة.. وأول يوم في دخول المدرسة، ترى المكان وقد شهد كمًّا كبيرًا من الناس يأخذون بأيدي أبنائهم إلى فصولهم التي سيجلسون فيها طوال العام، ويطمئنون عليهم ثم يتركونهم.

هذه المشاهد لا يمكن أن تمحي من ذاكرتي لشهرتها من ناحية، ولأنها من ناحية أخرى شاهدة على فترة من الفترات التي كان فيها - رغم الفقر وقلة ذات اليد - حرص شديد من الآباء على تعليم أبنائهم ومتابعتهم. لذلك فإن هؤلاء الفقراء من أهل القرية خرج أبنائهم إلى الحياة أطباء ومهندسين ومدرسين، وهذه كانت من حسنات جمال عبد الناصر المتفق عليها والتي يشهد له بها التاريخ المعاصر.

وقد شهد بيت صاحبنا من قبل فرحتين بدخول حسن وياسر المدرسة

عاماً بعد عام، والكل ينتظر دخول رضا للمدرسة. لقد كان والده يتوجس خيفة من عدم قبوله، ولأنه قريب من الأستاذ «جلال السبادوني» الذى كان مدرساً فى المدرسة وكان صديقه، فقد سأله عن دخول رضا المدرسة فأمله عدة أيام حتى جاء وقت بداية الدراسة، وذهب رضا مع الأولاد فى أول يوم ليفرح مع أخويه حسن وياسر بأول يوم مدرسة حيث عيد التعليم السنوى فى القرية.

ويفاجأ رضا ووالده أن اسمه غير مدرج ضمن من لهم حق الالتحاق بالصف الأول الابتدائى، وأنه يجب عليه أن يعود وليس له الحق فى دخول المدرسة، فثار الوالد، ولكن لم يلتفت إليه أحد، وبعد أن مر هذا اليوم الذى كان صعباً جداً عليه بعد أن رأى من ابنه إقبالاً على التعليم، بل إنه يفوق من أنهى السنة الأولى الابتدائية من حيث كتابة الحروف والأرقام بإصبعى قدميه ثم بشخصه الذى ينبئ عن مستقبل على الأقل مقبول، فلماذا يُحرم من إعطائه الفرصة.

وظل هذا الشد والجذب عدة أشهر، حتى ضاعت السنة الأولى على رضا. وفى إحدى المرات سأل الوالد صديقه المدرس الأستاذ جلال السبادوني: لماذا يُحرم طفل بهذا الشكل من التعليم؟ ومن قال هذا؟ وأى عقل أو قلب يقبل هذا الكلام؟ هنا صرح له صديقه بأنه جاءهم أمر وزارى بحصر الأولاد الذين عندهم إعاقة ومنعهم من دخول المدرسة وعدم السماح لهم بالتعليم، وكأن هؤلاء قد سقطوا تماماً من اهتمام وزارة التربية والتعليم فى هذا الوقت، فثار الوالد، ولكن الأستاذ جلال نصحه - بعد ما رأى رضا وقدراته - أن يأخذه ولده ويذهب به إلى وكيل الوزارة بالمنوفية فى مدينة شبين الكوم، ووصف له المكان، واستعد الوالد لهذه المعركة وهو يشعر أنها أهم معركة فى حياة هذا الطفل، حيث ستفتح له

المدرسة أبوابها ومعها سيفتح القدر له أبواب الرحمة والسعة وسيفتح له قلوب المخلصين من عباده، وسيبتليه في المقابل بقلوب غلف وعقول عمى، لكن هذا قدره وقدر أبيه معه.

المقابلة الحاسمة

محطات فاصلة في حياة كل إنسان تحددها ظروف الحياة التي يحياها، وتتفاوت فيها المواقف والأحداث والأشخاص، ولكن يبقى أنه تتحدد على نتائجها بشائر المستقبل الذى ينتظر صاحبه غداً، إما شروق كشرق الشمس وإما غروب وأفول كظلمة ليل الشتاء عندما يحل في قريتنا الصغيرة.

صلى الوالد صلاة الفجر وجلس بعد أن ختم الصلاة يدعو الله ألا يرجع بولده كاسف البال حزيناً، وتذكر رضا حينما وُلد وتذكر كيف وضع الله حبه في قلبه وقلب والدته، وكيف هباً له وسيلة الحب والوقوف، وكيف خرج إلى الحياة محاطاً بحب زرع الله في قلب معظم من يراه، ثم حرصه الشديد على أن يفعل كل شيء مما يفعله أخواه أو الأولاد من حوله. ثم قفز إلى ذهنه هذا الدعاء الذى دعا به وقت أن ولد رضا «يا رب أنت خلقتهم وأنت يا رب الذى تيسر له سبل الحياة» فدعا به، وظل يردد «يا رب يا رب»، ثم خرج ليذهب بابنه إلى شبين الكوم وكان قد مر على دخول الأولاد المدارس حوالى شهر في سنته الثانية، بعد ضياع السنة الأولى التى رفضت فيها إدارة المدرسة دخوله. وأثناء الطريق، والسيارة تطوى الأرض طياً بين أشجار الكافور على الجانبين، ظل الأب يتمتم بالتسبيح والتحميد ويدعو الله ألا يخيب ظنه.

وصلنا إلى مبنى المديرية، ودخلنا إلى مكتب الرجل، يومها لباس الوالد يومها لبس الجيش، وقال لمدير مكتبه إن لديه شكوى يريد أن يقدمها ويعرضها على وكيل الوزارة، فقال له: هل ممكن أن تكتبها وأعرضها عليه؟ قال له الوالد: إنه يريد أن يقابله وأن هذا الولد له ظروف خاصة كما ترى، وأنه يريد أن يعرض عليه المشكلة بنفسه، وأنه أتى بالولد معه لهذا الغرض، فسمح له بالدخول.

دخل الوالد والولد ورحب الرجل بهما، وكان يبدو على وجهه آثار الزمن حيث خطوط الجبهة وانحناء الظهر القليلة ونظارته العتيقة تشي بذلك، لكن استقباله كان لطيفاً. وعندما رآنى أصابه تعجب ظهر فى شخوص عينيه تجاهى وفى سؤاله المباغت: الولد ده ابنك؟، فرد والدى: نعم هذا ابنى رضا، ثم هاجم الوالد الرجل بالسؤال الذى يحمل الاستفهام والاستنكار معاً: لو حضرتك عندك ابن بالشكل ده ترضى وتقبل إنه مايتعلمشى؟.. فسكت الرجل، فواصل الوالد كلامه وقال: لو حضرتك لم توافق سوف أذهب لوزير التربية والتعليم وإذا لم يوافق سأذهب إلى رئيس الوزراء وإذا لم يوافق سأذهب لجمال عبد الناصر وإذا لم يوافق سأذهب به إلى ميدان التحرير وأضربه بالنار لأقتله، لأن هذا الولد من غير تعليم كأنه ميت، ولأثبت لحضرتك أن الولد ممكن يتعلم وعنده القدرة اتفضل حضرتك - وأمسك بى الوالد وخلع حذائى ورفعنى على مكتب الرجل، وقال لى بعد أن وضع القلم الرصاص فى إصبعى قدمى أكتب، فكتبت رضا عبد السلام حسن مدرسة كفر الشيخ إبراهيم الابتدائية، فبهت الرجل ولم يصدق نفسه من هول الموقف من كلام الأب الموجوع بمستقبل ابنه ثم من هذا المشهد الذى لم ولن يتكرر فى حياته، أن

يمسك طفل في هذا العمر القلم بهذه الطريقة ويكتب بهذا الخط السليم الصحيح المقروء الذى يبهر كل من يراه. هنا أمسك الرجل بورقة بيضاء وسحبها دون أن يتكلم وقد ارتسمت على وجهه سيما الرضا لما سمع ورأى، وكتب يُقبل رضا عبد السلام حسن بمدرسة كفر الشيخ إبراهيم الابتدائية فوراً؛ فلم يصدق الوالد نفسه هنا دمعت عيناه، فقال له وكيل الوزارة: ابنك هذا تهتم به، فالذى يكتب بهذا الشكل وبهذه الطريقة لا بد أن عنده الكثير. فشكره الوالد وخرج يتمنى لو أن له جناحين ليطير فرحاً بعد ما امتن الله عليه بهذا الفرج وبعدما فتحت المدرسة أبوابها لابنه الذى طالما حلم أن يكون تلميذاً فيها.

هكذا أثمرت هذه المقابلة قبول رضا فى المدرسة التى كان ممنوعاً منها، ليس بحكم القانون لأن الدستور والقانون يقران الحق فى التعليم كحق طبيعى من حقوق الإنسان المعترف بها فى كل الدول ومنها مصر بالطبع وخصوصاً بعد ثورة يوليو، ومعلوم أن الدستور والقانون فى بلادنا مواد مكتوبة محكمة ورائعة من حيث الصياغة اللغوية فقط وليست كذلك من حيث التنفيذ والتطبيق والإنسانية الواجبة التى يعرفها البشر. وهذا ما حدث معى، إذ كيف تُصدّر تعليقات بعدم قبول من له إعاقة فى سلك التعليم؟! وكيف تفرق بسبب الإعاقة بين البشر؟! والحقيقة التى توثقت منها أن هذا الأمر كان يُعمل به فى المدارس، بدليل ضياع السنة الأولى من عمرى وجزء من السنة الثانية. ولولا حرص هذا الرجل ونظرته الواعية وقراءته لواقع مؤلم لابنه دون التعليم وخوفه على مستقبله لما تحرك، وليس كل الناس عندهم هذا الوعى وهذا الحرص وخصوصاً أنه فى ذلك الوقت لم يكن هناك الوعى الكافى بطرح هذه القضايا، لذا

فقد ضاع الكثيرون من هذه الفئة، ضاعوا بين جهل متفش مفاده أن كل من كان عنده إعاقة في عضو من أعضائه لا يستحق أن يتعلم في حين أنه الأولى بالتعليم! لأنه كما قال والد رضا إذا لم يتعلم كأنه ميت، فالتعليم هو الذى يخرج من سجن الإعاقة الذى يصنعه المجتمع ويصنعه الجهل وتصنعه العقول المغلقة، التعليم هو الذى يقول له فى وضوح إنه صاحب حق لا بد أن يتمسك به لأنه طوق نجاته فى مجتمع لن يرحمه إذا كان جاهلاً ولن يعطف عليه ولن يواسيه، التعليم هو الذى يفعل كل هذا. التعليم للمعاق هو أداة للعيش الكريم دون أن يعتمد على أحد، ولكن هل تغير شىء فى هذه النظرة وقد مر حوالى نصف قرن؟

الحقيقة أن الذى تغير فقط هو إتاحة التعليم، فلا يستطيع أحد أن يمنع أحداً من التعليم، ولكن ما فائدة التعليم فى مجتمع يتحكم فيه عجز متأصل فى جذر العقل المصرى، يوهم أصحابه أن من لديه إعاقة ليس له حق إلا فى الأماكن الهامشية فى المجتمع. ويمكن أن يخطب المسئول بأحقية المعاق فى شغل الوظائف كلها، ويلقى بالكلام الكبير، ويذكر العظام من هذه الفئة كطه حسين وغيره، وهو كلام ليس إلا حروف تخرج فى كلمات فارغة من المضمون، لأنها غير مشمولة بالقناعة ولا محملة بالوعى، ولكنها كلمات حُبلى بعجز متأصل فى الفكرة نفسها: أن الإعاقة للشخص تعنى موته المجتمعى، فالوظائف الهامشية والكلام الأجوف هو ما عند كل مسئول فى هذا البلد حتى ولو قال كلاماً كبيراً، فهو كما قال الشاعر:

يعطيك من طرفِ اللسانِ حلاوةً ويروغُ منك كما يروغُ الثعلبُ

لذا أصبح على كل من لديه إعاقة أن يجهز نفسه لحياة ليست سهلة،

من حيث الحق في الحياة بكل ما تعنيه كلمة الحياة في الوجود وفي إتاحة الفرص وفي المكان والمكانة، وفي التقدير المادى والأدبى، وفي كونه إنساناً يريد أن يعيش كما يعيش البشر في العالم الذى يحترم الإنسانية والإنسان.

أبلة فادية

رجع رضا مع أبيه بعد هذه المعركة التى انتهت بها كان يتمنى هو وأبوه لكى يجهز نفسه لدخول المدرسة. لقد كانت المريلة معدة من العام السابق وها هى جاهزة لكى يدخل بها فصله الجديد بعد مرور أكثر من شهر فى السنة الثانية، وكذلك الشنطة القماش من نفس نوع المريلة، ووضعت فيها كراستان وقلم لكى يكتب به كما تعلم بإصبعى قدميه ولم يكن يعلم أن هذا محال فى الفصل. كان دخولاً أحاطه شىء من الاحتفال بالزائر الجديد الذى كان حديث البلد على مدى عام، وانقسم الناس بشأته، فمن قائل كيف لهذا الولد أن يتعلم وهو بهذا الشكل؟ وآخر جاء لوالده على سبيل النصيحة يقول له أنت بهذا ستسبب له العنت والتعب والنتيجة أنك تهرث فى الماء وعليك أن تعوله وبعد حياتك يعوله إخوته، وثالث يقول ليس له وسيلة للكتابة وكيف يقلب الورق؟ وكيف وكيف؟.. إن كل واحد من هؤلاء إنما يعبر عن نقطة من نقاط العجز يراها فى نفسه قبل أن يراها فى طفل يريد للحياة أن تسير به وهم لا يريدون. إن هذا الفريق كان موجوداً وكان منهم بعض الأقارب الذين ظنوا أن التعليم عبء على مثل هذا الطفل.

وعلى الجانب الآخر كانت هناك مشاهد رائعة من أصحاب الوعي اليقظ والقلب الحى والعقل السليم والمنطق الذى لا يرد، وهؤلاء كانوا

عونًا لأب عزم على أن يُعلَى من قيمة الإنسان في صورة ابنه الذى رأى فيه مشروع حياة إنسانية فذة وناجحة. جاء أحد هؤلاء بسيرة دكتور طه حسين وحكاها لوالدى الذى كان يعرفه لكن ليس بهذا الكم من المعلومات التى أراد بها هذا الرجل أن يقوى عزيمة والد الطفل. وكذلك هذه السيدة التى لم تتعلم - ولكنها عُرِفَتْ بحكمتها وصواب رأيها - ورأت كيف يعيش رضا حياته معهم، فقالت لوالده: «حياة رضا في التعليم ولا تفرط في ذلك»، وقالت له كلمة حكيمة وعميقة: «التعليم يُيدِن لرضا في الحياة». وكذلك أصدقاء الوالد من المدرسين الذين كانوا عوناً في هذه القضية، وأهمهم الأستاذ جلال السهادونى الذى كان صاحب خطة الهجوم على وكيل الوزارة للحصول على الموافقة بعدما صرح لوالد الطفل بأنه ممنوع من التعليم إلا بورقة مصرح فيها من وكيل الوزارة بدخول رضا المدرسة بوضوح.

ها قد جاءت الورقة، وها قد دخل رضا فصله في مشهد لا يُنسى ولا يُمَحَى من ذاكرة الأيام، إذ تحولت وجوه التلاميذ والمدرسين والعمال في المدرسة إلى هذا الزائر الجديد الذى جاء للدراسة بعد طريق طويل، وإن كان الكل يعرفه خارج المدرسة. وقد تباينت النظرات الأولى، فمرحب مستبشر ارتسمت على وجهه بشارة الأمل للوافد الجديد، ومستاء ظهرت على وجهه هالة من الرفض واضحة في تأففه النكد، والكثير لم يكن على وجهه علامة للرفض أو للقبول ولكن انتظار لما يحمل الغد لهذا الوافد الجديد.

ولأن أقدار الله لا تحمل إلا الخير للإنسان في حياته، ولأن الدنيا لم تخل ولن تخلو من أصحاب القلوب التقية النقية الصافية الرحيمة، ولأن التعب لهذا الطفل الصغير ولأبيه المكافح المناضل لا بد له من واحة

ينعم فيها بظلمها الرطيب، كانت هذه السيدة التى سكن الهدوء وجهها وطمعت الطيبة فى قلبها فجعلته سكناً لها، هذه السيدة التى استقبلتنى كأم تحمل عن وليدها كل ألوان التعب، وكمعلمة تصنع من صاحبنا تلميذاً النجيب، ومربية تنسج بالفعل نسيجاً محكمًا لأخلاق جيل يحمل فى عقله وقلبه صورة للحياة عندما تستقيم بالخلق. إنها «أبله فادية» التى كانت معلمة الفصل الذى كنت فيه، وكان النظام وقتها أن مدرس السنة الأولى الابتدائية كان مسئولاً عن جميع المواد الدراسية، فكان يُعَلِّم المطالعة فى كتاب القراءة والحساب فى كتاب الحساب فكانت أبله فادية معنا لمدة سنتين.

وفى بداية دخولى المدرسة، برزت مشكلة كبيرة وهى أننى أكتب بإصبعى قدمى، ويحتاج هذا أن أجلس على الأرض كى أستطيع أن أكتب، وهذا محال فى فصل دراسى يوجد به نظام للأرائك التى يجلس عليها التلاميذ، فحاولت أبله فادية معى، لكن لم يفلح كلانا فى حل المشكلة، وظلت معى فترة تبحث عن حل، فحاولت أن تجلسنى على الأرض لكى أكتب فلم تنجح التجربة، فحاولت أن تجلسنى على الأريكة التى نجلس عليها فلم يستقم جسمى وكدت أقع. لم تجد أبله فادية بدءاً من اللجوء إلى الوالد الذى لم يجد حلاً فى نهاية الأمر فاستسلم لواقع لا يستطيع أن يغيره، واندثرت مع الأيام طريقتى المبتكرة فى الكتابة بالقدم، لكنها فتحت طريقاً آخر للنجاة بالكتابة بأسنان أطبقت على القلم لكى يكتب صفحة من صفحات النجاة من السقوط فى الفشل.

إن الشاهد هنا هو حرص أبله فادية على هذا الطفل الذى كانت تعرف قصته، وهاهى تغرس فيه غرسها الطيب. ولا أنسى ما حييت عندما كانت

تنظر إلى وتنادى على في الفصل أثناء إلقاء النشيد وهي تشجعني بوجهها وترفع عينها كالذى ينتظر من يناديه عملاً عظيماً. ولا أنسى وكذلك لا ينسى أبناء جيلي رفق هذه السيدة الكريمة معنا في التعليم، فكانت تتعامل معنا معاملة الأم مع أولادها لذا كنا نحبا ونحترمها. وكانت إذا أرادت أن تعاقب كان لها أسلوب تربوى قمة في التأثير، فكانت إذا أخطأ أحدنا تظهر على وجهها علامة حزن تتبعها بغضب يظهر في حدة نظرات العينين، ثم تقترب ممن اقترف الخطأ وترفع يدها عاليًا كأنها ستنزل بها على ظهره بقوة، ثم تبطن حتى تلامس بحنان ظهر من أخطأ، فيحس أحدنا ساعتها أنه يخجل من نفسه، لكن عندما كان يعاود الخطأ كانت تضرب ضرباً خفيفاً على كف اليد وكأنه رمز للعقاب فقط.

هكذا كانت هذه السيدة الجليلة والمربية الفاضلة واحدة من جيل المعلمين والمعلمات الكبار، الذين حفظوا القرآن الكريم في صغرهم فتربوا على آدابه ووعوا أحكامه ودانت لهم فضائله، ووقفوا في ميادين التفسير والحديث النبوى الشريف لكى ينهلوا منها، ثم واصلوا تعليمهم العام ودخلوا بفضل حفظ القرآن دار المعلمين، وخرجوا لكى ينشئوا أجيالاً تعيش الدنيا بقيم هذا الدين، وكانوا هم صوراً ماثلة أمامنا للأمانة والرفق واللين والمعاملة الطيبة. كانت هذه السيدة التى مازالت ابتهامتها الرائقة الجميلة ومشيتها المنتظمة الهادئة ولسانها الذى يرسل الأمن والأمان للجميع ماثلين أمامى. ولا أنسى عندما كانت تقابلنى مع أمى أو أبى وتبادرهما بأن رضا شاطر لكن «شقييى قوييى» وكانت تطيل فى اليائين ثم تدعولى أمامهما.. مدين لهذه السيدة الكريمة بفضل المقابلة الطيبة والحب المخلص والتربية والتعليم اللذين كانا أساس هذا

البناء المحكم، مدين لها بنظرات التحفيز والتشجيع والمساندة والمعاونة، مدين لها بالفضل وأسأل الله لها طول العمر وراحة البال.

داخل الفم معجزة

كنت في الستين اللتين قضيتها مع أبله فادية مستمعاً فقط، فقد حرمتني الظروف فيهما من وسيلة الكتابة التي كنت أتقنتها بإصبعي قدمي، إذ أصبحت مستحيلة في فصل دراسي، وكأن أقدار الله سبحانه كانت تحب لي كنز الحياة الذي سيفرش أرض المستقبل بذهب القبول ولؤلؤ الرضا. لكن لكل شيء ثمنه الذي لا بد أن يدفعه صاحبه، وهذه سنة الحياة التي يجب أن يتقبلها الناس.

فخلال هاتين الستين، أجمع كل من يرى هذا الطفل أو يدخل فصله أو يسأل معلمته الموكلة بالتدريس له ولزملائه جميع المواد - كانت تتركز في المطالعة والحساب - على أنه يجب أن يواصل تعليمه لأن لديه القدرة على ذلك، فهو تلميذ يعتبر من النابهين إذ يحسب كما يحسب زملاؤه؛ هم يستخدمون أصابع أيديهم العشرة في العد، وهو يضم أصابع رجله مع الخمسة أصابع في كلتا يديه، وأبله فادية تسأله في مسائل الحساب وهو يجيب شفاهة فقط لأنه لا يملك وسيلة للكتابة، وكانت درجاته التي يجب أن تدرج في قائمة الفصل لا يمكن قيدها لعدم وجود الورقة التي تثبت الدرجة. وهو يقرأ جيداً بل هو من أظهر زملائه في هذا الشأن، وكان مشهوراً بصوته العالي خاصة عندما يلقي الأناشيد، وكانت أبله فادية تشجعه على ذلك وتنمي فيه هذه المهوبة، حتى إنهم اختاروه في السنة الثانية لتحية العلم.

كم هى رائعة هذه الصورة فى بث الوطنية. التحلق حول العلم والنظر إليه ووضع اليد اليمنى عند حافة الرأس من جهة اليمين والوقوف باستقامة، تحية وتقديرًا لهذا العلم الذى يمثل رمزًا للوطن نعيش فيه وخاصة ونحن صغار، وما يمثله ذلك من الوحدة والتآلف بين أبناء الوطن. كم كنت سعيداً أننى ممن اختارتهم إدارة المدرسة لتحية العلم، لينطلق صوتى «تحيا جمهورية مصر العربية، تحيا جمهورية مصر العربية» وتردد المدرسة كلها ورائى. كان ذلك يعنى الكثير والكثير لطفل فى مثل ظروفى، من إحساس بالوجود والتأثير، ويؤكد للمدرسين والمدرسات أن هذا الطفل مستحق لشرف إكمال مسيرته التعليمية ولو بغير وسيلة للكتابة.

لاشك أن العجز عن الكتابة يمثل عقبة كبيرة، لكن هل سيستسلم والد الطفل؟ وهل سيستسلم الطفل لهذا الوضع الذى يتضمن تهديداً صريحاً فى المستقبل؟.. كانت السنة الثالثة الابتدائية مع معلم آخر هو الأستاذ حسنين القاضى، هذا الذى وصفته فى صورة قلمية اعتزازاً بشخصه منذ فترة طويلة، أعرضها هنا كاملة لكى تكون تكريماً لشخصه وأيضاً، وصفاً لفترة حرجة فى حياتى حيث جرى البحث عن وسيلة للكتابة، ثم لتدرك كيف كان مدرس المرحلة الابتدائية فى هذا الزمان. قلت عن مدرسى وعن مجموعة ممن عنونت لهم بهذا العنوان:

الأستاذ حسنين محمد حسنين

إمام قدوة ومعلم مثال

«هالة من الاحترام والتوقير والأدب تحيط بشخصه، وسيمًا الجد والصرامة المشمولة بعزة نفس ظاهرة لا تخلو من تواضع يظهر فى لفظ أو

إيلاءة أو في بسمة خفيفة موحية، وقامة مشوقة محمولة بقيم لدين يستقر في النفس يملك على صاحبه كل ناحية من نواحي حياة يعيشها، هكذا كان.. هذا الرجل العلامة في الاتزان والاستقامة في الخلق والاعتزاز بالنفس بلا كبر ولا من.. هذا الرجل الذي رضيهِ الناس إمامًا للصلاة أكثر من ربع قرن يقف قائدًا بهم إلى ربهم بصوت يجلله الاحترام ويحسسه العلم ويجوده الحفظ ويحوطه أدب الناس مع الإمام المثال.

عرفته منذ صغرى لصداقة وأخوة جمعت بينه وبين والدي - رحمه الله - فكنت أهابه وأربط على نفسي رباط الجد واليقظة عندما أحدثه، لجلال كنت أحسه في نفسه وشيء من الصرامة في وجهه، وما أن أتكلم حتى يفتح لي نوافذ روحه الجميلة ونفسه الطيبة، وإذا بالجد والصرامة تتحولان إلى حنان أب وعطف معلم ونصيحة مرب، فأنطلق بعفويتي معه، ومن عجب أنني ظللت هكذا معه، إلى أن توفاه الله. وكان أحيانًا يفتح بابًا للترويح معنا، وأذكر ذات مرة أنه سأل أحد زملائنا في مرحلة الابتدائي سؤالاً عن استخدامات ملح الطعام فقال هذا الزميل بعد أن وقف قليلاً: في الشورية يا أستاذ، فإذا به يضحك معنا وأخذ يذكرها حتى كبرنا.

وأذكر له - رحمه الله - أنه كان يدرس لنا في بداية كتابتي بفمي، وكان يشدد عليّ وأحس أنه يعتنني، ولكن بعد أن تحسن خطي في الكتابة بحيث أصبح من أحسن الخطوط أدركت كيف كان فضله عليّ، وهذا بحق أسلوب تربوي متقدم أن تستخرج ما عند تلميذك من قدرات أنت تدركها عنده وكذلك فعل معي، وكذلك ظللت أذكر فضله في هذا الشأن. الأستاذ حسنين وَقَّع بنفسه لنفسه على كل من تعلم على يديه

توقيع الإخلاص والتجرد والتفانى فى أداء رسالة التربية، التى استقاها واستخرج أصولها من قرآن حفظه وتعلمه وعمل به وأم الناس بآياته، ورسالة التعليم التى استقاها من دراسته فى دار المعلمين التى أخرجت عيون المعلمين الذين ربوا المصر خير رجالها.

الأستاذ حسنين كان شخصية جادة تحمل نفساً كبيرة تعاف الصغائر وتستقبح الكبر وتكشف الزيف، لكنها كانت لا تصرح وإنما كانت تضع نفسها سداً لكل من تسول له نفسه هدم قيمة أو جرح مبدأ أو شغل الناس بما لا يفيد.. الأستاذ حسنين، ظهرت عند مرضه شخصية رجل نورانى وجهه كان فيه شىء من نور، كنت أراه إيماناً عميقاً وصبراً جميلاً ورضاً كاملاً بما قدر له، وإقبال على الله ييقين يظهر لمن يدقق فى تنوعات وجهه الراضية المرضية وعينيهِ الأمانة المطمئنة. وقد عرفت أنه كان يختتم القرآن كل بضعة أيام وهو فى حال المرض.

هذا رجل ظللت أملاً عيني منه احتراماً وإجلالاً وأدباً، وظللت أقدر له أنه علمنى فى فترة صعبة من بواكير حياتى وكان تشديده على سبباً فى مجانبة الفشل ومصادقة النجاح وبلوغ الهدف، وأننى ظللت وغيرى نقف وراءه لكى نعبد الله متخذينه ونحن راضون به ممتنون له إماماً للصلاة أكثر من ربع قرن من الزمان. عليك سلام الله أستاذى ومعلمى وإمامى فى الصلاة وعليك من الله الرحمة والغفران».

هكذا كان الرجل الذى عشت معه هذه السنة الفاصلة، فقد صدر الأمر صدر أنه لا بد من وسيلة للكتابة لكى يواصل رضا تعليمه. وأذكر هذه الليالى التى كنا نتحلق فيها حول طبلية المذاكرة أنا وإخوتى وأبى، تنتصف الطبلية اللمبة البنور نمرة خمسة، والوالد يحاول معى ويطلب

أن أمسك القلم بإصبعي يدي الشمال وأحاول أن أكتب، وفعلاً أمسك بهما القلم وأكتب لكن بصعوبة شديدة، وبعد عدة كلمات لا أستطيع أن أكمل لأن قوة أعصاب الإصبعين أضعف من أن تتحكم في القلم وتوجهه. ومازلت استحضر صورة هذا الرجل العظيم الذي غلبه الهم بسبب التهديد بعدم مواصلة ابنه للتعليم والنظر إلى نتائج ذلك، وهو قد كافح من أجل أن يدخل المدرسة.

وخلال هذه المحنة، أذكر موقفاً لأبي مع الأستاذ حسنين في بيتنا بعد صلاة العصر التي أم الناس فيها للصلاة، عندما قال الأستاذ حسنين وهو يجلس على كرسي قديم كان يتوسط دهليز بيتنا وهو يحمل كوب الشاي الساخن بين يديه: الولد شاطر لكن لا بد من وسيلة للكتابة، فسأله الوالد: فإذا لم نستطع؟ فنظر إليه نظرة توحى بتوقف المسيرة وأطبق شفثيه وكأنه يصدر حكماً بالإعدام على تعليم الولد. وكانت أُمي تشاهد الموقف فخففت وقع كلام الرجل القاسي بأن ذكرت الوالد بها كان من عقبات وأن الله سبحانه قد كتب الفتح من عنده، وبدأت تحكى مواقف الولادة والحبو والوقوف والقبول بالمدرسة فنشرت بحديثها شيئاً من الأمن في نفس الوالد والولد الذي يجلس بجانب.

ثم جمع الجميع بالليل طبلية المذاكرة، ولا أذكر من الذي أشار على بأن أمسك بالقلم بفعى، هل هو أبى؟ قد يكون اقتراحاً منه، لكن كل ما أشار به أبى في مسيرة الحياة كنت أذكره لأنه غالباً ما يكون علامة في تاريخ حياتي، ولا أذكر أنه أشار إلى هذه الوسيلة. هل يكون اقتراحاً من أحد المدرسين؟ هذا لا يمكن أيضاً، لأن الدائرة اشتملت على؛ اثنين أبلة فادية وقد أنهت مهمتها ولم أكن قد كتبت بفعى بعد، والأستاذ حسنين

وهو لم يبدأ مهمته بعد... إذاً من أين جاءت الفكرة؟ ومن الذى اقترحها؟ أغلب الظن أنها كانت إلهاماً من الله سبحانه أو سبباً ألقى به القدر إلى هذا الطفل لكى يسعده ويسعد أباه وأمه، ولعلها كانت تجربة من التجارب التى كان رضا يقوم بها بينه وبين نفسه حيث كان والده يحثه على إيجاد وسيلة للكتابة يستطيع بها أن يواصل رحلته بعد أن أحس الطفل من الكلام حوله أنه مهدد بالطرد من المدرسة. إذاً فهى تجربة نجحت فثبتت بها الطفل، وظل يجرب حتى أتى أباه وبشره بها فتحمس الوالد لها. وبدأت الأسنان تطبق على القلم والشفتان تضمان عليه من الأمام، وها هو يكتب بصعوبة فى أول الأمر. لا أدرى ولا أذكر مَنْ أشار على بالفكرة أو بالتجربة، لكن الذى يصل عندى إلى درجة اليقين أن هذا العطاء كان نتيجة لالتماس الطريق لمواصلة رحلة التعليم، التى كانت الشغل الشاغل لوالد الطفل والتى نقلها لولده الذى لم يفوت الفرصة.

جلس رضا ووالده لكى يتدرب حتى يكون الخط مستقيماً ومقروءاً، وهذا أمر يحتاج إلى إيضاح، إذ كان فى البداية صعباً للغاية، خصوصاً أن مدرس الفصل كان يتعامل مع كتابة رضا كأنه تلميذ عادى دون أن يضع فى حسابه أنه كالطفل الذى بدا تَوَّافٍ فى تعلم الكتابة، لذا كان المدرس عندما يرى الخط يحتاج إلى تدقيق كان لا يتعب نفسه فى قراءة الإجابة. لذا تراجع مستوى رضا فى الشهور الأولى من هذه السنة التى بدأ فيها الكتابة بفمه، لكن كعادته ظل يبحث كيف يجعل خطه مقروءاً ومفهوماً دون أن يدقق الأستاذ حسنين الذى أسدى إليه معروفاً من حيث لا يدرى، عندما لم يعمل حساباً لظروفه فى هذا الوقت، فقد جعله هذا يبحث كيف يجد الوسيلة لكى يجوّد خطه وهذه هى المعجزة أو أشبهه.

فى بداية كتابة رضا بفمه، كان يطبق على القلم الرصاص بين

الضرسين الأخيرين في الفكين الأعلى والأسفل إلى اليسار، لذا كان القلم يهتز قليلاً مما نتج عنه سوء الخط. وكانت المشكلة الثانية أن خشب القلم الرصاص كان يمتلئ برقيق فمه مما يجعله طرياً ويجعل التحكم فيه صعباً، بل ونتج عنه ضمور الضرس الأخير نتيجة الضغط الدائم عليه بخشب القلم المتشرب باللعباب. وظل البحث جارياً بين رضا ونفسه، مثلما كان يفعل في جميع أمور، فواتته الفكرة أن يستبدل القلم الرصاص بقلم حبر جاف. ثم جاءت فكرة أخرى، عندما نظر في فمه جيداً وتحسس تنظيم أسنانه وتفحص تجويف الفم، فرأى أن يستغل سنةً في منتصف أسنانه الأمامية كانت طويلة قليلاً فجعلها مسنداً للقلم من اليمين، واستخدم الشفتين ككماشة قوية ومرنة مع هذا المسند، ومن وراء يدعم اللسان القلم من ناحية اليمين وحافة الأسنان من ناحية الشمال. بذلك أصبح القلم مرتاحاً في الفم مع القوة والمرونة اللازمين لكتابة خط صحيح وجميل ومقروء، بل ومن أحسن الخطوط في الفصل بعد ذلك.

وماهى إلا شهور قليلة حتى زالت الغمة، وأصبح الطريق مفتوحاً لهذا التلميذ الذى شاء القدر أن يسكن فمه معجزة من المعجزات التى يستطيع بها هذا الولد أن يواصل مسيرة حياته بلا توقف، وأن تكون هذه الوسيلة فى الكتابة مصدراً للثقة وموثلاً للأمان من كل ما يحيط مستقبله من تهديد كان يتكرر ممن يتمسكون بالنظام والبيروقراطيات التى تريد أن تحرم طفلاً بهذا الشكل من حقه فى التعليم بحجة أنه لا يستطيع أن يكتب. لكن ها هو جاء يمسك القلم بفمه، وكأنه يقول «لا مستحيل»، تلك الكلمة التى قالها لى أحد المتخصصين فى العلوم الشرعية عندما رآنى أكتب بالقلم بفمى، فقال هذه استحالة مطلقة، وانبرى يشرح أن عدم

وجود اليدين يجعل من الكتابة استحالة مطلقة، وعندما يحدث الفعل بهذا الشكل وهو الكتابة بالفم فهو تحقيق للاستحالة المطلقة، فسبحان من أعطى وقدر.

سنوات الدراسة وشخصيات لا تنسى

كانت قرية ومدرسة كفر الشيخ إبراهيم الابتدائية في أوائل السبعينيات جزءاً من مصر الكبيرة المكلمة الحزينة، بسبب تداعيات نكسة 1967 وموت جمال عبد الناصر الذى تغير رأى كثير من المصريين فيه بعد النكسة، ومنهم والدى الذى كان معجباً به كثيراً ثم تبدلت تلك ال نظرة، لأن شيئاً ما فى شخصية عبد الناصر قد انكسر فى قلوب من أحبوه وتعلقوا به وصدقوه، هؤلاء البسطاء من المصريين الذين وجدوا فى عبد الناصر واحداً منهم ابن واحد من المطحونين معبراً عنهم وعن أحلامهم، فإذا به مغامر ينتهى به الأمر إلى هزيمة محطمة لكل الأحلام، وكسبت إسرائيل التى كان يتوعددها بالرمى فى البحر المعركة وأخذت تُقتل جنودنا فى سيناء، وأصبحت الأخبار التى كذب فيها نظام عبد الناصر فى بداية الأمر فضيحة بعد أن اتضحت الأمور، لذلك لا تجد بيتاً فى مصر إلا وعمه الحزن. وأما صديقه الذى ائتمنه على الجيش فقد أخذ يتبرأ من المسئولية بل ويتنحى أو يقتل على رأى آخر. لقد كان كابوساً رهيباً على المصريين وخصوصاً من وثقوا فى عبد الناصر.

وأذكر بوضوح ليلة موته، عندما جاء أبى من الجيش حزيناً كسيراً لما رآه أمامه فى جنازة جمال عبد الناصر وعجب له. رجل فوق الستين

من عمره يلبس جلباباً يبدو عليه أنه من الريف وهو يصرخ بأعلى صوته ويلوح بشال يمسكه في يده ويقول «يا بنى يا حبيبى» وهو يبكى ويصرخ كطفل فقد أباه أو أمه مشيراً إلى الفقيد عبد الناصر. وسيدة يبدو أنها من الصعيد تولول وتطلق صوتها وكأن ابنها قد مات وتقول: «سايينا لين». هذا بعض ما رآه وسجله أبى من قريب، إذ يقع المعهد الفنى للقوات المسلحة الذى كان يخدم فيه والدى بجوار المسجد الذى دفن فيه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، مما أتاح له أن يشاهد هذه الصور شديدة الإنسانية فى هذه اللحظة التاريخية شديدة الأهمية فى تاريخ مصر الحديث، وما سجله العالم كله فى هذا الوقت.

وعندما حدث عبور 1973، كنت فى بداية الدراسة الابتدائية، وحدثت واقعة لا أنساها - تحققتُ منها بعد ذلك - عندما هاجم الطيران الإسرائيلى مطار أبنهس العسكرى القريب منا ورأينا الطائرات الإسرائيلية فى الجو، أذكر أن أمى وقتها أخذتنا فى حضنها ودخلت سريعاً إلى البيت كما فعل ذلك الأهالى جميعاً. وأذكر فرحة أبى الكبيرة واقتنانه بالسادات خصوصاً بعد الحرب، والدعاء فى المساجد لأولادنا وقنوت الفجر الذى كان الناس يدعون فيه ويطلقون فيه الدعاء، وخطب السادات التى كنا نسمعها من خلال الراديو.

وأذكر الأغانى الوطنية فى هذه الفترة التى كانت تلهب حماس المصريين وكنا نرددوها ونحن صغاراً فرحاً بهذا النصر العظيم. ومن هذه الأغنيات أغنية المجموعة التى كتب كلماتها الشاعر عبد الرحيم منصور ولحنها بليغ حمدى، والتى كانت أول ما أذيع من أغنيات فى نصر أكتوبر، وقد قام بإنشادها خمسة عشر فرداً من العاملين بمبنى ماسبيرو للإذاعة والتلفزيون!!

بسم الله... الله أكبر، بسم الله، بسم الله
بسم الله... أذن وكبر، بسم الله، بسم الله
بسم الله... الله أكبر، بسم الله، بسم الله
بسم الله... أذن وكبر، بسم الله، بسم الله
نصرة لبلدنا بسم الله بسم الله
بإدين ولادنا بسم الله بسم الله
وأدان على المدنه بسم الله بسم الله
بيحي جاهدنا بسم الله بسم الله
الله أكبر، أذن وكبر
الله أكبر، أذن وكبر
وقول يا رب النصره تكبرر

وكذلك أغنية «حلوة بلادى السمرة» التى غنتها الفنانة وردة وكتبها
المبدع عبد الرحيم منصور ولحنها بليغ حمدى:
حلوة بلادى السمرة
بلادى الحرة
بلادى السمرة بلادى
حلوة بلادى السمرة
بلادى الحرة
بلادى السمرة بلادى
وأنا، على الربابه بغنى
م املكش غير

إنى اغنى وأقول

تعيشى يا مصر

تعيشى يا مصر

وهناك أغنية للمجموعة عندما أسمعها الآن وأنا فى العقد الخامس
من عمرى أعود طفلاً بنفس المشاعر الغضة التى كانت تملؤنى، لمعانى
كلمات هذه الأغنية وكأنى أحمل سلاحاً فعلاً وكأنى أحمل بيدى رايات
النصر، هذه الأغنية من كلمات الشاعرة نبيلة قنديل وتلحين المبدع على
إسماعيل، وأذيعت سنة 1972 وأعيد إذاعتها فى نصر 1973 تقول كلماتها:

رايحين رايحين

شايلين فى إيدنا السلاح

راجعين راجعين

رافعين رايات النصر

سالمين سالمين

حالفين بعهد الله

نادرين نادرين

واهيين حياتنا لمصر

باسمك يا بلدى..... حلفنا يا بلدى

جيشك وشعبك يرد التحدى

أرضك وزرعك..... شمسك وقمرك

شعرك ونغمك..... نيلك وهرمك

بدمى أفادى وأصد الأعداى

وافدى بروحى عيونك يا مصر

عشت هذه الأيام وأنا تلميذ في المراحل الأولى الابتدائية، وأذكر أن الأستاذ جمال حسين مدرس التربية الفنية. قد رسم صورة كبيرة بطول وعرض نصف الحائط للرئيس الراحل محمد أنور السادات، وكانت صورة رائعة، فقد كان فناً مبدعاً في رسم البورتريهات وأحدث نهضة فنية في المدرسة في هذا الوقت، وأقام جماعة للتربية الفنية كل واحد منهم يعلق على صدره شارة خضراء تفيد أنه واحد من هذه الجماعة وكنت أحدهم.

وأذكر في سنة من سنوات الدراسة أن طلبت الإدارة عمل فريق للتمثيل، فقام الأستاذ جمال حسين باختيارى مع مجموعة من زملائى لهذه الجماعة. وكان ضمن نشاطاتنا موضوع قراءة بعنوان «العقل زينة»، كان كل عضو يتحدث فيه عن وظيفته في الجسم، وكان اللسان يعقب على كل عضو، ثم يأتى العقل في النهاية ليضع الشكل الأمثل للتعاون بين جميع الأعضاء، واختارنى الأستاذ جمال لدور اللسان الذى كان الأكبر، وقدمنا هذا العمل على مسرح في شين الكوم وحصلنا وقتها على المركز الأول، وشد انتباه المحكمين شكل الولد الذى أدى دور اللسان.. وهذا الموقف لأنساه لما فيه أولاً من اهتمام بالمواهب وتنميتها في هذا الوقت ومن التشجيع الذى رأيته من الجميع بعد ذلك.

وكنت دائماً من المشاركين في الإذاعة المدرسية، أقرأ القرآن أحياناً وأحیی العلم أحياناً، وأستعين بأبى في كتابة كلمة في ورقة يمسكها لى في الطابور أحد أخواتى أو زملائى.

وكانت صلتى قوية ومتينة جداً مع أبناء جيلى على الرغم من حدتى

معهم أحياناً في المعاملة. ومن هؤلاء أخى وصديق الطفولة والصبا «المهندس الزراعى محمد على نوفل» الذى كان لا يدعنى عندما أمشى معه أحمل حقيبتى القماش، بل كان يحمل حقيبتى وحقيبتيه معاً رغم ثقلهما الشديد، وإذا كنا على غير وفاق كأن يكون هناك خصام طفولى لا يتركنى أحمل الحقيبة رغم ذلك، ولعل الصداقة التى بيننا ولم تشبها شائبة ترجع إلى أن جذرها قد زُرِعَ فى بداية الطفولة والصبا حيث البراءة هى التى تبنى العلاقات المتينة بين البشر. ومن هؤلاء أيضاً «محمد جلال» هذه النسمة البريئة الجميلة فى الخلق والخلق، الذى كان لا يمشى فى طريق إلا ويمسك بإحدى يدى القصيرتين ولا يتركها طوال الطريق أياً ما كنا، وكنت أنا وهو نشكل نقاط الهجوم وإحراز الأهداف فى أى فريق نلعب فيه.. وأيضاً «أيمن حنضل» هذا الذى كنا نحتفى به من كل ما يمكن أن يسبب لنا إزعاجاً، فهو قوى الجسم وكان يخاف منه الجميع، وكان قائداً من قواد الشلة يأتُمِرُ بأمره الجميع، ويأويل من يلمس أحداً من الشلة وخصوصاً رضا، وكان بينى وبينه احترام زائد ظهر بعد ذلك عندما كبرنا، إذ اتضحت فيه صفات الرجولة والأصالة بسؤاله الدائم عن كل زملائه، وبالتالي زادت علاقتنا حباً ووداً على مر الأيام.. و«جاء الله» الذى لم أر قلباً طيباً مثل قلبه، وكنت معه دائماً فى بيته الكبير الواسع، وكنت أحب جداً ساندوتش القشطة الذى تعطيه لنا والدته عندما نذهب فى الفسحة بين الحصص. و«محمد السيد» الذى سيصبح فيما بعد رفيق طريق العمر، وقد شاركتته وشاركنى أيامى، ومواقف لاتنسى وأحداث كانت علامة فى حياة كُلِّ منا، وله فى قلبى مكان يعرفه، لإخلاصه الذى أعرفه عنه ودينه الحى وأدبه وأخلاقه العالية.

كان هذا جزءاً من مجتمع عشته في المدرسة الابتدائية مع زملائي، أما أساتذتي فقد تركوا أثراً لم يُمحَ من ذاكرتي، وهذه صورة قلمية للمدرس الذي دَرَّس لي في السنة الرابعة وترك أثراً كبيراً في شخصي بجديته وصرامته، كان هذا وصفي له رحمه الله.

كان هذا جزءاً من مجتمع عشته في المدرسة الابتدائية مع زملائي، أما أساتذتي فقد تركوا أثراً لم يُمحَ من ذاكرتي؛ لأن كل واحد منهم له في نفسي أثر من التعليم ومن التربية ومن الأخلاق التي تعلمتها منهم.

هذا الأستاذ «إبراهيم أيوب» رحمه الله، صورة المعلم حين يتوحد مع الإخلاص والتفاني والالتزام والجدية التي تصل أحياناً إلى حد الصرامة، هكذا كان هذا الرجل الذي علمنا أن الواجب لا بد أن يُؤدَّى على أتم صورة، وأن من يعطل إمكانات نفسه ولا يؤدي ما عليه من واجب لا بد أن يعرف أنه أخطأ وأن يعاقب، وأن من يتعب ويبذل الجهد لا بد أن يُشكر، ولا يمكن أن يستوى من يعمل ومن لا يعمل، وهذه هي التربية المثمرة. ولا تزال هذه الصور تمر أمامي الآن عندما يبدأ حصته بأسئلة سريعة تتبارى فيها، كانت تسمى «أسئلة العقلي» فيوجد حالة من التنافس بيننا ويفرض على الكسالى أن يستعدوا وإلا سيعاقبون، وهذا ملمح تربوي تعلمته من هذا المعلم الكبير.

والأستاذ «جلال السهادوني»، الذي ذكرت أن والدي - رحمه الله - لما أصر على أن أدخل المدرسة وأصر على أن أتعلم كان هو من الداعمين المناصرين المدافعين، وأنه هو الذي وصف لوالدي - رحمه الله - مكان

وكيل الوزارة في شين الكوم، وكانت المقابلة التاريخية التي وضعت أول لبنة في بناء تعليمي. وفي أول يوم نخطو إلى ساحات العلم كان في استقبالنا بوجهه الراضى وعقله الواعى ونفسه الكبيرة وحزمه اللازم. وفي أول درس من دروس التربية كان فارس الميدان الذى لا يبارى أدباً وديناً وقدوة ومثالاً، وفي الحياة كان معنا أباً حنوناً صادقاً شفوفاً سهلاً ليناً. هذا أبى بعد أبى هذا حبيب أبى وحبيب أبى حبيبى، وهو كذلك أحبه لأنه يحب الناس ويحب الناس، أحبه لأنه علمنى أن أحبه لأنه سهل لين وقور مشارك مسالم طيب..

أما الأستاذ «عبد الحميد حنضل»، هذا المعلم القدوة والمربى المثال الذى اجتمعت في شخصه صفات من عاش الدين واقعاً بفهم صحيح. فهو معلم وسيلته الأخلاق وهدفه جيل يخدم نفسه ودينه ووطنه، ونحن نشهد له بذلك. فقد كان يصلى بنا جماعة في المدرسة، وكان يثيب المجتهد ويعاقب الكسول، وكان جاداً في صالة الدرس، فإذا خرجنا أصبح هاشاً لنا باشاً بوجهه الراضى دائماً.

وأما هذا الأديب والمثقف والناقد والمعلم والمربى الأستاذ «على العليمى» فقد كان كل هؤلاء في شخصه. شربت وزملائى منه الالتزام وحب العلم والقراءة، وهو أول من علمنا أن نقطف مخنارات مما نقرأ، إذ كان يكلف مجموعة من تلاميذه بأن يكون لكل منهم دفتره الخاص يجمع فيه ما يراه مناسباً للاحتفاظ به، ولم أكن من هؤلاء وقتها، وكان هذا مما جعلنى أجد فى نفسى منه، ولكنه بعد أن كبرت وكنت أزوره فى بيته وأعرض عليه ما أكتب سألته: لماذا لم تخترنى ضمن هذه المجموعة؟ فقال: لقد كنت مشفقاً عليك من الكتابة، خصوصاً أن هذا الدفتر يحتاج

لمجهود كبير في كتابته وتزيينه. هكذا كان الرجل والمعلم والمربي والأديب الأستاذ الكبير على العليمي، ذلك المثل الذي يصر على الطموح والنجاح بل والإصرار على النجاح في زمن معاكس.

لقد كان الأستاذ العليمي الوحيد من أبناء جيله الذي واصل الدراسة المنهجية بعد دار المعلمين، فالتحق بكلية الحقوق وحصل على الليسانس، ليضيف إلى دوائر ثقافته دائرة القانون والشرعية والدراسات المقارنة بينهما. وقبل ذلك كان عقله قد احتواه القرآن لفظاً ومعنى وأصبح صدره مملوءاً بنور القرآن وفيضه، فدخل به إلى دار المعلمين ومنها أصبح قائماً بالكلمة عاملاً بها موصلاً جيداً بل وممتازاً لها. ومما أسعدنا به القدر وحبانا به أننا ارتشفنا الكلمة مبنًى ومعنى ودلالة وسلوكاً ومشاعر على يديه، كما سقانا عذوبة العطاء ونعمة الولاء للعلم والقراءة والبراء من الأمية والجهل والتخلف، وأحدث في أنفسنا طموح التفوق في العلم والأخلاق والسلوك، كل هذا كان فيضاً من شخصيته شديدة الاعتزاز بالنفس في غير تكبر عظيمة الاحترام للذات بلا تصنع.

والأستاذ على العليمي - رحمه الله - أديب كبير وشاعر رقيق وناقد له رؤية في النقد الأدبي في الشعر والنثر، وقد أطلعني على قصائد من شعره رائعة ودراسات نقدية رصينة عن بعض الشعراء الكبار، وقرأتها له في أقوى مجلة أدبية صدرت في مصر وهي مجلة الرسالة التي كانت تنشر لأساطين الأدب في هذا العصر كالعقاد وطه حسين والمازني.. ولقد كان هذا المعلم حافزاً لي بشخصه وعلمه وطموحه الذي لاحد له، رحمه الله.

وبقى في هذه الفترة أن أرسم صورة لهؤلاء الذين كان لهم تأثير بالغ

بأخلاقهم وسمتهم وشخصياتهم، ليس في نفسى فقط ولكن في نفس كل من عشت معهم في قريتي الصغيرة، هؤلاء الذين حملوا في قلوبهم نقاء وصفاء وحباً خرج للناس في حياتهم اليومية. هؤلاء الذين أسهموا في زرع القيم التي رأيت ثمارها على أشجار الحياة دانية، هؤلاء الذين كان سعيهم من أجل الإنسانية والإنسان. فلا يوجد مجتمع يتسم بالفضيلة ويتشع بالكرامة وينعم بالقيم الأصيلة إلا وتكون فيه هذه الفئة التي تضرب المثل على ذلك، وهذه شهادة ممن عاش معهم واقترب منهم وهذا ما رآه وشاهده من هؤلاء.

منهم الحاج «محمود عطوى» الذى كان يلقبه الناس في قريتي الحاج محمود «أفندى»، ولعلها كانت تقديرًا لشخصه وماله في نفوس الناس من تبجيل واحترام. هذا الرجل لم يكن عنده خزائن أموال ولا بنايات ولا أرصدة بنوك، ولكن كانت عنده خزائن الأدب وبنايات المواصلة وأرصدة الاحترام الإنسانى وأرض واسعة لاحد لها مزوعة بالإخلاص ثمرة بالحب مورقة بالود، نابت فيها الكلام الطيب والسعى الدءوب من أجل مسكين أو فقير. لقد قام الحاج حافظ الفلاح حياته على عقد موثق بينه وبين ربه، أعطى من نفسه الصدق والإخلاص فأعطاه الله الرضا والقبول وحب الناس والثراء الذى لم يغير شيئاً في شخصه بل زاده تقى وصلاًحاً. أذكر وأنا صغير أننى كنت لا أطاق من «الشقاوة الطفولية» وكان بعض الناس يضيقون بى، أما هو رحمه الله فكان يداعبنى ويخفف من حدتى بمرحه الخفيف معى وأنا الطفل الصغير. ولا أنسى عندما كان يأتى إلى المسجد وينتحي جانباً ويمسك بالمصحف ويقرأ القرآن، وكنت دائماً ما تراه فى مسجد سيدى إبراهيم بن أدهم الذى كان

يعتبره أغلى عنده من أحد أبنائه، فكان شغله الشاغل إلى أن لقي ربه بانياً له وراعياً ومنفقاً عليه.

وهذا رجل فقير جمعتني به صداقة متينة على الرغم من فرق السن بالسنين الطوال، ولكن عندما ترتاح القلوب فلا تسأل عن السنوات والأيام. هذا الرجل الفقير ملأ الغنى نفسه وروحه، هذا الرجل الذي كانت لي معه مواقف أعتز بها تعكس إنسانية متجردة، تكاد تصل إلى ملائكية البشر الذين يعيشون بأجسادهم على الأرض وأرواحهم تغرد في السماء، إنه «أحمد الفرخ» الذي كان في مشيته يلقي بجسده النحيل جهة اليمين قليلاً ثم يدفع جسده للأمام، وكأنه كان يصارع ظروفه الصعبة في زمان ليس فيه للطيبين مكان. كان يمشي على الأرض هوناً، وكان يتغطى بالليل إذا حل، وكان الليل يربت كتفيه كأنه صديق يواسي صديقه الذي جاءه ليرتاح عنده.

كنت أذهب إليه في مكان ألقاه فيه عند مدخل قرينتنا الصغيرة حيث لا تجد الناس إلا قليلاً. كان يحكى بعدما يرفع رأسه وترسم على وجهه ذكريات ماض عاشه صغيراً وكان وقتها في آخر عقده السادس. حكى لي عندما دبت قدمه شارع رمسيس وشارع كلوت بك وشارع الجمهورية ليعول نفسه وأهله. كانت حياة صعبة لكنها لا تخلو من جمال. حفظته فطرة سليمة وأخلاق عاشها زمناً في قريته، فوقت أن كان أقرانه يلقون بأنفسهم في مراتع الهوى وحانات الشرب كان هو عاشقاً لأم كلثوم، فكان يدخر من قروش القليلة ما يستطيع به أن يقف في نهاية صفوف حفلات أم كلثوم ليستمتع بصوتها في هذه السن الصغيرة، كانت تحتويه عندما ينطق بكلمات أغانيها حالة من تلبس

المعنى لكيانه، وكان يسأل وكثيراً ماكان يسأل: يا أستاذ مين الى قال الكلام الى قالت فيه أم كلثوم:

أَكَاذُ أَشْكَ فِي نَفْسِي لِأَنِّي أَكَاذُ أَشْكَ فِيكَ وَأَنْتَ مِنِّي

ويظهر ولعه بالمعنى وبصوت أم كلثوم وهو يشدو بالكلمات، فأرد عليه بأنه الشاعر الأمير عبد الله الفيصل، فيعجب كيف كتب هذا الكلام.

كان يحس المعنى ويعايشه إلى حد الهيام، وكان يحفظ كثيراً من كلام أغنياتها وخصوصاً القصائد، وسألني مرة عن معنى بيت في قصيدة حديث الروح لمحمد إقبال التي يقول فيها:

وَمَعْدِنَهُ تَرَابِيٌّ وَلَكِنْ سَرَتْ فِي لَفْظِهِ لُغَةُ السَّمَاءِ
وسألني عن معنى:

قِيَاثَرَتِي مُلِئَتْ بِأَنَاتِ الْجَوَى لَا بَدَّ لِلْمَكْبُوتِ مِنْ فِضَانٍ

وهذا يدل على حس راق وذوق عال ونفس تعشق الجمال.

وكان عاشقاً لعبد الوهاب، وكان يستخرج من أغانيه دررا من المعاني.. أذكر أنه وقف أمامي مرة وأبدى إعجابه الشديد بفقرة من أغنية الصبا والجمال وأخذ يرددتها مفتوناً بالمعنى، هذه الفقرة تقول:

قَتَلَ الْوَرْدُ نَفْسَهُ حَسْداً مِنْكَ وَأَلْقَى دِمَاءَهُ فِي وَجْتِكَ

وَالْفَرَاشَاتُ مَلَّتْ الزَّهَرَ لَمَّا حَدَّثَهَا الْأَنْسَامُ عَنْ شَفْتِكَ

ثم يتعجب من هذه المعاني الجميلة، ويقول وقد أخذه العجب: شوف لما يقول في الورد في أغنية يا ورد:

يا ورد يا أحمر قل لى مين جرحك
 جرح شفائفك وخلى على شفائفك دمك
 أبيض غار النهار منه خجول مختار
 باسه الندى فى خده وجارت عليه الأغصان
 أصفر من السقم أم من فرقة الأحباب

لعله كان يحتمى بهذه المعانى الجميلة والكلمات الرقيقة والمشاعر الحية
 من أثقال زمن لا يرحم.

عاش أحمد الفرخ حياته لم يحس به أحد؛ لأنه كان يؤثر العزله كأنها
 قدره، يحمل فى نفسه أخلاق رجل ريفى لم يتسلل إليه طمع ولا زاره حقد
 ولا ملكته نزوة ولا ألفه طيش ولا نزق.

تعلمت منه كيف يعيش الإنسان معنى جميلاً لم يחדشه قبح ولا أعاقه
 ذنب ولا اغتاله فحش، وهو الذى لم يقرأ كتاباً، لكنه كان أستاذاً فى كتاب
 الحياة، فعاش حياً كريماً سليم العقل والقلب والروح، رحمك الله يا عم
 أحمد رحمة واسعة.

وبقى أن أختم هذه الشخصيات الحياتية بهذه السيدة الكريمة
 العظيمة، التى تضرب مثلاً للمرأة المعيلة التى تقوم على أولادها بعد فقد
 العائل، فإذا هى بقوة الروح والنفس وعزيمة من حدد لنفسه هدفاً يعرف
 أن له ثمناً كبيراً من نفسه وعقله وصحته بل من حياته كلها. هذا نموذج
 عشت معه وعرفته، فعرفت القوة والصلابة، وعرفت الإخلاص عندما
 يُصنع فى مصانع الأنفس الكبيرة، الحاجة «فاطمة قشطة» هذه السيدة
 التى رحل زوجها وترك أربعة أولاد وبنتين ولم يترك شيئاً سوى بيت كبير
 وبهيمتين وقراريط قليلة، فقامت وسعت ولم يغمض لها جفن ولا نامت

لها عين ولا ارتاح لها جسد، فهذه الأفواه تريد أن تأكل، فوقفت وقوف امرأة صامدة قوية تفلح الأرض، وحولت بيتها إلى مرعى للطيور لتطعم أولادها، وغذتهم الأمل الذى يدفعهم لأن يكونوا رجالاً، ولم تلن قناتها يوماً وهى تجابه المصاعب والعوائق وهى تمشى وحدها فى طريق وعر صعب، ليس معها أحد إلا توكل على الله وثقة به سبحانه.. وما زالت تراها عيني مثلاً على الإخلاص والتفانى وأداء الواجب والإتقان وكل القيم العظيمة التى أراها علامة عليها.

بقى أن أشير إلى شخصية الحكيم، ذلك الشاب الذى تعرفت عليه فى سنوات صباى وبداية الشباب، الأخ الصديق «الدكتور مجدى عبد المقصود» الذى كان موثقاً للشفاء ومصدراً لأمانى النفسى وإجابة وافية عما يعتمل فى نفسى من مدامات الأسئلة، وشرحاً لمقتضيات الطموح. كنت كلما اشتكيت من مرض عارض أذهب مع أبى إليه فى غرفة خارج بيت أبيه فى قرية بجوارنا، فيستقبلنا بوجه يشفى قبل أن تمتد اليد للكشف، وكلمات تربت الكتفين، ومناقشة هادئة تنسيك ما تعانيه من وجع، وبعد هذا كنا ننسى ما جئنا من أجله، لأن النفس قد شفيت والروح قد سمت فلا بد أن يهدأ وجع البدن. هذا الشاب الذى أصبح حكيماً بمفهوم زماننا السابق، وما زال يمارس الحكمة بكونه طبيباً لأن الطب بلا حكمة كالجسد بلا روح، وها هو قد ارتفع بقريته كفر وهب حتى أصبحت القرية المتكاملة المثالية على مستوى مصر كلها، واختارتها الأمم المتحدة كأحد أهم القرى على مستوى العالم بفضل هذا الحكيم الذى يمتهن الطب بإنسانية لا مثيل لها.

قبل أن أترك الحديث عن القرية التى عشت فيها، وقبل أن أنطلق خارجها لأشتبك فى معارك إثبات الوجود، كان لا بد أن أحكى عن

هذه الشخصيات التي كان لكل شخصية منها تأثير في جانب من جوانب الحياة التي عشتها معهم، ولكي تكون صورة واقعية لما كانت عليه القرية المصرية في هذا الوقت. وإذا كان العالم لا يمكن أن يخلو من الشر في كل ركن منه، فلعل شمعة من الخير قادرة على نشر نورها وتجليه ظلمة الشر ولو كانت دنيا بكاملها، وهذا ما عايشته، وعايته، وهذا ما جعلني أعرض عن التلميح بمن نصبوا أنفسهم رعاة للشر ودالين عليه، أولاً لأن ذكرهم شرف لهم ولا يجوز لمثل أن يمنحهم هذا الشرف، وثانياً لأن الأخلاق التي تعلمتها من هؤلاء الأ خيار تلزم مثلي بالترفع وإسداء المعروف إلى راعي الشر حتى يراجع نفسه أو تصدمه حقيقة الشر فيرجع أو يهوى مع الشيطان حيث جهنم الدنيا وجهنم الآخرة.

نور الكهرباء

ظللت عشر سنين من عمرى في هدوء ما قبل الكهرباء، حيث البيوت تغلق أبوابها بعد صلاة العشاء، وحيث الناس تجلس مع بعضها البعض يتسامرون قبل أن تغتال الكهرباء تلك السكينة والهدوء بنورها الذي جلب الحضارة نوراً يرفع الظلمة عن الأشياء ويجليها، ولكنه أصاب الناس في قرىتي بتحول في مسار حياتهم المعتاد، فقد كانوا ينامون مبكراً ويبدأون يومهم بصلاة الفجر ويضربون في الأرض يبتغون من فضل الله سعياً وكداً في سبيل قضاء حاجاتهم، وكلهم يقظة يملؤهم النشاط وتغذوهم حاجتهم لكفالة بيوتهم وعيالهم.

لقد تبدل كل هذا إلى السهر ليلاً بفعل نور الكهرباء الذي أضاء كل شىء في القرية، وباليات الأمر بقى على حاله من سير الحياة ولكن الذي حدث أن الحضارة بقدر ما أعطت ووهبت للقرية فقد أخذت بل اقتصت

منها في مجال الهدوء النفسى والعلاقات الاجتماعية وتغير العادات التى تميزت بها القرية المصرية. كل ذلك لاينفى ما أعطاه مصباح الكهرباء لإنسان القرية من حضارة.

وأذكر هذه الفترة جيداً حين بدأ العمال فى غرس أعمدة الإنارة، وكنت وقتها فى السنوات الأخيرة من الابتدائية فى سنة 1974 و 1975، وكيف كان العمال يحفرون حفرة عميقة ثم يمسكون بالعمود المصنوع من الحديد ووزنه ثقيل جداً من أوله ومنتصفه وآخره ويرفعونه من على الأرض أولاً ثم يفردون أيديهم إلى أعلى جميعاً ويرفعونه شيئاً فشيئاً حتى يقف العمود فى حفرة، ثم يضعون الأسمنت والرمل المعجونين بالماء فى تلك الحفرة ثم يسندون العمود بعض الوقت حتى يثبت ويشتد الأسمنت، وها هى الأعمدة بشكلها الكائن شاهدة على هذه الصور القديمة.

وكانت فرحة كبيرة غمرت كل أبناء القرية، وبدأ كل بيت يستعين بصنابعى الكهرباء لكى يحفر فى الحوائط كى يضع المواسير التى يمرر فيها الأسلاك. وجاء إلى بيتنا شاب طويل اسمه محمد كان ذا فكاهة خفيف الدم يخلط عمله بالنكات والقفشات الجميلة، وحفر فى صالة الدهليز وفى كل غرفة من الغرفتين لمصباح، وداخل البيت حيث السلم الأرضى مصباح أيضاً، ومرر فى المواسير الأسلاك. وكنت شغوفاً جداً برؤية المصباح الكهربائى الذى درسنا فى المدرسة أنه مخوف وأنه يتكون من سلك من مادة التنجستين، وأن الذى اكتشفه وأضاء الدنيا به هو العالم الأمريكى أديسون سنة 1879، وكانت هناك صورة فى الكتاب المدرسى، وأصبحت شغوفاً بأن أراه وتحققت الرؤية فى الشوارع حيث تمت إضاءتها أولاً، وكانت فرحة من أهم ما عاشت هذه القرية الصغيرة،

حيث تحولت الشوارع التي كانت تغزوها الظلمة منذ أن ترحل الشمس إلى نهار بفضل مصابيح الشوارع المعلقة في الأعمدة، في أعلى كل عمود منها ذراع منتهية بمظلة بيضاء صغيرة فوق المصباح لكي يتركز نوره في الشارع.

وأذكر أن البيوت عندما أضاءتها مصابيح الكهرباء تحول كل شيء في هذا المجتمع الرفي الذي كنا نعيش فيه، فالنور عم البيوت ويسر على الناس جميعاً كثيراً في حياتهم، فأصبح الفلاح يستطيع أن يذهب في أى وقت من الليل في ضوء الكهرباء للرى أو لمتابعة مواشيه التي نعمت هي أيضاً بما نعم به البشر من نور الكهرباء، حيث يضغط الفلاح في الليل على زر من الأزرار خارج الزريبة فيضيء المصباح فيدخل ليطمئن على مصدر الخير له ولأولاده. وكذلك التلاميذ الذين كانوا يحنون رؤوسهم على طبلية المذاكرة أمام اللمبة البنور، جاء نور الكهرباء لكي تتحول الطبلية إلى مكتب فلا يجدون التعب والعنت الذي كانوا يجدونه مع اللمبة البنور والطبلية. ولأن أبى كان غالباً ما يصلى الفجر ويتوكل على الله لعمله في الجيش، فقد كانت أعمدة الكهرباء بنورها الأحمر تؤنسه في طريقه الذي كان مظلاً قبل أن تُغرس الأعمدة.

وبعد قليل، دخلت البيوت أجهزة التلفزيون التي كنا نشاهدها قبل دخول الكهرباء عند جدى لأمى، فقد كان ضمن ثلاثة في البلد فقط لديهم أجهزة تلفزيون تعمل بالبطارية، وكان يتم شحن هذه البطارية كل فترة، وكنا نذهب إلى بيت جدى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع كمكافأة على الاجتهاد في الدراسة، وكنا نُحرم أحياناً من هذه المكافأة حين يتسرب الكسل إلى المذاكرة. وكنا نهيم بمباريات المصارعة

حيث هذه الأشكال البشرية المنفوخة العضلات وهذا الضرب الذى تحس معه أنهم ليسوا بشرًا عاديين، وكانت تعليقات جدى تعكس المتابعة الدقيقة حتى لأسماء اللاعبين، وكان يشجع اللاعبين ويظل يضع كفاً على كف وكأنها يسدد هو الضربات، وكان يجلس وأمامه براد الشاي، وكنا إذا دخلنا عليه ينادينى ويجلسنى بجانبه وينادى بالقشطة التى كنت أحبها جدًّا، فيأتى ساندوتش القشطة فيعلقه فى إصبعى يدي الشمال وأترك نفسى مع الساندوتش وعينى مع المصارعة ومع حركات جدى التى كانت تسترعى انتباهى وانتباه كل من فى الغرفة. أما الفيلم العربى الذى كنا ننتظره بشوق ليلة الخميس من كل أسبوع فكان من أكبر المكافآت لنا.

هذا قبل وجود الكهرباء، لكن بعد أن دخلت الكهرباء بدأت أجهزة التلفزيون تغزو البيوت، ومعها بدأت حياة الفلاحين تتغير، والفلاح الذى كان ينام بعد صلاة العشاء أصبح يقضى جزءاً كبيراً من الوقت أمام هذه الشاشة الزجاجية التى تتحرك عليها صور الأشخاص والأشياء.

وبعد سنوات قليلة دخل التلفزيون كل بيت، وبدأ الناس فى متابعة المسلسلات ومباريات الكرة التى كانت مشاهدتها مباراة فى التشجيع أيضاً، خصوصاً ونحن بيت زملكاوى بالكامل. وأذكر فى هذه الفترة من المسلسلات التى تركت أثراً واسعاً مسلسل «الجنة العذراء» وكان بطولة كريمة مختار ومحمود السباع وإخراج نور الدمرداش، وكان مسلسلاً رائعاً أبدعت فيه الفنانة كريمة مختار، ومسلسل «أبناء فى العاصفة» الذى كنا ننتظره جميعاً، وكان يحكى عن مجموعة أبناء كان منهم عبد الله غيث وعادل المهيلمى ومحمى إسماعيل الذى أدى دور الأبكم المريض النفسى ببراعة منقطعة النظير وكان أبوهم الممثل القدير عبد الرحيم الزرقانى، وكان لعبد الله غيث عبارة فى المسلسل كنا نردها لأنه كان يقولها

بشكل ملفت جدًّا ومؤثر جدًّا وهو يحذر أخاه محيي إسماعيل: «الأرض هاتروح منا ياله». وكانت هذه المسلسلات تدعو إلى قيم الحفاظ على الأرض والأخلاق السوية والدعوة إلى حب الأوطان ومصير من يحيك المؤامرات، وكان أجمل يوم عندنا يوم الأحد وهو اليوم المفتوح في التليفزيون، من العاشرة صباحًا حتى الثالثة بعد الظهر، حيث مجموعة من الفقرات، منها مسابقات وفيلم من الأفلام العربية، وينتهي اليوم بأغنية لأم كلثوم التي سيكون لى مع أغانيها محطة مهمة في مسيرة الحياة.

ولا أنسى موقفين فارقين في حياة أسرتي، أولها يخص أمى -رحمها الله - عندما فاجأها أبى -رحمه الله - بجهاز «بوتاجاز مصانع» هكذا كان اسمه بعد زمن طويل مع وابور الجاز والكباس وسواد «الهاب» الذى يخلفه الجاز، والجرى وراء عمى مغاورى لشراء الجاز للوابور وأعطال الوابور وإبرة تسليك مجرى الجاز فى الوابور التى كانت يمكن أن تكون سببًا فى تعطله عن الاشتعال، وها قد جاء الفرج بهذا البوتاجاز الذى تحلقنا جميعًا حوله، وبدأ الوالد يشرح لنا ولأمى كيف يعمل وكيف نحافظ على الأمان بغلق الأنبوبة، وكانت تلك نقلة حضارية واسعة فى سبيل راحة أمى التى عانت طوال هذه السنوات. والموقف الثانى عند شراء الغسالة الكهربائية، هذه النقلة الكبيرة حيث كانت أمى تضع الملابس كلها فى «الطشت»، وبجانبها وابور الجاز وعليه وعاء من الماء يغلى، وهى تجلس أمام الطشت الواسع تختار الملابس البيضاء لتضعها فى الوعاء الذى يغلى على الوابور، ثم بعد فترة تقوم لتخرج هذه الملابس لتضعها مرة أخرى فى الزهرة الزرقاء، وهى عبارة عن بودرة زرقاء كنت أشتريها لأمى من الدكان بقرش صاغ حتى تبدو هذه الملابس ناصعة البياض، وكانت أمى تظل يومًا كاملاً تغسل ثم تذهب إلى سطح البيت لنشر الغسيل، وها هى

الغسالة الكهربائية حلم أُمى الذى تحقق أخيراً، حيث كان يوم الغسيل من أشد الأيام تعباً وشقاءً فقد كانت تسقط من التعب فى آخر هذا اليوم.

هكذا حولت الكهرباء طبيعة الحياة فى قريتى تحولاً فيه من الإيجابيات التى لا ينكر فالنور قد حل والظلمة قد رحلت، النور سهل على الناس حياتهم وأضاء العقول بتسهيل التحرك والقضاء على ترهات الريف التى كانت تنتشر بين الناس، كالجنبة التى تخرج من التربة والقصص الخيالية لبعض من لم يتعلموا، وكذلك التحول إلى استخدام الأجهزة التى أراحت فئة من مجتمع الريف وهم السيدات وفتحت آفاقاً لمشاهدة العالم ومعرفة أخباره، وهذا أهم إنجاز حضارى للإنسان عموماً حيث أصبح يعيش اللحظة من خلال متابعتها لما يجرى، صحيح أنه ليس فاعلاً بأى دور لكن على الأقل كانت خطوة مهمة بالقياس لحياته.. لكن ما يلفت النظر أن «أديسون» قد أضاء الدنيا بهذا الاكتشاف ولم ننعم به فى قريتنا إلا بعد مائة عام، أليس هذا ظلماً للإنسان وللإنسانية عندما يتركون الظلام يعيش فى البيوت والعقول وعندما ينعم به بشر ويحرم منه آخرون.. هذا الإنجاز الحضارى غير المسبوق فى قريتى كان له أيضاً سلبياته الكبيرة، وهكذا الحضارة لا بد لها من ثمن يدفعه الإنسان.

90٪. ونهاية مرحلة

نهاية المرحلة الابتدائية كانت تسمى على أيامنا «مرحلة القبول»، وكانت من أهم المحطات فى رحلة الدراسة حيث يتبين منها مدى قدرة الطفل على مواصلة الدراسة والتفوق أو على اكتفائه بهذه المرحلة فقط، وقد يركن التلميذ فى جانب الطريق قبلها ليتعلم مهنة يعيش منها عندما

لا يفلح في التعليم وخاصة إذا كان فقيراً لا يقدر على نفقات التعليم. وكانت هذه السنة الدراسية شديدة الأهمية حيث كانت لا تقل في الاهتمام عن نتيجة الثانوية العامة والإعدادية، وكانت الأهالي تحشد جهودها لهذه السنة المهمة، وأذكر أننا كنا نذهب في درس خصوصي عند الأستاذ «حسين القاضي»، ومما أذكره أنني كنت أكره الرياضيات وأتعامل معها تعامل المضطر الذي يجد نفسه مجبراً على التعامل مع شيء لا يحبه ولا يطقه.

وأذكر أنه عندما بدأنا نتعامل مع مادة الهندسة كان لابد لنا من استعمال الفرجار حيث عموده الأول مركب فيه السن الذي يثبت على الورقة والعمود الآخر به القلم الرصاص المثبت الذي يلف بخطه لرسم الدائرة المطلوبة بعد تحديد القطر عن طريق المسطرة، وقد كان ذلك تحدياً كبيراً لى. ولكن - كما هي العادة - ظلمت أبحث عن وسيلة وظلمت أجرب حتى اهتديت إلى طريقة لإنجاز المهمة وهي تثبيت السن بقوة عن طريق الضغط على رأس الفرجار بضمي وبأسناني حتى يثبت تماماً ثم يسلم الفم رأس الفرجار إلى إصبعي يدي الشمال وأضغط قليلاً بصدري وأحرك بإصبعي الفرجار حتى تكتمل الدائرة تماماً، وكانت مهمة شاقة، لكن كنت عندما أتمها أشعر براحة لا مثيل لها، وأحياناً كنت أفضل فأعاود حتى أنم رسم الدائرة. كذلك لى تجارب شاقة مع آلة هندسية أخرى وهي «المنقلة»، وهي آلة لقياس الزوايا مصنوعة من الزجاج أو البلاستيك الشفاف وكانت مما يثقل على مثلى استعمالها لأنها صغيرة رقيقة لا أستطيع أن أتحكم فيها، لذا كنت أقيس الزوايا عن طريق تثبيتها وتحديد الزاوية مرة بعد مرة حتى ينقضى الأمر، وكنت أحس عند استعمالها بضيق النفس وما أن أنهى حتى أطلق الزفرات لإعلان الانتهاء من هذه المحنة. وبالنسبة

للمسطرة، فقد كانت تتعبنى جداً لأنها طويلة، وكنت إذا ثبتها وبدأت أخط الخط تحتها فقد كانت تتحرك وتنحرف عندما أصل إلى منتصفها تقريباً، فينزل الخط لكى يشرب من التربة كما كنا ننذر ساعتها.. لذا، ومع أسباب أخرى كنت لا أطيق مادة الرياضيات التى سيكون منها أكبر صدمة فى حياتى الدراسية فيما بعد.

أما بقية المواد، كاللغة العربية والتاريخ والجغرافيا فكنت من المتفوقين فيها. وأذكر واقعة مهمة فى امتحانات اللغة العربية التى كانت درجاتى فيها دائماً متقدمة، وفى شهر من الشهور أخفقت ونزلت درجتى فيها كثيراً فعلم الأستاذ جلال السبادونى بعدما أنبأه صديقى وابنه محمد، فنادانى وأمرنى بإحضار الكراسى ويّين لى الخطأ، وقال لى بدل البكاء يجب أن تعود فى الشهر القادم بنتيجة أفضل، وفعلاً ذهبت إليه فى الشهر التالى ورأى التغير الذى حدث فكان مسروراً بما رأى، خصوصاً أنه من المدرسين الذين كنا لانهاب أن نكلمهم وهذه إحدى الملامح التربوية فى شخصية هذا الرجل الذى نعلم إلى الآن بحسن صحبته وأبوته.

ومما أذكر فى هذه السنوات لوحة الشرف للعشرة الأوائل على الفصل كل شهر بناءً على نتيجة الامتحانات وبناءً على سلوك كل تلميذ فى تعاملاته مع زملائه، وكنت لا أتصدر العشرة وأيضاً لا أن أكون من آخر ثلاثة وكان ترتيبى يتراوح بين الثالث والسادس، لأن الأول كان محجوزاً دائماً لزميلة أصبحت بعد ذلك طبيبة أسنان، وبعد اسمها يبدأ التنافس بين الجميع.

ومما أذكر فى الستين الأخيرتين، مباريات الكرة فى حوش المدرسة التى كانت حامية وحماسية وكنت أنا أحد نجومها، وكان لى مشجعون

كُثِرَ من زملاء الفصل والمدرسة ومن المدرسين، وكان الحوش يسع لفريقين أربعة أربعة، وكانت تُطلق الصيحات والهتافات، وكانت الكرة في المدرسة من الجلد لذا كانت مبارياتها لها طعم آخر غير مباريات الشارع التي تكون عادة بالكرة الشراب.

وفي نهاية السنة السادسة، تحدد الامتحان في المدرسة الثانوية بقويسنا ولا بد من لجنة خاصة أكون فيها مع تلميذ أقل منى سنًا يقوم بكتابة الإجابة التي أُمليها عليه، وكانت هذه أول مرة أخرج فيها لامتحان خارج المدرسة الابتدائية. وكان الأهالي يأتون مع أولادهم إلى المدرسة ويبتظرونهم حتى ينتهوا من أول مادة ثم يخرجون ليجدوا الساندوتشات مع زجاجة البيبسي جاهزة، ثم يدخل التلاميذ مرة أخرى للمادة الثانية، وهذا ما فعله أبى الذى فرغ نفسه تمامًا لهذه المهمة طوال أيام الامتحان. وكان عندما أستعد للدخول يوصينى بأن أسمى الله وأن أقرأ آية الكرسي، وألا أتسرع فى الإجابة وأن أراجع الورقة أكثر من مرة.

واللجنة الخاصة التى خصصت لى كانت عبارة عن غرفة صغيرة وكان التلميذ الذى جاء ليكتب من الصف الخامس الابتدائى ولم يكن من البلدة، لكنى فضلت أن أكتب بنفسى فى هذه السنة، لأننى وجدت ساعتها أن طريقة الإملاء لا تسعفنى فأثرت أن أكتب بفمى، فلما انتشر الخبر فى لجنة الامتحان كان المدرسون والمراقبون يختلسون الوقت لكى يشاهدوا خط هذا الولد الذى أصبح حديث لجنة الامتحان، ومما أفادنى أن ورقة إجابتى كانت منظمة بالرغم من أننى كنت لا أتقن استخدام المسطرة، فقد أعاننى الزميل من الصف الخامس على تنظيم الورقة وتسطيرها وهذا ما كنت أحتاجه.

وانتهت الامتحانات وبعد عدة أيام ظهرت النتيجة وحصلت على مجموع 90% حوالى 270 من 300، وكانت فرحة غامرة حيث أصبحت بداية المشوار ناجحة ومبشرة، وكنت ضمن الأوائل فى قريتى، وكان هذا النجاح بهذا الشكل يدعو إلى الاطمئنان على الخطوات القادمة، فمن استطاع أن يحصل على هذا المجموع فهو يستطيع بالتالى مواصلة النجاح وتخطى كل العقبات التى تواجهه، لأنه سوف لن يصادف أكثر مما صادفه قبل ذلك.

واستعد رضا لمرحلة جديدة بعد هذا النجاح الباهر، مرحلة الخروج إلى مجتمع جديد لا يعرفه، مرحلة التعرف على أصدقاء جدد وزملاء آخرين، مرحلة مدرسة المساعى الإعدادية التى سبقه إليها أخواه حسن وياسر، وحكايات عن المدرسة التى أشتاق أن يكون أحد تلاميذها. لكن كيف كان الاستقبال من الناس ومن المجتمع الجديد ومن زملاء سيصبح لهم شأن فى حياته فى قابل الأيام.

الفصل الخامس

إعدادى وثانوى

بيبصوالى ليه؟!

قويسنا هذه المدينة الهادئة الجميلة التى تتبعها قرينتا هى مركز من مراكز محافظة المنوفية، هذه المدينة التى تبعد عن بلدتنا حوالى أربعة كيلومترات، وكانت تسمى «عزبة صبرى باشا» مدير مديرية المنوفية وقتها، وقيل إن سبب تسميتها بقويسنا ترجع إلى قرية قريبة منها هى قرية قويسنا البلد، التى وُلد فيها وسكنها الشيخ حسن بن درويش القويسنى شيخ الأزهر من عام 1834 إلى 1838، وُضِمت هذه القرية إلى عزبة صبرى باشا وُسِّمت المدينة باسم هذه القرية «مدينة قويسنا» وهى المقصد لكل أبناء القرية وكل القرى المجاورة فى قضاء حاجاتهم. وتوجد بقويسنا مدرستان، مدرسة إعدادى ومدرسة ثانوى، وكان أولاد كل البلاد حولها يأتون إليها بعد الابتدائية للتعليم الإعدادى والثانوى، وكان ذهابنا ورجوعنا فى هذا الوقت سيرًا على الأقدام، حيث نقطع كل هذه المسافة يوميًا فى الصباح وبعد الظهر، وكان ذلك فى هذه الفترة فى أواخر السبعينيات من القرن الماضى.

وكانت مدرسة المساعي الإعدادية التى ذهبت إليها تقع بجوار مسجد المساعي، وعلى بعد خطوات منها مركز شرطة قويسنا وبالقرب منها الشارع الرئيسى فيها وهو الشارع العمومى أو شارع الجيش. وعندما دخلت المدرسة من أول يوم نشطت حالة من التساؤل من هذا الولد؟ وكيف يكتب؟ ومجموعه فى الابتدائية؟ وما حكايته؟ هذه الأسئلة دارت فى أذهان المدرسين والتلاميذ وكانت تُلقى فى وجهى كثيرًا وكنت أرد بشيء من الفخر وعزة النفس الممزوجة بالشكر والحمد لله الذى وفقنى لهذا.

لكن من الأمور التى آلمتني كثيرًا وسببت لى ضيقًا كبيرًا أننى لم أكن أسير فى طريق فى أى مكان من هذه المدينة إلا وأجد كل الوجوه تصوب العيون تجاهى، فكنت أتساءل لماذا ينظرون إلىّ بهذا الشكل؟ ومن يقترب منى أدفعه عنى بنظرة غضب شديدة أو أقف فجأة فيحول عينيه عنى خجلًا، فأنا لم أعتد على ذلك من الناس فى قريتى، فكل من أتعامل معهم ليس لهم هذه النظرة ولا هذا الفضول. ورأى أبى فى وجهى تغيرًا وفى تصرفاتى وسلوكى ضيقًا يظهر فى غضب أو تعد على إخوتى فأحس أن شيئًا ما يسبب لى هذا الضيق وهذا التغير، فسألنى، فقد كان طبيبى فى هذه الحياة: ماذا فى الأمر؟

فتجاسرت وقلت إن الناس كلما سرت أو وقفت أو تحركت تلاحقنى عيونهم، «عايز أعرف ببصوا لى ليه».

فاستمع إلىّ جيدًا ثم قال لى: وماذا فى الأمر؟

فعجبت وسألت: لماذا أنا تحديدًا دون بقية الناس؟

فقال: لأنك مختلف، شكلك مختلف، وهناك نقص في جسمك، فطبيعي أن ينظرون إليك، وعليك ألا تلتفت إلى هذا، وشرح لى أن الناس لابد أن تنظر إليك لأن ليس لك ذراعان طويلان، وهذا يلفت النظر ويشد إليك الانتباه. والحالة الوحيدة التى تدفع فيها عن نفسك عندما يتزايد أحدهم ويسألك بأسئلة كيف؟ ومتى؟ هنا يمكن ألا تجيب وتعرض عنه، أو يكون صدرك واسعاً وتقول إن هذا من خلق ربنا يعنى «ربنا خلقنى كذا» وهذا ستجده كثيراً.

فسألت: لماذا الناس فى البلد لا تنظر لى بهذا الشكل؟

فرد على: لأن الناس فى البلد اعتادوا عليك وعلى شكلك وتعاملوا معك وعرفوك، لذلك لا ينظرون إليك بهذه الطريقة، ومعظم من فى قريتنا الصغيرة إما قريب أو جار أو زميل أو صديق، والقرية صغيرة يعرف الناس بعضهم بعضاً ثم قال قولته المأثورة لى التى بقيت وستبقى، وقال:

اجعل نظرة الناس إليك تتجاوز الشكل، اجعلهم ينظرون إلى نجاحك إلى أخلاقك إلى تفوقك، اجعل نظراتهم إليك نظرات إعجاب بهذه الشخصية الناجحة، ثم دعك من هذه الأشياء وعليك أن تتجهّد وثبت لهم ولغيرهم أنك جدير بنظرة الإعجاب والتقدير وليس بنظرة العجز أو العطف أو مصمصّة الشفاه، ولا تسمح لأحد أن ينظر إليك هذه النظرة.

كانت هذه الجلسة بينى وبين الوالد - رحمه الله - وأنا مازلت أخطو أولى خطواتى فى المدرسة الإعدادية مدرسة المساعى بمثابة جلسة مهمة جداً فى حياتى، حيث كان فيها صريحاً للغاية وكان بالقدر نفسه حريصاً

على أن أتفهم الأمر جيداً. لكن هذا الكلام لطفل يغادر الطفولة ويبدأ أولى درجات الصبا والمراهقة لابد أن تعقبه وقفات ووقفات، ولعل هذه الوقفات هى التى ثبتت الأرض تحت قدميه طوال حياته، بعد أن خرج منها معافى خلواً من اليأس مخزوناً باليقين مملوءاً بالثقة فى نفسه وفى ربه الذى كان ينجيه بالساعات وهو فى هذه السن الصغيرة.

ومازلت أذكر بعض المواقف والصور عندما أسترجعها أجد أن سنى لم يكن يحتمل كل هذه الضغوط النفسية: نظرات الناس التى لم أكن أعتادها، والتغيرات الكثيرة التى تحدث أمامى، بالإضافة إلى التغيرات الفكرية والعقلية فى فترة المراهقة وما يكون فيها من تجاوزات تبدو طبيعية فى هذه الفترة من الحياة. فعلى الرغم من كلام الوالد العاقل الذى لا يُرد فهناك طفل يرى الناس تلاحقه بعيونها أنى راح أو جاء، لذلك حدثت لى بعض الأمور التى رَسَّخت عندى قناعة بما قال أبى، هذه الأمور قد لا يتخيل أحد أن طفلاً فى هذه السن يفعلها أو يفكر فيها خصوصاً فى المجتمع الذى كنت أعيش فيه، لكن الحالة التى طرأت عليه كانت سبباً فى وقفته أمام المرأة وسؤاله إلى الله عن خلخته وعن النقص الكائن فى جسده، والذى فتح جرحه وأظهره له الناس بعيونهم التى تلاحقه وفضولهم الذى يمكن أن يطلق عليه «رب ضارة نافعة»، لأن ذلك أنتج حواراً بينه وبين نفسه وأنتج علاقة وثيقة بربه لكن كيف؟

المرأة وأمنية النوم وسؤال إلى الله

كانت هذه الفترة من حياتى فترة حرجة ودقيقة، ذلك أنها فترة التساؤلات الكبيرة التى تراود الإنسان الطبيعى الذى يفكر، ولا بد له من

إجابات شافية عن أسئلته، ذلك بالنسبة لقضايا الإنسان الكبيرة كقضية الإيمان وقضية الوجود وقضية الخالق وباقي الأسئلة التي تبدو طبيعية في هذه المرحلة. إضافة إلى ذلك، التساؤلات الخاصة بي، مثل طبيعة الخلق وشكل الجسم، التي أثارها ملاحقة العيون، والجانب النفسى الذى أقض مضجع نفسى فلا يستقر لها بال.

ولعل الجمع بين هذه الأسئلة من الأمور الطبيعية في هذه المرحلة، مرحلة المراهقة، حيث كان سنى على مشارف أربعة عشر عامًا؛ وكما يقول عنها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن العيسوى أستاذ علم النفس بكلية الآداب جامعة الإسكندرية في كتابه علم النفس العام: «ومن أبرز خصائص النشاط، العقلى في فترة المراهقة أنه يأخذ في البلورة والتركيز حول نوع معين من النشاط، كأن يتجه المراهق نحو الدراسة العلمية أو الأدبية بدلًا من تنوع نشاطه واختلاف اهتماماته، كذلك من خصائص هذه الفترة نمو قدرة المراهق على الانتباه، فبعد أن كانت قدرته على الانتباه محدودة وكانت المدة التى يستطيع أن يركز انتباهه فيها نحو موضوع معين لمدة محدودة أيضًا يصبح قادرًا على تركيز انتباهه لمدة طويلة، كذلك تنمو القدرة على التعلم والتذكر فبعد أن كان تذكره تذكرًا آليًا أى تذكرًا يقوم على أساس السرد الآلى دون فهم لعناصر الموضوع يصبح تذكرًا يقوم على أساس الفهم وعلى أساس إدراك العلاقات القائمة بين عناصر الموضوع الذى يتذكره» ص 284. ويقول أيضًا: «يمتاز النمو العقلى بالسرعة فى مرحلة المراهقة والنضج، حيث يصبح المراهق قادرًا على التفكير فى الأمور المعنوية المجردة، ويعنى ذلك نمو الذكاء والقدرات الخاصة والميول والاتجاهات، ويصبح تفكيره أكثر دقة ونضجًا، ويميل

إلى التفكير النقدى، ويعيد النظر فى كثير مما سبق أن تقبله فى المراحل السابقة عن طيب خاطر» ص 291.

وما قاله العلامة عبد الرحمن العيسوى هو وصف دقيق لما حدث لى فى هذه الفترة، لكن مع الأخذ فى الاعتبار الحالة الخاصة التى أمرُ بها والتى وصلت أحياناً إلى مرحلة الأزمة النفسية. فكل ما كنت أمرُ به فى طريق الحياة كنت أجد له حلاً لأنه فى يدي، أما الذى يحدث فى هذه المشكلة كان طرفه الآخر الناس ونظراتهم ومواقفهم، خاصة عندما خرجت إلى مدينة قويسنا، فحدثت بعض المواقف والمشاهد المؤثرة التى عندما أذكرها الآن وأنا فى هذه السن يخفق قلبى منها. على سبيل المثال، كنت أتحين الفرصة عندما تخلو الغرفة التى فيها «التسريحة» وهى عبارة عن درجين من الخشب فوقهما مرآة مربعة الشكل، كنت أنظر إلى يدي القصيرتين وأتملى فيها جيداً وأحرك اليمنى التى حركتها ثقيلة وبطيئة وأحرك أصابعها الثلاثة وأحاول رفعها وخفضها بصعوبة، ثم أحرك اليد الشمال وهى سهلة الحركة طيعة تأخذها إرادتى فوق وتحت ويمين وشمال حيث شئت، والإصبعان يتحركان أيضاً بسهولة، وأظل هكذا فترة من الوقت أحرك فيها وكأنى بتحريكهما أقول شيئاً خفياً فى نفسى أو كأنى أبحث عن شىء. وتكررت هذه الواقعة، حتى إن أمى دخلت علىَّ يوماً وسألتنى ماذا تفعل فهربت منها بإجابة لا تقول شيئاً.

لكن الموقف الذى كان وقعهُ صعباً على صبى فى سنّى وفى مرحلة قلقه من عمرى، هو ما حدث ليلاً حين كنت ألبس فانلة بحمالتين ويدائى مكشوفتان، وقد حدث ذلك كثيراً من قبل، لكن هذه المرة كانت مختلفة للظروف النفسية التى كنت أمر بها، شعرت كأنى لم أرها من قبل

واستحضرت نظرات الناس إلى هاتين اليدين بصورتها اللتين أراهما الآن بهذا الشكل، ولأنى وقتها كنت وحدى الضيق أن يهلكنى، فأخذت فى البكاء الشديد وبدأت أردد: لماذا أنا هكذا؟ ولماذا يداى قصيرتان بهذا الشكل؟ وبدأت أدرك لماذا ينظر الناس إلىّ. منذ ذلك اليوم بدأت مرحلة جديدة فى التعامل مع هذا الموضوع، حيث أصبحت بالرغم من حركتى التى لا تهدأ لصيقاً بالمسجد، وأذكر بعد موقف المرأة أننى كنت أقف فى الصلاة وأنا فى خزى من نفسى بعد هذين السؤالين اللذين خرجا من فمى وأصبحا علامة المرحلة التى أمرُ بها، فكنت فى الصلاة أنظر إلى يدى الاثنتين وأضع اليمنى ذا الثلاثة أصابع على اليسرى ذى الإصبعين التى تطولها بالكاد وأنظر إليهما، وأظل أدعو أن يطيلهما الله وأن يهبنى ذراعين طويلين، وبعد الصلاة مباشرة أذهب للنوم بعد هذا الدعاء وهذا الرجاء مقارباً يدى اليمنى من اليسرى علنى أستيقظ فأجد ذراعين ويدين كما عند إخوتى وبقية الناس، وكنت عندما أفتح عينى بعد هذه التجربة أتمسك يدى وكأننى سأجد الأمر قد تغير، وكأننى سأجد الخمسة أصابع والكف الكبيرة والذراع الطويلة.

وظللت على ذلك فترة ليست قصيرة من الوقت حتى قوى عود عقلى بإيمان داخل النفس أيقظته صلاتى الدائمة أمام الله وفطرة سليمة لم تغش إلى إثم أو كبيرة وأسرة تحمل عنى أعباء الحياة، فانتهيت إلى ماقاله لى أبى وانتهيت إلى يقين بأن هذا قدرك فى الحياة وأنتك لست محتاجاً لأحد ولو أنك نجحت فسوف تبني مجداً لنفسك، وأنتك كما كان يذكرك أبوك وأملك منذ ولدت وكل شىء يخصك له عند الله سبحانه سبيل وفرج ومخرج، فزادنى ذلك قرباً من المسجد وتقرباً إلى الله سبحانه وأنا فى

هذه السن. إضافة إلى أنني كنت مشاكساً مع إخوتي وزملائي وحتى مع الناس، وكانت تلحق بسلوكي حدة لعلها كانت مما كنت أرى من نظرات الناس، فكنت عندما أصلى كأني أُلجأ إلى الله معتذراً وتائباً عما أفعله بكل هؤلاء كل يوم، والعجيب رغم هذه المشاكسات والمناوشات أن صاحبنا كان محلاً لحب كل هؤلاء لما يتسم به من قدرة على الرجوع إليهم والاعتذار إليهم.

وفي هذه الأثناء حدث موقف فهمته وقتها أنه عقاب من الله على السؤالين أمام المرأة، حيث كنت أذهب مع بعض الأولاد إلى التربة، هم ينزلون للسباحة وأنا بجانب ملابسهم وأحذيتهم، وكنت أحب جداً الذهاب معهم، وكأن أمنية السباحة بالنسبة لي - التي تكاد تكون مستحيلة - تتحقق عندما أراهم يسبحون ضارين بأيديهم الماء الجارى. وفي إحدى المرات أخذوا يقذفون أحذيتهم في التربة وكانت من البلاستيك الرخيص في حالة مرح فشاركتهم ذلك، وأثناء رمي حذاء أحدهم حذرني وهو في الماء لاترم به وإلا قذفتك في الماء، فلم أعر لتهديده سمعاً لأن هذا مستحيل أن يفعله عاقل ولأنه يعنى الموت لمثل، ورميت الحذاء فجاء من ورائي وأنا على حافة التربة المملوءة عن آخرها بالماء ودفعني بكل قوته، فوجدت نفسي في نصف التربة ولم أر حولي إلا الماء، وظللت أطفو فوق الماء وأنزل وأنا في صراع مع الموت غرقاً، وفي اللحظة الأخيرة جاءني أحدهم وأمسك بي من وسط جسمي ورفعني كي أتنفس حتى عادت لي الحياة مرة أخرى بعد أن كادت تذهب عني ثم أخرجوني، ورأيت الكل يضرب صاحبنا هذا الذي كاد يتسبب في موتي، وانتهى الموقف وظللت فترة حتى جفت الملابس التي كنت سأموت بها.

وأحسست أن ما حدث هو عقاب من ربى على هذين السؤالين، وظللت أستغفر الله عما بدر منى، وتعلمت وقتها ألا أضع نفسى فى مكان أحس فيه بالخطر وألا أتعامل مع أحد لا يقدر خطورة الأمر الذى يُقدم عليه، وقد وصلتني الرسالة، هكذا فهمتها فى هذا الوقت. وكانت نجأتى من هذه الواقعة لبنة من لبنات الرضا بالقدر الذى قدره الله لى بهاتين اليدين اللتين قبلتهما راضياً طائعاً موقناً أنهما من الله، وما داماً كذلك فأنا منتظر الخير من ربى دائماً.. هكذا فهمت بعد عناء المرأة وأمنية النوم والسؤال إلى الله.

زملاء جدد

كانت فترة المدرسة الإعدادى فترة مهمة من فترات حياتى، حيث اتسعت دائرة الحياة، فقبل ذلك كانت القرية بمحدوديتها من حيث الناس ومن حيث المساحة ومن حيث المواقف والأحداث حتى من حيث الملابس، ففى الابتدائى كانت المريلة تيل نادية الطحينية اللون، أما الآن فالقميص والبنطلون، وفى الابتدائى كنا جميعاً من قرية واحدة أما فى الإعدادى فالمدرسة تجمع من مدينة قويسنا ومن كل القرى التى حولها، لذا اتسعت دائرة الزملاء الجدد من كل هذه البلاد واتسعت معها العلاقات.

وقد تعرفت فى البداية على مجموعة من الزملاء الذين كان لهم أثر كبير فى حياتى التالية، حيث صارت صداقات متينة أساسها الود والحب والاحترام، وقوامها السعى الدائم لخدمة بعضنا البعض كلما سنحت الفرص، وزيتها الأخلاق الطيبة التى لا تقترب جرمًا ولا تقترب من إثم

وإنما التزام وأدب ونحن في هذه السن التي نقف فيها على أبواب الصبا والشباب.. كما عشنا في هذه الفترة نوع من أنواع الخروج عما عرفناه في القرية في المدرسة الابتدائية، فمثلاً في نهاية هذه المرحلة تجرباً عدة مرات وركبنا القطار وذهبنا إلى مدينة بنها التي تأخذ بالقطار عشر دقائق لنشاهد السينما ونطلق قليلاً على الكورنيش، وكنت بعد هذه الفعلة أظل خائفاً من أن يُعلم أحد أبى أو أمى، وأحس لذلك أننى أخطأت، وهذه لم تحدث إلا مرات قليلة طوال هذه السنوات، وكنا نتندر بها في مجالسنا بعد ذلك.

وكان حوش المدرسة الإعدادى مدرسة المسامحة للتنافس بيننا في كرة القدم، وكان الأستاذ «ظريف ميخائيل» مدرس التربية الرياضية - الذى كان مهتماً جداً بحصة الألعاب - يشجعنا على الرياضة، وكان يتميز بالاحترام الشديد لنا جميعاً، وكنا نحبه ونحترمه ونقدره لأنه كان شديد الأدب في التعامل معنا. وأذكر أن من أهم أصدقائنا في هذه الفترة من الإخوة المسيحيين زميلنا «سامح راغب» الذى كانت تجمعنا به أخوة وصداقة قوية وما زالت.

وفي هذه الفترة تعرفت على أصدقاء العمر الذين كان كل منهم حالة إنسانية فريدة وجميلة ورائعة، التقت أرواحنا. منهم كان أخى وصديقى المتفق على أدبه واحترامه وذوقه الرفيع «أحمد جمال» الذى تعرفت عليه في الأيام الأولى في المدرسة الإعدادى، وصارت صداقة قوية إلى الآن. أحمد جمال منذ عرفناه في مدرسة المسامحة الإعدادية وهو بهذه الإنسانية الرائعة، فلم يخرج من فمه يوماً لفظ يشين ولا فعل فعلاً يحاسب عليه ديناً ولا خلقاً، ولم يقف موقفاً طوال حياته معنا إلا مفعماً

بالحب والود والمشاركة الوجدانية المخلصة. أحمد جمال عندما أتأخر في التواصل معه أحس بأننى قد تخلى عنى بعض نفسى، وعندما ألقاه أو أتحدث معه أحس بأن الخير باق ما بقى أحمد وكل من يحمل قلب وروح وعقل ومشاعر أحمد جمال.

وكان ممن عرفت وتعلمت منه وما زلت، على الرغم من زمالتنا ونحن فى مقتبل العمر، هذا العبقرى الجميل الذى كنا عندما نراه يجادل أو يحاور مدرّساً ننظر إليه بتعجب شديد؛ ما هذا الذكاء الوقاد والذهن الحاضر والعقل الواعى الرصين، هذا الذى كان كل من يعرفه يوقن بأنه سيصبح فى قابل الأيام عالماً مشهوراً، هذا الذى كان هادئاً وقوراً منذ عرفناه. لقد كان حديث مصر كلها فى شهادة الإعدادية حيث كان أول طالب يحصل على الدرجات النهائية فى جميع المواد، ولم تكن قد حدثت قبل ذلك، إنه «الأستاذ الدكتور هشام عبد الرحمن» الأستاذ فى كلية طب بنها.

كنت أذهب إليه فى بيته المطل على شارع الجيش فى قويسنا «الشارع العمومى» فأجد وجهاً لم أر أطيب منه فى حياتى، يملؤه الرضى والتقى، وجه أمه - رحمها الله - التى لا يمكن أن أنسى كلماتها الرقيقة وهى تسأل عنى ببسمة راضية مرضية وتبعث بمشاعر أم ترجو الخير لكل من تقع عليه عيناها. هشام عبد الرحمن صورة نقية صافية لإنسان عرف طريقه وخطط لحياته ونجح نجاحاً مبهرًا.. صاحبه فى رحلته دين حى وأخلاق عالية وضمير يقظ، وفوق كل هذا إنسانية تربعت على عرش حياته.

ومن عرفت فى هذه الفترة، هذا التقى النقى الورع الذى كان سهلاً

ليناً رقيقاً شفوفاً، يغزوك بحنانه ويظلللك بأدبه «حاتم عبد السميع» رحمه الله، الذى كانت عيناه خلف نظارته الشفافة تنبآن عن ذكاء نادر، فقد كان عبقرىً فى مجال الرياضيات لدرجة أنه كان يشارك المدرسين ونحن فى هذه السن حل بعض المعضلات الرياضية. ولأنه كان من قرية بجانب قويسنا كنا نلتقى فى المدرسة وخارج المدرسة. وعندما عاد من رحلته للحصول على الدكتوراه من كندا سألته عن أحواله: فقال ذهب للدكتوراه معى المصحف وسجادة الصلاة ورجعت بالمصحف وسجادة الصلاة والدكتوراه فى ثلاث سنوات.. كان وجهاً راضياً قانعاً وكان سمناً هادئاً.. نوعاً فريداً من البشر رحمه الله.

أما قلب الفنان الجميل «خالد عبد العظيم» صاحب الحس الراقى - منذ عرفته - فقد كان مخزوناً تجاهى بالحنان والعطف، وكان لسانه يترقق منه عصير الشهد الصافى، وقد جمعنا أخوة وصداقة وكان فناً رقيقاً حيث كان يلبس حزام الأوكرديون ويعزف به فى طابور المدرسة، وفى نفس الوقت كان ضمن المتفوقين دراسياً. كانت روحه روح فنان وأخلاقه أخلاق فنان، وكانت فترة مرضه قاسية لكنه كان صابراً، ذهب إليه مرة فرأيتته مبتسماً ابتسامته الراضية الجميلة التى عرفناه بها منذ كنا تلامذة فى مدرسة المساعى الإعدادية، رحمه الله.

وبقى أن أتحدث عن زميل الدراسة وصديقى الذى بدأت معرفتنا فى هذه المرحلة، «إبراهيم عيسى» الذى كان حالة متفردة منذ عرفته، ونحن مازلنا نضع اقدامنا على أول الطريق. عرفته فى أسرته التى تحترم العلم والثقافة، فوالده الأستاذ السيد عيسى أستاذ اللغة العربية الذى كان حافظاً للقرآن، يحترمه الجميع، والذى علم أجيالاً كانت تعرف له هذا

الفضل. وكان إبراهيم منذ عرفناه شخصية متوهجة دائماً، حدد طريقه وصَوَّبَ إليه سهمه النافذ. لقد كان صحفياً منذ نعومة الأظفار، فقد أصدر في المدرسة مجلة ورقية سماها «الحقيقة» كنت أحد محرريها وكان هو رئيس تحريرها، وعندى في مكتبتى أحد أعدادها أحتفظ به إلى الآن، وكان شديد الأدب مع الجميع، ودوداً كبيراً في تصرفاته وسلوكه، قارئاً بنهم منذ عرفته.

كنت أزوره مع صديقى محمد جلال بدراجته البخارية فكان يستقبلنا بكل ود، وكنا نجلس في غرفة الصالون على يمين الداخل إلى البيت مباشرة والمطلة على الشارع والذى كان يعلق فيها صورة جمال عبد الناصر، وكانت تدور بيننا نقاشات نجهد أنفسنا معه فيها لأنه كان أكثر منا قراءة وعمقاً وتحليلاً، وكنا نتفق معه ونختلف. وأذكر أننى استعرت منه في هذه الفترة كتباً كثيرة، أذكر منها كتاباً لعادل حسين عن شخصية عبد الناصر وتفرداها، وكتاباً ما زال عندى إلى الآن في مكتبتى وهو عدد من مجلة «شئون عربية» عن القدس، وروايته الأولى «في وصف من يمكن تسميتها الحبيبة».

وكان له صداقة مع والدى رحمه الله الذى كان يحبه كثيراً، وكذلك كان والدى مع كل زملائى، ودائماً ما كان يسأل عنه حيث تعرف عليه في فترة مبكرة من حياتنا. وكان إبراهيم يطمئنه علىّ دائماً. وأذكر لما نجحت في الثانوية العامة وكان ترتيبى الثانى بعده واخترت كلية الحقوق - وكان أبى يريد كلية الإعلام أو الاقتصاد - قال له أمامى: لو رضا يريد أيّاً من هاتين الكليتين سيكون معى ولا تخف عليه.

ثم افترقنا بعد الجامعة، حيث كنت أتابع تحقيقاته الصحفية في روز

اليوسف منذ كان طالباً في كلية الإعلام، وتقابلنا معاً بعد ذلك في لقاءات قليلة، ولقد أصبح بحق رائداً من أكبر رواد الصحافة المكتوبة بجريدة الدستور التي أحدثت نقلة في عالم الصحافة وقتها، ورائداً في فن الكتابة السياسية في عهد مبارك وقد أحدثت مقالاته هزة في عرش نظامه، وسوف لا ينسى التاريخ مقالاته تلك، وخاصة مقاله «الآلهة لا تمرض». وكان رائداً في فن الرواية الأدبية في مصر، وقد حقق المركز الثاني في جائزة البوكر العالمية بروايته الرائعة التي تحولت إلى فيلم سينمائي بعد ذلك، رواية «مولانا».

إبراهيم عيسى، شهدت بداياته الأولى فعرفت شخصاً شديد الأدب، تربى في بيت يحترم القيم، وكان طموحه منذ كنا صغارا لاحد له، وها هو قد حقق ما أراد لنفسه، هذا بغض النظر عن المتففين معه والمختلفين، لكن يبقى إبراهيم عيسى درة أبناء جيلي من مدرسة المساعي وأكثرهم نجاحاً وتألقاً.

ولا أنسى في هذه الفترة مجموعة من زملاء المدرستين الإعدادية والثانوية، كل واحد منهم أصبح علماً في مجاله. منهم صديقي المهندس «محمود شحاتة» الذي كان دمث الخلق شديد الأدب مع كل الناس، وكان ضمن المتفوقين دائماً، وأذكر أنه جاء مع إبراهيم عيسى ومعه آلة تصوير وأخذ إلى بعض الصور في بيتنا القديم لبيدع إبراهيم عيسى تحقيقاً صحفياً عن حياتي اشتركا به في مسابقة كانت تجربها مجلة لبنانية في ذلك الوقت.

وكان من زملائي في هذه الفترة، هذا الذي تميز بطيبة القلب الشديدة وكان ممن ألجأ إليهم دون أى حرج، لأنني كنت أرتاح إليه وأعرف نفسه

الطبية، «رفعت العوضى»، الذى كان والده مشهوراً فى قويسنا بأنه صول الشرطة الذى يهابه الجميع على الرغم من أن شدته كانت قشرة ظاهرة فقط تخفى وراءها إنساناً شديد الطبية. وقد أصبح رفعت اقتصادياً وحقوقياً بعد ما حصل على رسالة الدكتوراه، وله إسهامات رائعة فى هذا الشأن.

وقبل أن أغادر الحديث عن الزملاء، لا بد أن أختتم بملك الفكاهة والدم الخفيف وقراءة الواقع بشكل مرح وكوميدي، صديقنا «إبراهيم صلاح» صاحب النكتة الحاضرة والبديهة السريعة والقلب الطيب والأسرة الطبية، الذى كان يهازحنا بحكاياته بظرفه وأسلوبه الشيق الممتع فى العرض. وها هو وقد أصبح محامياً كبيراً ولم تغادره إلى الآن البسمة التى يطبعها بخفة دمه وحلاوة روحه، وقد راق لى وجودنا معاً لعدة سنوات متتابة فى المسجد الحرام والمسجد النبوى.

كانت هذه المجموعة من الزملاء والأصدقاء الذين توثقت علاقتنا بعد ذلك، إضافة إلى زملاء النشأة والطفولة، وكانت تعبيراً عن ملامح لشخصية توافقية تحمل قبولاً للناس ومن الناس، بمعنى أن ما قد يتصوره البعض عجزاً لم يؤثر إطلاقاً على إنسانية الإنسان، على روحه وطبيعته، التى لا بد أن تصنع مع غيرها علاقات إنسانية ناجحة يأخذ منه ويعطى، بعيداً عن العقد النفسية والأمراض الاجتماعية التى قد يخلفها طمع أو تغذيها غيرة سلبية أو يدفعها كره أو حقد.

والحقيقة أن لزملائى وأصدقائى فى رحلة الحياة مكانة مهمة، حيث عشت فى قلوبهم وأمطرونى بغيث فضلهم وأحاطونى برعاية الأخوة الصادقة التى جعلت كل واحد منهم كأنه قد عيّن نفسه راضياً لمعونتى

والاعتناء بى فى الأمور التى كنت أحتاج فيها إلى مساعدة، وخصوصاً عندما كان أحد الأشخاص يحاول أن يسىء إلىّ أو يتزید معى فى الكلام أو يتجرأ بفضول غير مقبول، ترى هؤلاء الأخيار وقد تنمروا للدفاع عن زميلهم وصديقهم، وقد يصيبهم من أجل ذلك ضرر من قبل جاهل أو سفيه. لذلك كنت أبادلهم حباً بحب ووداً بود وكنت شديد الاحترام والتبجيل لهم، وكنت أعلن دائماً أن الله قد جعل لى إخوة كثر، كل منهم لى معه مواقف تشهد لكل منا بمدى الحب المخلص والأخوة الحانية التى ما زالت تظهر بوضوح عندما نلتقى بعد ما فرقنا الحياة، لكن لأننا كان يجمعنا حب وود وإخلاص فكأننا لم نفرق يوماً.

تدريس ومدرسون

فى هذه الفترة، فترة تشكيل العقول وضخ المفاهيم التى يعيش عليها الإنسان فى حياته وتحقيق استقامة النفس البشرية وبث القيم، أتحت لنا فرصة لكى نتعلم على أيدي مجموعة من الرجال المخلصين الذين أدوا دورهم وبذلوا فى سبيل نجاح مهمتهم فى تربية وتعليم جيل أصبح ممتناً الآن بعد كل هذه السنين لما فعلوه، سواء فى المدرسة الإعدادية أو فى ردهات المدرسة الثانوية. ولعل أكثر ما كان يميز هاتين الفترتين الجدية والعمل المخلص وفهم المدرس لمهنته سواء من حيث التربية أو من حيث التعليم، وكذلك إقبال كثير من الطلبة على التعليم حيث كانت نسبة الغياب قليلة للغاية ومن يغيب عادةً يكون مجبراً على ذلك لظروف خارجة على إرادته. هذه الصورة ناصعة البياض كان يصيها بعض الغَبَش، بسبب خروج البعض عليها، سواء هروباً أو محاولة للتمرد على

قواعد المنظومة، ولكن تبقى نمشًا لا يشوه الصورة ولا يغير من طبيعتها الراقية..

وأذكر من المدرسين الذين كانوا علامة على الالتزام والجدية - والصرامة أحيانًا - مدرس اللغة الإنجليزية «الأستاذ عبد العزيز الباز» هذا الوجه الأوروبي الجميل ببياضه الممزوج بحمرة وشعره الناعم الذى كان يميل معظمه يمينًا ونظارته التى ينبئ سمك عدساتها عن ضعف نظره، كان يدخل علينا الفصل فى الحصة الأولى فى اليوم الدراسى، وأذكر فى أول حصة دخل علينا فيها وهو ممسكًا بعصا صغيرة ووضع على السبورة مجموعة من الأسئلة التى درسناها فى العام السابق وكانت سهلة، وبدأ فى السؤال وسار بين التلاميذ يسألهم، وكل من يجيب يقول له اجلس بسرعة ومن يتلجلج يعاجله بالعصا بسرعة عشرين عصا فى الثانية، فارتعدت، وانتهت الحصة الأولى. وظل لعدة حصص لا يسألنى، فكأننى قد اطمأنت وأحسست أنه لن يسألنى، وفى مرة أمرنى بالوقوف وسألنى، فإذا بى من الخوف انطلقت وأجبت بسرعة بل وأجبتة عن كل ماكان مكتوبًا على السبورة، وكأنى كنت أدفع بإجابتى هذه الخوف الذى اعترانى من شخصيته، وظللت فيما بعد متجاوزًا معه. هذا المدرس كان يحترم جدًّا حصته ولا يجلس طوال الحصة، ويشرك تلاميذه معه ويختبرهم دائمًا بهذا النشاط العقلى والذهنى. الشئ الوحيد الذى كنت آخذه عليه هو كثرة وسرعة ضربه للتلميذ الذى لا يجيب، وكان يمكن أن يكون الضرب أقل أى أن يكون عقابًا وظيفيًا من أجل إصلاح وضع ما.

ومن أذكر من المدرسين فى هاتين المرحلتين الأستاذ «مندوه المغازى»

مدرس اللغة العربية الذى كان وسيماً يدعم وسامته باختيار ملابس قيمة، حيث كان الجاكيت يناسب القميص والحذاء والكرافات الشيك، فكان مثلاً لاحترام النفس فى كل شىء. وكانت له طريقة فى الشرح هادئة، ولم يكن ممن يعاقبون بالضرب ولكن عقابه كان بالغضب أو باللوم المصحوب بكلمة قاسية كالوصف بالغباء أو البرود أو غير ذلك، وكان عاشقاً للغة العربية وقد جعلنا ذلك نُقبل على اللغة العربية.

ومن عرفت فى هذه الفترة وكان مثلاً على التزام المدرس الأخلاقى والتربوى والتعليمى الأستاذ «محمد ليبب» أخو زميلى وصديقى الدكتور نبيل ليبب الذى كان آية فى الخلق والالتزام، وكان مدرساً لمادة الرياضيات التى كنت لا أطيقها، لكنى كنت أحبه كثيراً، وكان يبذل جهداً كبيراً فى الحصة، ويظل يشرح فى حصته حتى يضرب الجرس، وكان شديداً مع بعض التلاميذ الذين لا يصلح معهم إلا الشدة، وترك فى نفسى أثراً بأخلاقه لا يمحو.

ومدرس التربية الرياضية الذى أشرت له من قبل، الأستاذ «ظريف ميخائيل» الذى لم تكن حصة الألعاب عنده مباراة كرة ولكن كانت تدريبات ومسابقات هادفة، وكانت عنده رؤية لحصة التربية الرياضية، وكان يحظى باحترام كل تلاميذه. وقد قابلته قريباً وقد رسم الزمان على وجهه الجميل علاماته التى لم تخف جدية وجهه ولا إخلاصه البادى من بين عينيه.

ومن هؤلاء الأعلام من المدرسين كان مدرس الفرنساوى فى المدرسة الثانوية «الأستاذ عبد الوهاب»، وكان هذا الرجل رغم قصر قامته إلا أنه كان شديد الاحترام لنفسه، وكنت أحب كثيراً أن أنظر إليه وهو ينطق

كلمات الفرنساوى فقد كان ينطقها ببراعة، وكانت له طريقة في شرح الفرنساوى رائعة، وكان يسمح لى بأن أمارحه على غير عادته، وكنت أذهب إلى بيته في درس خصوصى، ويرجع إليه الفضل في حصولى في الفرنساوى على 28 درجة من 30، في هذه السنة.

وفي المدرسة الثانوى التقينا بمدرس وجهه كان صارمًا شديدًا وشاربه الكث يزيد وجهه صرامة، كانت المدرسة بمن فيها تخاف منه وتحترمه، وكان يدرس اللغة الفرنسية، الأستاذ «عباس الحانون»، وكان إذا قابلنى تشرق في وجهه شديد التجهم ابتسامة، فلما حكيت لوالدى ضحك وقال لى إنه أحد أصدقائه وهو يعرفك جيدًا.

ومن المدرسين الذين كانوا يمثلون سوءة من السوءات في جمال الصورة، هؤلاء الذين كانوا يجبرون الأولاد على الدخول في الدروس الخصوصية وإلا عاقبهم في درجات الشهور، وكان مشهورًا بذلك مدرس رياضيات كان يهين نفسه وهو كبير السن بهذا العمل، لكنه لو نظر إلى الوضع الآن حيث التعليم ليس في المدارس ولكن في «السناتر» كما يسمونها، لاعتبر نفسه ملاكًا بالقياس لما يفعله أحفاده الآن.

كانت المدرسة في عهدنا مازالت تقوم بدورها ومازال التلاميذ والطلبة يعمرن المدارس، وكانت الدروس الخصوصية موجودة ولكنها لم تكن بهذا الشكل السرطانى الذى جعل الطلبة وعاءً يُملأ بالمعلومات ثم يفرغ في الامتحانات، وبعدها يرجع فارغًا كما كان. كما أصبح المدرس مقاولاً لعملية بناء بلا قواعد ينهدم بعد أن تنقضى مهمته، ويأخذ هذا المكاوّل إتاوة البناء الهش الذى لايربى عقلاً ولا يبنى أمة ولا يصنع مستقبلًا. ولا أنسى موقفاً لأستاذ كبير من

أساتذتنا الكبار، الأستاذ «كمال شبل» خبير اللغة العربية الذى وافق تحت إلحاح الطلبة فى الشهرين الأخيرين من الثانوية العامة على إعطائهم درسًا خصوصيًا فى النحو والبلاغة، فحضرت معهم، فلما قابلته كان معى شديد العطف والمروءة وأيضًا معنا جميعًا، لدرجة أنه كان يخبرنى فى الحصص التى أريد أن أحضرها. ولم يكن أبدًا يتحدث فى الأجر بل كان حرصه الشديد على أن تصل الرسالة إلى تلاميذه، حتى ولو لم يحصل على أجر، فشتان بين هذا المعلم المربى وبين مقاولى الأنفار أصحاب الإعلانات مدفوعة الأجر على الحوائط وفى وسائل الإعلام.

الأدب والنصوص إعدادى وثانوى

من أبدع ما قرأت من أدب تلك الاختيارات للنصوص الأدبية فى الإعدادى والثانوى، حيث كانت اختيارات تحمل القيم التى يجب أن يلتزم بها الصبى فى هذه المرحلة، فهى تضع له الأساس القيمى والأخلاقى فى هذه المرحلة، ولا ينسى الذى يختار إبداعها اللغوى وزينتها الجمالية أنها تشكل وجداننا فى هذه الفترة المبكرة من شبابنا، ومن ينظر فيها يجدها قد اشتملت على القيم التى يجب أن تزرع وتُنمى وتثمر فى هذه السن لصبى يبدأ حياته، وأذكر هذا النص القرآنى المبدع تربويًا وأخلاقيًا وعقديًا وكان فى أوائل التعليم الإعدادى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ١٣﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَا شَرِكَ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣ ۖ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ

بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَلَّهُ، فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي
 وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَهْدَاكَ عَلَيَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
 عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى
 ثَمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِي إِنَّهَا إِنَّكَ
 مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ
 بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ
 عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ
 خَذَكُ النَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾
 وَأَقْصِدْ فِي مَسِيرِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

هذا النص الذي احتوى على قيم احترام الوالدين وسعة علم الله
 سبحانه وتعالى والمحافظة على الصلاة والتواضع وخفض الجانب وعدم
 رفع الصوت.. مازلت أذكر هذا النص القرآني بالإضافة إلى أنه مقدس
 فهو تربية للنفس الإنسانية عندما تكون في أول طريق الحياة.

ومن النصوص التي أحتفرت في ذاكرتي ولا أنساها أبداً، بل وأرجع
 لها بين الحين والآخر، القصيدة الخالدة للشاعر العراقي معروف الرصافي
 التي شكلت وعينا في النظر لخلق الله في الكون:

انظر لتلك الشجرة ذات الغُصُون النضرة
 كيف نَمَتْ من حبّه وكيف صارت شجرة
 فانظر وقُلْ من ذا الذي يُجْرِجُ منها الثَّمرة؟
 وانظر إلى الشمس التي جَذوتها مُسْتَعِرَة
 فيها ضياءٌ وبها حرارةٌ مُنْشِرة
 من ذا الذي أوجدها في الجوّ مثل الشَّرره؟

ذاك هو الله الذى أَنْعَمَهُ مِنْهُمْ
 ذُو حِكْمَةٍ بِالْغَةِ وَقُدْرَةٍ مُّقْتَدِرَةٍ.
 انْظُرْ إِلَى اللَّيْلِ فَمَنْ أَوْجَدَ فِيهِ قَمَرَهُ
 وَزَانَهُ بِأَنْجُمٍ كَالدَّرَرِ الْمُنْتَشِرَةِ؟
 وانظر إلى الغيمِ فَمَنْ أَنْزَلَ مِنْهُ مَطَرَهُ
 فَصَيَّرَ الْأَرْضَ بِهِ بَعْدَ اغْبَارِ خَضْرَاهُ؟
 وانظر إلى المرءِ وَقُلْ مَنْ شَقَّ فِيهِ بَصَرَهُ
 مَنْ ذَا الَّذِي جَهَّزَهُ بِقُوَّةٍ مِفْتَاحَهُ؟
 ذاك هو الله الذى أَنْعَمَهُ مِنْهُمْ

وأذكر من النصوص التى كانت تلهب حماسنا الوطنى عندما كنا
 نرددّها، خصوصاً وكنا لم نزل نعرف عدونا ولم نكن قد أعطيناها أيدينا
 طواعية، هذه القصيدة التى كنا لانقولها إلا بصوت كأنه سيل هادر،
 وعرفنا بعد ذلك أنها كانت للشاعر كمال عبد الحليم وغنتها فايده كامل
 بصوتها القوي:

دع سمائى فسمائى مُحْرِقَةٌ
 دع قناتى فمياهى مُغْرِقَةٌ
 واحذر الأرض فأرضى صاعقه.
 هذه أرضى أنا وأبى ضحى هنا
 وأبى قال لنا مزقوا أعداءنا.
 أنا شعبٌ وفدائيٌّ وثوره
 ودمٌ يصنع للإنسان فجراً

ترتوى أرضى به من كل قطره
وستبقى مصرُ حره مصر حره.
دع سمائي فسمائي محرقه
دع قناتي فمياهي مغرقه
واحذر الأرض فأرضى صاعقه.
هذه أرضى أنا
وأبى ضحى هنا
وأبى قال لنا
مزقوا أعداءنا.
أنا عملاق قواه كلّ ثائر
في فلسطين وفي أرض الجزائر
والملايو وشعوب كالבشائر
تنبت الأزهار من بين المجازر.
دع سمائي فسمائي محرقه
دع قناتي فمياهي مغرقه
واحذر الأرض فأرضى صاعقه.
هذه أرضى أنا
وأبى ضحى هنا
وأبى قال لنا
مزقوا أعداءنا.

وأذكر من النصوص الرائعة للشاعر الكبير «إيليا أبو ماضي»، وهو نص «التينة الحمقاء» الذى ساق معنًى تربوياً فى حكاية مصنوعة من كلمات ومعانى شديدة الجمال والروعة، هذه القصيدة التى جعلتنى

أبحث عن كل ما كتب هذا الشاعر الفيلسوف حيث دواوينه «تذكار الماضي» و«الحنائل» و«الجداول»، قال في هذه القصيدة:

وتينئة غضة الأفنان باسقة	قالت لأتراها والصيف يحتر
بئس القضاء الذى فى الأرض أوجدنى	عندى الجمال وغيرى عنده النظر
لأحبسن على نفسى عوارفها	فلا يبين لها فى غيرها أثر
لذى الجناح وذى الأظفار بى وطر	وليس فى العيش لى فيما أرى وطر
إنى مُفَصَّلة ظلى على جسدى	فلا يكون به طول ولا قصر
ولست مثمرة إلا على ثقة	أن ليس يطرقنى طير ولا بشر
عاد الربيع إلى الدنيا بموكبه	فأزيت واكتست بالسندس الشجر
وظلت التينة الحمقاء عارية	كأنها وتد فى الأرض أو حجر
ولم يطق صاحب البستان رؤيتها	فاجتثها فهوت فى النار تستعر
من ليس يسخو بما تسخو الحياة به	فإنه أحرق بالحرص ينتحر

هذا ما رسخ فى أذهاننا واستقر فى يقيننا

من لم يسخو بما تسخو الحياة به فإنه أحرق بالحرص ينتحر
وهذا المبدع هو الذى قال فى نهاية قصيدته الخالدة:

أيها الشاكى وما بك داء كن جميلاً ترى الوجود جميلاً

وهذا النص الذى درسناه فى المرحلة الثانوية، وكان رغم صعوبة إلا أنه أعطى لنا صورة للعرب قبل الإسلام، وكيف كانوا قبائل متنازعة يهجون لأنفهم الأسباب، لكنه أوضح أيضاً حكمة بعض الأعلام منهم شاعر هذه القصيدة «زهير بن أبى سلمى» الذى كانت قصيدته إحدى المعلقات وكانت من الدرر التى درسناها فى هذه الفترة المبكرة من حياتنا، وهذه بعض أبياتها التى تقطر حكمة:

يَمِينًا لِنَعْمَ السَّيِّدَانِ وَجِدْمَا
تَدَارَكْتُمَا عَبَسَا وَذُبْيَانَا
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنَّ نُدْرِكَ السَّلْمِ وَاسِعَا
ثم يقول:

عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ
تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمٍ
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمِ

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ
مَتَى تَبْعُثُوهَا تَبْعُثُوهَا ذَمِيمَةً
فَتَعْرِكُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِنِفَالِهَا
ثم يقول:

وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجَمِ
وَتَضُرُّ إِذَا ضَرَبْتُمُوهَا فَتَضُرَمِ
وَتَلْقَحُ كِشَافًا ثُمَّ تَنْتَجُ فَتُسَمِ

سَمِئْتُ تَكَالَيْفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ
وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ
رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءَ مَنْ نُصِبَ
وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ
وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخُلَ بِفَضْلِهِ

ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامِ
وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِ
ثُمَّتُهُ وَمَنْ تُحْطِئُ يُعَمَّرَ فِيهِمْ
يُضَرَّسُ بِأَثْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمِ
يَفْرُهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ
عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَى عَنْهُ وَيُذَمِّمِ

وأذكر قصيدة لـ «جبران خليل جبران» الذي كان عبقرى الشعر
كزميله في المهجر إيليا أبي ماضي، وهذه القصيدة كانت شديدة العذوبة
والجمال كجمال وصفه ورسمه بالكلمات، ففي نهايتها يقول:

لَسْتُ فِي الشَّرْقِ وَلَا الْغَرْبِ وَلَا
لَسْتُ فِي الْجَوِّ وَلَا تَحْتَ الْبَحَارِ
أَنْتِ فِي الْأَرْوَاحِ أَنْوَارٌ وَأَنْوَارٌ
فِي جَنُوبِ الْأَرْضِ أَوْ نَحْوِ الشَّمَالِ
لَسْتُ فِي السَّهْلِ وَلَا الْوَعْرِ الْحَرَجِ
أَنْتِ فِي صَدْرِي فُؤَادٌ يَخْتَلِجُ

لذلك فقد قرأت أعماله الشعرية شديدة الجمال ومن أجهل ما كتب
وغنت فيروز:

أعطني الناي وغنّ.. فالغنا سرّ الخلود
وأنين الناي يبقى.. بعد أن يفنى الوجود
هل تَحَذت الغاب مثلي.. منزلاً دون القصور
فتتبعَت السواقى.. وتسلّقت الصخور
هل تحمّمت بعطر.. وتنشّفت بنور
وشربت الفجر خمراً.. فى كؤوس من أثر
أعطني الناي وغنّ.. فالغنا خير الصلاة
وأنين الناي يبقى.. بعد أن تفنى الحياة
هل جلست العصر مثلي.. بين جفنات العنب
والعناقيد تدلّت.. كثرّيات الذهب
هل فرشت العشب ليلاً.. وتلحّفت الفضاء
زاهداً فى ما سيأتى.. ناسياً ما قد مضى
أعطني الناي وغنّ.. فالغنا عدل القلوب
وأنين الناي يبقى.. بعد أن تفنى الذنوب
أعطني الناي وغنّ.. وأنس داءً ودواء
إنّما الناس سطور.. كُتبت لكن بهاء

هذا ماتعلمناه وهذا مافاض علينا به من اختار اختياراً عبقرياً مفيداً

نافعاً، شكّل عقولنا ودلّنا على مواطن جلال وجمال اللغة العربية، فانطلقنا نحن نبحت ونقرأ من هذه البحور الزاخرة والتي تعلمنا الغوص فيها من خلال تلك الأيام وداخل هذه الفصول، ومن تلك الاختيارات الرائعة من عيون تراثنا العربى عندما نختار ما ينفع زماننا وما يُرسّخ ما عندنا من قيم، وبخاصة مع جيل جديد يراود له أن يعيش عصره متمسكاً بجذوره دون أن يطغى هذا على ذاك، وإنما يتوافقان في سبيل إنتاج شخصيات قوية تعيش عصرها بقيم تراثها الأصيل.

فرح الإعدادية

فترة الإعدادية في حياتي كانت فيها أشياء إيجابية كثيرة وأشياء سلبية كانت تحتاج لتقويم، وهذه طبيعة المرحلة حيث التغيرات الأساسية في حياة الإنسان أو مرحلة التشكيل. لقد اتضحت إلى حد كبير ملامح مستقبل يمكن أن يكون سعيداً ويمكن أن يحقق صاحبه نجاحاً، والدراسة شاهد في كثير منها، فمستوى التعليم بالنسبة لي كان مطمئناً تماماً، وكانت المواد الدراسية جميعها ماعدا الرياضيات - وتحديدًا الرموز أي الجبر - لا أطيعها، لكن الهندسة كنت أجيد التعامل معها، والمواد النظرية الأخرى كنت من المتفوقين فيها.

ومن السليبات في هذه المرحلة، أنني كنت أتماشى مع الكثيرين، فكل الفئات تريد أن أكون واحداً منها وأنا لا أستطيع أن أدفع أحداً، فالكل يُظهر لي كل الود بل وكل منهم يفعل كل ما يمكن أن يرضيني، لذلك كنت دائماً في علاقات تعيقني عن المذاكرة أحياناً كثيرة. ومن بعض هؤلاء عرف القطار والسينما في مدينة بنها والهروب من المدرسة الذي

حدث مرات قليلة جداً ولكنه كان مفيداً! لأنه رسخ عندي أن هذا خطأ لأنك تخاف أن يعلم به والدك وأنه لو عرف فسوف تعاقب ذلك إضافة إلى الإسراف في اللعب الذى كان يجعل الواحد منا يأتى قى نهاية اليوم وقد خارت قواه فيسلم رأسه للوسادة نائماً.

ولكن رغم هذه السلبيات حافظت على مكانى بين المتفوقين، فقد حصلت فى امتحان الشهادة الإعدادية على 85٪ وكان مجموعاً كبيراً جداً فى هذه الأيام، لذلك كنت على مستوى القرية ضمن الأوائل، حيث كانت 80٪ فى هذا الوقت عزيزة المنال، ومن يحصل عليها يكون من المتفوقين. وأقيم فرح فى البيت وقتها من المهنيين، وكان الوالد والوالدة فى منتهى السعادة حيث النبتة التى زُرعت ها هى قد شقت الأرض وأصبح لها جذع وها هى فروعها تتشكل، وكانت القرية كلها كلما مررت بمكان كان الناس يستقبلونى بالوجوه المستبشرة التى تطرنى بكلمات التهنئة والمجاملات الرقيقة. ولأول مرة يأتى صحفى من جريدة الأخبار - كان مراسل الأخبار فى محافظة المنوفية - وأجرى معى ومع الوالد تحقيقاً صحفياً نُشر بعد عدة أيام أصبحت فيه النجم، وجاء ذلك بعد أيام من نشر تحقيق عن صديقى هشام عبد الرحمن الذى كان - ولأول مرة - يحصل طالب على الدرجات النهائية فى جميع المواد، وأصبحت أنا وهو حديث مدينة قويسنا بقراها ومن حولها بل فى مصر كلها.

وقرر الحاج محمود أبو النصر وكان من أعيان مدينة قويسنا ومن رجال الصناعة أن يكرم أوائل الإعدادية والثانوية فى هذا العام، وأرسل لى ضمن هؤلاء المكرمين على الرغم من عدم وجود ترتيب

لى ضمن الأوائل، وذهبت فوجدت الأوائل من زملائي منهم هشام عبد الرحمن صاحب السبق الأول 260 درجة من 260 وإبراهيم عيسى وحاتم عبد السميع وغيرهم، فأحاطوني كعادتهم بعطفهم وأدبهم، ولا أنسى عند توزيع الجوائز أنهم نادوا على الأوائل واحدًا واحدًا ثم قال مديع الحفل: وجائزة خاصة للطالب رضا عبد السلام، فوجدت القاعة وكانت مستطيلة - حيث كانت مدخل فيلا كبيرة - وقد ضجعت بالتصفيق بما فيهم زملائي الكرام الذين نسوا تكرمهم وكأنهم جاءوا لتكرمي. ولا أنسى عندما تقدم إبراهيم عيسى لإلقاء كلمة المكرمين إذا به يهر كل الحاضرين بطلاقة لسانه وبلاغة بيانه وثقته البادية في قامته حين تكلم، وظل والدى - رحمه الله - يذكر هذه الخطبة التي كانت تنبئ وقتها عن ميلاد لمن يملك مفاتيح اللغة ويقف على بلاغة الكلمات ويوظف أفكاره لما يريد أن ينقله للناس، ولعل الأيام والسنون شهدت على ذلك.

ملحق رياضيات ودرس لاينسى

كعادة الإنسان بعد النجاحات الكبيرة، قد يصيبه بعض الوهن أو تعثره حالة من الكسل أو يخلد إلى الدعة والراحة وما يستتبع ذلك من فتور قد يصل به إلى حافة الفشل، وهذا ما حدث لى، فبعد هذا المجد الذى تحقق فى السنة النهائية فى الإعدادية وهذا الإطراء والثناء الذى علقه الناس فى عنقى عقدًا جميلًا والصور والتحقيقات الصحفية والشهرة الواسعة التى كانت تسبقنى فى كل مكان أذهب إليه كان يجب أن أحافظ عليه، خصوصًا وأنا مقبل على مرحلة ما قبل الجامعة فيجب أن أكون

حاضر الذهن محافظاً على الأقل على الصورة الجميلة من الإعدادية. وفعلاً بدأت المرحلة الثانوية وكل نشاط، وقد حددت طريقي من أول يوم أننى سأدخل القسم الأدبي، لأن مواد كاللغة العربية والتاريخ والجغرافيا مواد أحبها وأنا متفوق فيها، فعقدت العزم واتفقت مع والدى على ذلك، أما الرياضيات التى لا أطيعها فبقى على سنة مطلوب أن أنجح فيها فقط وتذهب عنى بلا رجعة، حتى أخلى نفسى تماماً لما أحب من مواد القسم الأدبي.

وظللت طوال العام أهتم فى الرياضيات على أساس أننى لا أحتاج فيها إلا أن أحصل على درجة النجاح، وظللت على هذا الوضع إلى أن جاء موعد الامتحانات، ودخلت امتحان الرياضيات لأضع فى الورقة ما يكفل درجة النجاح فقط، وجاءتنى ورقة الأسئلة فى الجبر فوجدت نفسى فى أول ربع ساعة كأننى لا أعرف شيئاً، فتمالك نفسى وحاولت الحل مرة بعد مرة وظننت أننى سأفلس من هذه النكبة بدرجة النجاح، ولما خرجت وجدتنى وقد أخطأت فى كثير مما كتبت، بل إننى لم أعرف ماذا كتبت لأننى فى الحقيقة خدعت نفسى فلم أعرف شيئاً عن هذه المادة إلا القليل الذى ظننت أنه سيحقق لى النجاح. وفى أقسام الرياضيات الأخرى كالمهندسة وغيرها حدث ما حدث مع الجبر، وظللت طوال انتظارى للنتيجة أمنى نفسى بأننى قد أنجح وأنها كما كنت أظن آخر سنة لى مع هذه المادة، وخلال هذه الأيام انطفأت نفسى ولم يدر بخلد أحد من أهل بيتى أبى وأمى وإخوتى أننى مهموم للنتيجة لأنهم قد رأوا بأعينهم ماذا حدث من تكريم وشهرة فى العام السابق، لذا فلم يكن أحد مهتماً لأن هذا رضا المتفوق فى الإعدادية فطبيعى أن يمر بسهولة من السنتين

الأولى والثانية الثانوية ثم يتفوق في السنة النهائية كما فعل في الإعدادية، هذا هو السير الطبيعي للأمر.

وجاء يوم إعلان النتيجة ولأننى كنت مرتعدًا وخائفًا ومنتظرًا لشيء ما سيحدث فقد ذهبت وحدى ولكن كنت أقول بينى وبين نفسى لعلّ أمر وعل المصحح يرأف بى، ولكن كان عندى شعور بشيء ما كأنه كارثة ستحل فوق رأسى، فذهبت إلى المدرسة ووقفت بجوار حائطها فمر علىّ مدرس الجغرافيا الأستاذ سعيد الفرماوى الذى كان يحبنى كثيرًا لأننى كنت متفوقًا جدًّا فى مادته فلما رآنى نظر إلىّ وقال: ماذا تفعل، مثلك لا يأتى ليرى النتيجة، نتيجتك معروفة يا رضا.

هذه الكلمات زادتنى قلقًا، ماذا لو خذلتنى الرياضيات وماذا لو حملتها فوق ظهري للدور الثانى؟ وبدأ بعض زملائى يقفون بجانبى وأنا أحاول أن أبحث لنفسى عن مكان بعيدًا عنهم لأننى أحس بما هو قادم. وماهى إلا لحظات حتى فتح الشباك على يمين بوابة المدرسة الثانوية وظهر عم شوقى بجسمه الممتلى ووجهه المكتنز وشاربه العريض الكث وبدأنا نتزاحم على الباب وكل واحد منا ينادى عليه بالاسم: يا عم شوقى، ويذكر اسمه، فبدأت أسمع كلمات من الرجل مثل ناجح ملحق عربى، ملحق كذا ملحق كذا، حتى وجدت لنفسى مكانًا قريبًا منه ثم قلت له رضا عبد السلام، فنظر الرجل فى الورقة التى أمامه وظل لحظات راحت نفسى فيها من الخوف حتى ملأنى الرعب وقت أن قال الرجل - وكأنه يُجوّدها: «ملحق رياضيات»، فنظرت إليه ورجوته أن ينظر ثانية فأعادها بنفس الشكل وبذات الوصف وشاربه يتحرك مع الكلمتين وكأنه يشهد على تقصيرى ويسخر منى فى هذه اللحظة وأنا فى هذه السن.

أحسست أنني قد أجرمت في حق نفسي ولم أستطع أن أقف على قدمي فانتحيت جانباً حتى أسلمت ظهري لحائط المدرسة، وأحسست أن روحي تُسلب مني ودارت بخلدی أسئلة اللحظة: ماذا أقول لأبي؟ وكيف أواجه الناس؟ ثم كيف أوقع نفسي في هذه الحفرة؟ وكيف أخرج منها؟ فتحاملت على نفسي حتى وقفت وذهبت مباشرة إلى المسجد المجاور للمدرسة لأنني لم أجد أمامي إلا اللجوء لله «سبحانه وتعالى» في هذه اللحظة الحرجة، وكأنني أريد أن أعبأ نفسي بقوة لما هو قادم، فتوضأت وصليت ركعتين ودعوت الله أن يجعل من هذا الشر خيراً لي وأن يقبل توبتي من هذا الجرم الذي أجرمته في حق نفسي.

وذهبت إلى البيت فما أن وصلت حتى عاجلتني أمي - رحمها الله - بالسؤال عن النتيجة بغير اكتراث كبير، لأنها متأكدة وموقنة بالنجاح ولكن عندما رأت انطفاء ضياء وجهي وعبوس الفشل البادي على هيئتي سألت: ماذا حدث؟ فقلت لها بعد إلحاح: ملحق رياضيات، فضربت كفها على صدرها ألماً وتعجباً وأبدت تبرماً وانزعاجاً شديدين وظلت رحمها الله تردد: «إزاي بعد اللى عملته في إعدادية» وها تقول أیه لأبوك؟ قالتها أمي وهي مشفقة عليّ. وفي هذه اللحظة وكنت وقتها أسند جسمي على باب الغرفة دخل أبي الذي ذهب بعدى ليتعرف على النتيجة التي كان لا يتصور لحظة أن تكون سوى النجاح ليكتمل موقف المأساة، ونظر إلى بعينه وكأنها علق فيها سهام الانتقام ووجهه ليس وجهه الذي أعرفه، واقترب مني حتى ظننت أنه سيفتك بي، ولكن بعينه اللذين غرسهما في وجهي ووجهه يطلق شرار الغضب ثم نطق لسانه وقال: «إزاي عملت في نفسك كده» «ملحق بعد ما الناس كلها اتكلمت عنك»

«إيه اللى حصل» وظل يردد: «إيه اللى حصل؟» عدة مرات. ثم انتهى هذا الموقف عندما أمر أمى أن تأخذنى بعيداً عنه، وكان هذا الموقف من أشد ما لقيت فى صباى، حيث هذا الخزى الذى صنعته برعونة لم أتحسب لها ورؤية غير واعية وإهمال متعمد، ولكن أبى كعادته معى جلس بعد فترة معى لكى يرى كيف نتجاوز المأساة؟ وأين الخلل؟ فسردت له ماكان منى وكيف أننى تركت الرياضيات دون أدنى اهتمام، فقال: كلامك هذا يؤيده أن درجات المواد الأخرى كلها مرتفعة جداً، لكن السؤال لماذا أهملت مادة لاتبها على الرغم من أنها قد تكون نكبة كما حدث؟ وسريعاً كان الاتفاق مع مدرس للرياضيات وإلغاء للإجازة حتى امتحان الدور الثانى، وعقاب يتمثل فى عدم لعب الكرة وعدم الخروج من البيت وأشياء أخرى كانت محل خرق طوال المدة بالتحايل عليها عن طريق الوالدة والإخوة بتسريب صاحبنا من وراء الأب. وظللت طوال هذه المدة وأنا أحس بمدى الذنب الذى اقترفته فى حق نفسى.

وفى هذه الفترة توثقت علاقتى بأطيب من قابلت فى حياتى، هذا القلب الذى يمتلى عطفاً وحناناً، والنفس التقية النقية والروح التى تأتلف مع كل من يقربها، أخى وصديقى «إبراهيم فريد» الذى تتفجر نفسه مرحاً وتخرج منه القفشات عفواً، فتفعل فعل السحر فيمن يراه أو يتعامل معه، وكان معى طوال هذه المدة حيث كنا نذهب معاً لدرس الرياضيات. واقتربت من حياته التى نشأ فيها يتيماً حيث ماتت أمه وهو فى المهد وتزوج أبوه من سيدة كان لا يتعامل معها ولا يحبها، ولكن أخته الكبيرة حلت محل أمه حتى وصل إلى فترة الصبا والشباب وهو يعلق دين أخته فى عنقه اعترافاً بالجميل، وها هو يأخذنى بدراجته إلى مدينة

قويسنا لنأخذ الدرس، وأرى منه كل ما يراه أخ من أخيه. لقد كان الشيء الوحيد الجميل في هذه الفترة العصبية هو إبراهيم فريد وعلاقتي التي توثقت معه إلى الآن، وما قيمة الحياة إذا لم نقف فيها تحية لهذه القلوب الطيبة...

نجحت في مادة الرياضيات في امتحان الدور الثاني بسهولة، لكن ترك ذلك عندي تحدياً طوال حياتي الدراسية للمواد التي كنت لا أحبها، فقد وعيت الدرس تمامًا، فكنت أتحدى المواد التي لا أستطيع هضمها، حدث ذلك في بعض المواد التي صادفتها بعد في رحلة الدراسة. فمثلاً كانت هناك في كلية الحقوق مادة تُدرّس اسمها التشريع الضريبي، كانت عبارة عن مواد وأرقام وشيء غير قابل للفهم، كنت على الرغم من كرهى للحفظ أحفظها كما هي بالشكل الذي عليه في الكتاب، وكذلك كنت أحفظ المصطلحات الفرنسية والإنجليزية خوفاً مما حصل في ملحق الرياضيات الذي علمنى أن أعمل حساباً لكل شيء، وبخاصة الذي يستعصى على فهمه، وصار على أن أجده له وسيلة ولا أترك نفسي أبداً نهبا للإهمال والرعونة. وقد أثمر الدرس ثماراً بدت ليس فقط في كل مراحل تعليمي بعد ذلك وإنما أيضاً في مواقف الحياة التي تحتاج حيلة وحنكة وانتباهاً، حتى لا تتكرر مأساة ملحق الرياضيات مرة أخرى.

ثانى قويسنا

كان القسم الأدبي وما يشتمل عليه من مواد أدبية يناسبني كثيراً، حيث اللغة العربية واللغتان الفرنسية التي برعت فيها في أول سنة والإنجليزية التي كان مستواي فيها فوق المتوسط، وأيضاً التاريخ والجغرافيا المادتان

اللتان أعشقهما وخاصة التاريخ، لذلك كنت كمن رُفع عن ظهره أثقال ما يكره وهى مادة الرياضيات، وبالتالي فليس له حجة فى أن يتقدم للمراكز الأولى. لذا فقد أفرغت ما عندى من جهد ووضعت أمامى هدف التفوق وأن أثبت لنفسى أننى قادر على ذلك بما عندى من قدرات خَفَتَ نُورُها بفعل الإهمال والرعونة، وشعرت أنه يجب أن أعود لساحة التفوق مرة أخرى، وهذا ما حدث فى السنة الثانية والثالثة حيث الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة فى المناهج، وحيث الدروس الخصوصية التى كانت قد بدأت فى الانتشار فى هذا الوقت، وحيث مكاني فى الغرفة التى كانت تعيش فيها ستى آمنة منذ عشرين عامًا وقد جُهِزت لى بعيدًا عن ضخب البيت ولا أنزل منها إلا للطعام أو الصلاة.

ظلت هكذا خلال السنة الثانية والسنة الثالثة الثانوية. وأذكر من الفعاليات المفيدة التى لم يعد لها وجود الآن مسابقات أوائل الطلبة، حيث يُختار من كل مدرسة أربعة أو خمسة طلاب يتبارون فى المواد التى يدرسونها وفى المعلومات العامة أمام لجنة تُختار خصيصًا لذلك، وتُعقد المسابقات على مستوى المركز أولاً بين المدارس ثم تصفى المدارس الناجحة على مستوى المحافظة ثم على مستوى الجمهورية. وعندما بدأ الاختيار من القسم الأدبى وُضع اسم إبراهيم عيسى أولاً وبدأ البحث فىمن يكون مع إبراهيم عيسى فكان الاختيار بين ثلاثة، زميل كان مجتهدًا جدًا اسمه عصام ولا أذكر اسم والده الآن والثانى زميلى وصديقى المرحوم هانى عبد العزيز الذى كان شعلة من الذكاء وسرعة البديهة وأنا، وظل التمحيص إلى أن وقع الاختيار على هانى عبد العزيز لأنه الأصلح لهذه المهمة حيث الأمر يحتاج إلى سرعة البديهة والإجابات السريعة واليقظة

التي يتمتع بها هانى. وحتى يجبروا بخاطر من لم يُختار أخذونا معه في التصفيات التي أجريت بعد ذلك وكانت في مدرسة عبد المنعم رياض في شين الكوم، وكانت مباراة رائعة حيث يجلس الطلبة أمام بعضهم تتوسطهم لجنة الامتحان التي تتكون من عدة مدرسين ومفتشين يلقون الأسئلة ليتولى الطلبة الإجابة عنها وينطلق التصفيق وتنطلق الصيحات، ثم ينتهى الأمر بإعلان النتائج، ولا أذكر نتيجة هذه المسابقة لكن الذى أذكره جيداً هذا التنافس المشجع والمحفز وهذا الاهتمام بهذه الأنشطة التى تزيد هؤلاء التلاميذ ثقة فى أنفسهم، والتي أيضاً ترفه عن المتفوقين وتجعل منهم أمثلة تُتخذى لمن يأتى بعدهم.

واقرب موعد الامتحانات وقررت إدارة المدرسة إقامة لجنة خاصة لى، واختارت طالباً من السنة التى تسبقنا على أن يكون من القسم العلمى، ووقع الاختيار على هذا الملاك البشرى ذى الأخلاق العالية والذوق الرفيع والتربية العالية، الذى أصبح بعد ذلك طبيباً هو الصديق الدكتور هشام سليمان، وكان له أم طيبة كريمة وهبت نفسها له ولأخيه بعد وفاة والدهما، و جلس بجانبى فى اللجنة أُملى عليه ويكتب طوال الامتحانات وكان خطه فى الكتابة جميلاً، وانتهت الامتحانات وقد أيقنت أننى سأحصل على مجموع مرتفع لكن لم أكن أتوقع ما حدث. وكان من عادة والدى أنه كان يراجع معى كل مادة وأقول له سأحصل فيها على مجموع كذا ويبدأ فى الجمع، حتى يكون هناك توقع بالنتيجة، ولما فعلنا ذلك كان المجموع المتوقع من 78٪ إلى 80٪، وسلمنا أمرنا لله، وشتان بين الرعب والخوف الذى ملأ قلبى فى السنة الأولى من الإهمال فى الرياضيات وماكان فيها من نكبة وبين الثقة واليقين الذى أحاط بنفسى

بعد امتحانات السنة الثالثة وانتظاري لخبر سعيد ينشر السعادة ويوطن للفرح، وها نحن ننتظر ومعى رفيقى فى كل إجازة مدرسية ابن خالتى وفاء أحمد الذى كان ينام معى بل ويشاركنى فى كل شىء طوال الإجازة التى يغادر فيها كفر الدوار حيث تعيش خالتى وأسرتها ويأتى للعيش معنا، أمى أمه التى كانت تعتبره واحدًا منا وهو كان يحبها جدًا.

وفى الليلة التى كنت أنتظر فيها النتيجة ظللت أصلى وأدعو الله وأتمنى أن يكون يومًا سعيدًا، خصوصًا أن أمى كانت مريضة، ولعل هذا الخبر السعيد يشفى ما عندها من ألم. وبعد صلاة الفجر تجهزنا أنا وأحمد الذى ملأه الأمل فى أن يكون اليوم سعيدًا، ومع تباشير الصباح تحركت أنا وهو إلى المدرسة فى مدينة قويسنا وعندما أصبحنا على أبواب المدينة جاء من بعيد زميلان كان أحدهما محمد جلال، فنادى على بأعلى صوته: «يارضا يارضا طلعت الثانى على المدرسة» فلم أصدق نفسى وسألته كيف؟ فقال لى: الأستاذ حمزة أعلن النتيجة فى ميكروفون المدرسة وجاء عند اسم إبراهيم عيسى وأعلن أنه الأول على المدرسة بمجموع 86%. ولم يعلق، وجاء عند اسمك وأعلن أن رضا عبد السلام 83% والثانى على المدرسة، وظل يردد ألف مبروك يارضا عدة مرات. وكان الأستاذ حمزة هو الأخصائى الاجتماعى فى المدرسة وكان يحبنى كثيرًا وكان مهتمًا جدًا بالكرة، وكان يستمتع لمشاهدتى وأنا أفعل بالكرة الأعاجيب، لذا فقد عبر عند إعلان النتيجة عن كل هذا، فهممت أن أذهب إلى المدرسة فأقسم محمد جلال أن يأخذنى معه على الدراجة. وأما أحمد بن خالتى فقد ظل يجرى بأقصى سرعته أثناء عودتنا حتى سبق الدراجة ليكون أول المهنيين لأبى وأمى التى كانت فى مرضها الأخير، ووصلت إلى البيت

ودخلت فوجدت أُمى تجلس على السرير وأبى يجلس على الأرض وفي اللحظة التي دخلت فيها الغرفة نظر أبى إلى أُمى فوجدها تبكى، فاقتربت منها فأخذتني في حضنها وهى تقول: «ألف مبروك» وتمسح بيدها على ظهري، وجاء أبى ليعتنقنى عناقاً طويلاً ويمطرنى بكلمات التشجيع، ويذكرنى بالفرق بين أن يقوم الإنسان بما عليه وبين أن يهمل وشتان بين هذا وذاك.

وانطلقت الأفراح والتكريمات من كل الجهات، فرحاً بهذا النجاح المبهر، الذى كنت أتوقع أن يكون هناك تفوق لكن أن أكون الثانى على المدرسة والثانى على مركز قويسنا والعاشر على المحافظة - وهذا ما عرفته بعد ذلك - فهذا لم أكن أتوقعه ولم يدر فى خيالى، لكنه الإنسان عندما يعمل ويخلص فى عمله، وعندما يحدد لنفسه هدفاً يناسب ما عنده من إمكانيات وقدرات، يدفعه طموحه لأن يصل إلى ما يريد من إثبات ذاته، وهذا ما حدث وكان له أصدائه فى كل من له صلة بالمدرسة حيث تعلمت والقرية حيث نشأت والأسرة حيث تربيته وكبرت.

شوفوا مين اللى جاي؟! موت المجاهدة

كانت نتيجة الثانوية ونجاحى بهذا التفوق هو الخبر الأخير بالنسبة لأُمى فى وداعها للحياة التى استمرت أربعين عاماً، وكانت أيضاً إعلاناً لرضاها الذى ربما تأثر من حدة الطفل على أمه فى بعض الأحيان، فكان حضنها الأخير ومرور يمناها على ظهري علامة على الرضا، وكأن الله سبحانه أراد أن تذهب إليه وقد اطمأنت على ثالث أولادها بعد دخول حسن وياسر الجامعة قبله بسنة، ورضا كان حالة خاصة بتاريخه معها

وحدها عليه واهتمامها به ورعايتها الفائقة له. وبعد بضعة ساعات ذهبت أمى فى غيبوبة ونُقلت إلى المستشفى فى شبين الكوم، وتحول الفرع إلى قاعة حزن وقضينا ليلتنا ننتظر. وفى اليوم التالى ذهب أخى حسن إلى شبين الكوم ثم عاد وقد ملأ وجهه حزن تعبر عنه عيناه اللتان امتلأتا بالدموع، وقال لنا - وكان ضمن الجالسين خالاتى وبعض الجيران وإخوتى -: «ادعوا لأمى» وانفجر فى البكاء، فعرفنا أنها النهاية، فسألته: أين هى؟ قال لى فى القصر، أى فى مستشفى القصر فى شبين الكوم، فغافلتهم جميعاً وكنت ألبس بنطلون خروج وقميص فخرجت من البيت إلى مدينة قويسنا وسألت على موقف شبين الكوم وذهبت وركبت السيارة حتى وصلت إلى المستشفى بعد أن كنت أسأل عند كل خطوة أخطوها، فسألت فى مكتب الاستعلامات فى المستشفى فأخبرونى أنها بالدور الثالث، فصعدت، ولما كنت فى بداية طريقة طويلة رأيت فى نهايتها أبى يقف وعلى يمينه خالى مرسى وعلى يساره أخى ياسر، وعندما رآنى سمعته بصوت وصلنى من بعيد:

«شوفوا مين اللى جاى؟!»

وهرول ثلاثتهم إلّى حتى أخذنى أبى فى حضنه وضمنى إلى صدره وانفجر فى البكاء، وظل على ذلك الحال فترة حاول فيها خالى وأخى أن يفكاه فلم يفلحاً إلا بعد عدة دقائق، فأحسست أن الأمر قد انتهى، وسمعت خالى يقول: لا يدخل عندها لا يحتمل، ولكن أصر أبى على دخولى فدخلت، فوقعت عيني على أمى فى سرير بجانب الباب مباشرة وعلى وجهها قطعة قماش شفافة يظهر منها وجه أمى وهو يصارع الموت، فهى تحاول أن تلتقط النفس بصعوبة وفى غيبوبة كاملة، فأصابنى الهلع

وهستيريا وصراخ يخرج من أعماقي من هذا المشهد، فحملوني إلى شرفة مطلة على حديقة المستشفى، فوجدتني أقطع بأسناني وسادة كانت على سور هذه الشرفة، وأحسست أنني سيغمي عليّ فأخذني أبي على صدره وهو يغالب دموعه، وذكرني بالله وأمرني أن أذكر الله فهدأت قليلاً، وبعد عدة دقائق تمالكت فيها نفسي وعاد إليّ فيها شيء من الرشد واستغفرت فيها الله، ثم دخلت على أمي وقبلت رأسها وأنا أبكي واقتربت كثيراً من أذنها وأخذت أردد الشهادتين أكثر من خمس دقائق، وظللت معهم حتى انتقلت إلى مستشفى الحميات وباتت معها زوجة خالي، التي كانت أمي تحبها وتقدرها لأن لسانها كان لا ينطق إلا الكلام الطيب، ولعل القدر أراد أن تكون آخر وجه رآته هذه المجاهدة الطيبة أمي.

في تلك الليلة، سعدت روح أمي الغالية إلى خالقها في تلك الليلة، هذه المجاهدة التي أعطت كل ماعندها لكل من حولها، هذه التي عاشت أربعين عاماً قامت فيها على إختوتها بعد موت أمها، فكانت لهم الأم التي يلجأون إليها صغاراً ويلجأون إليها كباراً بعدما تزوجوا وأصبحت لهم بيوت وأسر، وهذه المجاهدة التي تزوجت قبل العشرين من عمرها فكانت زوجة وفيه مخلصه دؤوبة، أنجبت عشرة من الأولاد والبنات بقي منهم خمسة أولاد وبنت واحدة، عاصرت الشدة والتعب قبل الكهرباء باللمبة الجاز نمرة خمسة ونمرة عشرة وقبل دخول المياه إلى البيوت حيث يجب أن تملأ زير الماء للشرب يومياً، فتحمل «الطشت» أو «الباستلة» فوق رأسها بالماء الذي تأتي به من بعد حوالي كيلو متر تقريباً، ثم تملأ الأوعية بالماء اللازم للتنظيف والغسيل، هذا كل يوم لأسرة عدد أفرادها عشرة أفراد، ومطلوب منها وحدها إطعام كل هذه الأفواه والإشراف على دروس الأولاد في عدم وجود الأب.

ومع كل هذا الجهد كانت أمى حبيبة الجميع، الطيبة النقية التى قضيت معها ثمانية عشر عاماً لم أسمع منها لفظاً جارحاً لأحد، ولم أرها فى موقف لا يشرفها، وإنما وجدت إجلالاً واحتراماً من كل الناس لها. وقد ظلت تنتظر أن يمن الله عليها ببنت تعيش فقد مات لها بنتان قبل ذلك، آمنة وأسماء، فلما رزقها الله برقية عاشت معها سنوات قليلة ثم رحلت الأم وبقيت البنت التى كانت ترجوها، وهكذا أقدار الله. وكان يأتى عليها الليل فتسقط من التعب ولعل كل هذا الذى لا يطيقه بشر هو الذى أتعب نخها المسكين الذى لم يعد يحتمل، فعبر عن هذا بنزيف لم يستطع الأطباء وقفه. وما ألتنى وما زال يؤلمنى أن هذه السيدة العظيمة المجاهدة الطيبة لم تجن شيئاً مما زرعت فى أبنائها، فالكبير لم يكن قد أنهى المرحلة الجامعية، وكنت - بل كان كل إخوتى - يريدون أن ترى أمتنا النبتة التى زرعتها وروتها ورعتها كيف ربت وكيف أثمرت، لذلك فكل أحفادها من أولادنا يعرفونها جيداً مما نقصه عليهم من صاحبة الفضل علينا وعليهم، وها قد ذهبت إلى ربها وقد أدت ما عليها وهى راضية مرضية، يقال لها بإذن الله «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى».

أم جديدة

كانت أيامنا التى تلت وفاة أمى أياماً صعبة، ذقنا فيها جميعاً طعم اليتيم، سواء من الناحية النفسية حيث كان هذا القلب الكبير يفتح لنا حجراته لكى نرتاح فيها جميعاً، ومن الناحية المادية حيث كانت - رحمها الله - هى التى تفعل كل شئ لكل من يعيش فى البيت، وكانت هى التى تدير كل ما يتعلق بنا من مصالح فى عدم وجود الأب. فمن الذى سيطعم

سنة أفراد؟ ومن الذى يقوم بالبيت وبحاجات الأولاد؟ كان أخى ياسر قريباً جداً من أمى وكان يساعدها فى إدارة شئون البيت لذا فقد ساعد فى هذا الأمر، وبدأ الأب يخطط لحياتنا القادمة إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً، وكان أخى ياسر يساعد كل إخوتى ويديرهم وينظم العمل، فلكل واحد منهم دوره حتى تسير القافلة ولا تتوقف. وتبين لنا بعد عدة أيام مدى الأثقال والأحمال التى كانت تحملها هذه السيدة المجاهدة العظيمة، وأذكر فى هذه الأوقات بعد رحيل أمى أنى بدأت أعتد على قضاء حاجاتى على إخوتى «أحمد» الذى يصغرنى بحوالى عشر سنين و«رقية» التى كانت فى أولى سنوات الدراسة الابتدائية.

لقد كان موت أمى بالنسبة لى هزة عنيفة، فهى التى كنت أعتد عليها فى كل شئونى ولا أرضى بها بديلاً، حتى إنها كانت تطلب منى أن يتولى أحد إخوتى قضاء ما أريد من الحاجات القليلة التى أحتاجها فكنت لا أرضى بديلاً للمسمة يدها الحانية التى تفيض عطفاً ولا طريقتها التى لم تكن تُظهر - رغم تعبها الشديد - أى لون من الضجر.. وما جعلنى أعانى بعد موتها أنها قد عودتنى على أن أكون فى أبهى صورة من حيث الهندام وكانت تخاف أن أظهر بصورة أبدو فيها محتاجاً لأحد أو أن يظهر من ملابسى ما يدعو للشفقة كأن تكون متسخة أو غير مهندمة، وكان يؤصل لهذا فى نفسى أبى - رحمه الله - حيث من المحرمات عنده أن أخرج بشكل غير لائق أو بهندام غير منظم، لذلك فقد عانيت كثيراً بعد موت أمى وبدأت أرسم خريطة أخرى بطرق مختلفة أقضى بها حاجاتى الأساسية.

وكان القدر قد استودع وديعة لهذا الظرف الذى حل بنا من موت أمى، حيث كانت أختها «فاطمة» لم تتزوج بعد وبلغت الثلاثين من

عمرها، ومن تصارييف القدر أنها كانت أكثر أخوات أمى قرباً منها ومنا نحن أولادها، فقد كانت تعلم كل شىء عن البيت وعن ظروفه بحكم قرباتها اللصيقة بأمى بالإضافة إلى علاقتها بنا، فقد كانت هديتها حاضرة عند بداية كل سنة دراسية وعند كل عيد ميلاد لكل منا، فمرة قميص فاخر ومرة أدوات الدراسة وأخرى مبلغاً من المال. فلما رحلت أختها كان الوضع الطبيعي أن تحل محل أمى وأبدت استعدادها أن تقوم بهذه المهمة مع أولاد أختها الذين يحتاجون إليها. وظهرت الاعتراضات من بعض الأشخاص الذين كان ينبغي عليهم الوقوف مع هؤلاء الذين فقدوا السند الحقيقي في الحياة في منتصف الطريق، فأولهم في السنة الثانية في الجامعة وآخرهم بنت في بداية المرحلة الابتدائية، فلم الاعتراض والأمر بهذا الشكل؟!

ولكن لإصرارها أن تحل محل أختها لتكمل مسيرتها مع أولادها جاءت لنا أمّا جديدة رغم مواقف البعض التي مازالت غامضة المعنى والهدف. وجاءت خالتي فاطمة لترفع عنا عناء الشهور العجاف التي قضيناها بعد موت أمى وحملت عنا كل ما كانت تحمله أمى وأخلصت إخلاصاً شديداً وبذلت معنا جهداً مضيئاً فلما علم الله منها الصدق في معاملتنا كافأها بأن أنجبت من أبى ولدين «مصطفى ومحمود» لا يعرف أى واحد يعيش في قريتنا أنها إخوة لنا من الأب فقط وإنما الكل يعرف أنها إخوانتنا الأشقاء، لأننا جميعاً نريد أن نرد لهذه الأم التي حلت محل أمنا الجميل في ولديها اللذين نضعهما في عيوننا ونطبق عليهما الأجناف لما فعلته هذه السيدة العظيمة لنا نحن أولاد أختها قبل أن تكون أما لولديها مصطفى ومحمود. هذه خالتي التي كانت تطبخ لتسعة أفراد وتغسل

لتسعة أفراد وتنظف البيت وتطحن الطحين وتفعل كل ذلك وهى فى
منتهى الرضا، لذا كانت هديتها هاتان الزهرتين اللتان نشرا العطر فى
أنحاء بيتنا الذى حفظ الجميل لأمننا الجديدة.. وقد جاءت فى وقتها
حيث سابدأ مرحلة جديدة من مراحل حياتى حيث السفر إلى مدينة
طنطا وكلية الحقوق.

الفصل السادس

كلية الحقوق

حقوق طنطا

مرحلة جديدة من مراحل العمر بعد هذا النجاح المبهر في الثانوية العامة وبعد هذا التكريم الذى أحاطنى به الجميع في قريتي الصغيرة صغيرهم وكبيرهم، وكان كل واحد منهم يعبر بطريقته أحدهم وكان شاباً يسكن شارعنا وكان يعمل سائقاً اسمه «إبراهيم الشيخ» يعرف أننى أحب ركوب الدراجة فأخذنى وراءه وظل يلف بى البلد بالكامل فرحاً بهذا النجاح، والآخر صديقى الترزى الذى ظل طوال حياته لملاسى يرفض أن يأخذ إلا ثمن التكلفة فقط، ومن زملائى الذين كانوا معى من نفس السنة أو زملائى من السنوات الأخرى. أما وسائل الإعلام فقد استضافتنى بهذه المناسبة مراراً، فقد كنت ضيفاً على «نجوى إبراهيم» فى برنامجها «فكر ثوانى واكسب دقائق»، وفريال صالح فى برنامجها «على فين» وكان لهما أثر فى شهرتى الواسعة خاصة فى المرحلة التى تلت الثانوية العامة.

وأذكر موقفاً من مواقف التكريم التى كانت شديدة التأثير على

شخصى وعلى كل الحاضرين فى الحفل الذى أقامه المستشار حامد عبد الدايم رئيس محكمة استئناف طنطا الأسبق الذى كان من قرية شبرا بخوم بمركز قويسنا، وكان يقيم كل عام هذا الحفل بمناسبة استشهاد نجله ضابط الشرطة أحمد حامد عبد الدايم أثناء تأدية عمله، وأرسل إلى جميع الأوائى فى جميع الشهادات دعوة عليها صورة ابنه الشهيد وتحت الصورة هذا البيت من الشعر:

لعمرك ما وارى الترابُ فعالةً ولكنما وارى ثيابًا وأعظمًا

وذهبت لهذا التكرم الذى حضره وقتها محافظ المنوفية وكثير من الشخصيات المهمة، وطلب المنظمون للحفل منى أن ألقى كلمة الطلبة المتفوقين، ووقفت أمام جمع كبير من الناس بينهم الشخصيات الكبيرة وعينى وأنا أتكلم فى عينى أبى الذى انتحى جانبًا لأراه، وكنت كذلك فى جميع مواقف حياتى أستمد منه الثقة والقوة. وعند نهاية الكلمة التى كانت شديدة التأثير ترحمت على أمى التى توفيت من عدة أيام ولم أستطع أن أمسك عينى من جريان الدموع التى سالت من عينى أبى أيضًا، وكان المنبع واحدًا وهو موت أمى المجاهدة الطيبة، وإذا بكل الحاضرين يصفقون بشدة ويقفون احترامًا لهذه السيدة العظيمة وهذا الوفاء من ابن يعرف فضل أمه عليه، وكان مع أبى عمى أبو زيد ذلك الرجل الذى قال لأبى بعد هذه الكلمة التى ألقيتها فى الحفل: لن أناديه بعد ذلك إلا بالأستاذ رضا وكان دائمًا ما يذكرنى بها إلى أن توفى رحمه الله.

وبدأنا فى اختيار الكلية التى سألتحق بها، وكنت قد عقدت العزم على دخول كلية الحقوق قبل هذا المجموع الكبير فهل يتغير الحال؟ إن أبواب الكليات فى القسم الأدبى كلها مشرعة ومفتوحة على مصراعها

لاستقباله، بما فيها كليتا القمة في هذا القسم: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وكلية الإعلام، واختار إبراهيم عيسى الأول على المركز كلية الإعلام، وانتظر الناس هل سيدخل رضا مع إبراهيم أم أنه سيبقى على وعده قبل الامتحانات أن يدخل كلية الحقوق. واختلف الرأي، فظلت أنا على اختياري لكلية الحقوق أما أبى فقد طمع لى في كلية من كليتي القمة، وكعهدى معه قلبنا الأمر وجرى النقاش بينى وبينه فكانت وجهة نظره أن الدراسة في إحدى الكليتين تتيح لك فرصة في الحياة والعمل أكثر من كلية الحقوق المحدودة في المحاماة أو النيابة والقضاء، وهما أمنية صعبة المنال في بلد تتحكم في وظائفها الكبيرة فئة قليلة من أصحاب النفوذ، إذاً فاخياراتها قليلة، أما الاقتصاد والإعلام فمجالاتهما كثيرة جداً، فقلت له بواقعية وبنظرة تبدو فيها الثقة أن الحقوق أنسب لى حيث الدراسة نظرية وأستطيع أن أتفوق فيها، ووعدته أن أبذل جهدى لكى أكون معيداً، وأضفت في مبرراتى أن طنطا قرية من مدينة قويسنا إضافة إلى أن معظم المتحقيين بكلية الحقوق من أصحاب الجامعات الضعيفة حيث كانت تقبل من مجموع 53٪ وأنا حاصل على 83٪، وبالتالي ففرصتى كبيرة في تحقيق ما أريد من الالتحاق بالسلك الجامعى، فافتنع الوالد بوجهة نظرى.

وكان أول يوم لى في كلية الحقوق هو أول مرة أرى فيها مدينة طنطا، حيث أخذنى إليها «سعيد منير» الذى يعمل في محكمة طنطا وكان أحد أقرباء والدى، ورأيت من بعيد عند خروجنا من محطة السكة الحديد مئذنة مسجد سيدى أحمد البدوى، وكأنها تعلن للآتى الحديد بركة المكان ويمن الزمان، وركبنا السيارة تطوى شارع طه الحكيم وتدخل منه إلى

الشارع الرئيسى شارع البحر، ومنه إلى مبنى كلية الحقوق الذى يجاور مبنى جامعة طنطا حيث قُيد رضا عبد السلام طالبًا فى الفرقة الأولى بكلية الحقوق جامعة طنطا، لتبدأ فى حياته مرحلة جديدة وليجهز نفسه لحياة يبنى فيها مستقبله الذى أراده لنفسه فى أن يكون أستاذًا فى الجامعة وفى هذه الكلية العريقة التى تخرج فيها كثير من الزعماء وقادة الفكر والرأى.

ولا أنسى الأيام الأولى فى كلية الحقوق، حيث نستقل القطار صباحًا من مدينة قويسنا حتى مدينة طنطا، ونسلك شارع طه الحكيم سيرًا على الأقدام، الذى يرمى بنا فى نهر شارع البحر الذى لا يحتوى ولو على ترعة صغيرة فهو اسم على غير مسمى، ونمشى على أقدامنا حتى مجمع الكليات فى آخر شارع البحر، ولانستطيع ركوب سيارة لأن ذلك يعنى ضياع مامعنا من مال قليل نحتاجه لسد جوع اليوم الطويل الذى نقضيه فى الكلية. وكانت المسافة التى نقطعها ذهابًا وإيابًا تستغرق حوالى الساعة يوميًا، وكان يدفعنا حماسنا فى سبيل التفوق والنجاح أو على الأقل كان هذا ما كنت أفكر فيه، خصوصًا وأنا مافتئت أغادر ساحات التكريم على التفوق، ولم يعد يؤثر فى نفسى تصويب سهام النظرات من العيون الفضولية، فقد حققت ما قاله لى أبى «اجعل من ينظر إليك يتجاوز نظرة الشكل إلى نظرة التفوق والنجاح، والذكر الأوفى لمن يستحقه من النابهين وعليك أن تكون واحدًا منهم» فأصبحت هذه النظرات بالنسبة لى نوعًا من التكريم.

وبخلاف ذلك، كان هناك بعض الناس الطيبين الذين ينقصهم الوعى اللازم فى كيفية التعامل مع هذه الفئة دون أن يسبب حرجًا لنفسه أو لواحد مهم، وكان ذلك كثيرًا ما يحدث من راكبى قطار الصعيد الآتى من الإسكندرية متجهًا إلى أسوان، وكنا نركبه من طنطا، وكنت أعمل له

ألف حساب حيث الإخوة الطيبون من أهل الجنوب الذين يسألون بلا أدنى حرج حتى، إن أحدهم كان جالساً أمامي وكان يأكل، فأخذ ينظر إليّ ويتفحص ويطيل النظر مرة بعد مرة، فتجاهلته حتى لا يتبته زملائي حولي، لكنه لم يتركني، حيث عرض أولاً أن أشاركه الأكل فشكرته واعتذرت، ثم فاجأني بسؤال عجيب بطريقة أهل الصعيد ولهجتهم: «خلجة ربنا دى ولا تعويرة» ويشير بيديه إلى يدي. فثارت بنت كانت تسافر معنا ورأت الموقف من أوله، وصرخت في وجه الرجل فهدأتها ونظرت إلى صاحبنا وقلت له بطريقته: «خلجة ربنا يا سيدى، أنت رايح فين» فرد على رايح أسوان فقلت له: «بالسلامة»، وانتهى الموقف الذى أثبت رغم حرجه أننى قد استوعبت تماماً هذه التصرفات التى تنم عن انعدام الخبرة من التعامل مع شخص مختلف فى بنائه الجسدى أو النفسى، خصوصاً أن الجميع يريدون الخير كما أراد هذا الرجل، لكن الوعى مفقود، لذا لابد من الحكمة فى التصرف فى مثل هذه المواقف ومع هؤلاء الناس الذين نعيش معهم.

وبعيداً عن هذا الموضوع، فقد كنت على أهبة الاستعداد للسنة الأولى، خاصة وأن الحرية مطلقة تقريباً، فلا رقيب على تصرفاتى إلا نفسى، ومن ثم كان تقدير المسؤولية وبخاصة عندما عرفت أننى ضمن أربعة فقط فى الكلية حاصلين على مجموع أكثر من ثمانين فى المائة، منهم الأخ الذى كان العاشر فى الثانوية العامة على محافظة المنوفية حيث كان يسبقنى بنصف فى المائة، والأخ الدكتور رضا الأحوال الذى حصل بعد التخرج على درجة الدكتوراه فى التشريعات الضريبية حيث عمل فى مصلحة الضرائب، وهكذا رأيت نفسى وأنا أدخل إلى البوابة الكبيرة للجامعة طنطا التى

تسلمنا جهة اليسار إلى إدارة كلية الحقوق، وقد أعطاني الأستاذ عدس ذلك الشاب الأسمر نحيل الجسم المبتسم دائماً كارنيه الطالب في السنة الأولى بكلية الحقوق جامعة طنطا.

فى قاعة المحاضرات.. لومبروزو والشيخ السلفى

الجامعة هى مرحلة الانطلاق العاقل والحرية المحسوبة والقراءة المنهجية الواعية والأصدقاء الجدد من جميع الأماكن، وللجامعة منزلة أعلى بالنسبة إلى واحد مثلى، عنده هدف يريد أن يحققه بعد معاناة طويلة مع العوائق البشرية؛ من العقول المغلقة والأذهان الموصدة والقلوب المقفلة التى كانت تظهر بين الحين والآخر والعوائق الطبيعية التى يصادفها كل الناس فهو يعرف طريقه ويحدد هدفه جيداً.

كانت نقلة كبيرة إلى مجتمع جديد مفتوح الأبواب ومشروع على جميع الاتجاهات وبه مستجدات لم يعهدها مثلى، حيث هذا الاختلاط الذى لم يكن لى عهد به من قبل، وهذه الأزياء التى تحطف عين شاب قبل سن العشرين، وما يعلو هذه الأزياء من وجوه بشرية غاية فى الجمال والأناقة، وهذه الجموع من الطلبة الذين لا يمكن إذا رأيت بعضهم أن تصدق أنهم جاءوا لطلب العلم، حيث الكافتيريا التى تستقبل هؤلاء طوال اليوم. وكانت ساحة مجمع الكليات واسعة جداً، حيث كان للحقوق مدرجان كبيران، وللطب البشرى مبنى خاص به، ولطب الأسنان مبنى خاص به، وكلية التجارة مدرجان، كل هذا فى مكان واحد. وكانت هذه الساحة الذى يتتصفها كوبرى تمتلى عن آخرها بالطلبة.

وكنت من الحريصين على حضور جميع المحاضرات لكل الأساتذة،

وكننت أستمتع بذلك، وكننت أجلس فى المدرج وأضع أمامى كراسة المحاضرات وأمسك القلم بقمى ولا ألفت إلى من ينظر إلى. وماهى إلا أيام حتى تعود الطلبة على هذا الطالب الذى علم الكثير منهم أنه جاء ليكون معيداً فى هذه الكلية، معه مجموعته فى الثانوية الذى ينبى عن ذلك. وكان المحاضر يجلس أو يقف على مكان يشبه المسرح، ويمسك بالميكروفون حيث القاعة واسعة تسع حوالى ثلاثة آلاف طالب، هم طلاب السنة الأولى ويلقى محاضراته التى تستمر المدة المحددة له.

ومن المحاضرين الذين كننت أحرص على حضور محاضراته «الدكتور عماد الشربى» عميد الكلية، والذى كان يدرس لنا «نظرية الحق» أو كما كان يطلق على كتابه «مبادئ القانون»، حيث كان هادئاً واضحاً بسيطاً فى عرضه، يذكر المعلومة بأكثر من وجه، بالقياس مرة، وبالتمثيل مرة حيث تمثل هذه المادة التعريف بمفهوم القانون وبالصفات الواجبة فى القاعدة القانونية، وما يتفرع عن المادة القانونية من مفاهيم. وكان قريباً جداً من الطلبة، حيث كان بابه مفتوحاً لكل من يطرقه منهم، وقد دخلت عليه عدة مرات كانت إحداها وهو يسلمنى كأس الطالب المثالى على كلية الحقوق حيث حصلت فى السنة الثانية على المركز الثالث على دفعة يربو عددها على ثلاثة آلاف طالب، ووعدنى إذا حصلت على تقدير جيد جداً فى السنة الرابعة فإنه سيعيننى معيداً فى الكلية، وكان وقتها قد عُين رئيساً لجامعة طنطا، فلما لم أحصل إلا على جيد فقط لم أطرق بابه بعد ذلك خجلاً منه.

ومن الأساتذة الذين كننت أنتظر محاضراته الدكتور «مصطفى عفيفى» الذى كان يحاضرنا فى «القانون الدستورى ونظريته العامة»، وقد كان

يلقى المحاضرة في ساعتين كاملتين تحس كأنها خمس دقائق، حيث كان يشرح النظريات المؤسسة للدساتير وللقوانين، وقد شدنى شرحه لتلك النظريات التي وضعها المفكران الكبيران في فرنسا؛ جان جاك روسو صاحب نظرية العقد الاجتماعي ومنتسكيو صاحب مبدأ الفصل بين السلطات، وهو من أهم المبادئ الدستورية في الدول الديمقراطية، مما دعاني لأن أبحث عن كتب تتحدث عنها وعن هاتين النظريتين.

وجدت ضالتي في كتاب في مكتبة الكلية بعنوان «جان جاك روسو، حياته وكتبه» كتبه الدكتور محمد حسين هيكل، وكان كتاباً ممتعاً تحدث فيه عن هذا المفكر الفرنسي الكبير وعن ميلاده في جنيف بـ«سويسرا» عام 1712، وانتقاله بعد أن عمل خادماً ومعلماً للموسيقى إلى فرنسا. ويقول الدكتور هيكل في مقدمة الكتاب على لسان روسو: «إن الملكية الخاصة والترف والإمعان في الشهوات هي سبب كل التعاسات المكدسة التي تقع على رؤوس ملايين الفقراء، والتي يحتملها الشعب لما طال إيهامه أنها أصلح الأنظمة للوجود الاجتماعي، وإنه لا سبيل لتخليص الأغلبية من هذا الشقاء إلا بعودة الإنسانية إلى حالتها الطبيعية»، ويعلق الدكتور هيكل: «هذه الفكرة هي القائدة في كتب روسو كلها، وعلى أساسها وجه النقد المر لما اعتقده خروجاً على الطبيعة من علوم وفنون وسلوك وتحكم الاستبداد في رقاب البشر». وقد بدأ روسو كتابه العقد الاجتماعي الذي أحدث ثورة في المجال الاجتماعي والسياسي بهذه العبارة: «ولد الإنسان حراً إلا أنه مكبل في كل مكان بالأغلال، ومع ذلك يتصور نفسه سيّداً على الآخرين الذي لا يعدو أن يكون أكثرهم عبودية».

أما المبدأ الذي وضعه مونتسكيو وهو «الفصل بين السلطات» والذي

أصبح عنواناً ودليلاً على ديمقراطية الدول والذي أخذت به الدول المحترمة فقد ضمنه كتابه «روح القوانين» الذي تحدث فيه عن الدستور ومبدأ الفصل بين السلطات وإلغاء الرق والمحافظة على الحريات المدنية والقانون، وكما تبنى فكرة أن المؤسسات السياسية يجب أن تعكس المظاهر الاجتماعية والجغرافية للمجتمع. أما دولنا فقد أهملت هذا المبدأ في تاريخها الحديث، وأصبحت السلطات تنطلق من يد الحاكم وإليه تعود، مع بعض الاستثناءات في تاريخ هذه الدول حيث يحاول بعض أصحاب العقول فيها أن يستدعوا مونتسكيو من القرن الثامن عشر لكي يصلح ما أفسده دعاة الاستبداد في كل زمان ومكان.

ومن المواد التي كنت أحبها جداً وأحب القراءة فيها كانت «علم الإجمام والعقاب» والتي كان يُدرسها لنا الدكتور «يسر أنور» الذي كان ينزل من سيارته الفارحة يلبس بذلة لونها نفس لون القميص وبفس لون الحذاء وفي فمه سيجار طويل لزوم المظهر والشهرة و«الشو» الذي كان يحبه ويسعى إليه، وكان يستقبله على سلم المدرج طالب طويل يؤدي حركات لا تحدث إلا على المسارح والملاهى، وكان الدكتور يشجع هذه الحركات، ثم يدخل إلى المدرج ويظل طوال المحاضرة في هذه المسرحية التي تنتهى بما ابتدأت به من هذه المشاهد دون أن يشرح شيئاً مما جاء من أجله. أما كتاب المادة فكان كتاباً مهماً بذل فيه مجهوداً رائعاً، كنت أعجب كيف يكون هذا الكتاب بهذا العمق ويكون صاحبه في قاعة المحاضرات بهذا الشكل المسرحي؟!!

واشتمل الكتاب على مجموعة من النظريات في علم الإجمام في علم النفس، كنظرية المفكر الإيطالي لومبروزو، الذي خرج بنظرية تقول بالربط بين المجرم وبين التخلف العضوى أو الخلقى، وكان يعتقد

أن الإنسان ذا البنية الضعيفة أو غير النامية بشكل صحيح قد يسلك بخلاف الشخص الطبيعي. وقد حدد لومبروزو مجموعة من الصفات تشبه صفات الحيوانات البدائية وتعود للإنسان غير المتطور، وقال إن توفر خمس صفات أو أكثر من هذه السمات الجسدية يجعل الفرد خاضعاً للنمط الإجرامى التام، وإذا توفر لديه ثلاث صفات يكون من النمط الإجرامى الناقص، وإذا قلّت هذه الصفات عن ثلاث فليس من الضرورى اعتباره مجرمًا. وهذه الصفات لا تكون سبباً فى الجريمة بقدر ما تعنى ارتداد صاحبها إلى النمط المتوحش البدائى. وقد أُنْتُقِدَت هذه النظرية باعتبار أن الإجرام يتسبب فيه مجموعة من العوامل، منها التنشئة غير السليمة والبيئة المحيطة وغيرها من العوامل.

ودرسنا أيضاً فى كتاب نظرية فرويد فى التحليل النفسى، والتى قسم فيها النفس إلى النفس ذات الشهوة وسمّاها الذات الدنيا، والمرتبة الثانية وسمّاها الذات الشعورية أو الحسية ويقصد بها الذات العاقلة، والمرتبة الثالثة وهى الذات المثالية ويقصد بها الضمير. ويرى فرويد أن السلوك الفردى يتوقف على مدى العلاقة بين الأقسام الثلاثة السابقة للنفس الإنسانية، فإذا تغلبت الشهوات والميول الفطرية والنفس ذات الشهوة فإن السلوك يكون منحرفاً وتكون شخصية صاحبه غير ناضجة، أما إذا تغلبت المثل والقيم الموروثة وتحكم الضمير والعقل (الأنا العليا) كان السلوك قوياً وكانت شخصية صاحبه ناضجة.. هكذا كان هذا الكتاب الممتع الذى كان من أحب الكتب التى كنت أقبل عليها، وإن كنت وقتها لا يعجبني أسلوب صاحب الكتاب فى قاعة المحاضرات على الرغم من كونه أستاذاً كبيراً فى هذه المادة.

أما مادة «المنظمات الدولية» فقد كان يدرسها ذلك الشاب المعترف جَدًّا بنفسه والحاصل على درجة الدكتوراه منذ سنوات قليلة، وهو الأستاذ «الدكتور مصطفى فؤاد» الذى أصبح بعد ذلك عميدًا للكلية، وكانت محاضراته لا تسمع فيها الهمس لأنه كان يمكن فى أى لحظة أن يطرد أى طالب يخرج عن النظام أو يحدث أى صوت. شرح لنا المحاضر النظام القانونى لعصبة الأمم التى أنشئت عام 1919 بعد الحرب العالمية الأولى ولم يسهب فيها، ولكنه شرح شرحًا وافيًا النظام القانونى للأمم المتحدة التى أنشئت فى 24 أكتوبر 1945 ومجالسها المختلفة. وكان رغم شدته إلا إنى كنت أستمتع بمحاضراته لأنه كان يتحدث عن واقع عالمى نعيش فيه، وكان كثيرًا ما يستشهد بوقائع عالمية واقعية معاصرة وشخصيات عالمية، وكثيرًا ما كان يشير إلى الرئيس الفرنسى فى هذا الوقت فرانسوا ميتران.

وفى السنة الأولى كان يحاضرنا فى الشريعة الإسلامية «الدكتور عبد الفتاح الشيخ»، فقد درّس لنا التشريع الإسلامى؛ مصادره وخصائصه، وكان هادئًا فى شرحه يميل إلى الاستقصاء، وكانت مادته فى هذه السنة شديدة الأهمية، حيث كنا ندرس مصادر التشريع الإسلامى مع بيان عبقرية التشريع الإسلامى فى تناوله للقضايا التى كانت تمثل تحديًا فى البيئة العربية التى لا تقبل نظامًا تشريعيًا يلتزم به الجميع. كما شرح لنا معنى أن يكون النص حاكمًا، وما المدى الذى يجب أن يعمل فيه النص ومتى يوقف العمل به وكيف ولماذا وهل يجوز؟ كانت هذه المباحث فى مادة الشريعة بمثابة فتح الشهية لما سيأتى بعد ذلك فى السنوات التالية، حيث إن الشريعة الإسلامية من أهم المواد التى يدرسها طالب

كلية الحقوق، لذلك عجبت لهذا الشيخ السلفى الذى أفتى بعدم جواز الدراسة فى كليات الحقوق لأنها تدرس الكفر!!! فقلت عندما قرأت هذا الكلام أن خريجي كليات الحقوق هم أقدر الناس بل أقدر من هذا الشيخ نفسه على الدفاع عن الإسلام كشريعة، لأنه درس الشريعة ودرس القانون، وبالتالي فهو أقدر على الدفاع بحق عن الشريعة الإسلامية.

الاشتراط لمصلحة الغير.. ثالث دفعة

فى السنة الأولى، وعلى الرغم من الاهتمام بالدراسة ومحاولة المحافظة على المستوى الدراسى الذى كان مضرب المثل فى السنة النهائية للثانوية العامة إلا أن الرياح جاءت بما لا تشتهى نفس صاحبنا ولا أسرته التى كانت تنتظر منه أن يكون أول دفعته. ومازلت أذكر يوم الجمعة الذى علم فيه أبى بظهور النتيجة فأرسل أخى حسن دون أن يخبرنى، ولما لم أجد حسن فى الصلاة سألت عنه بعد أن خرجنا من المسجد، فأشار أبى إلى حسن الذى جاء من توه من مدينة طنطا ووجهه مبتسم وينادى من قريب: مبروك جبت جيد، لم يعلق والدى إلا بكلمة مبروك بصوت تحس فيه بعض اللوم فلم أنطق بكلمة، ولكن صممت أن أثار لنفسى فى العام التالى الذى ندرس فيه النظريات العامة للقوانين التى سندرسها تفصيلاً فى السنة الثالثة.

لعل عدم حصولى على ترتيب متقدم فى السنة الأولى كان بسبب الجو الذى استغرق وقتاً لكى أئتلف معه، أو ما يمكن أن نسميه «الصدمة المكانية والزمانية» حيث اختلاف المكان واتساعه وحيث الزمان له مواصفاته المختلفة عما كان قبل ذلك. فبالرغم من أننى كنت فى سباق

للمحافظة على التفوق ليتسنى تحقيق الحلم بتعييني معيداً في الكلية، فقد كانت هناك بعض المشاكل في السنة الأولى، مثل تجربة المدينة الجامعية التي قضيت فيها مدة قليلة ثم تركتها إذ كانت في منطقة في مدينة طنطا تسمى «سيجر» وكانت في مكان شعبي لا يصلح أن يكون مكاناً للمدينة الجامعية لطلبة يدرسون في جامعة، فلم أستطع أن أمكث فيها وتركتها بعد أن استنزفت كثيراً من جهد كان يجب أن يكون للدراسة. وكبدل للمدينة الجامعية، كان السفر اليومي الذي كنت أرجع منه وقد هدنى التعب فلا تستطيع عيناى أن تصافح سطور أى كتاب فأسلم رأسى للنوم.

وعامداً كنت أقبل على مناهج معينة، فأعطيها اهتماماً أكبر ككتاب علم الإجرام أو كتاب مصادر التشريع الإسلامى إضافة إلى جريدة الأهرام التى لا بد أن أقرأ ما يكتبه مجموعة من الكتاب على مدار أيام الأسبوع، كان منهم الدكتور زكى نجيب محمود الذى كان له مقال أسبوعى، والأستاذ فهمى هويدى ومقال الثلاثاء، والأستاذ لطفى الخولى ومقاله الأسبوعى، والأستاذ أحمد بهجت وصندوق الدنيا اليومى، وأنيس منصور ومواقف، ومقالات توفيق الحكيم ويوسف إدريس، كل هؤلاء كنت أقرأ كل كلمة كانوا يكتبونها في الأهرام. وكان على المكتب الذى أذاكر عليه مجموعة من كتب التفسير وكتب الشعر، كنت أحياناً كثيرة أفتحها للترويح، فإذا بالترويح يخطف وقت دروس الحقوق والجنائى والمدنى، كل هذه الأسباب جعلتني بعيداً عن الترتيب المتقدم على الدفعة وتسببت في عدم حصولي على تقدير جيد جداً ناهيك عن الامتياز، فهو في كلية الحقوق كان ضرباً من الخيال.

بدأت السنة الثانية وأنا مصمم على أن أحصل على ترتيب متقدم أو

على الأقل الحصول على جيد جدًا، وكان شاهداً على تلك الفترة الأخ الصديق فؤاد المرسى الذى كان زميلى فى هذه السنة وهو فى نفس الوقت موظف فى مديرية أمن المنوفية، وشهدنا معاً سنة قوية من حيث المواد ومن حيث استعدادنا لها، ومن حيث هؤلاء الأعلام الكبار الذين صباوا فى آذاننا صوت العلم ومنطق العقل وروح القانون، وتعلمنا على أيديهم معنى الجدية فى طلب العلم.

ومن هؤلاء الكبار كان الدكتور «عبد الودود يحيى» أستاذ القانون المدنى فى جامعة القاهرة، ذو الوجه الأوروبى المشرب بحمرة بادية فى ثنايا وجهه الجاد، والذى كان رغم سنه الكبيرة يظل ساعتين كاملتين يشرح الموضوعات الخاصة فى القانون المدنى، وهى تحتاج إلى الوقوف عند بعض تفاصيلها، وإلا يفلت منك الفهم الصحيح لها إذ قد تتشابه فتضيع منك ملامحها المحددة، مثال ذلك التعهد عن الغير، كتصرف قانونى والاشتراط لمصلحة الغير فيبينهما بعض التشابه وللتحديد بينهما لابد أن تحدد تفاصيل كل تصرف منها، وهذه كانت مجالاً لبراعته كأستاذ كبير. وقد رسم د. عبد الودود لنفسه صورة فى أذهاننا ونحن طلبة، صورة الأستاذ المخلص المتجرد الذى يحترم نفسه ويحترم تلاميذه ويحترم العلم الذى ينقله إليهم، ويحترم التقاليد الجامعية باحترامه للوقت، فلم يثبت عليه يوماً تأخر فيه عن محاضراته ولا فرط فى وقتها، فقد كان يبدأ فى العاشرة مثلاً وينتهى فى الثانية عشرة تماماً. وإذا كان كل الدارسين للقانون المدنى فى كلية الحقوق يشكون من صعوبة هذه المادة فكنت أنا وصديقى فؤاد المرسى وكثير من زملائنا نعشق هذه المادة لعشقنا لهذا الأستاذ الجليل.

أما موضوعات الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والرجعة والحضانه وغيرها فقد تعلمنا أصولها على يد هذا الأستاذ الكبير «الدكتور أحمد فراج»، الذى كان أسمر اللون تشى لهجته بأنه من الصعيد الجوانى على الرغم أنه كان أستاذًا فى حقوق الإسكندرية. وكان أستاذنا شديد الدقة فى العرض مستوفياً لكل مايتعلق بالموضوع، فأذكر عندما كان يشرح ما يتعلق بتزويج المرأة نفسها؛ هل يجوز أم لا؟ كان يفعل ذلك بتجرد حرمانا منه السلفيون ومن نحا نحوهم، فكان يعرض رأى الأحناف الذين يميزون تزويج المرأة نفسها بنفسها بغير إذن وليها، مخالفاً رأى الجمهور فى أنه لايجوز نكاح المرأة إلا بولى، وهنا التجرد فى العرض والأمانة فى نقل جميع الآراء، كذلك كان هذا العالم الجليل والأستاذ الكبير.

وهكذا كانت هذه السنة شديدة الأهمية، حيث أردت أن أثبت لنفسى أنى قادر على التفوق خصوصاً وأنى قد حفظت بعض المواد التى ندرسها، من كثرة ماجرت عليها عينائى ومن التأمل فيها والوقوف عندها، بالرغم من أن الحفظ لم يكن أسلوبى ولا منهجى، ولكن دراسة القانون تحتاج أحياناً إلى هذه الوسيلة.

ودخلت الامتحان باللجنة الخاصة التى تجاور زملائى فى الخيمة الضخمة التى تغطى الجميع، وخصص موظف ليكتب لى فرفضت، وأمسكت القلم بقمى وبدأت أعرض المفاهيم المختلفة مثل روح القوانين ومفهوم التصرفات القانونية ومآلات الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية والصور التى تكون عليها نية الجانى عند اقرار جريمته وهل هو متعمد فله عقابه المحدد أم مخطئ فله عقاب آخر وهكذا

في كل المسائل التي قضينا فيها عامًا كاملاً كدًا وتعبًا. وبعد الخروج من كل مادة كنت أنا وفؤاد المرسى نراجع ماكتبناه في ورقة الامتحان وكان مرضيًا لي إلى حد كبير.

حتى جاء يوم امتحان القانون المدني الذي كنت أعشق موضوعاته لشدة حبي لأستاذي «الدكتور عبد الودود يحيى»، ونظرت للورقة بعد المراسم التي أقوم بها عند بداية كل مادة فأسمى الله وأقرأ سور الإخلاص والفلق والناس وآية الكرسي وأتوكل على الله، وكانت الأسئلة جميعًا بتفاصيلها أعرفها جيدًا وبدأت الكتابة، وبعد أن انتهيت وبدأت في آخر نصف ساعة أراجع ما كتبت لأسلم الورقة، وجدت السؤال الأول: أكتب عن الاشتراط لمصلحة الغير، وعند المراجعة وجدتني وقد كتبت عن التعهد لمصلحة الغير، فأصابني الهلع لأنه لم يبق إلا نصف ساعة وسأضطر إلى تشويه الورقة بشطب ما كتبت عن سؤال غير مطلوب، والإشارة إلى أن إجابة هذا السؤال توجد في نهاية الورقة قد تجعل المصحح يهمل في التصحيح، وأصبح عليّ أن أسرع في إجابة السؤال الصحيح في نهاية الورقة وهذا ما فعلته.

خرجت من لجنة الامتحان أبكى، وكان من عادتي أنا وفؤاد المرسى أن نقف بجانب سلم محطة القطار وكان كثيرًا من الزملاء يأتون ليسألونا عن الإجابات الصحيحة، وفي هذا اليوم أخذ فؤاد يطمئنني على أنك ستأخذ الدرجة كاملة وأنا شديد الحزن على السؤال الذي أجبته في نهاية الورقة، وهو يقول لي انظر للطلبة يشتكون من هذا الامتحان وأنت لم تترك فيه سؤالًا إلا أجبته كما تريد. وحدث وقتها موقف جعلني أشكر الله على ما أنا فيه وألا أتبطر على نعمة الله كما يقال، حيث جاء زميل كان

يقضى وقته كله تقريباً على الكافتيريا ولم يكن مهتماً بالدراسة وطلب أن أراجع معه الامتحان، فاعتذرت فأصر وكان فؤاد يقف بجانبى، وبدأ صاحبنا فى بيان ماكتب فى كل الأسئلة، فلم أجد سؤالاً واحداً إجابته صحيحة فى كل الامتحان وأنا أطمئن بكلام يحتمل الصحة والخطأ، وفى النهاية أشعل عود ثقابه بعد أن علق سيجارته بين شفتيه وأخذ نفساً عميقاً فرحاً بما فعل وكأنه سيحصل على الدرجة النهائية، فنظر إلى فؤاد نظرة تقول: احمد الله وانظر حولك.

وتنتهى الامتحانات، وكعادتى بعد الامتحانات كنت أتوقع النتيجة التى أنتظرها وتكون عادة أفضل قليلاً مما توقعت. وفى يوم إعلان النتيجة ذهبت فى الصباح الباكر مع أحد أصدقائى حيث إدارة الكلية فى شارع البحر، فدخلت من البوابة ورجلٌ لاتقويان على حملى حتى وصلت إلى لوحة إعلان النتيجة، ولأن الوقت كان مبكراً فلم يكن معى على اللوحة إلا بعض زملائى، فجرت عينى على الأسماء المدرجة حتى اقتربت من رقم الجلوس الذى كنت أحفظه فوقعت عينى على الاسم: رضا عبد السلام حسن، فنظرت مباشرة إلى نهاية السطر فوجدت التقدير العام جيد جداً، فنظرت إلى تقديرات المواد فوجدت ثلاثة من المواد امتياز منها القانون المدنى صاحب سؤال الاشتراط لمصلحة الغير وثلاثة من المواد جيد جداً وأربعة مواد جيد، فلم أتمالك نفسى وبكيت فرحاً، وذهبت وقتها إلى المسجد على يمين مبنى الجامعة وتوضأت وصليت ركعتين شكراً لله على هذه النتيجة المرضية، والتى أثبتت لى أن معادلة النجاح هى العمل الجاد والإصرار على تحقيق الهدف والإخلاص الذى يجب أن يكون ظهيراً للعمل دائماً لأنه الروح التى تسرى فيه فتجعله وفير الإنتاج

عظيم الثمار. عرفت بعد ذلك عند التكريم أنني الثالث على دفعة يقترب عدد طلابها من ثلاثة آلاف طالب، وكان فرحاً أقامه الوالد والبيت كله والزملاء بهذه المناسبة التي أعادت صاحبنا إلى طريق التفوق وإلى نهج التقدم الدراسي المشهور به بين زملائه وفي محيط أسرته وفي قاعات المحاضرات في الجامعة. لكن بقيت ستتان فهل سيكون الأمر فيهما على ماكان في السنة الثانية أم سيختلف الوضع.. هذا ما بينته الأيام التالية.

ليسانس الحقوق

من أشد السنوات صعوبة في رحلة تعليمي كانت السنة الثالثة في كلية الحقوق حيث المناهج طويلة وكثيرة، فبعد أن كنا ندرس النظريات العامة بقواعدها الكلية دخلنا إلى التفصيل، حيث العقود بكل تفصيلاتها في القانون المدني كعقد البيع وعقد الإيجار وغيره من العقود، وفي القانون الجنائي أخذنا الجرائم المتعلقة بالأموال كالسرقة والاختلاس والجرائم المتعلقة بالاعتداء على النفس كالقتل والجرائم المتعلقة بالعرض كهتك العرض والزنا، وهكذا في كل المواد. كنت أحس عندما أفتح هذه الكتب أنني أسبح في بحور ليس لها شطآن، صحيح المعلومات ممتعة لكن كانت كثيرة جداً وطويلة جداً، لذا فقد حصلت في هذه السنة على تقدير جيد، ولم أكرث كثيراً لأن النظام وقتها لم يكن يعرف التقدير التراكمي وإنما كان يعترف بتقدير السنة النهائية.

في السنة النهائية، عبأت نفسي لكي أحقق ما وعدني به عميد كلية الحقوق الذي أصبح رئيساً للجامعة الدكتور عماد الشربيني، حيث قال لي في إحدى مرات التكريم أنك لو حصلت على جيد جداً في الليسانس

فسوف أعينك معيداً في كلية الحقوق. وبدأت السنة بجد ظهر في اهتمامي الشديد بكل صغيرة وكبيرة، وخليت نفسي من كل المشاغل إلا موقف يستحق أن نسجله كي يعطى أصحاب الفضل حقهم.

قامت رعاية شباب الجامعة التي كان يرأسها الأستاذ «وحيد الخرادل» والذي كان رجلاً غاية في النشاط بدعوة الطلاب المثاليين على مستوى الجامعة، قابلت وقتها خيرة شباب جامعة طنطا؛ «الدكتور راجح الشال» الطالب المثالي على كلية الطب هذا الشاب شديد الأدب وصاحب الأخلاق العالية والوجه المبتسم والذي أصبح الآن من أكبر أطباء الأشعة في مصر، و«الدكتور على صباح» الطالب المثالي على كلية الطب مع الدكتور راجح والذي كان وجهه ينبئك عن ذكاء يظهر في عينيه عندما يتكلم وكان حياً جميلاً، و«الدكتورة منى الشريف» الطالبة المثالية على كلية الطب أيضاً والتي كان تفوقها معروفاً في الجامعة كلها، وأخوها «الدكتور محمد الشريف» بظرفه الجميل وأدبه العالى والذين أحاطوني بجميل عطفهم ونبيل معاملتهم، فأذكر أنهم قد جمعوا الصور التي ألتقطت لنا وصنعوا منها أوتوجراً جميلاً هدية منهم ما زلت أحتفظ به إلى الآن. وقد كرمتنا الجامعة ورشحتنا في برنامج كان يقدمه المذيع الرياضي الآن «مدحت شلبى» اسمه «دورى الجامعات»، فكان يختار مجموعة من الطلاب من كل جامعة وتجري المباريات بينهم، ومع كل فريق يشارك ضيف من الضيوف المشهورين، فكان معنا في فريقنا اللاعب المشهور جداً وقتها الكابتن طاهر أبو زيد، وأذكر كم كان لطيفاً معنا ومعى أنا بالذات حيث كان مع كل سؤال ينادى فين رضا؟ وأذيعت هذه الحلقات وأحدثت أثراً كبيراً وقتها عند كثير من الناس.

.. وبعد هذا التكريم، اختليت بكتب السنة الرابعة. أعجبتني كثيرًا مادة أصول الفقه، هذه المادة التي شكلت وعيى للدين عامة وللفقه خاصة، حيث تعلمت منها كيف يستنبط الحكم الشرعى وماهى مراتبه التى تتدرج من الوجوب إلى الندب إلى الكراهة إلى التحريم، ومتى يصبح الفعل مباحًا وما معنى الإباحة وكيف نفهم القاعدة الشرعية، ومن هو الفقيه وماهى المؤهلات التى يجب أن تتوفر فيه، ورغم صعوبة هذه المادة إلا أنى كنت أعشقها. وكذلك مادة الإجراءات الجنائية التى كان مقررًا علينا فيها كتاب «الدكتورة آمال عثمان» التى كانت وزيرة الشئون الاجتماعية وقتها، وكان يدرسها لنا نيابة عنها المحامى العام لمدينة طنطا، وكان الكتاب يحوى أكثر من ألف صفحة، وكانت القراءة فى هذا الكتاب ممتعة حيث يتحدث عن إجراءات القبض والتفتيش ومتى تكون باطلة ومتى تكون صحيحة وماهى وسائل حفظ التحقيق ومن له الحق فى هذا. وأذكر أن رئيس مجلس الشعب وقتها «الدكتور محمد كامل ليلة» كان يدرس لنا القرار الإدارى، ولم يأت فى هذه السنة إلا مرتين شرح فيها منهجه فى اتخاذ القرار الإدارى ببراعة، حيث كان يلخص محاضراته التى تستمر ساعتين فى نقاط مركزة وكان صوته قويًا يهز قاعة المحاضرات من شدته.

وضعت خطة لكى أحقق الحلم وأحصل على تقدير جيد جدًا فى هذه السنة كى أستطيع أن أعيّن معيدًا فى الكلية كما وعدنى رئيس الجامعة، فركزت على المواد التى أستطيع أن أحصل فيها على الامتياز حتى ترفع التقدير، اخترت اللغة الفرنسية وكانت عبارة عن مصطلحات تحفظ ثم يُجاب عنها بسهولة، ومادة اسمها الإدارة العامة وكانت مادة سهلة

وقليلة الحجم، ومادة أصول الفقه التى كانت أكثر المواد استيعاباً وأكثرها هضمًا حتى كدت أحفظ موضوعاتها.

وبدأنا الامتحانات، ولا أنسى أبدًا هذه السيدة الوقور الحازمة القوية التى راقبت على لجنتى الخاصة، فلما وجدتني أكتب بفمى وأرفض أن يكتب لى أحد ورأت كيف أمسك بالقلم بفمى ولا يغادره إلا فى الدقيقة الأخيرة من الوقت كانت تختار بعد ذلك أن تراقب فى لجنتى لحرصها على أن تبعد عنى أى شىء يعيقنى وأنا أكتب، حتى إنها كانت تعنف من يرفع صوته من اللجان المجاورة. كانت هذه السيدة شاهدة على أصعب المواقف التى شهدتها فى مسيرة تعليمي.

ففى مادة الإدارة العامة وجدت أن إجابة الأسئلة بالتفصيل فى رأسى، فبدأت أكتب، ولأننى أريد الامتياز كتبت فى السؤال الأول المشتمل على ثلاث نقاط كل شىء كلمة كلمة، وبدأت فى السؤال الثانى المشتمل على نقطتين، وبعدما بدأت قالت لى هذه السيدة الطيبة: بقى فى الوقت نصف ساعة فقط، فاجأنى قولها وقلت لها أنا أريد وقتًا إضافيًا وكراسة إجابة أخرى لأن الكراسة التى أكتب فيها ستنتهى بعد ورقة أو ورقتين وأريد أن أكمل الإجابة كما أريد، وكان حاضرًا فى هذا الوقت فى اللجنة رئيس الكنترول وكان أستاذًا فى كلية الزراعة ولم أكن أعرفه، فلما قلت أريد وقتًا إضافيًا وكراسة جديدة لأن لى ظروفًا خاصة وأنا فى لجنة خاصة، فوجئت بهذا الرجل يقول: لا وقت ولا كراسة، فنظرت إلى السيدة المراقبة ولم ألثف له وكررت عليها السؤال وقلت لها: أريد الدكتور مصطفى فؤاد رئيس اللجنة فرد هذا الرجل مرة أخرى وقال: لا وقت ولا كراسة، فانفجرت فيه وقلت من أنت؟ ومن الذى أدخلك هنا؟ أخرج بره أخرج بره، وهممت أن

أخرج من اللجنة، فأجلستني المراقبة وقالت لي: إن هذا الرجل أستاذ في كلية الزراعة وهو رئيس الكنترول للسنة الرابعة عندكم، ولا يمكن أن أنسى ردى عليها حينما قلت لها: حتى ولو كان رئيس الجمهورية، وأخذت هذه السيدة تهدئ من روعى وترجونى أن أوصل الكتابة، وخرج هذا الأستاذ وجاء الدكتور مصطفى فؤاد رئيس لجنة الامتحان وكان يعرفنى جيداً، وربت على كتفى وهذا من روعى ثم قال لي بهدوئه المعروف: لا أستطيع أن أعطى لك دقيقة واحدة ولكن سوف أعطيك كراسة إجابة على مسئوليتى، فلم أستطع أن أرد ورجعت إلى ورقة الإجابة مرة أخرى.

وبعد الامتحان، خافت هذه السيدة الفاضلة أن يكون لذلك الموقف تأثير على الورقة في الامتحان أو أن يتخذ ضدى أى إجراء إلى الدكتور مصطفى فؤاد الذى اصططحبنى إلى رئيس الكنترول الذى لم يسمح لي بأن أعذر له بل كان شديد الأدب وقال لي إننى لم أقصد أن أثرك. وانتهى هذا الموقف الذى ضاع فيه تقدير الامتياز، وضاعت فيه أمانة المعيد بعد أن حصلت على جيد في هذه السنة، وكانت صدمة إذ أخلفت الوعد مع الدكتور عماد الشربيني الذى وعدنى إذا حصلت على تقدير جيد جداً أن يعيننى معيداً بالجامعة. وها قد تبدد الوعد وذهب الحلم، لكن الأحلام والأمانى باقية ما دامت العزيمة ماضية وما دامت الأيام تحمل معها الجديد من المواقف والأحداث، ولعل ما سلف من أيام وماكان فيها من ميلاد للنهار الرائع من وسط الركام الهائل من ظلمة نفس الإنسان عندما ينسى أنه إنسان أو عندما يفرط فيما أتاحه الخالق له من مصدر للعزة والكرامة. ودائماً لابد لمن يقع أن ينفذ عن نفسه غبار الزلل وأن يدفع عن روحه استكانة الفاشلين.

روح يا بنى مش هايخدوك!!

بعد حصولى على الليسانس بتقدير جيد وكان بينى وبين جيد جداً حوالى عشر درجات، ذهبت أحلامى أن أكون معيداً فى الجامعة ولم أستطع أن أذهب إلى رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور عماد الشرينى صاحب الوعد، وفتحنى والدى أن أكمل دراساتى العليا فى كلية الحقوق، فأمهلت نفسى قليلاً حتى أفكر فى مستقبل لم تتشكل ملامحه بعد. وهذه مشكلة من يضع أمامه هدف وحيد ليس له بدائل، ولكنى أخذت القرار بأننى سأقدم فى النيابة العامة وفى الوقت نفسه سأندرب عند أحد المحامين لأجرب العمل فى المحاماة حتى أهتدى إلى الطريق الذى سأختاره.

وبعد أيام ذهبت أنا والذى إلى «الأستاذ أحمد سعيد» وكان من أشهر المحامين فى مدينة قويسنا وكان يعرفنى جيداً وقابلنا فى مكتبه ورحب بأن أكون أحد المتدربين فى مكتبه، وبعد أن عدت إلى البيت لم أستطع أن أفنع نفسى أن أذهب فى اليوم التالى إلى مكتب الرجل وأعمل بالمحاماة، على الرغم من أدب الرجل العالى ومقابلته الطيبة وذوقه الرفيع، فأعطيت نفسى للكتب والقراءة فى هذا الوقت، خصوصاً أن المكتبة الخاصة بى فى صومعتى التى أسكنها وحدى كانت عامرة بما كنت أشتريه من مصروفى الخاص أيام الدراسة فى الكلية، وحيث كنت أحصل على مكافأة التفوق فى السنة الأولى وأنا فى كلية الحقوق التى تُعطى لمن كان مجموعه فى الثانوية أكثر من 80٪ وكنت واحداً من هؤلاء وتعطى أيضاً لمن يحصل فى أية سنة على جيد جداً وقد حصلت فى السنة الثانية على هذا التقدير، وبالتالي فقد حصلت على هذه المكافأة ستين وكنت أخصصها لشراء

الكتب، خاصة الدينية ككتب التفسير أو السيرة أو كتب الشعر بجمع أنواعه.

وتابعت تقديمي في النيابة العامة، وذهبت إلى المكتب المخصص لذلك بعد أن أعددت الأوراق اللازمة للتقديم، وكان يقع في صالة دار القضاء العالى المهيبه. لقد كنت أحلم بأن أكون قاضياً يجلس على المنصة لكى يحكم بين الناس بالعدل، وفي خيالى هذه الصورة الأخاذة للقاضى حين يجلس إلى منصة القضاء حوله هالة من المهابة لقدسية هذا المنصب الذى يتولى فيه بشر الحكم على بشر مثله، فلا بد له من الإخلاص والعلم والحيدة والنزاهة، يزين كل ذلك تحرى الحقيقة حتى لا يضيع حق ولا يهان مظلوم.

وعندما دخلت إلى المكتب وكان معى أحد زملائى، نظر الموظف فى الأوراق، ثم طلب منى أن يتحدث إلىَّ وانتحى بى جانباً من هذا البهو الواسع ووضع يده على كتفى، وقال لى كلاماً هو الحقيقة التى حاولت أن أتجاوزها وقلها بلسان من يعرف ماذا يحدث فى مثل هذه الأمور، قال: «أعرف أنك حصلت على تقدير جيد وأعرف أن من حقك التقديم فى النيابة العامة، ولكن نصيحة منى أنت مثل ابنى»، ثم قالها بالعامية المصرية صريحة واضحة «روح يابنى مش هايخدوك متعبشى نفسك». كم هى مُرة هذه الحقيقة التى مازالت سيفاً على الرقاب إلى الآن، وسوف تظل كذلك حتى تتاح كل الوظائف لمن يحمل مؤهلاتها العلمية والبدنية والنفسية دون أن ييجور المجتمع على حق أفراده بدعاوى تجافى حقوق الإنسان، ودون أن ينتقص البعض من حق المجتمع فى سلامة من يقوم بمهام العدالة فيه، بمعنى أن تتاح جميع الوظائف لكل من يصلح لها،

وذلك بأن تحدد جميع المؤهلات لتولى الوظيفة سواء متعلقة بالقضاء أو غيرها من الوظائف العامة، فهكذا يتعامل العالم المتحضر.

وأضرب مثلاً ببلد يحترم حق المواطن بغض النظر عن ظروفه الشخصية حتى ولو كان أعمى لا يرى، لكن لأنه يستحق أن يشغل المنصب وأنه أصلح من يقوم بمهام هذا المنصب، يجب وقتها أن يُقدم هذا الشخص وأن تتاح له فرصة تقديم نفسه وخدمة وطنه. هذا ما حدث في إنجلترا مع دافيد بلانكيد الكفيف الذى ولد في قرية فقيرة في مقاطعة شيفيلد وتعلم في مدرسة للمكفوفين، ثم واصل دراساته العليا وحصل على الشهادة الوطنية في دراسات الأعمال ودرجة الامتياز في الاقتصاد والقانون والتاريخ الاقتصادى وعمل بالسياسة، وفي عام 1987 تم انتخابه عضواً في البرلمان عن حزب العمل لدائرة شيفيلد برايت سايد الانتخابية، وهى واحدة من ست دوائر انتخابية برلمانية في مدينة شيفيلد. ثم في عام 1997 عندما ترأس بلير الحكومة تولى ديفيد منصب وزارة التعليم والتوظيف في مجلس الوزراء البريطانى، وبعد أربع سنوات لاحقة تولى منصب وزير الداخلية المسؤولة بشكل كامل عن القانون والنظام والعدالة الجنائية والهجرة ومكافحة الإرهاب. كما تولى لفترة قصيرة كامل المسؤولية عن الرعاية الاجتماعية. هكذا يتعامل العالم المتحضر مع مواطنيه.

وفي تراثنا العربى والإسلامى الكثير من الأمثلة، منها أن النبى ﷺ ترك عبد الله بن أم مكتوم وكان أعمى أكثر من مرة والياً على المدينة، أى أنه كان يحكم المدينة في كل أمورها في الفترة التى يكون فيها النبى ﷺ غائباً عنها.. هكذا تعامل النبى ﷺ مع أصحابه وهكذا يتعامل

العالم المتحضر في هذه القضية، وهى احترام إنسانية الإنسان واحترام جهده بحيث يكون الفيصل في هذا الموضوع هو الكفاءة، دون النظر إلى الاحتقار الذى ينظر به البعض إلى هذه الفئة حتى ولو قال كلاماً معسولاً غير ذلك.

وللأسف كان التعامل معى ومع غيرى ممن قضت أقدار الله عليهم أن يعيشوا دون عضو من أعضاء أجسامهم أن توصل أبواب الحياة في وجوههم، فليس لهم حق في أن يتولوا الوظائف أو أن يشاركوا في صنع مستقبلهم ولا مستقبل بلادهم بسواعدهم أو أن يكونوا علامات في تاريخ دولهم وجماعاتهم. فما حدث معى ومع كل من هم مثلى يمثل اعتداءً صارخاً وصريحاً على حقوق الإنسان، وما يشقيني أن القوانين الخاصة بالمعاقين مملوءة بالكلام المنمق المزين الجميل الذى لا يستحق ثمن الخبر المكتوب به. وقد استفزنى موقف عندما شاهدت أحد المعاقين يتحدث إلى شخصية سياسية كبيرة ويقول له: «جننا نستجير بك» فرد عليه هذا المسئول الكبير وقتها: «وأنا أجيرك!» فغضبت غضباً شديداً باعتبارى واحداً ممن يتكلم عنهم هذا الذى يستجير، وغضبت لأنه يجب أن يطالب بتفعيل القانون، بمعنى أن تتاح جميع الوظائف لكل المواطنين بمن فيهم المعاقين.

وما حدث معى في موضوع النيابة كان موقفاً ترك في نفسى أثراً سلبياً، خصوصاً أن من قبلوا في النيابة في هذه السنة ممن عرفت لم يعرفوا طريقاً لقاعة المحاضرات يوماً ولا كان لهم اهتمام بالقانون والشرعية وغيرها من مواد كلية الحقوق.. هذه العبارة التى قالها لى هذا الموظف في هذا الوقت «روح يابنى مش هاتخدوك» كانت ومازالت تعبيراً عن طريقة

التعامل مع قرابة الخمسة عشر مليون مصرى - حسب تقديرات الأمم المتحدة - تتكون منهم هذه الفئة. ولعل هذه السيرة الحياتية وما حوته من هذه المواقف وهذه الكلمات وهذا العرض وتلك الحادثة تكون «صرخة قوية» من أجل تفعيل القوانين الخاصة بهم تفعيلاً حقيقياً بحيث يحصلون على كامل حقوقهم.

وداعاً كلية الحقوق

كانت السنوات الأربع التى قضيتها فى كلية الحقوق فى قاعات المحاضرات ومع الأساتذة ومع العلوم القانونية والتاريخية والفلسفية والشرعية من أهم سنوات الدراسة والاطلاع، حيث شكلت عقلى وطريقة تفكيرى، وزودتنى بذخيرة عقلية ومنطقية ورؤية شرعية من خلال ما درست ويمكن إجمال المنن والعطايا من خلال الدراسة فى كلية الحقوق فى بعض النقاط:

أولاً: طريقة التفكير وإعمال العقل

من أهم ماتعلمته من دراستى فى كلية الحقوق كانت طريقة التفكير، أى أن يكون تفكيراً موضوعياً لاتأثير فيه للهوى، بمعنى أن أطلع على الموضوع جيداً وأفهم خباياه وجميع الآراء المطروحة بشأنه ثم أترك مجالاً للعقل ليعمل جهده فيما هو متاح له من أفكار، بحيث يرى أيها أقرب للصحة وأبعد عن الخطأ، خصوصاً وأن طبيعة الدراسة فى جميع المواد التى درسناها كانت فى النهاية علومًا إنسانية تختلف فيها الرؤى وليست علومًا تجريدية ولا تجريبية، لذا فقد وسَّعت عندى مجال إعمال العقل وأتاحت للفكر ردهات واسعة للأخذ والرد والمناقشة والحوار،

وهذا أفادنى بحق بعد ذلك فى مهمتى كإذاعى أعمل بالحوار من خلال الميكروفون وفى صالات الحياة حيث المناقشات والحوارات مع الناس لانتتهى.

ثانيًا: القانون وفلسفة القانون

تعلمت القانون باعتباره قواعده عامة مجردة ينبغى أن تطبق على الجميع دون تمييز. ومن أهم ما أفادنى فى هذا المجال القانون المدنى، الذى أبهرتنى فيه «موسوعة الوسيط فى شرح القانون المدنى» فى عشرة أجزاء، للعلامة الكبير «الدكتور عبد الرزاق السنهورى» والذى تُعتبر علامة فى هذا الفرع من فروع القانون. كما استفدت من كتابات العظام من الأساتذة الكبار ك«الدكتور محمود نجيب حسنى» و«الدكتور أحمد فتحى سرور» الذى جرت به السياسة إلى دروبها الوعرة فكان ماكان، لكن يبقى الرجل من أعمدة أساتذة القانون الجنائى فى مصر والقانون الإدارى. وأيضًا كتابات «الدكتور محمد كامل ليلة» و«الدكتور رمزى الشاعر»، وتاريخ فلسفة القانون الذى كان يدرسها لنا أحد الأساتذة الكبار لا أذكر اسمه، ولكن أذكر احترامه الشديد لنا كطلبته ومدى اهتمامه الشديد بهادته التى يدرسها باعتبارها مادة لتأريخ فلسفة القانون عبر العصور المختلفة، بمعنى بيان الحكمة من القانون وصلته بالأخلاق وبإسعاد البشر ومدى ملائمته إنسانيًا للحقب التى تمر بها البشرية.

ثالثًا: دراسة السلوك الإنسانى من الناحية النفسية

من أهم ما كنت أهتم به فى مقرر «علم الإجرام والعقاب» كان البحث عن دوافع العمل الإجرامى وعن سبب تحول الإنسان الطبيعى إلى الجنوح ومن ثم إلى الجريمة، وهل الإنسان يولد مجرمًا كما قال لومبروزو؟ وكيف

نفهم السلوك الإجرامى وكيف يتحول الإنسان بفعل البيئة المحيطة إلى مجرم؟ وكان ممتعا أن نقرأ النظرية ثم نقرأ النقد الموجه لها، كما حدث مع لومبروزو فى نظريته ومع فرويد فى نظرية التحليل النفسى ومع غيرهم. وكان مما خرجت به أن البيئة المحيطة بالشخص تعتبر من أهم العوامل التى تجعله فى عداد المجرمين، ذلك أنها تعطيه الأسباب الموصلة للجريمة مع الأخذ فى الاعتبار الجوانب النفسية فى تحول حياة الإنسان الطبيعى إلى مجرم.

رابعاً: دراسة منهجية للشرعة الإسلامية

فى نظرى أن دارس الحقوق لديه زاد شرعى لا يقل عن درس فى الأزهر، ذلك أنه يدرس فى السنة الأولى مصادر التشريع الإسلامى وخصائصه ودرجات هذه المصادر وحجيتها، وفى السنة الثانية يدرس جميع مايتعلق بمسائل الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والعدة والحضانة، وفى السنة الثالثة يدرس علم الموارث والوصية والهبة وغيرها من التصرفات الشرعية، وفى السنة الرابعة يكون تشكيل العقل الفقهى والمنطقى عن طريق علم أصول الفقه الذى يعد بحق من أعظم ماأبدعه العقل المسلم والذى أسس لقواعده الإمام محمد بن إدريس الشافعى. وبهذا يكون من درس هذه المواد قد تكونت لديه حصيلة من العلم الشرعى يستطيع من خلالها -وبإضافة بعض العلوم لها كفقهاء اللغة وعلوم الدين - أن يكون داعية بل عالماً بحق. وأعترف بفضل كلية الحقوق على مثل بدراسة هذه المقررات التى أفادتنى، سواء فى حياتى الشخصية أو فى عملى الإعلامى بعد ذلك، والذى كان قوامه الاعتماد على هذه المقررات الراسخة فى علوم الشرع الإسلامى. وعلى الرغم من حصولى بعد حوالى

عشر سنوات على ليسانس كلية الدعوة الإسلامية من جامعة الأزهر إلا أن تأثير مدرسته من الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق كان أبلغ أثرًا وأغنى مما درسته في كلية الدعوة.

خامسًا: أساتذة عظام

أتاحت لى الدراسة في كلية الحقوق التعرف على أساتذة عظام، سواء من كانوا يُدرّسون لنا في قاعة المحاضرات أو مما اطلعنا على ماكتبوا في الدراسات القانونية أو الدراسات المقارنة بالشريعة الإسلامية. وعلى رأس هؤلاء عميد كلية الحقوق ورئيس جامعة طنطا بعد ذلك الدكتور عماد الشربيني. وأذكر «الدكتور جعفر عبد السلام» أستاذ القانون الدولي في جامعة الأزهر الذى كان يُدرس لنا القانون الدولي وكان مبدعًا في شرحه، ومازلت أذكر رأيه بعد ثلاثين سنة في أن حرية الأسير ستكون مفروضة على الدول لأن لا أحد يستطيع أن يوقفها، وكان يتيح لنا مناقشته في غرفة الأستاذ بعد المحاضرة، وسأله أحد الطلبة عن الرئيس السادات فقال هو سينهائى بطبعه، وقد أجريت معه حوارًا في برنامجي سيرة ومسيرة وذكرته بمحاضراته لنا منذ ثلاثين سنة في طنطا.

ومن الأساتذة الذين كنت أعز بهم الأستاذ الكبير الدكتور «عبد المجيد مطلوب» الذى كان يدرس لنا علم المواريث الذى مازلت أحفظه إلى الآن بشرح هذا الأستاذ القدير، الذى كان يضع وجهه في كتاب أمامه ثم يرفعه قليلاً حتى يكون فمه أمام الميكروفون ثم يقول وكأنه يمضغ الحروف قبل أن ينطقها: «تكلما في المحاضرة السابقة عن موضوع.....» ويظل هكذا حتى تنتهى المحاضرة. والدكتور «توفيق حسن فرج» هذا العلم في مجال القانون المدني وعميد حقوق إسكندرية

من عام 1979 إلى عام 1982، الذى كان يدرس لنا القانون المدنى فى السنة الثالثة وكان مبدعاً فى شرح وتبسيط النقاط الصعبة فى عقود البيع، وكان يقدس قاعة المحاضرات، فكنت تقرأ فى وجهه الذى الجدية التى تصل إلى حد الصرامة، وتدفعك بدايته للمحاضرة لأن تترك ما فى يديك لأنه يحدد ما سيتم شرحه ثم يبدأ فى عرضه الدقيق لكل ما يشمله الموضوع، حقاً إنه من الشخصيات التى لا يمكن أن أنسى نقشه للجدية فى نفسى عندما أبدأ فى عمل ما.

وأخيراً هذا الشاب الذى حصل على الدكتوراه من فرنسا ودرس لنا مادة القانون التجارى والبحرى، «الدكتور حسين فتحى» والذى كان فى أوائل تصديه للتدريس فى كلية حقوق جامعة طنطا، ونشأت بينى وبينه صداقة كتلك التى تنشأ عادة بين الأستاذ وتلميذه، وكان شديد الأدب عظيم الاحترام وافر الذوق، وكان حنوناً شفوفاً طيباً. كان يعلم بوعد الدكتور عماد الشربيني لى فى حالة حصولى على جيد جداً بتعيينى فى الكلية، فلما أخلفت الوعد مع الرجل ولم أحصل على هذا التقدير كانت أقدار الله قد استودعت لى عندها الدكتور حسين فتحى الذى فتح لى طريق الإذاعة، فقد كان السبب الأول فى مصافحة نبرات صوتى ميكروفون الإذاعة، لكن كيف؟ تعالوا لنرى.

عبد الوهاب مطاوع وأحلام اليقظة

بعد أن انتهيت من اللسانس، لم تنقطع علاقتى مع الدكتور حسين فتحى هذا الشاب الذى عُين حديثاً فى الكلية والذى نشأت بينى وبينه نوع من العلاقة كنت أحس فيها بالأخوة الحانية، وطلب منى أن

تجربى زوجته الصحفية المشهورة - والتي كانت بعد ذلك رئيسة القسم الاقتصادى بجريدة الأهرام - حوارًا للنشر فى الجريدة، فاستقبلتنى فى جريدة الأهرام وأجرت معى الحوار. وفى هذه الفترة كنت قد اتخذت القرار بعدم العمل فى مهنة المحاماة على الرغم من إلحاح الوالد بأن أجرب لكنى لم أفعل، وكذلك حلم النيابة قد راح أدراج الرياح بفعل مجتمع - بل دولة - لا تعترف ببعض أبنائها وكأنها ولدتهم سفايحًا، لا لعب فيهم لكن لعب فى نظام يفرق بين المواطنين بالذراع والقدم وليس بالفكر والعقل. وما زلت أذكر بالفضل إلحاح الدكتور حسين فتحى لأن يصحبنى لشركة من شركات القطاع الخاص لكى أعين فى شئونها القانونية، وكيف قابلنا مديرها بترحاب شديد وقال أمهلونى بعض الوقت.

ثم كانت لحظة فارقة فى حياتى، لا يمكن أن أنساها، هذه اللحظة التى كنت فيها وحدى فى غرفة فى الفضاء الخالى فوق سطح بيتنا ومعى الراديو الذى كان يلزمنى دائمًا بجانب وسادتى التى أنام عليها، وكنت أتابع على موجاته جميع الإذاعات، وفى هذه اللحظات كانت أذنائى تستقبل صوت مذيع الكلمات سليمة المبنى والمعنى مستقيمة الأداء جميلة المفتحة والنهاية، فجاء على خاطرى طيف مُلح يسألنى لماذا لا؟ لماذا لا تكون كمن يتكلم فى الإذاعة الآن؟

وكان كحلم يقظة يراود الإنسان فى لحظة يحاول فيها أن يبحث عن إجابة، فتطرده النفس بكيف؟ وهذه غاية تقترب من المستحيل إن لم تكن هو نفسه. ولكن حاولت أن أجيب بينى وبين نفسى كأنه حوار بين اثنين، الأول يقول الأمر صعب ويرد الثانى: لكنه بالنسبة لك مناسب تمامًا، فماذا تحتاج الإذاعة؟ تحتاج إلى صوت وتحتاج إلى لغة وتحتاج إلى معلومات عامة وثقافة، وكل هذه الأشياء متوافرة بالحد الذى يصلح معه

أن تكون مديعاً، فيرد الأول ومن سيقنع بك أن تكون مديعاً وأنت بهذا الشكل؟ فيرد الثانى سأحاول أن أقنعهم، وسكت الاثنان داخل النفس وفرض سؤال الحقيقة نفسه ومن سيتكلم فى هذا الموضوع؟

فى هذه اللحظة قفز إلى ذهنى تحديداً كلام الدكتور حسين فتحى بأنه قد تحدث مع الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بشأنى وأن الأستاذ عبد الوهاب قد طلب أن أذهب إليه، فوجدتها فرصة سانحة لا تعوض، وحين التقيت الدكتور حسين فتحى فاتحته فى الموضوع ورغبته فى دعم الأستاذ عبد الوهاب للالتحاق بالإذاعة فأعجب بالفكرة وشجعها. وبعد بضعة أيام سمعت صوته متهللاً بأخذ الموعد مع الأستاذ عبد الوهاب مطاوع فى مكتبه فى جريدة الأهرام وقد كنت أعرفه جيداً من خلال بريد الأهرام الذى كان يتولى تحريره وبالقصص الإنسانية الرائعة من خلال الرسائل التى كانت تأتية من قارئيه ويتولى الرد عليها.

ووقفت أمام البهو فى استقبال جريدة الأهرام، وأبلغتهم بأن هناك موعداً مع الأستاذ عبد الوهاب مطاوع. وجال خاطرى وأنا أنتظر الرد من مكتب الأستاذ بهذا المبنى الذى يخرج منه هذا الفكر الذى أرتشف رحيقه من جريدة الأهرام من كُتابها العظام على اختلاف توجهاتهم الفكرية، هذا المبنى كان جلس على قمته محمد حسين هيكى. وفى نفس اللحظة نادانى موظف الاستقبال أن أذهب إلى مكتب الأستاذ عبد الوهاب مطاوع وأشار إلى المصعد، فأخذنى المصعد وقلبى يخفق حتى انتهيت إلى المكتب فطلب منى مدير مكتبه أن أجلس، وبعد عدة دقائق طلب منى الدخول وفتح لى باب الغرفة.

وجدت نفسى مع هذا الرجل الذى أقرأ له ولطالما أعجبنى هذا

الأسلوب الرصين في الكتابة، فألقيت السلام فرد بهدوء سمعته وكأنه طرق للصوت خفيف على طبلة الأذن، وجلست على كرسي شمال مكتبه الذى وُضعت عليه أباجورة نورها موجه للمكتب حيث يكتب الرجل، وباقي الغرفة كان ضوءها خافت يحمل لمن يجلس فيها سيما الهدوء والراحة النفسية، وأما وجهه فيحمل سكونية تحسها في صمته الوقور وفي نظرة عينيه المتسائلة، وقال بصوته الهادئ بعد أن رحب بى:

الدكتور حسين يجبك جداً كلمنى يا رضا عن نفسك.

حدثته عن رحلة الحياة من بدايتها إلى وقت جلوسى معه، فتوقف وسأل عن والدى وأشاد به بل قال إن أباك هذا هو شريك لك في هذا النجاح. ثم أخذ يحدثنى عن هيلين كيلر وكيف وهى عمياء وبكماء وصماء يتحدث عنها العالم كله إلى الآن، وقال لى إنه على يقين أننى سأكون علامة في المجال الذى اختاره. ثم قال لى إن الدكتور حسين قد قال إنك تريد أن تعمل مديعاً في الإذاعة، وطلب منى أن أخبره لماذا فكرت في هذا العمل؟ فقلت له إن مؤهلات هذا العمل أملكها جميعاً؛ من صوت ليس فيه لثغة ولا شىء من هذا ومن لغة أجيدها تماماً ومن قرآن أحفظ معظم سوره ومن معلومات عامة ومن ثقافة متوفرة من خلال كلية الحقوق التى تخرجت فيها والتى يُعتبر خريجها مثقفاً بما حصل عليه من مقررات. فإذا بوجه الرجل الهادئ ينبسط وكأن هالة من الرضا قد طبعت على ثنايا وجهه، وأمسك بكارته له ضمن مجموعة من الكروت كانت أمامه وكتب على ظهره «الأخ الكريم الأستاذ فهمى عمر.. حامل هذه الرسالة يهمنى أمره فأرجو الاهتمام به» وطلب منى أن أبلغه بما حدث، وكان الطريق مفتوحاً إلى رحلة أخرى حيث النقش مازال مستمراً على أحجار الحياة.

الجزء الثانى
وهل دانت الثمار

الفصل الأول

صديق الإذاعة

قرآن الثامنة وراغب غلوش

نشأت في سنوات عمري الأولى وأنا أرى هذه الصورة أمامي دائماً، وكانت قبل دخول الكهرباء حيث الهدوء الآمن الذي كانت تنعم به القرى في هذه الأيام، قبل هجوم غول الحضارة هذا الصندوق الذي تتحرك عليه الصور، فيجلس الجالسون أمامه وكأن على رؤوسهم الطير.

وكان والدي - رحمه الله - يجلس في الصالة الصغيرة في مقدمة البيت والباب مفتوح لمن يلقي السلام ويسند ظهره لحائط خلفه، وأنا وأمي وإخوتي حوله والراديو عن يمينه، وتأتي الساعة الثامنة فيكون في انتظارها حيث ينتظر قارئ القرآن الذي سيقراً على مدى نصف الساعة في البرنامج العام، ومع دقائق الثامنة والنصف تبدأ النشرة الإخبارية التي كانت من أهم النشرات الإخبارية في اليوم. وكان أبي عاشقاً لهؤلاء القراء وكان يعرف من سيقراً في هذا اليوم، وكان يبدى إعجابه بالأصوات الجميلة لهؤلاء القراء في غير تزيد، كأن يقول «الله» أو «فتح

الله عليك»، لكنه كان يقف كثيرًا عند تصوير القارئ للمعنى عن طريق الوقف والابتداء، ولم يكن قد درس دراسة متعمقة منهجية وإنما هي نوع من التفاعل الطبيعي من مسلم يحب دينه ولديه فطرة سليمة وعنده رغبة في الوصول إلى المعنى الذى يكمن فى لفظ الآية، لذا فقد كان متيمًا بالقراء جميعًا ويعرف أصواتهم.

وكان يحب الشيخ مصطفى إسماعيل، هذا الصوت الفنان الذى يستخدم علمه فى طبقات الصوت وفى المقامات الصوتية لكى يخرج اللفظ القرآنى بشكل يناسب المعنى تمامًا، فيستخدم المقام الحزين عندما يتلو آيات العذاب أو تصوير يوم القيامة أو ذكر الكافرين والهالكين ويكون عادة مقام الصبا أو الحجاز حيث نبرات الصوت تكون أكثر تعبيرًا عن حال هؤلاء الكافرين والعاصين، وعند تصوير حال المؤمنين المتقين يستخدم مقامًا يناسب هذه الصورة كمقام العجم الذى يدل على الفخامة. وليس معنى استخدامه لهذه المقامات أن يغلب اهتمامه بالنغم على اهتمامه بنقل المعنى. ولكن الثابت والمعروف عن هؤلاء الكبار من القراء أن الواحد منهم لم يخرج عن أصول التجويد الصحيح ولا شرد فى قراءته عن المقصود من القراءة تطبيقًا لقول الله - سبحانه وتعالى - «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»، لذلك فقد أقبل عليهم أبى فى هذه الفترة، وكانت النصف ساعة هذه ونحن حوله من أجمل الأوقات، حيث تعلمنا منه احترام سماع القرآن. ولعل التزامى بهذا المنهج بعد عملى فى مجال الإعلام الإسلامى وعدم الميل إلى البهرجة التى يمارسها البعض له أصل من هذه الصورة الوسطية المعتدلة لسماع القرآن الكريم.

ومن القراء الذين كان الوالد يُهيم بهم صوت الشيخ محمد رفعت، هذا الصوت العبقري الذى تشعر وأنت تسمعه أنك لا تسمع صوتاً جَمِلاً رقيقاً شفافاً تقيّاً نقيّاً فقط وإنما أيضاً تسمع تفسيراً للآيات عن طريق الوقف على الآيات والابتداء بها بشكل يلوح في جلاء أو خفاء إلى المعنى المقصود، ثم يستخدم المقامات في تصوير حال من تتحدث عنهم الآيات ببراعة لم يُسبق إليها ولم يأت أحد بعده يفعل فعله إلا القليل. وصوت الشيخ رفعت يأتيك لكى يستقر في أعماق الروح الإنسانية وكأنه شفاء لها جاء من السماء لأهل الأرض، هذا الصوت العبقري الذى مات صاحبه وقد ملأ الدنيا بصوته حاملاً إليها أعظم وأكرم كلام، مات حين مات ولم يترك فيها إلا نسخة مصحف كان قد أودعها خزانة بنك، لذا استقر حب هذا الرجل القرآنى في قلب والدى بل قلوب كل المسلمين في العالم.

وكان والدى يعجب كثيراً بقوة صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد الذى كان يهز بصوته القوى أوتار القلوب وتحس بالصدق والإخلاص عند قراءته. ويعجب أيضاً بالشيخ محمود على البنا صاحب المدرسة المتميزة في فن التلاوة القرآنية حيث جواباته القوية، التى تحمل في ثناياها العظة والعبرة وفي نفس الوقت تشعر بقوتها مع جمال الصوت.

وأما في اليوم الذى كان يقرأ فيه هذا الصوت الخاشع المتبتل، الصوت الباكي كما قيل عنه، الشيخ محمد صديق المنشاوى الذى مات صغيراً، هذا القارئ الذى أحبه والدى وكل من سمعه في هذا الوقت وإلى الآن، لأنه كان يعيش المعنى ويعايشه ويحسه وينقله إلى السامعين كذلك، ولإخلاصه يصل المعنى كما يريد يصل وكأن السامع هو الذى يقرأ

وهو الذى يخشع. ومن وجهة نظرى وأنا أعمل فى هذا المجال أن الشيخ المنشاوى متفرد بهذه الميزة التى لا يصل إليها القارئ إلا بإخلاصه فى التلاوة، فى هذا اليوم كنت أرى الدمع فى عينى والذى رحمه الله.

أما معلم القرآن وعميد مدرسة التلاوة المتمكن العالم الورع فضيلة الشيخ محمود خليل الحصرى، فقد كان والذى يفتح معه المصحف ويراجع مع صوته الهادئ الرصين القرآن، هذا الذى كان صاحب الأوليات التى لم يسبق إليها، فكان أول من سجل القرآن مرتلاً برواية حفص ورواية ورش والدورى، وأول من قرأ القرآن فى مكبرات الصوت بالحرمين الشريفين المسجد الحرام والمسجد النبوى، وتاريخ طويل فى خدمة القرآن الكريم. وقد أتيت لى أن تكون ابنته الحاجة ياسمين الحصرى ضيفتى فى برنامج سيرة ومسيرة عرفت منها هذه المعلومات عن هذا العلم القرآنى الذى عطر أجواء الدنيا بحسن تلاوته للقرآن. هذا العلم القرآنى تعرفت على صوته مع أبى فى هذه الفترة المبكرة من حياتى، فى هذه الأوقات التى كان فيها أبى يتقرب فيها إلى الله مثل معظم المصريين بتسليم آذانهم للراديو حيث كلام ربهم بهذه الأصوات الشجية فى مدرسة التلاوة المصرية.

ومن أكثر من أحبهم والذى من القراء كان الشيخ «راغب مصطفى غلوش»، فكان يبحث عن تلاواته فى إذاعة القرآن الكريم حيث لم يكن مدرجاً فيمن يقرأون فى البرنامج العام، وكان متبياً بهذا القارئ الذى بدأ حياته مقلداً للشيخ «مصطفى إسماعيل» ثم فتح مدرسته الخاصة فى التلاوة بعد أن أضاف من عنده لوناً من ألوان التجويد فى الصوت، بحيث إنه يقف باللفظ وكأنه يحنو عليه قبل أن ينطق به لسانه، فيصل هذا إلى المتلقى فيحس هذا الإحساس بالتجويد والتحسين والبراعة، ثم

هو يستخدم صوته بالهدوء المعروف عنه فيتسلل إلى أعماق النفس ساكنًا قلب المتلقى الشغوف بالمعنى. وعندما قابلته في مسجد السيدة زينب أثناء نقلی لصلاة الفجر نقلت له هذا الشعور الذى كان يشعر به والذى - رحمه الله - تجاهه وطلبت منه أن يدعو له.. وأذكر أن والدى اشترى بعض شرائط الكاسيت للشيخ راغب غلوش وكان دائمًا مايسمعهها. وعندما أفكر فى اختيار والدى أجده يدل على وجهة نظر فيمن يقرأ القرآن وعلى إرادة للذوق والرغبة فى ارتشاف معانى القرآن بهذه الأصوات الندية.

وكان الوالد يفتح الراديو فى الصباح الباكر على إذاعة القرآن الكريم، وكان عند السادسة يحول المؤشر إلى موجة البرنامج العام حيث قرآن السادسة صباحًا الذى يستقبل به المصريون يومهم، فيملأ عطر القرآن بيوتهم فى هذه الساعة المبكرة.

هذه الصورة الصباحية والمسائية طبعت فى ذهنى وفى حسى وشعورى منذ الصغر، صورة القرآن الكريم وهو يتلى صباحًا ومساءً بهذا الاحترام وذلك التبجيل وهذا الإنصات العاقل الذى لا تشوبه أعمال الصبيان التى أراها الآن حينما ننقل القرآن فى المساجد الكبرى. هذه الصورة التى كانت عليها مصر قبل هذا الضجيج من مكبرات الصوت فى كل مكان حتى عند تلاوة القرآن، هذه الصورة التى جعلت استقبالى للقرآن سماعًا استقبال من يريد أن يصل إلى المعنى بصوت جميل رائق مبدع بلا تفریط فيما عند القارئ من طاقة الإبداع ولا إفراط فى استخدام الوسائل التى قد تخرج الصوت عن الوقار اللازم لقراءة القرآن. عشت هذه الفترة قبل السماعات التى تخرق طبلة الأذن ولا تجد حلاوة للصوت بقدر ما تجد صوتًا عاليًا جدًا يخرجك عن وقار القرآن وعن التدبر اللازم لسماعه، وتجد

حول القارئ مجموعة مدفوعة الأجر لتنشيط التشجيع. وقد لا يكون صوت القارئ محتاج لكل هذا ولكن لابد من هؤلاء الهتيفة والمشجعين، ولا مانع من هذا الذى ينجبى فى مكان لا تراه ليخرج بالصياح بالصلاة على النبى بشكل فيه مفاجأة لا تليق بمن يريد للسامعين أن يصلوا على الحبيب المصطفى، وإنما قصد فقط أن يلفت إليه الأنظار.

الإذاعة فى رمضان

عندما عملت فى الإذاعة تعلمت أن هناك مواسم لابد لها من التحضير والإعداد الجيد، وتذكرت فى طفولتى وبداية الصبا والشباب كيف كان القرآن فى شهر رمضان هو النجم الأول فى كل الإذاعات، ولكل إذاعة شكلها الذى تقدم من خلاله براجمها. وكان الجميع ينتظر قبل المغرب التلاوة القرآنية التى تذاع قبل مدفع الإفطار، وكنا نبحت فى الراديو عن إذاعتين: إذاعة القرآن الكريم وإذاعة البرنامج العام، وكنا نفضل البرنامج العام حيث كان بعد المدفع وأذان المغرب الذى كان علامة عليه صوت الشيخ محمد رفعت بأدائه العبقري التاريخي الأخاذ الذى طُبع بل حُفر فى أعماق نفوسنا بعد أن نسمع هذا الصوت الشديد السريع «مدفع الإفطار إضرب». وفى نفس اللحظة كنا نسمع المدفع ينطلق من منطقة قريبة من مدينة قويسنا، ثم نعطى أسماعنا بعد صلاة المغرب لإذاعة البرنامج العام التى تذيع بعد الأذان مباشرة هذا الصوت الذى لن يتكرر، صوت الشيخ سيد النقشبندى الذى يجسد المعانى، وما زالت ابتهالاته التى يردد فيها لفظ الجلالة بشكل يأخذ القلوب والألباب تتردد أصدائها فى قلوبنا، والتى لا أعتقد أن أحداً أبدع هذا الإبداع كما فعل هذا الرجل عندما كان يمد فى صوته وهو يردد لفظ الجلالة:

الله الله

الله الله

الله يا الله

وكنتم تحس بجلال وكمال لفظ الجلالة عندما ينطق به هذا المبتهل
الذى يقف على قمة من أبدع هذا النوع من الفن والذى كان علامة على
هذا الشهر الكريم. وكنا أحياناً نسمع منه هذا الابتهاال المتفرد الذى لحنه
له بليغ حمدى بعد محاولات مضمينة للحصول على موافقته على ذلك،
والذى كان يقول فيه:

مَوَّلَايَ إِنِّي بِبَابِكَ قَدْ بَسَطْتُ يَدِي..

مَنْ لِي الْوُدُّ بِهِ إِلَّاكَ يَا سَنَدِي؟

أَقُومُ بِاللَّيْلِ وَالْأَسْحَارِ سَاهِيَةً

أَدْعُو وَهَمْسُ دَعَائِي.. بِالْذُمُوعِ نَدَى

بُنُورٍ وَجْهِكَ إِنِّي عَائِدٌ وَجُلُّ..

وَمَنْ يَعِدُ بِكَ لَنْ يَشْقَى إِلَى الْأَبَدِ..

مَهْمَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَعَارِضَهُ..

فَأَنْتَ لِي شَغْلٌ عَمَّا يَرَى جَسَدِي..

تَحَلُّوْا مِرَاةَ عَيْشٍ فِي رِضَاكَ..

وَمَا أُطِيقُ سُخْطًا عَلَى عَيْشٍ مِنَ الرَّغَدِ..

مَنْ لِي سِوَاكَ؟!.. وَمَنْ سِوَاكَ يَرَى قَلْبِي؟!!

وَيَسْمَعُهُ كُلُّ الْخَلَائِقِ ظِلٌّ فِي يَدِ الصَّمَدِ..

أَدْعُوكَ يَا رَبَّ فَأَغْفِرْ ذَلَّتِي كَرَمَ..

وَأَجْعَلْ شَفِيعَ دُعَائِي حُسْنَ مُعْتَقِدِّي

وَأَنْظُرْ لِحَالِي.. فِي خَوْفٍ وَفِي طَمَعٍ..

هَلْ يَرْحَمُ الْعَبْدَ بَعْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ؟

مَوْلَايَ إِنِّي بِيَابِكَ قَدْ بَسَطْتُ يَدِي..

مَنْ لِي أَلُوذُ بِهِ إِلَّاكَ يَا سَنَدِي؟

وبعد الشيخ سيد النقشبندی كنا نستمع إلى المسابقة التي كانت تقدمها الإذاعية الكبيرة آمال فهمي، وعادةً ما تكون عن شيء متعلق بالفن والفنانين أو شيء متعلق بالتاريخ وخاصة تاريخ مصر، ويظل أفراد الأسرة يتناقشون ويسمعونها مرة أخرى، ويدل كل واحد منهم بدلوه في الموضوع ويقترح إجابة للسؤال، ولم نكن ممن يحرص كثير من الناس على إرسال الإجابات ولكن كنا نكتفي بحل السؤال كل يوم، ويكون ذلك نوعاً من الترفيه وتشغيل العقل والفكر بعد صيام اليوم.

ثم يجلس الجميع لسماع المسلسل الذي كان معظم المصريين يتابعونه، حيث كانت الدراما الإذاعية في هذا الوقت في عصرها الذهبي، فكنا نسمع مسلسل ألف ليلة وليلة الذي يحكي كل ليلة حكاية من حكايات شهرزاد وشهريار، وكانت تمثل صوت شهرزاد المبدعة الفنانة زوزو نبيل التي كانت تنقل المستمع إلى أعماق حكايات ألف ليلة وليلة حيث صوتها المعبر وأداؤها الرائع: جاءني أيها الملك السعيد.. ذو الرأي الرشيد. ثم

تبدأ في حكاية ما تريد أن تحكيه في هذا المسمع الدرامي شديد الجذب لمن يستمع إليه، وفي نهاية المسمع يخرج صوت شهرزاد لكي تعد الملك بأن تحكي له قصة جديدة.

وبعد ذلك نستمع إلى المسلسل الفكاهي «سيد وحرمة في رمضان» الذي كان يقدمه الفنان الكوميدي سيد الملاح، وكان يتناول العلاقة بين الزوج والزوجة وكيف يمكن حل ما بينهما بأسلوب كوميدى خفيف. ثم يأتي دور المسلسل الاجتماعى الذى كان يحمل العبر من حياة الناس من خلال عرض قصة كالتى يعيشها الناس فى حياتهم، وأذكر من هذه المسلسلات مسلسل «نحن لانزرع الشوك» وكانت رواية من أهم روايات يوسف السباعى التى يجسد مأساتها صوت الفنانة شادية.

بعد ذلك يتجهز الجميع لصلاة العشاء والتراويح التى كنت حريصاً عليها مع والدى فى المسجد. وعند السحور كنا نفتح الراديو مرة أخرى حيث نستمع لقرآن الفجر الذى يذاع على موجتى البرنامج العام والقرآن الكريم. وبذلك تبدأ ساعة الإفطار بالإذاعة وتنتهى ساعة السحور قبل صلاة الفجر بالإذاعة..

هكذا كانت الإذاعة فى هذا الوقت وفى هذا الشهر خاصة، تجسد الإعلام المحترم الهادئ الرصين والمفيد، الذى يذيع القرآن قبل المغرب فى هذا الجو الإيمانى الذى ينتهى فيه يوم لعبادة الصيام، التى يناسبها تذكير الناس بالنعم وتذكيرهم بالعظمت والعبر من خلال أصوات كبار القراء تحمل ألفاظ ومعانى القرآن بتجويد صحيح وإبداع فنى رائع. وبعد الأذان تقدم وجبة ثقافية واجتماعية وترفيهية متكاملة، يتهيا فيها المستمع بعد أن مر وقت على فطوره لصلاة العشاء.

وماهى إلا سنوات قليلة حتى هجم التليفزيون على هذا الهدوء بمواد ألهمت الناس عن جلال شهر الصيام، بل جعلت الناس فى تخمة ليس من الطعام ولكن من مواد تصيب بالكوليسترول النفسى الذى يسد شرايين النشاط الإنسانى، فيقعد الصائم أمام هذا الصندوق الذى لا يطرح فى هذا الشهر إلا فوزير وفنانين وفنانات ومطربين ومطربات، وتلاشت معه حلاوة السماع الإذاعى. لقد أصبح القليل من الناس يحرصون فى رمضان على متابعة هذا الصندوق الخشبى الصغير الذى تنطلق منه أصوات مختلفة تنتهى عباراتها:..... من القاهرة، حيث كل إذاعة من الإذاعات تعلن شعارها من القاهرة عندما كانت القاهرة الكعبة التى يطوف حولها العرب جميعاً.

صديق الإذاعة

هى أقدار الله التى تمهد لحياتى فى كثير من مواقفها وأحوالها، ولعل هذا فضل من الله على مثلى، فمنذ طفولتى وأنا مغرم بالإذاعة وبما تقدمه، وكأن القدر كان يُعدنى لأمر ما فى هذه المهنة العريقة وإن بدا هذا للوهلة الأولى من المستحيل، ولكن كيف يكون مستحيلاً وقد قضى به الله واقعاً تراه الناس اليوم أمام أعينها. لقد كان بينى وبين الراديو صداقة قوية، فمنذ الصغر كان الراديو يمثل لنا المجتمع بأكمله، حيث نعتمد عليه فى الحصول على الأخبار التى بدأنا نهتم بها من خلال نشرات الأخبار المعروف مواقيتها، والتى ينتظرها معظم الناس فى الثانية والنصف ظهرًا والثامنة والنصف مساءً، حيث هذه الأصوات التى اعتاد عليها الناس وعرفوها من أمثال «الرواد صبرى سلامة وعبد العال هنيدي

وصالح مهران وغيرهم». وكان المطرب محمد قنديل في أغنيته الشهيرة «ع الدوار» التي كتبها حسين طنطاوى ولحنها أحمد صدقى يعبر عن هذه الفترة وعن احتلال الراديو المكانة الأولى، ويعبر أيضًا في هذه الأغنية عن أن المهمة الأولى للراديو كانت نقل المعلومة والخبر:

ع الدوار عالدوار، راديو بلدنا فيه أخبار
ع الدوار ع الدوار
ياللى فى قاعه يالى فى خص، قوم دى الساعه تمانيه ونص
والراديو عمال بيرص
فى الأخبار قلبك يتهنى، كنا فى نار وبقينا ف جنبه
واللى ظلمنا بقى فى النار، ع الدوار ع الدوار
من يوم جيشنا ما شن الغاره على عزالنا بكل جساره
واحنا يوماتى تحبنا بشاره
الجرانين بترد الروح، وتداوى القلب المجروح
خير جيلنا بالقنطار، ع الدوار ع الدوار
طاقة القدر شافتها عيننا، والدنيا دى بقت فى أيدينا
واللى خلقنا فرجها علينا

هذا بالنسبة للمشهد العام الذى كان عليه الناس فى هذا الوقت، أما أنا فقد كنت «سميغاً» للإذاعة، أتابع كل الإذاعات ولى مع كل واحدة منها بعض المواد الإذاعية التى لا بد أن أتابعها فى مواقيتها ولا أترك منها شيئاً أبداً. لعل هذا شكّل عندى بعد ذلك ذوقاً ورأيًا فيما يمكن أن يكون له التأثير الأكبر عند إذاعته من خلال هذه الخبرة التى اكتسبتها من هذا الكم من المواد الإذاعية من أعلام الإذاعة فى هذا الوقت. لقد كان لكل

إذاعة من الإذاعات المختلفة مذاقها الخاص الذى تقدمه حسب طبيعتها، وكنت دائماً على الموعد مع هذه البرامج وهؤلاء المذيعين الذين كنت صديقاً لهم من خلال الإذاعة دون أن نلتقى وجهًا لوجه.

وكانت الإذاعة التى تحظى عندى بالنصيب الأكبر هى إذاعة القرآن الكريم، لأننى كنت متابِعًا للخمسة الكبار من الذين يقرءون المصحف المرتل، وكنت أتابعهم لأننى كنت فى هذا الوقت أحفظ القرآن الكريم فكنت أراجع على أصواتهم ما أحفظه، وكان لى مع كل واحد منهم رباط من المحبة لصوته ولطريقة أدائه، وكنت مغرمًا بطريقة «الشيخ المنشاوى» الخاشعة فى المصحف المرتل والذى حفظت من متابعته بل وراجعت كثيرًا مما كنت أحفظ من القرآن الكريم.

وكنت مغرمًا بأصوات المذيعين فى إذاعة القرآن الكريم مثل «الدكتور فوزى خليل» الذى كان يقدم برنامج «قبس من نور النبوة» هذا البرنامج الذى يقدمه الدكتور فوزى بصوته الهادئ فى تمكن من اللفظ ومن الحروف حيث إلقاؤه المناسب للمعنى تمامًا، ومستوى الصوت الذى تحس أنه موزون على ميزان المعانى التى تحتملها الألفاظ، فالبرنامج حديث مباشر فى عشر دقائق يتناول فيه حديثًا من أحاديث النبى ﷺ من حيث اللغة والمعنى وما يحويه الحديث من علوم فى مجال من المجالات، كمجال ترسيخ القيم ومجال التربية أو التعليم أو مجال الفقه أو غيرها من المجالات. وكان الدكتور فوزى خليل لقدراته المبدعة يقدم برنامجًا حوارياً كان هو البرنامج الأول فى هذا المجال وهو برنامج «شخصيات إسلامية وراء الميكروفون» حيث كان يجرى حواراته مع المفكرين والقراء والمبتهلين، فيتناول السير الذاتية لكل منهم، وكان البرنامج يُعتبر إحدى

العلامات في إذاعة تهتم بالقرآن الكريم وبالفكر الإسلامى، وسمعت فيه حلقات رائعة مع كبار القراء في هذا الوقت، وله لقاء في هذا البرنامج مع القارئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ومع المبتهل نصر الدين طوبار يعتبران من أهم اللقاءات في هذا البرنامج التوثيقى، وكان يستضيف كبار المفكرين في هذا الوقت. هذا البرنامج كان لى شرف إحيائه ببرنامج أقدمه الآن بعنوان «سيرة ومسيرة»، نفس الفكرة لكن يزيد عليها الاهتمام بمؤلفات الضيف وكتبه وإنتاجه العلمى والفكرى، وأن يكون معظم الضيوف من المفكرين على اختلاف توجهاتهم.

ومن برامج إذاعة القرآن الكريم التى كانت لها وقع كبير عند الناس في هذا الوقت تلك التى كان يقدمها الراحل الإذاعى الدكتور «عبد الخالق محمد عبد الوهاب» بعنوان «من بيوت الله»، التى يقرأ فيها واحد من أعلام القراء تلاوة من القرآن ثم يعلق على هذه التلاوة أعلام الفكر الإسلامى في هذا الوقت، حيث كنا نستمع إلى الشيخ محمد الغزالي والشيخ الدكتور محمد الطيب النجار والدكتور محمد بن فتح الله بدران بصوته الجمهورى القوي. وكانت هذه اللقاءات في هذا الوقت تحظى بنسبة استماع عالية جداً.

وكان هناك أعلام في هذا الوقت من الإعلاميين؛ أمثال الدكتور «كامل البوهي» الذى كان يقدم برنامج «أمة الإسلام» والدكتور «على طبوشة» الذى كان يقدم برنامج «سفراء الإسلام» حيث يجرى حواراً مع واحد ممن يدعون إلى الله في الخارج أو هؤلاء الذين يزورون مصر من الدعاة الأجانب، ولا أنسى له لقاءً مع الدكتور «مزمّل صديقى» رئيس المجلس الفقهي الإسلامى بأمريكا الشمالية، حيث تحدث الرجل عن

الإسلام في أمريكا وكيف يمكن فهم الإسلام كدين صالح لكل زمان ومكان في هذا المجتمع، وقد كان لهذا البرنامج أثره البالغ في تعريف الناس بهذه النماذج الدعوية في الداخل والخارج.

لكن كانت هناك - وما زالت - البرامج التي يقول فيها مقدم البرنامج كلمتين في بداية البرنامج ثم يتكلم الضيف حتى آخر الحلقة حيث ينهي مقدم البرنامج الحلقة كما بدأها بكلمتين دون أن تكون له بصمة ظاهرة في دفة البرنامج الذي يجب أن يكون هو موجهه.

هذا بالنسبة لإذاعة القرآن الكريم. أما الإذاعات الأخرى فكانت متمياً بالبرنامج الثقافي، حيث المسرحيات العالمية والبرامج التي تتناول الشعر والموسيقى التي كنت أحياناً أستمع إليها وخاصة عندما تكون هادئة دون أن أنفق الوقت في تقصى المعلومات عن هذا المجال. وكنت صديقاً لبعض المذيعين والمذيعات في مختلف المحطات الإذاعية التي كانت تشكل برامجهم وأصواتهم علامة في الإذاعة المصرية.

أما إذاعة البرنامج العام، فكانت أعتبرها صالة التعليم الكبرى عن طريق الراديو والتثقيف والترفيه أيضاً منذ كنت صغيراً، ومن كنت أنتظر برامجهم في البرنامج العام هذه السيدة التي عشقناها صغاراً لروحها التي كانت تأتلف معها أرواحنا الصغيرة، «أبلة فضيلة».. لأنها كانت تحمل الصدق في كل كلمة وتحمل معه حكاياتها التي تدعو إلى كل مايؤسس للتربية الصحيحة السليمة، ولا يمكن أن أنسى كلمات هذه الأغنية المبدعة التي كانت شعاراً لبرنامجها والتي كانت تنقله إلينا طفلة بصوتها الذي نقبله كأطفال وكأننا نحن الذين نغنى:

ياولاد ياولاد
تعالوا تعالوا
علشان نسمع أبله فضيلة
راح تحكى لنا حكاية جميلة
وتسلينا وتهنينا
وتذيع لنا كمان أسامينا
أبله... أبله فضيلة

ثم يأتينا صوتها الذى يفتح عندنا كأطفال مكانن الاستقبال التى تستقبل هذا الصوت الزاخر بالحنان المملوء بالعطف الذى يحترم عقل طفل فى سنه الصغيرة، ولا يمكن أن أنسى مقدمتها البسيطة الجميلة المشحونة بالود التى تشتمل على الترحيب بكل من يسمعها وبالتذكير بالصلاة على النبى، ثم تبدأ الحكاية التى تكون درسًا فى التربية أو الأخلاق أو فى التعليم أو فى الترفيه بصوتها الطفولى الجميل: وكان يا ما كان.. يا سعد يا إكرام.. ولا يحلى الحديث والكلام إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام.

وعندما رأيتها فى بداية رحلتى الإذاعية فى معهد الإذاعة والتليفزيون وجدت أنها هى التى كنت أسمعها بصوتها وأدائها وروحها الجميلة والحب الذى امتلأ به قلوب كل من عرفوها، هذه الرائدة الإذاعية التى كانت تحمل قلب طفلة ببراءتها وعقل سيدة وقور طيبة تسع كل هذا العالم ببراءتها وطيبيتها، أمد الله فى عمرها.

وأما البرامج الثقافية فكنت أنتظر «عمر بطيشة» فى برنامجها الذى كان موعده الأسبوعى الأحد فى الثانية عشرة إلا الربع مساءً، وكان يستضيف فى هذا البرنامج الأعلام فى جميع المجالات. ففى مجال الفكر الإسلامى

كانت له حلقتان مع المعمارى الكبير المهندس حسن فتحى الذى قرأت له كتابه «عمارة الفقراء» والذى يعتبر من أهم الكتب التى غيّرت مفاهيم العمارة البيئية حول طبيعة هذا النمط من العمارة والذى ارتبط زمناً طويلاً بالقرى وسرده للعديد من التجارب خصوصاً تجربته الشهيرة بقرية القرنة، والتى دوّن تجربته فيها عبر هذا الكتاب؛ حيث يستخدم الطوب اللبن والموارد المتاحة بالتعاون بين أفراد المجتمع كما تحدث فيها عن الاغتراب وكيف أثر على العمارة وكذا ضرورة أن نتمسك بالأصالة، فكانت من أجل ما قدم من حلقات. وكذلك حلقاته مع الشيخ محمد متولى الشعراوى التى أذكر أنه قدمها بقوله: «يكفى أن أقول إنه إمام العصر الذى تألفت حوله قلوب وعقول الملايين، والمفكر المجدد الذى اتحد المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها فى الالتفاف حوله فى حين تفرقهم المذاهب والسياسات» وأبدع الشيخ الشعراوى كمفكر كبير فى هذه الحلقات. وأتذكر حلقاته الرائعة مع أنيس منصور، بروعة فكر أنيس منصور، الذى أذكر سؤاله له «أنت بدأت وجودياً ثم عدت لحظيرة الإيمان فهل تنصح الشباب أن يفعلوا كما فعلت أنت؟» أجاب أنيس منصور وقتها بما يفيد أن المحاور لم يقرأ كتبه، إذ إن هناك نوعين من الوجودية وجودية مؤمنة تعترف بالإله ووجودية لا تعترف بوجود إله، ولأننى حفظت القرآن صغيراً ومن بيت يحترم القيم الإسلامية فقد تحدثت عن الفلسفة الوجودية التى لاتصطدم مع الدين. وحلقته مع الدكتور مصطفى محمود هذا الطبيب والمفكر والكاتب والمبدع... كانت حلقات رائعة مازلت أذكرها.

وكذلك برنامج زيارة لمكتبة فلان، والذى كانت تقدمه «نادية صالح»

وكانت تنتقل بين الكتب في مكتبة الضيف، ومازلت أذكر ضيوفها الذى كان كل منهم يمثل قيمة فكرية أو علمية أو دينية، مثل المفكر والفيلسوف زكى نجيب محمود والأديب الكبير يحيى حقى وشيخ الأزهر الأسبق الذى كان وقت استضافته مفتيًا للديار المصرية الدكتور محمد سيد طنطاوى. وكانت اللقاءات فى هذا البرنامج عرضًا للمكتبة ومن خلالها يعرض الضيف لاهتمامته الفكرية والأدبية والعلمية حسب تخصصه.

وكنت من الذين يهيمون بـ«صبرى سلامة» وصوته الجاد المعبر الذى نسميه صوت «القرار» الذى يأتى من الأعماق، وخصوصًا عند قراءته لنشرة الأخبار أو برنامجه القصير «ع الماشى» الذى كان مادة لتعليم كيف يكون الحديث المباشر وكيفية نطق الحروف والكلمات فى العبارة وكيف تبدأ وكيف تنتهى.

ومن هذه الفئة الرائعة الرائد الإذاعى الكبير «فهمى عمر» الذى كانت تنتظره مصر كلها حين يعلق على مباريات الكرة، وكان وهو يعلق بصوته ذى البحة الرائعة المتميزة وسرعته المحسوبة ومشاعره التى تحملها الكلمات تظهر زملكاويته العتيدة. هذا فى البرنامج العام.

وعلى موجات صوت العرب كنت أنتظر «حديث الذكريات» والهادئة الوقورة ذات الصوت الهادئ «أمينة صبرى»، والحوار الرشيق الذى يناسب الذكريات، والتى كان ضيوفها من مصر والدول العربية. وكان هناك برنامج أقرب إلى هذه الفكرة وفى صوت العرب أيضًا، وهو برنامج «أضواء على الجانب الآخر» وكانت تقدمه الراحلة الإذاعية «نجوى أبو النجا» ولكن بصوت مختلف تمامًا عن زميلتها «أمينة صبرى»، حيث كان صوتها عريضًا وقويًا وذو نبرة مفتحة وكانت أسئلته قوية، وأذكر من

حلقات برنامجها حوارها مع العالم الكبير الشيخ أحمد حسن الباقورى حين قال فى بداية الحلقة «برنامج» بضم الباء فسألته، فقال إننى أفضل أن أنطقه بهذا الشكل ولو أننى لم أطلع على أصله اللغوى ولكنى أفضل نطقه كذلك!

أما إذاعة الشرق الأوسط، فكنت أتابع برامج الإذاعية الكبيرة «إيناس جوهر» وكنت أتابع كل ما تقدمه مع الإذاعى الكبير «محيى محمود» فى برنامجهم «تسالى»، الذى كان يبدأ برباعية لصالح جاهين الذى حرت فى أمره، وكنت أسمع له كلامًا متضادًا! هل الذى يطرح هذا المعنى بهذه الكلمات الخفيفة:

غمض عينيك وارقص بخفة و دلع
الدنيا هى الشابة وأنت الجدع
تشوف رشاقة خطوتك تعبدك
لكن أنت لو بصيت لرجليك.... تقع
عجبنى!!!

هو نفسه الذى يطرح هذا المعنى بهذه الكلمات الناطقة الموحية شديدة العمق فى هذه الرباعية:

مرغم عليك يا صُبح مغصوب يا ليل
لادخلتها برجلِيًّا ولا كانلى ميل
شايلنِّي شيل دخلت أنا فى الحياة
وبكره ح اخرج منها شايلنِّي شيل
عجبنى!!

وهو نفسه الذى يقول هذه الرباعية السياسية التى كانت محلًّا للتساؤل وقتها:

يا طير يا طائر في السما طز فيك
ما تفتكرش ربنا مصطفىك
برضك بتاكل دود وللطين بتعود
بتمص فيه يا حلو، ويمص فيك.
عجبي!!

وهو نفسه هذا الذى يقول هذا الكلام الرائع:

بالأحضان...
يا حصاد الثورة يا حلم وعلم...
بالأحضان يا جنائين.. يا مدائين..
بالأحضان...
يا الى أنت بترفع راية السلم...
نور عينى وحبائى،
وعزاز قوى على قلبى،
يا الى على الجرار، وقصاد لهاليب الصلب
يا سواعد عربية،
ونفوس حرة أبية،
يحميكم، وتدوم المهمة، ويحيا الشعب!
وبالأحضان!..

لكن يزول العجب عندما نعلم أن صلاح جاهين هو الذى كتب
قصيدة صورة التى غناها عبد الحليم حافظ وقصائده الوطنية الرائعة
بإبداعه المعروف عنه، وهو - ياللعجب - الذى كتب أيضًا «زوزو النوزو
كونوزو»، ولعل هذه الشخصية فيها كل هذا الإبداع وكل هذا الجنوح
فى الإبداع.

نعود إلى «إيناس جوهر» و«محيى محمود» فنجدهما يلقيان على أسماعنا بطريقة رشيقة وخفيفة وجبة من المعلومات السريعة، قد تكون تاريخية أو علمية أو خاصة ببلد ما، مستخدمين الموسيقى كخلفية تشعر أنك تطير معهم، كنت من متابعي هذا البرنامج. والغريب أنه بعد هذا البرنامج كانت إيناس جوهر تقرأ موجز الأنباء، فتجد نبرة الصوت قد اختلفت تمامًا فارتدى ثوب الجدية، وأن اللغة العربية السليمة قد استقامت، وهذه قدرة لا يستطيعها إلا من علم أسرار العمل الإذاعي؛ كيف يطوع صوته للمادة الإذاعية التي يلقيها.

ومن كنت أنتظرهم في إذاعة الشرق الأوسط هذا الصوت المتبتل العجيب، الذى كان يلفك بخشوعه ويتحفك بأدائه وينقل إليك الكلمات وكأنها طريق النجاة، فتغذوك المشاعر من خلال نبرات صوتها الدافئ «مديحة نجيب» في برنامجها «أبواب السماء» وبمقدمته الرائعة بصوت أحد الإذاعيين الكبار والتي كنا نحاكها ونردها:

يا ربي

وهبت لنا نعمة الحياة

تجدد مع مشرق شمسك

وأيقظتنا هذا الصباح على حبك وعبادتك

اللهم فافتح لرجائنا رحابك

ولدعائنا أبواب السماء

وكانت «مديحة نجيب» تتناول في برنامجها موضوعات متعددة عن سيرة الرسول الكريم أو عن المناسبات الإسلامية المتعددة كالإسراء والمعراج أو دخول رمضان في خمس دقائق، تستطيع من خلالها أن تعطى معلومة بصوتها المعبر عما تريد التحدث فيه.

بقيت إذاعة أخيرة كانت نافذتى فى سماع الفن الجميل، وهى إذاعة كانت تسمى إذاعة أم كلثوم، هذه الإذاعة كانت تبدأ مع دقائق الخامسة بعد العصر وتغلق أبوابها فى العاشرة مساءً، وكانت تذيع الدرر الفنية من الأغانى القديمة لجميع المطربين، تفتتح وتنتهى كل يوم بأغنية لأم كلثوم، فكنت أنا وجيلى كله أصدقاء لهذه الإذاعة التى كانت تهذب المشاعر بالفن الجميل. فسمعنا فيها لأول مرة لعبده السروجى أغنيته الشهيرة «غريب الدار»، والتى عندما أسمعها وأنا مهموم كنت أبكى. وللفنان محمد عبد الوهاب استمعنا إلى أغانيه القديمة والحديثة، وخاصة عندما كان يتغنى بقصائده الرائعة التى كتبها أساطين الشعر فى ذلك الوقت كقصيدة الجنود التى كتبها الشاعر العبرى على محمود طه:

أين من عيني هاتيك المجالى، ياعروس البحر، يا حلم الخيال
أين عشاقك سمار الليالى، أين من واديك يامهد الجمال
موكب الغيد وعيد الكرنفال، وسرى الجنود فى عرض القنال
بين كأس يتشهى الكرم خمرة
وحبيب يتمنى الكأس ثغره
التقت عيني به أول مره
فعرفت الحب من أول نظره

أو قصيدته «أخى جاوز الظالمون المدى» التى كانت تلهب حماسنا والتى كان يبدع محمد عبد الوهاب فى أدائها والتى كان مطلعها:

أخى، جاوز الظالمون المدى فحقَّ الجهادُ، وحقَّ الفدا
أتركهُم يغصبونَ العُروبةَ مجد الأبوةِ والسُّودا؟
وليسوا بِغَيْرِ صليلِ السيوفِ يُجيئونَ صوتًا لنا أو صدَى

فَجَرَّدَ حَسَامَكَ مِنْ غَمْدِهِ فليس له، بعدُ، أن يُغمدَا

وفي هذه الإذاعة تعرفنا على صوت أم كلثوم وعشقنا، وكنت ممن يدنون القصائد التي كانت تغنيها، كقصيدة الفارس الأبي الشجاع أبي فراس الحمداني الذي صادفته بعد ذلك في محنة الكثيرة من خلال قراءتي لسيرة حياته وشعره الذي يمتلئ شجاعة وشهامة، وهذه القصيدة التي كانت أم كلثوم تحس كلماتها ثم تلقى بها في نفوس كل من يسمعها فكأنها تريد أن يشارك كل من يسمعها هذا الفارس الشجاع أشواقه:

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتَكَ الصَّبْرُ أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ؟
بلى أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ ولكنّ مثلى لا يذاعُ له سرُّ!
إذا الليلُ أضوانى بسطت يداهوى وأذلتُ دمعاً منْ خلائقه الكبرُ
تَكَادُ تُضِيءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي إذا هي أذْكَنُهَا الصَّبَابَةُ والفكرُ
معللتى بالوصلِ، والموتُ دونهُ، إذا مِتَ ظَمَانًا فلا نَزَلَ القَطْرُ!
حفظتُ وضيعتُ المودةَ بيننا وأحسنَ، منْ بعضِ الوفاءِ لك، العذرُ

وأما قصائدها الإسلامية فكنت أهيّم بها، لدرجة أنني كتبت قصيدة محمد إقبال «حديث الروح» وكنت أرددها كثيراً لما فيها من معان رائعة التي ترجمها عن الأوردية الشاعر الأزهرى الصاوى شعلان، والتي تنتهى بهذا الختام الرائع:

إِذَا الْإِيمَانُ ضَاعَ فَلَا أَمَانَ وَلَا دُنْيَا لِمَنْ لَمْ يُحْيِ دِينَا
وَمَنْ رَضِيَ الْحَيَاةَ بِغَيْرِ دِينٍ فَقَدْ جَعَلَ الْفَنَاءَ هَا قَرِينَا
وَفِي التَّوْحِيدِ لِلْهَمِّ اتِّحَادُ وَلَنْ تَبْنُوا الْعُلَى مُتَفَرِّقِينَ

أَلَمْ يُبْعَثْ لِأُمّتِكُمْ نَبِيٌّ
يُوحِّدُكُمْ عَلَى نَهْجِ الْوِثَامِ
وَمُصَحِّفُكُمْ.. وَقَبْلَتِكُمْ جَمِيعًا
مَنَارٌ لِلْأُخُوَّةِ وَالسَّلَامِ
وَفَوْقَ الْكُلِّ رَحْمَنٌ رَحِيمٌ..
إِلَهُ وَاحِدٌ.. رَبُّ الْأَنَامِ

وهذه القصيدة الخالدة لعمر الخيام، التي يصور فيها من أنفق حياته في اللهو والبعد عن طريق الله ثم جاء تائبًا إلى مولاه، هذه القصيدة «رباعيات الخيام» التي حفظتها عن ظهر قلب في هذه السن الصغيرة التي أبدع في نقلها من الفارسية شعراء وأدباء كثر، منهم أحمد زكى أبو شادى وعبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى وعباس العقاد والشاعر الكبير أحمد رامى الذى غنت له أم كلثوم ترجمته للقصيدة، التى تنتهى بهذا الختام الذى يقف فيه صاحب القصيدة متمسكًا بالتوحيد للخلاص والتوبة:

إِن لَّمْ أَكُنْ أَخْلَصْتُ فِي طَاعَتِكَ
فَإِنِّى أَطْمَعُ فِي رَحْمَتِكَ
وإِنَّمَا يَشْفَعُ لِي أَنِّى
قَدْ عَشْتُ لَا أَشْرُكَ فِي وَحْدَتِكَ
تُخْفَى عَنِ النَّاسِ سَنَى طَلْعَتِكَ
وَكُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ صَنْعَتِكَ
إِن تَفْصَلِ الْقَطْرَةُ مِنْ بَحْرِهَا
فَفِى مَدَاهِ مُنْتَهَى أَمْرِهَا
تَقَارِبْتُ يَا رَبِّ مَا بَيْنَنَا
مَسَافَةٌ الْبَعْدِ عَلَى قَدْرِهَا
يَا عَالَمَ الْأَسْرَارِ عِلْمَ الْيَقِينِ

يا كاشفَ الضر عن البائسين
يا قابل الأعدار، عدنا الى ظلك
فاقبل توبة التائبين

كانت هذه الإذاعة سبيلنا إلى فن جميل بكلمات شاعرية رصينة وبلغّة وأصوات ممتلئة بالمشاعر والحس المحترم، من الفنانين الذين أثروا بفنهم اللغة العربية وأضافوا عليها جمالاً ورونقاً وألقاً، لذا عندما هجم هؤلاء الذين ملأوا أسماعنا ضجيجاً وضيقوا علينا حياتنا بما حملوه من بضاعة لشيء لا يعبر عنا ولا عن قيمنا العربية ومازالوا يرقصون بكلماتهم التي تصف الرموش والعيون والخواصر، والصور التي تتحرك كأنها عفاريت البشر، وترى الأصوات التي تدهسها نغمات الموسيقى الصاخبة، وتعدم مع كل هذا الصخب الفن الأصيل. كانت هذه الإذاعة من أهم ما جعلنا نكشف هذا الزيف الذي يسمونه زوراً فناً.

وهكذا كنت صديقاً لهذا الصندوق الخشبي الصغير، الذي يُخرج كل هذه الدرر الصوتية من أفواه البشر، لكى تمر بأذنى إلى عقلى وقلبى. أسمع جميع الإذاعات، من إذاعة القرآن الكريم الذى يتلى آناء الليل وأطراف النهار، إلى برامجها التى تركت فى نفسى أثرها البالغ المتدفق، إلى إذاعة البرنامج العام وبرامجها التى سمعت فيها أسس الفن الإذاعى فى الحوار والمناقشة، إلى إذاعة الشرق الأوسط ببرامجها الخفيفة التى تحمل المعلومة بطريقتهم ومدرستهم فى الفن الإذاعى، إلى إذاعة صوت العرب برصانتها وأصالتها وبرامجها التى توجّه للعرب جميعاً وبرامجها التى تتميز بتوجهاتها القومية والعربية، إلى إذاعة البرنامج الثانى بمسرحياتها العالمية وبرامجها فى الشعر والموسيقى.

كل هذا أصبح لى ذخراً لما خبأته لى أقدار الله سبحانه وتعالى مما لم يخطر لى يوماً ببال؛ أن أكون واحداً ممن عشت معهم وعاشت أصواتهم سمعتها ووعيتها قبلت منهم ورفضت، تعلمت أن يكون لى رأى فيما يقدمون، لكننى أحببتهم جميعاً وصادقتهم جميعاً من خلال موجات تحمل إلى أرواحهم من خلال الميكروفون الذى يرسل الصوت عبر موجات الهواء، لذا عندما دخلت إلى عالمهم كان لى الاختيار، الذى رأيت أنه يناسب قدراتى وتحمله نفسى ويتوافق مع ثقافتى ووعبى ويتلائم مع تربيتى التى نشأت فيها مرتبطاً بقيم تأصلت داخلى وتجربة أنتجت عقلاً وقلباً بسمات خاصة، أصلها وأساسها دين نشأت على التدين به والتزام شرائعه وعباداته وأخلاقه، مع عقل يبدو أنه مفتوح بفعل الظروف والأحداث التى مرت فى الدروب والطرق والأزقة الضيقة مع البشر فى هذه الحياة المختلفة عن حياة كثير من الناس.

لذا فقد اخترت إذاعة القرآن الكريم لتكون لى بيتاً، ولأرسل منها صوتى إلى العالم، أنقل له قيم هذا الدين العظيم بإعلام يحترم عقل المستمع ولكى أكون خادماً لهذه المقررات الإسلامية التى تحتاج لمن يرسلها بصورة صحيحة وعصرية إلى العالم، دون إفراط فى التشبث بزمان معين قد لا تصلح أحكامه لزمان نعيش فيه أو الوقوف عند النص الحرفى دون المضمون والهدف والمرمى من النص، أو تفريط فى الأسس التى نستقى منها هذا الدين بحيث يصبح النص وكأنه معدوم وتحل أهواء الناس فى تفسيره وتصيح الفلسفات الوضعية بديلاً عن الدين. وهكذا كان قرارى الذى اتخذته أن أكون صوتاً من أصوات إذاعة القرآن الكريم، يقف وراءه أمل فى أن يعانق آذان مستمعيه فى مصر والعالم، لكن

هل تستجيب عقول البشر لمثل أن يعيش كما يعيش غيره؟ وهل تتاح له فرصة إثبات الذات؟ وهل تفتح له الإذاعة أبوابها بسهولة؟ أم أنه نقش جديد في حجر جديد من أحجار الحياة.

أقدار الله وأمانى البشر

قبل أن أبدأ فى حكاية المعركة الكبيرة لإثبات الذات، وهى معركة دخولى الإذاعة وخروج صوتى واستمراره، والمعاناة التى أرهقتنى بضع سنوات حتى حصلت على ما كنت أطلب به من حقى كإنسان، لابد أن أتوقف عند قضية القدر وكيف أن الأقدار من الله ماضية وسالكة إلى حيث يريد سبحانه، وفى نفس الوقت - وهكذا أرى - تجد عند صاحب القدر العزيمة والإيمان والإخلاص والتعلق بالأسباب حتى يحقق قدر الله فيه. ودون دخول فى التفاصيل التى يصعب الانتهاء فيها إلى رأى: هل الإنسان مُسير أم مُخير، الذى أعرفه أنك يجب عليك أن تطالب بإنسانيتك وبحقوقك فى هذه الإنسانية وبحقك فى الحياة، بحقك فى العمل، بحقك فى أخذ دورك. ستجد العصابات البشرية تريد أن تحول بينك وبين هذا الحق، وهذا طبيعى فى الحياة، هذه سنة الدفع فادفع كما يدفعون ولن تعدم نوراً على الطريق، وقم مرة بعد مرة وحاول حتى تحقق قدر الله الذى أَراده لك وفيك.

وما استوقفتنى أن قدر الله فى بعض الحالات يكون خرقاً للأسباب، فمهن كثيرة يبدو لمن يعرفها أنها مستحيلة على بعض الناس أو هكذا يظن الناس لأول وهلة، وإذا بمن يُظنُّ أنها مستحيلة عليهم يتفوقون فيها، بل ويصبحون فيها علامات. ولأن المجتمعات المتحضرة تتيح

للجميع نفس الفرص، تجد أن فاقد السبب المعروف للنجاح في شيء ما تجده يصنع بديلاً ويهياه ويرسم طريقة عمله، فيصبح ملء السمع والبصر وتجده يحظى بالاحترام والتبجيل الواجب، ليس كذلك فحسب وإنما يتقلد ما يستحقه من مناصب ومسؤوليات هو قادر على القيام بها.. وضربنا مثلاً بدافيد بلانكيد الوزير البريطاني للداخلية والترية الكفيف وغيره كثير، لذلك على الإنسان أن يبحث عن قدر الله فيه وأن يجاهد في سبيل تحقيقه. لا بد له من الحلم ولا بد له في نفس الوقت من قراءة الواقع وقراءة تفاصيله ومحاولة تذليل كل الصعاب، حتى ينجح وحتى يثبت لنفسه أنه قادر، وأن يحارب في سبيل ما هو مؤمن به من أن القدر هو ما يستطيع تحقيقه وما يقدر أن يسبر غوره وأن يعرف مدى أعماقه، ولا ينظر إلى أصحاب الهمم الهامدة المستكنة ولا أصحاب النفوذ الذين يقعدونه عن بلوغ مرامه وهدفه، لأنه لو استسلم يكون مشاركاً لهم فيما يعتقدون من وهم السلطة المؤقتة..

هذا ما فهمته في هذه الفترة الصعبة التي مررت بها، لم يدر بخلدى أبداً أنني لست قادراً على أن أكون مديعاً ناجحاً، ذلك لأنني درست الموضوع جيداً وهذا ما سأحكيه في الفصل القادم. فإذا كان الصوت الذى لا عيب فيه متوافراً، وكذلك اللغة التى ترفع ما يقوله الصوت من مفاهيم والعلم الذى يساعد على القيام بالمهمة خير قيام والعقل الذى أعان صاحبه أن يكون متفوقاً في كل منتهى ينتهى إليه في دراسته الجامعية وما قبل الجامعية، إذا توافر ذلك توافر ما هو مطلوب لمهنة المذيع. بقى شيء واحد غير موجود وهو ليس فاعلاً في هذه المهنة، وهما الذراعان، ويمكن أن يستعاض عنهما بما يؤدي وظيفتهما وخصوصاً أن بهما وجوداً

يسمح بالقيام بالمهمة. إذًا لماذا يقف هذا خائراً ولا يتحرك، لقد كانت هذه انطلاقتي الجريئة لمصافحة يد القدر الحانية، التي ربت على كتف إنسان يؤمن بجدوى الالتجاء إليها فيما يوقن أنه حقه في الحياة أن يكون مديعاً، ليس فقط للتسجيل قبل الإذاعة ولكن مديعاً للهواء مباشرة ليحقق ما أراد له القدر وما آمن به لنفسه.

الفصل الثانى

باب الإذاعة

باب 4

بعد أن كتب الأستاذ عبد الوهاب مطاوع على ظهر الكارت الخاص به العبارة التى يوصى فيها رئيس الإذاعة بأن «من يحمل هذا الكارت يهمنى أمره» قمت من على الكرسي الذى أجلس فيه عن يمينه واقتربت منه وأخذت الكارت ووضعت في الجيب القريب من إصبعي يدي الشمال، وكدت أطير من الفرح حتى إنني أردت أن أخرج لأعبر عن هذا الفرح بأية وسيلة. وهنا أذكر أن الأستاذ عبد الوهاب مطاوع قال لي عبارة لعلها كانت من تجربة له في الحياة جعلته يعرف كيف يفكر الناس، وخاصة الذين يجلسون على المقاعد الوثيرة ويملكون منصة الأمر والنهي قال: «لا تظن الأمر سهلاً، لكن أنا واثق أنك قادر على النجاح».

خرجت من باب مؤسسة الأهرام في شارع الجلاء وأنا أسرع خطواتي قليلاً وأحبس أنفاسي، وكأني في حلم، فمعي في جيبي كارت أدخل به إلى رئيس الإذاعة، وأتذكر ماقاله لي الدكتور حسين فتحى من صداقة

الأستاذ عبد الوهاب برئيس الإذاعة، وظللت طوال الطريق الذى سلكته مشياً على قدمي إلى موقف أحمد حلمى خلف محطة السكة الحديد أحلم بلقائى مع رئيس الإذاعة. وتمنيت وقتها أن يكون لى جناحان كى أطيّر بهما لكى أبشر والذى بها حدث فى هذه المقابلة، وهو الذى كان ينتظر رجوعى وقد أكله الصبر، وركبت السيارة وجرت عجلاتها إلى منزلقان قريتنا الصغيرة، فنزلت ومازال الفرح يملؤنى وتركت رجلاى للأرض تطويها طياً حتى وصلت إلى البيت، فاستقبلنى هذا القلب الكبير، فلما أخبرته أخذ كعادته معى يسأل عن كل صغيرة وكبيرة ويعيد السؤال، فطمأنته بل وزدته أننى وجدت الرجل الذى أقرأ له فى بريد الأهرام هو نفس هذه الشخصية الهادئة الوقور التى تنعم بعقلها الوافر وقلبها الكبير الذى استقبلنى فيه وأعد لى فيه مكاناً استشعرته من خلال حواراه معى.

وبدأ الوالد يعد ماذا ألبس غداً، وكيف يكون الهندام مرتباً وجميلاً، وكيف تكون معتزاً بنفسك وتقول لرئيس الإذاعة كل شىء عن حياتك، وظللنا سوياً ندبج الكلمات التى سأقولها غداً ومعى جواز المرور وهو الكارت الذى أعطانيه الأستاذ عبد الوهاب مطاوع.. وبت هذه الليلة وأنا أفكر ماذا يحدث غداً وما شكل الإذاعة من الداخل، هذا المبنى الذى ننظر له من الخارج فقط، هذا الذى نسمع منه جميع الإذاعات، ومنه يُرسل مانراه على شاشة التلفزيون حتى غلبنى النوم. واستيقظت على صلاة الفجر، وبعد أن صلينا وجدت أبى وقد انتحى جانباً فى المسجد يصلى فيه وقد رفع يديه فى مستوى منكبيه وأمال رأسه للأمام قليلاً وظل يدعو، فاستبشرت خيراً بهذه الصورة المتبتلة التى اعتدت أن أرى عليها أبى وهو يدعو الله لى بالتوفيق. وخرجنا، وذهبت إلى صومعتى

على سطح بيتنا الريفى المطل على المسجد، وفتحت المصحف وأذكر أننى قرأت سورة ياسين وبعض السور.

وتمم أبى على شكلى وهندامى قبل أن أخرج فى مهمتى، فقد كان دائماً ما يؤكد على أن يكون ما ألبسه منظماً حتى لا يكون مدعاة لعطف أحد أو مثاراً للمسكنة وممصصة الشفاء، وماتعلمته فى صغرى أن هذه من الكبائر التى لا تغتفر عند أبى حفاظاً على ما زرعه فى نفسى منذ وعيت. فلما استوثق من أن «أبو الریض» - كما كان دوماً ينادينى - على ما يرام، قال: «توكل على الله»، فركبت حتى وصلت أول شارع الجلاء وأخذت أمشى بهدوء حتى نهايته، فوجدت بناية كبيرة فسألت فقیل لى هذا فندق هيلتون رمسيس، فسلكت هذا الشارع حتى نهايته.

وصلت إلى باب 4، ذلك الباب الرئيسى الذى كان مشهوراً جداً بهذا الاسم فى هذا الوقت، ووجدت على يمين الداخل من هذا الباب صالة كبيرة امتلأت عن آخرها بالناس، وأغلبهم يحمل أوراقاً وعلى وجوههم ترتسم الحاجات التى جاءوا لعرضها، فوجوههم تشى بتواضع الحال، على أن قلة منهم كانوا ضيوفاً على الشاشة أو أمام الميكروفون، يظهر ذلك من شياكة الزى وربطات العنق الأنيقة. أما على يسار الداخل من الباب فما زلت أذكر هذه الكراسى ذات الأرجل الطويلة التى يجلس عليها موظفو الأمن، وكانوا أربعة ينظرون فى تصاريح الدخول للعاملين فى المبنى وينادون على الزوار الذين جاءهم تصريح الدخول الخاص بهم. عندما رأيت هذا المنظر أخذنى بعض الخوف ألا أستطيع الدخول مع هذا العدد الكبير من الناس وهذا الصف الذى ينتظر دوره أمام الكراسى ذات الأرجل الطويلة، ولكن أخذت مكانى فى الصف

ومرت على الدقائق ثقيلة، حتى صرت وجهًا لوجه مع موظف الأمن الذى مال بظهره حتى التقط من إصبعى الكارت وقال لى: مكتب رئيس الإذاعة، فقلت: نعم، فنظر إلى نظرة لا تخلو من كرم وود ثم قال لى تفضل المكتب فى الدور الخامس بعد أن تصعد على السلم شمالاً، وكانت هذه أول خطوة تخطوها رجلاى إلى ساحة الإذاعة التى سأعطيها زهرة عمرى ونتاج فكرى وجهد نفسى وعطاء روحى، كانت هذه هى الخطوة الأولى التى وجدتني فيها فى هذا البهو الواسع الذى يحتوى الداخل إلى هذا المبنى العريق.

صعدت شمالاً حتى رأيت فى الدور الثانى منطقة الاستديوهات، وفى الدور الثالث على اليمين ووقعت عيناي على لوحة على أول طريقة طويلة مكتوب عليها «إذاعة صوت العرب» فتذكرت أمينة صبرى ونبجوى أبو النجا وأمين بسيونى، ثم صعدت عدة سلالم فى الطابق الرابع فرأيت لوحة مكتوب عليها «الشبكة الرئيسية» وهى إذاعة البرنامج العام فتذكرت أبله فضيلة وعمر بطيشة ونادية صالح.

ثم وصلت إلى الدور الخامس حيث مكتب رئيس الإذاعة، فدخلت المكتب، فوجدت ثلاثة مكاتب، فواحد يرد على تليفونات، والثانى يكتب على الآلة الكاتبة، أما المكتب الثالث فيقف أمامه رجل يبدو من شكله ومن طريقة كلامه أنه صعيدى، وجهه بلون الأرض السمراء يبدو عليه علامات الطيبة مما يخرج من فمه من عبارات المجاملة اللطيفة فى التليفون الذى كان يمسك به، وكان فى الغرفة عدد قليل من الناس لعل لهم مالى من حاجة عند رئيس الإذاعة، فتجاسرت بعدما وضع الرجل سماعة التليفون واتجهت إليه مباشرة رافعاً رأسى واضعاً الكارت فى

إصبعى يدي الشمال، فلما رآنى متجهاً إليه رمى إلى بعينه فاتحاً وجهه ببسمة خفيفة، فأعطيته الكارت وقلت هذا الكارت من الأستاذ عبد الوهاب مطاوع، فقرأه ثم قال لى: اتفضل يا بنى اجلس قليلاً. ثم دخل إلى مكتب رئيس الإذاعة ثم خرج وماهى إلا لحظات قليلة حتى نادانى وفتح لى الباب.

وجدت نفسى فى غرفة رئيس الإذاعة، غرفة واسعة ستائر نوافذها عريضة ومنقوشة، وعلى شمال الداخل مائدة طويلة يبدو أنها للاجتماعات، وفى مواجهة الداخل إليها مكتب فخم يجلس عليه رئيس قطاع الإذاعة، فخطوت خطوات وأنا متهيب للموقف قليلاً، حتى وقعت عينى على هذا الرائد الإذاعى الكبير «الأستاذ فهمى عمر» الذى كنا نستمتع به فى التعليق على مباريات الكرة ثم هو تاريخ طويل فى الإذاعة المصرية منذ بواكير إنشائها، فهو الذى كان مذيع الهواء وقت أن جاء السادات يذيع بيان ثورة يوليو، وتاريخه فى الإذاعة مسطر فى برامجهِ وإسهاماته العظيمة فى هذا المجال. كان واقفاً عندما دخلت لأنه كان يكلم واحداً من ضيوفه الذين يجلسون معه فى الغرفة، ووجدت الكارت فى يده يقرؤه بعد ما قطع الكلام مع ضيفه، ثم نظر إلىّ وحملت عيناه علامات الاستفهام، مما جعلنى أبادره أن الأستاذ عبد الوهاب مطاوع أرسلنى إلى حضرتك بهذا الكارت، فنظر إلى ثانية وكأنه يتساءل وماذا سيعمل هذا، فبادرته بالإجابة التى يمكن أن تكون إجابة عن سؤاله الذى يتردد فى أنحاء نفسه وقلت: حضرتك أنا خريج كلية الحقوق وأتقن اللغة العربية وحافظ لمعظم القرآن، فرفع عينيه عجباً ثم قال لى عبارة أصابتنى ببعض الخوف، لعلها تكون فى النفس دون أن تُعلن، لكنه أعلنها فى وجهى صراحة وقال: وأنت هاتشغل إيه؟

فرددت بعفوية: مذيع.

فارتسمت على وجه الرجل صورة من العجب نطقت بها عيناه وقال:
مذيع إزاي.

ولم يعط لي فرصة لرد آخر، ولكنه كتب لي ورقة وقال: انزل إلى «الأستاذ عطية السيد» في الدور الثالث، واتجهت نحوه فناولني الورقة التي كتبها بيده. ولم أدر من هو عطية السيد؟ وهل وافق أم لم يوافق؟ وهل نجحت المقابلة أم لا؟ كل هذا دار في نفسي في نفس اللحظة. وبدأ الأستاذ فهمي عمر يرجع إلى ضيوفه الذين قطعت حديثه معهم، فلم أستطع أن أسأل، فأدرت وجهي والفضول يقتلني للسؤال عن الشخص الذي أرسلني إليه إلى أن خرجت، فاستقبلني مدير مكتبه صاحب الوجه الأسمر ذو السمات الطيب، استقبل وجهي بابتسامة عريضة وأمسك الورقة وبمجرد وقوع عينه عليها قال: انزل الدور الثالث للأستاذ عطية في إدارة التدريب، فأدركت أن هناك شيئاً ما سيحدث ما دام أنها إدارة للتدريب.

نزلت وأنا أدعو ألا يخذلني الله وأن يوفقني، وما هي إلا سلاسل قليلة حتى كنت أمام لوحة «إذاعة صوت العرب» في الدور الثالث، حيث كانت إدارة التدريب في مكاتب إذاعة صوت العرب، فدخلت وسألت على الأستاذ عطية ومكتب إدارة التدريب فدلُّوني، فذهبت لأطرق على باب الرجل وأطرق في نفس اللحظة على أبواب غد سيصبح فيه صوتي محموداً على موجات الهواء، لكن بعد أن تهيأ قلوب البشر وعقولهم، وبعد أن أنال حظي من العذاب المقرر في كل شأن من شئوني أكون فيه محل اختيار، وكأنه كتب على ألا أحصل على حقي إلا بهذا القدر من العذاب والعنت.

أخصائى متابعة برامج وعجلات المترو!!!

رجل وجهه يبعث لمن يراه شعورًا بالهدوء، بسمته الخفيفة التى لاتفارق وجهه علامة عليه، صوته الذى ينطق به الكلمات هامس خفيض، عندما يتكلم ينز أدبًا ويهطل منه مطر المودة وغيث المروءة، هذا هو الأستاذ عطية السيد مدير عام التدريب، ثانى شخصية أقابلها بعد رئيس الإذاعة، والأوصاف التى بدأت بها هذه الفقرة هى ما عاينته فى هذا اللقاء مع هذا الرجل. فعندما دخلت عليه ومعى الورقة التى أرسلنى بها الأستاذ فهمى عمر رئيس الإذاعة قرأها ثم رحب بى بترحيب فيه ود ظاهر وكأنه يعرفنى، ثم سألنى عن المؤهل فقلت له ليسانس حقوق، ثم سألته - لأننى للآن لا أعرف ماهو الموضوع - مستفسرًا بسؤال يبدو أن فيه شيئًا من التجرؤ: هل أنا سوف أعين مذيعة؟ فانقلبت البسمة الخفيفة على وجه الرجل إلى قهقهة مسموعة وقال لى: أنت مستعجل قوى، فضحكت ثم سألته: هل سيتم تدريبي؟ لأننى أرسلت إلى إدارة التدريب.

شرح الأستاذ عطية الأمر وقال: إن التدريب يتم لمدة ثلاثة أشهر كاملة ثم يجرى امتحان للجميع حتى يتم التصنيف لكل واحد من المتدربين بين مذيع أو مقدم برامج أو معد برامج أو محرر، ثم نظر إلى وقال فى هيئة سؤال «حال اللغة العربية»؟ فقلت: تمام، فأمسك بجريدة الأخبار وكان فيها خبر عن زيارة السلطان قابوس لمصر وقال اقرأ هذا الخبر، فقرأته فقال: أداء جميل ولغة سليمة. ثم أمرنى بأن أذهب إلى سكرتارية التدريب حتى يقوموا بعمل تصريح دخول لمدة أسبوع حتى يتم عمل كارنيه الدخول الخاص بى، وأنا أكاد لا أصدق نفسى، وغادرت الرجل الذى استقبلنى بكامل الإنسانية وموفور الأدب، هذا

الرجل الذى سنشهد له فى محطات الحياة القادمة مكانًا مهملًا، حينما أكون مذيعةً فى إذاعة القرآن الكريم وهو رئيسها، ومواقف تؤكد تمامًا ما يحمله قلبه من خير وعقله من فكر.

خرجت من الغرفة إلى غرفة السكرتارية المقابلة، وكان بها أطيّب من عرفت من البشر؛ «الأستاذ حسن عطية» الذى قام قبل أن أتكلم وسألنى ماذا أريد، فقلت إن الأستاذ عطية السيد طلب أن يُعمل لى تصريح، ففوجئت به يهتنى فتعجبت، فأحس بما اعترانى من عجب، فأكد لى ما قاله الأستاذ عطية من إن الجميع فى آخر التدريب يعينون لكن الفرق يكون فى الاختيار بين مقدم برامج أو مذيع، وهكذا طمأن قلبى، وطلب منى البطاقة الشخصية وأمر بتتاً شديدة الطيبة والأدب تساعده أن تقوم بعمل التصريح من الأمن. وجلست بجانب هذه الشخصية الجميلة التى يعرفها كل المذيعين لأنهم مروا على إدارة التدريب، وأخذ الرجل يزودنى بالمعلومات عن التدريب، وأنه سيكون فى استديوهات الإذاعة فى الدور الثانى، والذى يقوم بالتدريب هو الأستاذ عطية السيد مدير إدارة التدريب.

وأثناء كلامى مع الأستاذ حسن عطية دخل رجل قصير القامة يلبس جاكيت يميل إلى اللون الأخضر وحول عنقه كوفية من الصوف وألقى السلام، فعرفته، إنه الإذاعى العملاق الأستاذ صبرى سلامة وكان قد خرج على المعاش، فسلم وذهب، لكن جلست معه فى هذه الغرفة بعد ذلك مرات قليلة، وكنت متهافتاً فى سؤاله عن تاريخه فى الإذاعة وعن مواصفات المذيع الناجح، وكانت فرصة أن ألتقى مع صاحب الصوت المتفرد ذى النبذة المميزة فى تاريخ الإذاعة المصرية والذى حكى لى عن

شعوره عند إلقاء بيان انتصار مصر على إسرائيل في حرب أكتوبر.. وجاءت السكرتيرة بالتصريح الذى أدخل به الإذاعة لمدة أسبوع لتبدأ المرحلة الأولى من رحلة العذاب فى سبيل الوقوف أمام الميكروفون...

ورجعت إلى البيت، فتحول البيت إلى فرح بعدما حكيت كيف سيكون التدريب لمدة معينة ثم نصنف بعد ذلك. وكعادتى، جهزت نفسى جيداً، فأتييت بكتاب للنحو كانوا سلموه لنا فى أول المرحلة الثانوية باسم القواعد الأساسية فى النحو والصرف، وقرأته جيداً بالإضافة لما عندى أساساً من خلفية واسعة، كما أعدت قراءة كتاب «شذور الذهب فى النحو» لابن هشام، وأجريت عملية تنشيط لمكانى اللغة العربية التى كنت ومازلت أعشقها.

ذهبت إلى التدريب الذى كان فى أستوديو 22 أو 24 فى الدور الثانى، وكان عبارة عن نشرة أخبار قديمة نقرأها، ثم يقوم الأستاذ عطية السيد بالتصحيح، وكان معى من الزملاء الذين أصبحوا نجومًا فى جميع الإذاعات بعد ذلك «علا ناصف ومحمد ناصر» من البرنامج العام، ومن الشباب والرياضة «صلاح بدران وكمال جابر» وغيرهم كثير. وكان العدد فى نهاية الدورة حوالى خمسة وثلاثين شابًا وفتاة. وكان الأستاذ عطية شحيحًا فى إبداء رأى، ومع ذلك فقد شكر فى أداى وأثنى على الالتزام بقواعد اللغة، فأبدت رغبتي أننى أريد أن أذهب إلى إذاعة القرآن الكريم، فقال لى على سبيل المجاملة أنت تذهب للمكان الذى تريده، لكنه أكد هذه الإجابة عندما قال: مستوى اللغة عندك يخدمك فى هذا..

وبعد فترة التدريب التى امتدت حوالى ثمانين يومًا، تقرر إجراء

الامتحان. وفي هذه الفترة كنت شديد الثقة بنفسى، ولم أدر أن الصورة عند السادة الممتحنين مختلفة تمامًا وأن الشكل الخارجى سوف يهتك أستار هذه الثقة، بل سيرمى بها فى بحور من رجعية إنسانية تعامل البشر على أساس الشكل وليس للقلب ولا للعقل سبيل إليهم. كان الامتحان فى الدور السابع فى أستوديو 45 الكبير، وبدأ كل واحد منا يدخل وأمامه الميكروفون، وعلى منضدة صغيرة توجد مجموعة من النشرات تمسك بإحداها لتراجعها ثم يعطونك الإشارة فتبدأ فى قراءتها، ثم يُطلب منك أن تقرأ بعض آيات من القرآن، ثم تقرأ خبرًا من الإيجيشان جازيت، ثم تقرأ بيتين من الشعر، ثم تذهب لهم فى غرفة البث حيث يجلسون.

وجاء علىّ الدور، فلم أدر ماذا حدث لأننى لأراهم جيدًا، فطلب منى أن أقرأ فقرأت خبرين ثم قرأت القرآن دون ترتيل قراءة إذاعية وقرأت خبرًا بالإنجليزية وبيتين من الشعر مما كنت أكتبه فى هذا الوقت ولم يُطلب منى أن أذهب إليهم لمتابعة الأسئلة، وكان ذلك لافتًا جدًا للنظر، لماذا أنا بالذات؟ اكتفوا بقراءة الأستوديو ولم يتابعوا باقى الأسئلة! وهى مرحلة مهمة فى تقدير الدرجات حيث يُسأل فى النحو ويُسأل فى المعلومات العامة ويُسأل فى أشياء أخرى. فقلت عليهم يريدون أن يميزونى عن زملائى، ولم أكن أعرف ولا خطر ببالى أنهم أرادوا أن يقضوا على الحلم داخلى، وأرادوا كذلك أن يبخسونى حقًا لى باعتراف من قام بتدريتنا لمدة ثمانين يومًا.

وبعد أيام كنت أنا وأبى - رحمه الله - نحاول أن نلتمس المبررات للممتحنين الذين اكتفوا بالقراءة فقط، وخاصمنا النوم فى هذه الفترة إذ لم نكن مطمئنين. ثم جاء أحد أصعب أيام حياتى، ذلك اليوم الذى حدثت

فيه حادثة كادت تقبرنى فى مقابر قريتى الصغيرة، وكأنها كانت تمهد لما أنا مقدم عليه من صدمة. وقعت هذه الحادثة عندما ركبت فى هذا اليوم مترو مصر الجديدة من ميدان رمسيس. إلى نهايته أمام هيلتون رمسيس وفى اللحظة التى يُفتح فيها الباب قبل أن يقف المترو زلت يدى وكتفى الذى كنت أستند به إلى القائم المجاور، فإذا بى أجد رأسى وكتفى على الأرض، ولولا لطف من الله لكان جسمى تحت عجلات المترو إذ كان بينه وبين العجلات بعض السنتيمترات القليلة ورحت فى إغماءة من أثر ارتطام جسدى بالأرض، وأفقت على صوت من أنقذونى، وظللت أمشى إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون وكأنى تائه حتى وصلت إلى الباب. وانتبهت أن هذا اليوم هو يوم إعلان النتيجة التى كانت بشائرها غير مطمئنة.

صعدت إلى الدور الثالث حيث الأستاذ حسن عطية الذى أخبرنى وهو حزين جداً بأننى قد صنفت أخصائى متابعة برامج، فأحسست بروحى تنسل منى وبالأرض تلف بى، فجلست بجانب الرجل فهدأ من روعى وأخذ يقول لى كلمات فيها أمل، لكنه عجب من النتيجة لأنه كان من المعلوم أن ثلاثة سيذهبون حيث يريدون، منهم اثنان ذهباً مزيعين فى البرنامج العام، ورضا كان ممن يستحقون وكان موعوداً بإذاعة القرآن الكريم، ثم أشار علىَّ الرجل بالذهاب إلى الأستاذ عطية وهو الآن فى أستوديو 24 مع مجموعة تدريب. فذهبت وقد دل وجهى على ما فى نفسى من هم، وبمجرد أن فتحت باب الأستوديو حتى نظر إلىَّ بعض المتدربين نظرة تشير إلى مكانه، وسألت الأستاذ عطية عن النتيجة وهو الذى قال لى من قبل أنك ستذهب إلى المكان الذى تريده، فرد أحد المتدربين بأن الأستاذ عطية قد شهد فيك بما يعرفه عنك وأنه قد قص علينا حكايتك

قبل أن تدخل، وطلب منى الأستاذ عطية أن أذهب إلى مكتب رئيس الإذاعة وأقابله.

وكان هذا اليوم هو آخر يوم في حياة الأستاذ فهمى عمر الوظيفية، وكان وقتها يسلم المسؤولية للأستاذ أمين بسيونى كرئيس الإذاعة، طلبت الدخول على الأستاذ فهمى عمر وقلت له: أنا ظلمت والأستاذ عطية الذى قام بتدريتنا يعرف مستواى جيداً، وبعدين لما إنسان عادى يظن أن الإعاقة نهاية الدنيا فهذا نعذره لكن حرام أن تسجن أصحاب العقول الكبيرة نفسها داخل سجن اسمه الإعاقة، لماذا لا أعامل كزملائى وأنا أستطيع أن أفعل كل شىء، فتبرم الأستاذ فهمى عمر من كلامى وتغير وجهه غضباً، فأخذنى الأستاذ أمين بسيونى إلى الباب وربت على كتفى وخرجت، وذهبت مرة ثانية إلى الأستاذ عطية فى مكتبه الذى كان متعاطفاً جداً معى والذى سبق أن قال ما يرضى ضميره لكنه لم يستطع التأثير على لجنة الامتحان وعلى رئيس الإذاعة، فلما دخلت عليه الباب واسانى وقال لى هناك فرص أخرى. ومن تصاريف القدر أن الرائد الإذاعى الكبير الأستاذ فهمى عمر شاهد بعد عدة سنوات براجمًا تليفزيونًا استضافنى بعد أن أصبحت مذيعة فى إذاعة القرآن، ثم تصادف أن رأتى فى طرقات الدور الثانى فنادى علىّ وقال لى لقد أعجبت بك فى البرنامج التليفزيونى، فلم أشأ أن أذكره بما حدث من قبل.

أرسل لى الأستاذ عطية وذهبت إليه فى مكتبه فوجدت معه رجلاً ذا شعر أبيض وسمين الجسم ووجهه الأبيض المشرب بحمرة يشعرك أنه من دول الغرب، كان هو «الأستاذ عبد المجيد شكرى» الذى عرف قصتى من الأستاذ عطية السيد وعرض علىّ العمل فى إذاعة وسط الدلتا

ووعدنى أنه سيتيح لى تقديم البرامج حتى تثبت لهم أنك تستطيع أن تنجح، ثم تطلب نفلك بعد ذلك، ووجدتها فرصة لكن لم أستسلم بسهولة، وحاولت لكنى وجدت كل الأبواب موصدة والقلوب مقفلة والعقول فى سباتها العميق والرحمة تنادى هل من مغيث يغيث هذا الذى يقتلون حلمه الوليد.. ولا أنسى فى هذه الأوقات موقفاً لأبى - رحمه الله - عندما قال لى إننى سأطلب لقاء رئيس الإذاعة وسأقنعه بأنك صاحب حق وأن من دربك هو من قال هذا، فكيف لا يعطيك حقك، وكنت أراقبه كى لا يفعل خوفاً عليه من كلمة يسمعها لاتليق، وأنا أربأ به أن يناله أى أذى نفسى مما قد يقدم عليه، وظللت أقنعه بخطئى أننى سأذهب إلى إذاعة وسط الدلتا لفترة من الوقت وعينى على القاهرة. وكانت إذاعة وسط الدلتا هى الموئل لعامين تالين ظللت فيهما كمن يكمن فى الأحراش لكى لاتضيع منه فرصة العودة للديار التى يهواها ويهيم حباً فى هواها.

إذاعة وسط الدلتا

هذه الإذاعة ضمن الإذاعات الإقليمية التى أنشأت من أجل تنمية المجتمعات، وقد أنشئت إذاعة وسط الدلتا عام 1982 فى مدينة طنطا لتخدم خمس محافظات حولها؛ وهى الغربية والشرقية والمنوفية والدقهلية وكفر الشيخ ودمياط، وكانت عبارة عن أستوديو واحد للتسجيلات وأستوديو للبث على الهواء. والدور الثانى من الإذاعة به غرفتان؛ غرفة للموظفين الذين تضيق بهم والغرفة الأخرى للمذيعين ومقدمى البرامج. وكان ذلك أسلوب صفوت الشريف؛ أن ينشئ إذاعات تُضم إلى أسطول إعلامه الذى كانت وظيفته الأساسية تلميع النظام السياسى

وبيان الإنجازات العظيمة التي منها إذاعة للبث على الهواء بلا أدنى إمكانيات، وإن كانت هذه الإنجازات بأعدادها الوهمية ترفع أسهم السيد الوزير السياسية فلا عزاء للإعلام الذى يحترم نفسه ولا للكلمة التى ينبغى أن نحافظ على قداستها. فماذا يفعل أستوديو واحد لأكثر من حوالى عشرين مذيعةً ومقدمًا للبرامج فى مبنى لا يجد فيه المعد أو المذيع مقعدًا ليكتب عليه برامجهم، وعليه أن يعتمد على نفسه فى كل شىء.

ومع كل هذا، فمنذ أطلق الزميل المبدع والصوت المثقف والشاعر «الأستاذ زينهم البدوى» أول شعار لإذاعة وسط الدلتا وهى تؤدى دورها فى خدمة المجتمع الذى وجدت به. ذهبت إلى تلك الإذاعة فى سنة 1988 بعد ما أُحيل بينى وبين تحقيق حلمى، وظننت أننى سأكون هناك مطروداً، ولكن وجدت إذاعة تحتوينى وتعطينى الفرصة مع مجموعة من المذيعين ومقدمى البرامج المبدعين الذين أرسلوا رسالات إعلامية محترمة لأهالى البلاد التى كانت تخدمها هذه الإذاعة، هؤلاء الذين أصبحوا بعد عدة سنوات نجوماً فى إذاعات القاهرة.

فمن إذاعة وسط الدلتا خرج المبدع الشاعر «صلاح جمال الدين» ليضئ بصوته وبلغته الفصيحة أجواء النفس الإنسانية فى إذاعة القرآن الكريم، و«محمد عويضة» ذلك الصوت الهادئ الرصين العميق الذى أصبح أحد أهم الإذاعيين فى إذاعة القرآن الكريم، وأصبح فيما بعد رئيساً لشبكتها، و«محمد فؤاد» هذا المثقف صاحب البرامج الهادفة الذى أصبح من مذيعى القرآن الكريم.. كل هؤلاء كانوا نجوماً أضاءت سماء إذاعة وسط الدلتا وبقي فيها مجموعة رائعة من المذيعين؛ الأستاذ «السيد كامل» الذى كان يقدم برامج دينية غاية فى المهنية حيث يستضيف ضيوفه بعناية وكان شديد الإخلاص فى عمله، والأستاذ «عبد الفتاح غنيم» هذا

الإذاعي الكبير الذى كان يقدم برامج المنوعات على طريقة إذاعة الشرق الأوسط مع الإذاعية «هنا أبو العلا» التى انتقلت بعد ذلك إلى إذاعة الشباب والرياضة وأصبحت إحدى نجومها. وكان هناك صوت يصلح لأن يعمل فى أية إذاعة كبيرة بل أجنبية، هو صوت الأستاذ «ضياء الدين عبد اللطيف» الذى كان صوته هادئاً لكنه قوى ومعبر ولغته سليمة تماماً، وكان يقدم جميع أنواع البرامج ببراعة، وكان مديعاً للهواء وللإذاعات الخارجية لا يبارى سواء الدينية كصلاة الجمعة أو السياسية التى كانت تُنقل للمحافظين أو الحفلات التى كانت تنقلها الإذاعة فى ذلك الوقت.

أما البرامج التى كانت تتناول حياة الفلاحين والمزارعين والقضايا التى تهمهم فالاهتمام بها لم يكن على المستوى المطلوب ولم تكن تُسند إلا لمقدمى البرامج الأقل كفاءة، بالرغم من أن عمل هذه الإذاعات الأساسى هو عرض مشكلات هذه المجتمعات الزراعية والحرفية، وهذه هى الفلسفة التى أنشئت من أجلها.

وعندما بدأت عملي فى إذاعة وسط الدلتا كنت أتحسس الخطى، فالكل ينظرون إلى نظرة فيها شيء من التعجب والتساؤل، ولكن فى أحد الاجتماعات عرفهم الأستاذ عبد المجيد شكرى بى وأنى سأعمل مقدماً للبرامج وأثنى على بما عرفه من الأستاذ عطية السيد، فأزال بذلك جفوة اللقاء الأول بينى وبين زملائى الذين ائتلفت معهم بسرعة شديدة.

وكانت أول مرة فى حياتى الإذاعية أمسك بميكروفون وأحمل جهاز كاسيت بعد استلامى العمل ببضعة أيام، وكانت الإذاعة تتيح لمن لم يُصنّف أن يعمل مديعاً أو مقدم برامج لأن أحداً. لا يحاسب أحداً ولأنها بعيدة عن مبنى ماسبيرو فقد كلفت بأن أسجل لقاءً إذاعياً من

كلية الآداب جامعة طنطا لجريدة وسط الدلتا، وهى جريدة صوتية تذاع فيها الأخبار المتعلقة بالمحافظات الخمس بما تحويه من محليات وجامعات ومدارس وصحة وغيره وكلفت فى هذا اليوم بالتسجيل مع الأستاذ على الشوربجى المسئول عن مركز خدمة الطلبة المعاقين فى جامعة طنطا والذى كان مقره فى كلية الآداب، فحملت الكاسيت الذى كان ثقيلاً جداً على كتفى بعد أن أدخلت رأسى تحت حزامه وأمسكت بالميكروفون بين إصبعى يدى الشمال ووضعت شريط الكاسيت فى مكانه ليكون جاهزاً للتسجيل بمجرد أن أذهب إلى المركز.

ووصلت إلى كلية الآداب وبدأت العيون تلاحقنى حتى دخلت إلى مكتب الرجل ذى اللحية السوداء التى يتخللها بعض الشعر الأبيض، والذى رحب بى وزاد ترحيبه عندما رأى أن من جاء يجرى اللقاء عن المركز واحد من هؤلاء الذين يخدمهم المركز، وكان الرجل شديد الأدب وافر الذوق، أجريت معه اللقاء بأن جلست على كرسى وفى يدى الشمال أحمل الميكروفون الذى كان طوله حوالى خمسة عشر سنتيمتراً وجلس الضيف على شئالى بحيث كان الميكروفون بيننا. نجحت تجربة المرة الأولى التى اشتملت على أخبار المركز، لتفتح الباب لحمل صوتى طوال رحلتى الإذاعية فى وسط الدلتا ثم فى إذاعة القرآن الكريم.

كان هذا اللقاء هو أول اختبار عملى لى على استخدام الميكروفون وتشغيل الكاسيت، حيث كان الكاسيت يشبه جهاز الراديو تماماً ويسكن الشريط فى مكانه وقد وضعته قبل أن أصل إلى المركز، وفوق الشريط مجموعة من الأزرار، واحد منهم مكتوب عليه play وآخر بجانبه مكتوب عليه record، وللتسجيل لابد أن تضغط على هذين الزرارين معاً فى وقت واحد فأمسكت بالقلم بفىمى وضغطت على

زرار منها وضغطت بإصبعي يدي الشمال على الزر الثاني، ثم اتجهت بوجهي إلى الرجل الذي استعد بدوره بعدما عرضت عليه مادة الحوار بيني وبينه، واستمر الحوار حوالى عشر دقائق، وبعدها طرت إلى الإذاعة ومعى غنيمة الظهور الأول لصوتى فى فضاء الإذاعة وأنا وأبى وإخوتى مشتاقون لهذا الظهور، وأصبحت هذه العشر دقائق بعد القص والمونتاج الذى بدأت أتعرف على أبجدياته مع فنى الصوت خمس دقائق.

تركت الإذاعة فى نهاية اليوم وأنا فى غاية الفرح، وجلسنا جميعاً فى هذا اليوم فى البيت بجانب الراديو ليعلن المذيع المكلف بتقديم الجريدة الصوتية ويقول: وهذا الخبر من مركز خدمة المعاقين عن الخدمات التى يقدمها المركز للمعاقين، وقد أجرى الزميل رضا عبد السلام هذا اللقاء لتتعرف على أهم الخدمات.

وهكذا خرج الصوت على الرغم من منعه، وقد أوفى عبد المجيد شكرى بوعده لتبدأ المسيرة. وكانت الزميلة العزيزة «فجر الفضاء عباس» تقدم برنامج بعنوان «بسمه أمل» كانت تستضيف فيه أصحاب الحالات الخاصة من المعاقين الذين نبغوا فى عملهم، وكنت ضيفاً من ضيوفها وأنا فى السنة الثالثة فى كلية الحقوق، ولم أكن أعلم أن القدر سيكتب فى صحائفه أنى يوماً سأتولى تقديم هذا البرنامج، فالزميلة فجر قد نُقلت إلى القاهرة فى إذاعة الشباب والرياضة، وإذا بالبرنامج يتدحرج فى حبرى بعد أن طلبنى الأستاذ عبد المجيد شكرى وعرض على البرنامج، فوجدتها فرصة لى لاتعوض، وبهذا البرنامج بدأت ملامحى تتشكل كمقدم برامج يعرف ماذا يريد، حيث جبت آفاق الجامعات وبحثت عن النماذج الرائعة للحالات الخاصة التى لا يعرفها أحد. وأذكر أننى سجلت وقتها مع أستاذ كفيف فى

كلية الآداب، هو الدكتور محمد فتحى الذى كان أستاذًا فى الأدب العربى، وأحدث هذا اللقاء وقعًا طيبًا وقتها.

وأيضا بحثت عن رقم تليفون الدكتور أحمد يونس الذى كان كفيفًا وكان يكتب عمودًا فى جريدة الأخبار كنت أقرؤه حيث كان قلمه رشيقيًا ساخرًا، واشتهر وقتها بحفل كان يقيمه كل عام يعرف بيوم القمح وذهبت إليه فى بيته فى المهندسين بالقاهرة وأجريت معه لقاءً على موجات إذاعة وسط الدلتا فى برنامجى بسمة أمل، حكى لى فيه عن والده الدكتور عبد الحميد يونس الذى كان أعمى أيضًا وكان رائدًا فى الفن الشعبى، وحكى لى أحمد يونس عن تأثير أمه فى بناء شخصيته. ولعل أهم ما ذكر لى هذه اللقطة الرائعة الفاصلة فى حياته حينما كان بصره يتلاشى وصار قريبًا من العمى، فوقف أمام المرأة وقال للعمى أنت ستقف عندما تغلق عيني عن البصر أما أنا فلن أقف وسأستمر فى نجاحى، وسافر إلى إسبانيا ليحصل على الدكتوراه وليحصل على أعلى وسام يحصل عليه أجنبى يعيش فى إسبانيا.

وبعد فترة أسند إلى برنامج للشعر العامى يتناول أمور الأسرة، وكان هذا البرنامج ضمن برامج يروج لتنظيم الأسرة، وكُلِّفَ بعض شعراء العامية فى طنطا بالكتابة للبرنامج وكانوا قلة ومستواهم لم يكن على المستوى المطلوب، مما شجعنى على كتابة شيء من هذه الأشعار، خاصة وقد كنت أكتب شعر الفصحى فى محاولات سوف أعرضها فيما بعد.

وتأقت نفسى إلى أستوديو الهواء، هذا الأستوديو الذى يتطلب أن يكون المذيع حاضر الذهن وفى أعلى حالات انتباهه البشرى ليتعامل مع ما قد يحدث من مفاجآت. فكلمت الأستاذ محمد فؤاد المسئول عن مذيعة

الهواء، وبعد مداولات وبعد تدخل الأستاذ صلاح جمال الدين وشهادته لى بخصوص مستوى فى اللغة العربية، وافق الأستاذ محمد فؤاد على النزول لاستديو الهواء، وانطلق صوتى بشعار المحطة «إذاعة وسط الدلتا من طنطا». ومما عجب منه الزملاء وقتها طريقة التقديم التى كنت دائماً ما أبتكر فيها، فقدمت مثلاً أغنية سعاد محمد «مين السبب فى الحب» بهذه الطريقة وكأننا فى إذاعة الشرق الأوسط: ترى مين السبب فى الحب القلب واللا العين، سعاد محمد تجيب فى هذه الأغنية. لكن الأمر لم يستمر، إذ بعد بضعة أشهر صدر قرار أن أستوديو الهواء تكون لمن صُنِفوا كمذيعين، فأبعدت عن أستوديو الهواء وظللت أمسك بميكروفون البرامج التى أقدمها.

وأذكر درساً لأنساه مع المخرج الإذاعى الأستاذ «محمد عويس» الذى كان لماحاً وذكياً ونظيف اليد ويحمل من الجرأة ما يجعل أى مسئول يعمل له حساباً، عندما اصطحبني معه للتسجيل مع أصحاب مصانع النسيج فى المحلة الكبرى، وكان الموضوع عن حقوق العمال فى هذه المصانع، وكنا مجموعة وهو قائدها باعتباره مخرجاً وباعتباره الأكثر خبرة، وجلست معه وأمامنا مدير أحد هذه المصانع الذى حاول فى حوارى معه أن يخفى بعض الحقائق التى كنا نعلمها من العمال، وغَيَّرَ الموضوع حتى لانواجهه بها، فلما رأى الرجل يتملص ويحاول الهروب أمسك الميكروفون بنفسه ودخل فى الحوار وقال للرجل ما يقوله العمال وهدده بأن يأتى بمن قال هذه الشكاوى، فراجع الرجل ثم نقل لى الميكروفون لأكمل اللقاء. تعلمت من هذا الموقف أنه ينبغى عند وجود المعلومة الصحيحة أن أكون قوياً فى العرض ولا أسمح للضيف أن يأخذنى حيث يريد هو، وأن تكون دفة الحوار فى يدي أتحكم فيها حيث تكون المصلحة.

وأذكر أيضًا أنني قدمت فكرة لبرنامج عن حياة علماء الدين والقراء المحليين في مدينة طنطا وما حولها، ووجدت أن تدعيم البرنامج بمشاهير القراء يفعل أثره ويزيد نسبة المستمعين إلى البرنامج، فاتصلت بإذاعة القرآن الكريم وقتها وأخذت أرقام تليفونات منازل مجموعة من القراء وافق منهم على التسجيل معي اثنان من مشاهير القراء وقتها؛ فضيلة الشيخ «أحمد الرزقي» الذي ذهبت إليه وكانت المفاجأة أنني وجدت في صالة بيته آلة بيانو متوسطة الحجم، فسألته عن ذلك قال إنها عنده منذ زمن وهو يستعين بها في التعرف على المقامات الموسيقية التي يستخدمها في قراءة القرآن بحيث تكون خادمة لمعاني القرآن، وأخذ يبين لي في الآيات التي تتحدث عن العذاب أو النعيم كيف نستخدم المقام الذي يلائم الموقف.

والقارئ الثانى الذى وافق على التسجيل معى هو القارئ الكبير الشيخ «محمود البجيرمى» الذى استقبلنا فى بيته فى حى مصر الجديدة، وقد ولد هذا الشيخ فى قرية بجيرم من مركز قويسنا، وعندما علم أنني من هذا المركز أخذ يحكى عن هذه المنطقة فى الأربعينيات والخمسينيات وكيف كان الحرص على تحفيظ القرآن الكريم، وحكى لى قصته كيف حفظ القرآن فى صغره وأخذ القراءات على الشيخ «العنوسى» ذلك الشيخ العلم فى القراءات فى منطقتنا، وعن قبوله فى الإذاعة وعن زمالته مع كبار القراء كالشيخ «عبد الباسط والشيخ المنشاوى والشيخ الطبلاوى». وبعد انتهاء التسجيل رفض رفضاً قاطعاً أن أمشى أنا وأخ زميل كان معى دون أن نتناول طعام الغداء معه.

تعاملت خلال الستين اللتين قضيتهما فى وسط الدلتا مع أساتذة كبار ومع زملاء أفاضل ومع ثلاثة رؤساء لهذه الإذاعة؛ الأول منهم أتاح لى

الفرصة لكى يصافح صوتى أذان المستمعين وكان قيمة فكرية بالإضافة إلى قيمته الإذاعية وهو الأستاذ «عبد المجيد شكرى». والثانى لم يكن مهتمًا بالإذاعة ولم يكن عنده ما يعطيه، أما الثالث فكان آية فى الخلق والذوق الرفيع والخبرة الإذاعية الطويلة، أستاذى الأستاذ حمدى بكر - رحمه الله - الذى كان هادئ الطبع حاسمًا ذو بسمة قاطعة يقطع بها الطريق على من يجادله عندما كان يصدر قرارًا قاطعًا. وعندما تولى إدارة إذاعة وسط الدلتا حظى بالقبول من كل الناس لأنه كان عادلاً فى تعامله زاهدًا فى أية منفعة حاسمًا فى الأمور التى تؤدى عادة للمشاكل فى العمل الإذاعى، ولم يجمع حوله محترفو السطو على أذان ولا صناع النيمة ولا من يتبغى رضا بغير عمل، ومن كان يحاول ذلك معه يخيب ظنه ولا يُشكر سعيه ويعود كاسف البال حزينًا على نفسه.

أقول هذا الكلام لأنى عاصرت قبله قيادتين، الأولى كانت خبيرة بالفن الإذاعى وخاصة الإذاعات الإقليمية، إلا أنه كان ديكتاتورًا لا يسمح لأحد أن يناقشه ولا أن يراجعه. أما الثانى فلم يكن له خبرة بالإذاعة مطلقًا وإنما كانت الإذاعة تتحرك ذاتيًا بفعل مجموعة الخبرات والكفاءات من المذيعين ومقدمى البرامج. ثم جاء الأستاذ حمدى بكر لكى يتيح للجميع العمل فى إطار من الإنصاف والعدالة وفى جو من الأخوة أوجدها هذا الرجل الطيب.

وفى نهاية الفترة التى قضيتها فى إذاعة وسط الدلتا كانت علاقتى بالزميل «إبراهيم الإمام»، توثقت العلاقة بيننا بعد اللقاء الأول، ذلك أن الأرواح كما قال النبى ﷺ جنود مجندة ما تلاقى منها ائتلف، ومازاد هذه العلاقة توثقًا وقوةً ورسوخًا هو التلاقى فى أمور كثيرة، فعندما

تتحد النظرة للأخلاق وللدين والالتزام وعندما تتشابه الأسر إذ كان أبوه هذا العالم الأزهرى كأبى تمامًا، وعندما يعيش كل منا فى قلب الآخر ودًا وحبًا واحترامًا، وعندما نعيش أفراحنا وأحزاننا معًا، وعندما نستتر دائمًا بالرضا والقبول، وعندما نعيش الأيام قلبًا على قلب ويدًا حانية على يد، فلا بد أن تستمر الأخوة والصدقة ما استمرت الحياة، ومازلنا نذكر عندما كان يأتى إلى بيتنا الريفى ويلبس عباءة أبى السوداء ونذهب لنجلس فى ضوء القمر فى غيطان الذرة تحت أشجار التوت فى زمن لم نكن فيه قد عر كنا الحياة ولا الحياة قد نازلتنا العراك.

قضيت فى إذاعة وسط الدلتا سنتين وعدة أشهر، كانت فرصة لى للعمل فى مجال الإذاعة التى تدخل بالميكروفون إلى كل المجالات وكل الفاعليات، والتى تقترب من الناس فى حياتهم بمجموعة من المذيعين الكبار ومقدمى البرامج الذين انتقلوا منها لى يضيئوا بأنوار أصواتهم وأفكارهم إذاعات أخرى رئيسية. وهذا لا يمنع أنه كانت هناك أيضًا حالات لا تصلح أبدًا أن تقف أمام الميكروفون، ليس لجهل فقط ولكن أيضًا لإصرار على هذا الجهل، أحدهم دخلت عليه وقد عينت فى الإذاعة حديثًا فى وسط الدلتا فسمعتة يقول: «مجلتنا تنفذ فور صدورها» فطلبت من فنى الصوت أن يوقفه، وقلت له: لا تصلح كلمة «تنفذ» والصحيح «تنفذ» بالبدال وليس بالذال، وضربت له مثلاً بآية سورة الكهف: «قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربى لنفد البحر...» ورغم هذه الحجة التى لا تُدفع قال لى كلامك صحيح لكنها - أى كلمة «تنفذ» - أيضًا صحيحة، فلم أرُد وقطعت خنسًا كما يقول الفلاحون عندنا. وكثير من هذا كان يحدث وأكثر، إذ لم يكن أحد يحاسب أحدًا، كالذى قال مرة فى برنامج

مسجل «أنتم عيشتكم.....» ووصف بكلمة لا يصح أن تخرج على الهواء، والغريب أن مقدم البرنامج هو الذى نطق بها وليس الضيف. ورغم هذه الهنات التى كانت قليلة فقد امتلأت بكل ما لا يمكن لى أن أحصله فى أية إذاعة أخرى، حيث عملت كما وعدنى الأستاذ عبد المجيد شكرى فى كل المجالات، حتى وصلت إلى مستوى من الإتقان فى العمل والخبرة تؤهلنى لكى أكون مشروعاً لإذاعى يكون له شأن فى قابل الأيام، بشرط أن يأخذ نصيبه الذى فرضه عليه زمانه وناس زمانه من النقش على الحجر كى يمد لصوته خطأ فى الفضاء الواسع ليقول ما عنده.

سعيد العيلى.. جسر الوصول

عينى كانت هناك على هذا المبنى الدائرى القابع على كورنيش النيل كإحدى أهم العلامات القاهرية، الذى يث ليل نهار صورتها، سواء فى الهيئة المرئية أو المسموعة. والعاملون فيه هم نجوم المجتمع الذين ينقلون بأصواتهم عبر الصندوق الخشبى - الذى أصبح بعد فترة قصيرة علبة صغيرة - صورة مصر والعالم إلى كل من يشاهدهم أو يسمعهم، وكنت أعرف ذلك جيداً.

لذلك عندما طلب منى رئيس إذاعة وسط الدلتا الأستاذ حمدى بكر أن أذهب إلى القاهرة فى دورة تدريبية هى الأهم فى حياة كل مذيع أو مقدم برامج، وهى الدورة الفنية العامة لمدة ثلاثة أشهر، وجدتها فرصة لاتعوض فى محاولة الوصول إلى هدفى وهو الانتقال إلى إذاعة القرآن الكريم، هذه الأمنية التى قضى عليها من صدر إلى شخصى العجز الكامن فى نفسه، وهى فرصة أيضاً لرؤية ما عليه هذا المبنى الذى يتمنى من يعمل فى مجال الإذاعة أن يعمل فيه.

وفي هذه الدورة لم أجد مايمكن أن يكون إضافة حقيقية لمن يبدأون حياتهم الإذاعية، فمعظم المحاضرين كانوا من الإذاعيين القدامى، وكان على كل منهم أن يحكى عن ذكرياته الإذاعية ومغامراته في السفر وحكاياته مع رؤسائه وزملائه وعن مواقف الميكروفون الحرجة، وهذا مطلوب لكنه لا يكفي لمن يبدأ حياته الإذاعية. فهؤلاء يحتاجون إلى دراسة منهجية للإذاعة كوسيلة إعلامية ولطرق التعامل معها والوسائل اللازمة لوصول الرسالة الإعلامية وتأثير هذه الرسالة في إعداد المستقبلين لها ومحاولة التعرف على أصناف من تصلهم الرسالة وكيف تعد برنامجاً وكيف تقدمه، كل هذا لم يكن موجوداً في هذه الدورة. ولكن أذكر أننى وزملائى قد استمتعنا كثيراً باثنين من المحاضرين؛ الأستاذ الدكتور «قدرى حفى» أستاذ علم النفس في جامعة عين شمس وأحد أهم خبراء علم النفس السياسى في العالم، هذا الرجل أبدع معنا في كيفية التعامل مع الناس على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم ودرجة تعليمهم، وأسهب في إبراز نقاط الضعف والقوة في الشخصية الإنسانية، ثم تحدث عن أبحاثه السلوكية الميدانية في مجال علم النفس تلك التى جاب فيها مصر كلها سواء في الريف أو المدن.

والمحاضر الثانى الذى أمتعنا وتعلمنا منه كثيراً كان الصوت الدافئ عبقرى الحس الشاعر والإذاعى الكبير «الأستاذ فاروق شوشة»، الذى كانت محاضراته عن تميز اللغة العربية من حيث الطبيعة، ولايمكن أن أنسى نقاشه معنا حول ماهى اللغة التى يجب أن تسود في إعلامنا العربى، فاختلفت آراؤنا، بين من يقول باستخدام اللغة العربية الفصحى حتى نحافظ عليها لأن القاهرة هى المركز الذى يتعلم منه الجميع اللغة العربية

الصحيحة، ومن يقول باستخدام لغة الفصحى والعامية بمعنى أن يراعى فيها الحفاظ على مكانة اللغة ومقامها واستخدام ألفاظ وعبارات تكون مفهومة من الجميع، وهذا الرأى كنت من مؤيديه، وانطلق أستاذنا يدلل على هذا الرأى بمجموعة من البرامج التى كانت تذاع بهذا الأسلوب فى بعض المحطات الإذاعية، لكنه استدرك بأن هناك برامج لا يمكن أن تطبق فيها هذه القاعدة وهى برامج الشعر والبرامج الثقافية. وقد كان لى شرف استضافة هذا العلم الكبير فى برنامجى «سيرة ومسيرة» قبل وفاته بقليل، وحكى لى قصة برنامجهِ الأشهر «لغتنا الجميلة» هذا الذى قدمه لى نُجُرج المصريين من نكسة 1967 بتذكيرهم أن لنا تاريخًا مجيدًا ويجب أن نقوم من وهدتنا ونعرف أن تاريخنا فى الشعر يدعو إلى هذا الشعور. وكان مقررًا لبرنامج لغتنا الجميلة دورة إذاعية واحدة مدتها ثلاثة شهور، ولكن لإبداعه فى تقديمه ظل أكثر من خمسين عامًا يغرد فيه للشعر وللأدب وللمعانى التى كانت تجرى على لسانه وكأنها ترياق للسامعين فى أنحاء مصرنا العزيزة.

وفى نهاية الدورة شاء الله أن يأتى بالفرج من عنده، إذ دخل علينا محاضر هو الأستاذ الكبير سعيد العيلى - رحمه الله - الذى كان قلبًا كبيرًا وروحًا عالية ونفسًا طيبة ولسانًا ودودًا ووجهًا راضيًا، هذه الأوصاف رأيتها عندما رأيتهُ وسمعتهُ، وكان يتحدث معنا عن البرامج الدينية. وعندما تحدث عن الصوفية أسهب واستفاض، وكنت وقتها قد أصابتنى لومة التسلف التى ترى كل من يخالفها رجزًا من عمل الشيطان وهى المرحلة التى طلقها ثلاثًا بعد فترة قصيرة، ولكن أصاب الرجل منى شرر هذه الفترة قصيرة النظر عاجزة الفهم المستعيلة المستكبرة من حياتى، فقلت

مايفيد كلامه ليس له سند من الحقيقة وأنتم تضحكون على البسطاء، فرد الرجل ببسمة رضا وقال: لى لو جئت لعرفت. وانتهت المحاضرة وذهبت إليه معتذراً، فأخذنى فى صدره وكان صوته عريضاً فأمطرني - ووجهي مدفون فى صدره ويده على رأسي - بوابل صيب طيب من الدعاء، فأحسست أننى فى عالم آخر وشكرته، ثم قلت له أملى أن أكون فى إذاعة القرآن الكريم فسألنى عن مكانى فقلت إذاعة وسط الدلتا، فأخذنى فى نفس اللحظة ونزلنا السلم إلى الدور السابع ثم السادس ثم الخامس ثم اتجه بى مباشرة إلى مكاتب إذاعة القرآن الكريم.

دخلنا مكتب رئيس شبكة القرآن الكريم الأستاذ «محمد الشناوى»، الذى كان شخصية قوية وكان من الإذاعيين أصحاب الشهرة الواسعة فى إذاعة الشعب والإذاعات المحلية والإقليمية، ثم أصبح رئيساً لإذاعة القرآن الكريم، وكان قصير القامة لكنه كان شخصية قوية يملأ المكان، وكانت له نظراته الحادة خاصة عندما يغضب، وكان ذكياً جداً فى الإدارة ومرهوباً من كل من يعرفه. فلما دخلنا عليه بادره الأستاذ «سعيد العيلى» وقال له ابننا رضا من إذاعة وسط الدلتا ويريد أن ينتقل إلى إذاعة القرآن الكريم، فسألنى عن المؤهل وعن البرامج التى قدمتها فى إذاعة وسط الدلتا، هنا تدخل الأستاذ سعيد العيلى وشهد لى بسعة الفكر وأن المناقشات فى المحاضرات كانت تدل على ذلك، وقال كلاماً فى حقى يقوى ما عند الرجل من قبول. وتابع الأستاذ سعيد العيلى هذا الموضوع حتى نقلنى بنفسه من إذاعة وسط الدلتا إلى إذاعة القرآن الكريم.

وفى اليوم الذى أتيت فيه لأستلم العمل فى إذاعة القرآن عند هذه السيدة التى تفيض أدباً وحناناً وعطفاً على الجميع، الحاجة «بشرى عادل»، وكانت تشغل مديرة الشؤون الإدارية، استقبلتنى بوجه مستبشر

تعلوه حالة من الرضا الذى أحسسته عندما أخذت تدعو لى بالتوفيق والسداد، ثم قالت إن زميلاً آخر قد استلم عمله قبلك بعدة دقائق وأشارت إليه، فرأيت شاباً أسمر مستطيل الوجه طويلاً يميل جسده إلى النحافة قليلاً يظهر من لون وجهه أنه جنوبى الميلاد والنشأة، أشارت إليه وقالت «عبد المنعم أبو السعود» خريج كلية الإعلام جامعة القاهرة، جاءها من دير مواس بمحافظة المنيا بعد تفوق مذهل فى الثانوية العامة، حيث كان من الأوائل على محافظته، تركه أبوه لميعاد مع أجله وهو صغير فتزوجت أمه من عمه الذى ضمه إلى عياله، فساعد نفسه وكفاها ونبغ رغم كل هذه الظروف، وأضاء له عقله سطور الكتب وفتح له مغاليق الأشياء ومن ورائه قلبه الذى وسع الدنيا حباً ولم يزره فى حياته حقد ولا استولى عليه طمع ولا تطلعت عينه يوماً لما فى أيدي الناس من نعم، بل كان يغبطهم عليها ويتمنى لهم ألا تزول عنهم حتى ولو لم يصبه شيء منها ولا من غيرها. هذا أول من عرفت فى هذه الإذاعة فى أول يوم فيها، وصارت أخوة وصدقة سوف أقف أمام الله وأعترف أمامه أنني ما وجدت قلباً أطيّب ولا نفساً أزكى ولا روحاً أجمل منه، يعرف هو منى ذلك وأعرفه أيضاً منه رغم ما قد يكون من خلاف بيننا فى الفكر، لكن تبقى القلوب على الحب تلتقى وعلى الذكريات تعيش وعلى حسن الظن تبني بناء الود الذى لا ينهدم أبداً...

وها قد بدأنا فى إذاعة القرآن الكريم لكن كيف نبدأ وأنا مازلت على توصيف متابع برامج.. إذاً لابد من رحلة من مراحل فى النقش على حجر آخر من أحجار الحياة.

حلمى البلك.. ماذا تفعل يا بنى؟!

خلال سير المرء فى الحياة، ينبغى عليه أن يكون دؤوباً يأخذ الأحداث

والمواقف بالجد، لاينام عن عمل يكون لزامًا عليه أن يؤديه، ولا يتخلى عن الإخلاص لحظة، ولا يدع الإتقان يفلت منه أبدًا. وفوق كل هذا الكى يتم النجاح لابد له من وسيلة يُشترط فيها الاستقامة والنظافة والذكاء؛ والاستقامة تتحقق بالآلا تطلب الحلال بالحرام، والنظافة تكون بالآلا تختلط بالوسيلة أساليب الثعالب والذئاب التى لا يههما إلا أن تأكل حتى ولو لحم الجيف، والذكاء هو أن تبحث عن وسيلة للإقناع لا يجد فيها الآخر إلا أن يسلم لصاحبها بالحق فيما يطالب به، وليس فيها للخداع مكنم يأوى إليه وإنما ناطقة بالحق الذى تطالب به..

هذا ما حاولت جاهدًا أن أفعله فى هذه المرحلة الصعبة، ففى طنطا عملت فى كل المجالات؛ البرامج ومذيع هواء وفى خارج الإذاعة فى برامج مسجلة، أما هنا فلا بد أن أجد لنفسى سبيلًا رسميًا حتى لا يعترض أحد وحتى أكون فى مأمن من هؤلاء الذين أقابلهم كثيرًا ممن لا يرى فى شخصى شيئًا إلا الـيدى القصيرتين القاصرتين، وكأنهما هما وسيلة النطق وليس فمى الذى يخلق فى فضائه لسانى وأحبالى الصوتية التى تشدوا بأنغام الحياة، تلك التى لحتتها على مدار حياة طويلة بقدر طول مسافة العنت الذى لاقته وعاينته نفسى من ظلم بعض الناس ومن إنكارهم لروح الله التى نفخت فى روحى الحياة يومًا ما، هؤلاء كنت أعمل لهم حسابًا لأنهم يجتهدون دائمًا فى أن يوقفوا دوران عجلة حياتى، ففكرت فيما سأفعل.

بعد سعى، قبلت لجنة امتحان المذيعين أن أدخل عليهم مرة أخرى، أو بالأحرى تعتبر هى المرة الأولى، لأننى فى المرة السابقة لم أختبر، وإنما طغى شكى وهىأتى على الأساتذة الممتحنين فأصدروا القرار دون أن

يعرفوا من هذا الشخص؟ ولا كيف يتكلم؟ وماهى ثقافته؟ وهل يصلح أم لا يصلح؟ أصدروا حكم الإعدام شنقاً على صوتى أن تتخلل نبراته الميكروفون لتصل إلى أسمع خلق الله. ومن ثم، لابد من الحيلة للحصول على الحق، ولكى أثبت أننى قادر على أن أوشوش الميكروفون بأسرار الكفاءة فى العمل الإذاعى الذى أرى أننى قادر عليه. سألت عن اللجنة التى سأمثل أمامها للامتحان فعرفت أن رئيسها هو الرائد الإعلامى الكبير الأستاذ «حلمى البلك»، وكان وقتها رئيساً لشبكة صوت العرب وكان قارئاً للنشرة فى التليفزيون وصاحب أشهر برنامج تليفزيونى فى هذا الوقت وهو برنامج «ندوة للرأى» الذى كان يتولى فيه العلماء الرد على الشباب ويحاولون أن يصححوا لديهم بعض المفاهيم. وكان من الأعضاء الأستاذ «أحمد رضوان» من الشرق الأوسط و«محمد سناء» من صوت العرب وغيرهم، ففكرت ماذا أفعل؟ وظللت لعدة أيام أفكر كيف يمكن إقناعهم بأن يكون الامتحان امتحاناً حقيقياً دون النظر إلى الإعاقة وألا تستولى هذه النظرة على حكمهم على أدائى، فقلت لنضرب السهم فى القلب فلو أصابه ربح الصيد، فلأذهب إلى رئيس اللجنة وأحاول أن أقنعه لأنه لو اتسع صدره لكلامى واستطعت أن أهزم عنده شعوره بالعجز تجاهى فهذا أول الطريق، ثم أطلب الامتحان الحقيقى كإى ممتحن، وعندها سأنجح إن شاء الله حتماً.

وحانت اللحظة الحاسمة عندما سلمت رجلاى للسلم حتى وصلت إلى الدور الثالث واللوحة ذات اللون الذهبى المكتوب عليها «إذاعة صوت العرب»، تركتها عن يمينى وطرقت الباب فقال: أدخل، فوجدتنى وجهاً لوجه مع الأستاذ «حلمى البلك» فى غرفة ليست وسبعة

ولا ضيقة وإنما هي وسط، ويجلس الرجل على كرسى وراء مكتب يغطيه حتى وسطه، ويضع يديه على لوحة طاقم مكتبه الذى يزخر بالورق.

لم أترك للأستاذ حلمى البلك فرصة للتعجب عندما وقعت عيناه على الواقف أمامه، وذلك بأن ألقى عليه السلام، وجلست دون أن يأذن لى ثم أطلقت لسانى: أنا اسمى رضا عبد السلام من إذاعة القرآن الكريم بعد سنتين فى وسط الدلتا، خريج حقوق 1987 ومن المتفوقين فى كل سنين دراستى وحافظ لمعظم القرآن الكريم ومتقن تمامًا للغة العربية وأكتب الشعر، فأعجب الرجل بالكلام لكن لمحت فى عينيه سؤال لماذا تقول لى هذا الكلام؟ فتابعت كلامى والرجل كله إنصات بدا فى عينيه واسعتين وكأنها تتابع حدثًا فيه حركة، وأضفت: لاتسألنى حضرتك إلى أن أنتهى، وكنت ألبس جاكيت مفتوحًا فخلعته ثم أمسكت به كما أفعل دائمًا أمسك به بأسنانى وأدخل الكم الأيمن ثم أهىء جانبي الأيسر ليدخل فى الكم الأيسر، والرجل مشدوًا، ثم توجهت إلى القلم وكان فى جيبى بجانب يدي اليسرى فأمسكته بالإصبعين وخلعت منه غطاءه «اللبيسة» ووضعت فى فمى وأخذت ورقة من نتيجة كانت أمامه بشفتى أشدها بسرعة ووضعتها أمامى وكتبت أمام الرجل - ومازال الرجل مدهوشًا - ثم أمسكت بالقلم مابين إصبعى وأخذت عدة خطوات حتى وقفت بجانبه، وقلت: سأعتبر هذا القلم هو الميكروفون وحضرتك الضيف الذى سأسجل معه وأنت تعلم أن الميكروفون يلتقط الصوت من بعد حوالى خمسين سنتيمترًا، فإذا وضعت الميكروفون هكذا بينى وبينك يكون الصوت ممتازًا وبالتالي لا مشكلة، فبادرنى بسؤال وهو فى دهشة: ماذا تفعل يابنى؟

رجعت إلى المقعد أمام مكتب الرجل، وقلت وكأننى أصوب سهمى بعد أن أعددت له كل أسباب النجاح: حضرتك أنا دخلت امتحان قبل ذلك ولم يمتحنونى وأبعدونى عن الميكروفون على الرغم من شهادة الأستاذ «عطية السيد» مدير إدارة التدريب الذى يمكن أن تسأله عن مستواى وعن استيائه من النتيجة السابقة. ثم قلت متسائلاً ومتعجباً أمام الرجل: لماذا عندما أدخل امتحاناً بالورق لا يعلم أحد ورقة من هذه أتقدم فى الصفوف الأولى، وعندما أمتحن عياناً بيئاً يرى كل منا الآخر يدفعونى للوراء لماذا؟ أليس حراماً؟ وقلت بصوت فيه أسى أمام الرجل وأنا أناديه: يا أستاذ حلمى امتحنونيى. ظل الرجل حوالى دقيقتين أو ثلاثة ينظر إلى بنظرة امتزج فيها الإعجاب بالاستفهام بالدهشة ثم سألنى عن وجودى فى وسط الدلتا، فقلت له إننى ظللت فيها عامين وأكثر قدمت فيه كل شىء حتى عملت فى الهواء لفترة، وأملى أن أعمل مديعاً للهواء، فقال الرجل: إن الهواء مسئولية، فقلت بعفوية أنا عندى المؤهلات لذلك فلغتى سليمة ولدى الصوت وحفظى للقرآن ومعلومات عامة لاحد لها، أتمنى أن تُتاح لى هذه الفرصة، فطمأننى الرجل وقال: «لك هذا سأمتحنك أنا واللجنة دون النظر إلى هذه الظروف» فشكرته بلسانى وأرسلت عينيَّ إلى عينيه شكراً لاتحسه إلا العيون.

بعد هذا المشهد الإنسانى المؤثر، لم أرتح إلا على الكرسي أمام مكتب الأستاذ «حمدى بكر» وكان يومها رئيساً لإذاعة فلسطين، وقلت له ما حدث بينى وبين الأستاذ حلمى البلك، فبارك هذه الخطوة وذهب إلى الأستاذ حلمى فى مكتبه وجاءنى بكلمات واضحة أنه اقتنع تماماً وأنت أمامك فرصة لاتعوض لأنه سيقدم لك فى اللجنة وسيذكر ما حدث

بينك وبينه وستكون نتيجة الامتحان هي الفاصلة. خرجت من مكتب الأستاذ حمدي قد امتلأت نفسي فرحًا وسعادةً لكن أصابني بعض الخوف من بعض أعضاء اللجنة من خلال كلام زملائنا عنهم، ولكن توكلت على الله ورجعت إلى مصادرى في النحو فراجعتها جيدًا، وملأت نفسي ثقة في الله ومعى دعاء والدى والمحبين من أصدقائي.

وفي اليوم التالي، دخلت أستوديو 46 الكبير وجلست على الكرسي، وجاءني صوت الأستاذ «حلمي البلك»: إقرأ يا رضا النشرة، فلما نطق اسمي أحسست بمزيد من الثقة فقرأت الخبرين الأولين، ثم قال: إقرأ خبرًا من الإيجيشان جازيت فقرأت سطرين منها، ثم قال: إقرأ قرآن فقرأت بعض الآيات، ثم قال إقرأ شعر وكان أمامي ديوان شعر ولكني قرأت من ذاكرتي أول قصيدة ولد الهدى:

وُلد الهدى فالكائناتُ ضياءُ
وفمُ الزمان تبسمُ وسناءُ
الروحُ والملائك حوله
جبريلُ والدنيا به بشراء
والعرشُ يزهو والحظيرة تزدهي
والمنتهى والسدرة العصاء

هنا ناداني الأستاذ حلمي البلك وقال: تعال يا رضا..

فاستبشرت خيرًا لأنني في المرة الأولى لم أدخل عليهم، فلما دخلت رأيت ضمن لجنة الامتحان الأستاذ «عطية السيد» فزادني ذلك ثقة، فكان أول سؤال من الأستاذ حلمي بعد أن مازحني أولًا قائلاً: ما حال اللغة العربية معك، قلت: تمام، فقال: اعرب بسم الله الرحمن الرحيم

فقلت: الباء حرف جر، واسم اسم مجرور بالباء وعلامة الجر الكسرة، الله لفظ الجلالة مضاف إليه للتعظيم مجرور بالكسرة، والرحمن الرحيم صفتان نعتان مجروران بالكسرة تبعاً للفظ الجلالة. ثم سألتى الأستاذ «محمد سناء» وكان وجهه عابساً وعيناه ترسلان شرّاً يدل عن عدم الرضا وسألتى: لماذا سُميَ حافظ إبراهيم بشاعر النيل؟ وكأني أردت أن أرد على وجهه العابس وعينه الغاضبتين وقلت: أنا عندى الأعمال الكاملة لحافظ إبراهيم وفي مقدمتها أنه سُمي بشاعر النيل لأنه ولد على مركب أو ما تُسمى «ذهبية» على النيل. ثم نظر إليّ الأستاذ «أحمد رضوان» بوجهه الأبيض المشرب بحمرة الممتلئ الجاد، ولكنه قدم لسؤاله ببسمة خفيفة ورقيقة: قل لى يا رضا تعرف إيه من مؤلفات شكسبير؟ فقلت: وليم شكسبير شاعر إنجليزى كبير من أهم مسرحياته «روميو وجوليت وهاملت وتاجر البندقية»، فنظر إليهم الأستاذ أحمد وكأنه يقول لهم شيئاً من خلال نظراته تلك. وفي نهاية الامتحان قال لى الأستاذ «عطية السيد»: تصور أنك مذيع سوف تنقل لنا صلاة الجمعة من أحد المساجد الكبرى وأنا أعرف أنك تريد أن تكون مديعاً فى إذاعة القرآن الكريم - وكأن الرجل أراد أن يعضد موقفى معهم - انطلقت بها جاد به الله علىّ حينئذ، ثم نظر إليّ الأستاذ حلمى البلك ووجهه يخرج منه تفاؤل رأيت فى عينيه الراضيتين عندما قال لى: اتفضل يا ابنى.

خرجت وأنا أحس بالفرق الشاسع بين الامتحان، الأول وهذا الامتحان ورأيت كيف وقى الأستاذ حلمى البلك بوعده وكيف تم امتحانى كما وعد، لكن هل سيستمر الأمر وتنتهى عملية الامتحان بنتيجة لا يتحكم فيها أحكام مسبقة من نظرات العجز التى أتعبتنى وأرهقتنى،

وجعلتني في صراع دائم من أجل إثبات أنني قادر على فعل ما أستطيع فعله، ويجب ألا يحال بيني وبين تحقيقه، لأن من أشد أنواع الظلم أن تسلب إنساناً حقه الطبيعي في المحاولة وألا تعطى له الإمكانيات اللازمة لبلوغ غايته التي قد تسعده وتسعد الناس معه، دون أن تُطلق عليه سهام اليأس أو تضربه بسيف العجز المتوهم..

وبعد عدة أيام ظهرت النتيجة بحصولي أنا و«عبد المنعم أبو السعود» على أعلى الدرجات، ومازالت هذه النتيجة في ملفي الوظيفي في إذاعة القرآن بهذه العبارة «يصلح مذيعة للهواء بإذاعة القرآن الكريم».

يا الله بعد كل هذا العناء والتعب، بعد حوالي ثلاث سنوات من ضياع حقي، بعد الشتات في طنطا، بعد الليالي التي كنت أكلّم فيها نفسي وأتساءل لماذا لا أحصل على حقي. ها قد عدت منتصراً بفضل الله وبفضل دعاء أبي الذي كان معي ردءٍ يدفعني ويرفع عني أوهام اليأس الذي يراود نفسي أحياناً، بإيمانه بأنني إنسان خلقه الله بإمكانات لا بد أن يستخرجها من نفسه، وذكرني وقتها عندما راوده عقله أن يقابل فهمي عمر رئيس الإذاعة منذ ثلاث سنوات لأنه كان مؤمناً بي وبقدراتي التي ركبها الله في شخص ولده الذي خبره جيداً، وأثبتت الأيام بعد ذلك أنها ثمينة وأنها حقيقة وأنها صوت قوى يملأ الآفاق بشعار أول محطة إذاعية للقرآن في العالم. ولقد كانت هذه التجربة من أبي تجاهي هي الهادي لي في تعاملتي بعد ذلك مع عبد الرحمن ابني الذي أدركت قدراته جيداً، فنفخت فيه روح الثقة بالنفس وأعددت له كل مايتاح من إمكانيات وتعاهدنا سوياً على التوكل على الله، ففتحت له كلية الطب أبوابها وهذا له حديث آخر.

أقيمت الأفراح لهذا الخبر الذى كان معظم من حولى قد يئسوا من تحقيقه، وها هو قد تحقق ليُفتح أستوديو الهواء لأول مذيع فى العالم بهذا الشكل، لكن هل سيفتح الأستوديو بسهولة أم هو دأب صاحبنا لابد من العنت حتى يحصل على حقه وحتى تحقق أمنيته بأن يكون إنساناً كامل الإنسانية.

صالح مهران وكمال بشر وهالة الحديدى

بعد رحلة طويلة أصبحت مذيعة للهواء فى إذاعة القرآن الكريم، وكان الاحتفال بى احتفالاً كبيراً، وظننت أن عملى فى إذاعة وسط الدلتا سيفتح لى مباشرة باباً لميكروفون الإذاعة على الهواء، لكن لابد من دورة إذاعية مكثفة تهىء مذيع الهواء من حيث اللغة والتعامل مع الميكروفون والتعامل مع مفردات الأستوديو وكيف يتعامل بصوته فى المواد الإذاعية المختلفة، فقراءة المادة الإخبارية غير قراءة المادة الدينية غير المنوعات، وكيفية تقديم الإذاعات الخارجية المختلفة، فتقديم الإذاعة الخارجية لصلاة الجمعة غير تقديم إذاعة خارجية لأمر سياسى أو عسكرى أو منوعات كالأغاني أو غيرها. ومثّل هذا كله موضوعات الدورة التى كانت تسمى «الدورة المكثفة للغة العربية والإلقاء».

كان يدرس لنا اللغة العربية فى هذه الدورة العلامة الكبير الأستاذ الدكتور «كمال بشر» عضو مجمع اللغة العربية الذى كان يعطينا شهد اللغة العربية وكيفية نطق الحروف والكلمات بأسلوبه الذى كان علامة عليه - رحمه الله - حيث كان ينادى أياً منا «يا ولد» و«يابنت»، وكانت هذه إحدى سمات التعامل مع تلاميذه فى الإذاعة والتى تشعرهم بقرهم منه.

ولا أنسى أنه قال مقولتين هى بالنسبة لى ولإذاعة القرآن شرف كبير، فالأولى أنه صرح بأنك إذا أردت أن تتعلم اللغة العربية الصحيحة عليك أن تستمع إلى مذيعة إذاعة القرآن الكريم، سواء من حيث نطق الحروف أو من حيث سلامة اللغة العربية، أما المقولة الثانية فهى بمثابة عقد من الشرف أعلقه ماحييت فى عنقى من هذا العلامة الكبير حيث قال لى: لم يحصل منى على امتياز فى اللغة العربية من المذيعين سوى اثنين، الأستاذ «أمين بسيونى» الرائد الإذاعى بصوت العرب وأمين عام اتحاد الإذاعة والتليفزيون بعد ذلك والأستاذ «فاروق شوشة» الشاعر الكبير ورئيس الإذاعة الأسبق، وأنت الثالث، وأهدانى هدية فى نهاية الدورة عبارة عن كتاب مترجم عن فقه اللغة العربية كتب على صفحته الأولى إهداءً رقيقاً - رحمه الله - رحمة واسعة.

وكان يدرس لنا الإلقاء الإذاعى الرائد الإذاعى الكبير الأستاذ «صالح مهران»، هذا الذى كان ضمن جيل حمل على عاتقه صورة الإعلام المصرى فى أوائل الستينيات، وقد حكى لنا كيف يتم العمل فى الإذاعة، وكيف كان هؤلاء الإعلام يعملون فى ظروف شديدة الصعوبة وخصوصاً فى الإذاعات الخارجية الخاصة بالرئاسة أيام عبد الناصر، وموقف نقله هو وزملاؤه لجنازة عبد الناصر وكيف كانوا يقسمون المسافة بين بعضهم البعض وكيف يسلمون الميكروفون كل منهم للآخر، ورسم لنا صورة للإذاعة المصرية فى ذلك الوقت، وكيف كان الإتقان هو ديدنهم، لذلك فقد خلفوا تراثاً إذاعياً فريداً. ولا أنسى مناقشاتنا الفكرية معه ودخولنا معه فى قضايا متعلقة بالنظرة إلى الكون، حيث كان يلقي بعض التساؤلات التى تجعل العقل يبدع فى التفكير ويسعى

للتأمل للوصول إلى الحقيقة. وقد حظيت من سيادته بالامتياز كما حدث مع العلامة الدكتور كمال بشر.

أما الشخصية الثالثة فكانت الأستاذة الكبيرة «هالة الحديدى»، هذا الصوت الذى يتمتع بمرونة تجعله يقرأ المادة الإخبارية بمنتهى الجدية والمهارة؛ استقامة لغوية وأداءً جاداً وصوتاً معبراً عن الخبر بأستاذية لا مثيل لها. ومن عجب أن نفس هذا الصوت لهذه المديعة المتفردة عندما يقدم برنامج «ألحان زمان» تجد السلاسة كسلاسة النغم السارى وتجد الهدوء الذى يناسب برنامجاً يتحدث عن المقامات الموسيقية والطاقات والأدوار وعن أعلام الموسيقى والغناء، هذا البرنامج الذى يعتبر من علامات الإذاعة المصرية والذى كان يعده المؤلف والمؤرخ الموسيقى «محمود كامل»، رحمه الله. تعلمنا من الأستاذة هالة الحديدى فى هذه الدورة قراءة المادة الإخبارية، كيف تبدأ الخبر، وكيف تُلقى موضوعه على المستمع وكيف تُنهي الخبر. وكان يصاحب ذلك أيضاً مراجعة للغة العربية الصحيحة وكيفية نطق الكلمات الأجنبية والتأكد من الاسم الأجنبى من مصدره حتى تكون أكثر مصداقية. وكان مما تؤكد عليه أن القرآن الكريم له قراءة إذاعية غير الترتيل أو التجويد المعروف، بمعنى أنك عندما تقرأ آية فإنك تبرز المعنى بطريقة الأداء، فليس المهم الترتيل وقواعده وإنما المهم توصيل المعنى بطريقة الأداء، وكانت تنصحن بأنه يجب على المذيع المشتغل بالإذاعة أن يتدرب على قراءة القرآن بهذه الطريقة لأن فيها توظيفاً لكل ما فى الفم من قدرات. وكان معروفاً عنها الشدة فى المعاملة، وكان الذى يخطئ يتعرض للحرج، ولكنها كانت تعاملنى معاملة يتمناها كل من كان معنا فى هذه الدورة، وما زالت تفيض على

شخصى بهذه المعاملة الكريمة من تلميذ لها تعلم فى مدرسة رائدة إعلامية وإذاعية كبيرة.

غير هؤلاء ممن كانوا فى هذه الدورة كانوا يأتون ليحكوا لنا عن ذكرياتهم الإذاعية التى غالباً ما تكون مدحاً فى صاحب هذه الشخصية الذى يحاضر، إلا ماكان من محاضرات اللغة العربية التى كان يدرس قواعدها بعض المتخصصين فيها.

بعد هذه الدورة المهمة والتى لا بد لأى مذيع هواء أن يحصل عليها، نزلت على جدول المذيعين لأول مرة، وكان اسم يُطلق على زميل أقدم منى هو الزميل صاحب الخلق الرفيع أخى الكبير الأستاذ «رضا خفاجى» فأشير لى فى الجدول باسم عبد السلام، وكان يُكتب الاسم وحوله قوسان دلالة على أن صاحب الاسم مذيع تحت التدريب. وسعدت جداً بهذا لأن القدر أراد أن يرد الفضل لأهل الفضل وهو أبى - رحمه الله - فى جدول المذيعين الذى تزين إلى الآن باسم أبى، مشيراً إلى من تمتع فى حياته وسعد بقلبه الكبير. وكان الاستقبال لى من معظم الزملاء استقبالاً طيباً، فيه كثير من الاحتفاء، ومن قلة كانت هناك بعض الريبة وكانت تظهر فى النظرات أو أحياناً فى كلمات عارضة لكن كانت هناك شخصية من الشخصيات أعلنت استيائها الواضح من تعيينى مذيعة للهواء وأبدت تبرماً واضحاً، هذا الشخصية تحولت بعد ذلك تماماً.. لكن ما سبب هذا التحول؟ وكيف حدث؟ هذا له حديث آخر مع أستوديو 18 أستوديو الهواء فى إذاعة القرآن ونقش آخر على حجر من أحجار الحياة.

الفصل الثالث

فى إذاعة القرآن الكريم

مذيع هواء...

يعلم كل من يعمل فى مجال الإعلام الإذاعى والتليفزيونى أن أستوديو الهواء هو المكان الأكثر أهمية والأكثر خطورة، لأن الكلمة التى تقال أمام الميكروفون فيه لا يمكن إعادتها ولا يمكن تعديلها، بخلاف أستوديو التسجيلات الذى يمكن أن تُعيد مرات ومرات حتى تستقر على ماتريد أن تقوله للناس، بل يمكن أن تقدم وتؤخر كما تريد عن طريق المونتاج أو القص أو اللزق، أما أستوديو الهواء فالكلمة فيه كالسهم الذى يخرج من القوس أو الطلقة التى تغادر قناة المدفع لا يستطيع أحد أن يعيدها، لذلك كان لمذيع الهواء مواصفات يجب أن تكون حاضرة فيه وخاصة عندما يعمل فى إذاعة متخصصة كإذاعة القرآن الكريم، ومن هذه الأشياء والخصائص:

أولاً: أن يكون لديه ثروة لغوية كبيرة من ناحية القواعد اللغوية والنحوية، لأنها الوسيلة الصحيحة لتبليغ رسالته، وأن تكون هذه اللغة

وسطاً ما بين القديم الذى يجب أن يحافظ على أصالته وبين استخدام الألفاظ القريبة المعنى دون أن تنزل إلى درجة العامية أو الابتذال اللغوى، ذلك لأن اللغة واسعة الأطراف وتستطيع أن تأخذ منها قواعد سليمة وكلاماً أقرب إلى فهم الناس وخاصة في مجتمع ما يقرب من نصفه لا يجيد القراءة والكتابة.

ثانياً: أن يكون سريع البديهة لماحاً حاسماً في المواقف التى لا بد فيها من الحسم السريع، وأن يكون ثابتاً عند التعامل مع المواقف، بحيث لا تضيع منه الحكمة وقت أن يطلبها أو وقت أن يكون لزاماً عليه أن يهتدى بهداها، وأن يكون رابط الجأش لا يغضب بسهولة وإذا غضب ففى موقف يكون فيه الغضب هو العلاج كأن يخطئ أحد مساعديه.

ثالثاً: أن تكون علاقته مع العاملين معه على الهواء طيبة، وألا يستغل قيادته للموقف، وإنما علاقة الفريق الذى يريد دائماً أن يحرز الأهداف، وكل عمل من أعمال هذا الفريق له أهميته كعمل المذيع نفسه.

رابعاً: أن تكون لديه فكرة عن دقائق العمل الإذاعى، فيجب أن يعرف كيف يُسجّل البرنامج والعيوب التى يمكن أن تحدث وكذلك المنتج، حتى إذا سمع وهو فى فترته الإذاعية بعض هذه العيوب عليه أن يكتبها حتى لا تتكرر مرة أخرى، وأن يعرف كيف ينتقل الصوت والموجات وكيفية عمل آلات البث وكيفية الحكم على الصوت ومتى لا يكون الصوت صالحاً للبث، لأنه فى فترته هو الحكم على كل هذا ولو فاتته بعض العيوب فضح غفلته المستمعون وحوسب عليها أدبياً قبل الحساب المادى.

خامساً: أن يختار لنفسه طبقة الصوت التى سيخرج بها شخصيته

الإذاعية على الهواء، قالها لى «صبرى سلامة» عملاق الهواء فى إذاعة البرنامج العام - ومن أعظم من قال «هنا القاهرة» - عندما كان يأتى إلى إدارة التدريب فى الدور الثالث وكنت وقتها فى أولى خطواتى فى الإذاعة، قال: «تحكم فى طبقة الصوت التى تناسبك كمذيع» وعندما يستقر عليها يعمل بها دائماً ويأخذ شهرته منها إذا أحسن اختيارها وأحسن العمل بها.

سادساً: أن يكون قادراً على التعامل مع جميع مفردات الاستوديو، كالميكروفون أو الاتصال بالفنى الذى هو قناة خروجه إلى الناس والذى يفصله عنه لوح زجاجى بحيث يرى كل منهما الآخر، وأمامه زر للاتصال بالفنى وهذا يحدث دائماً طوال فترته الإذاعية حتى يخرج العمل متكاملًا، والزر الآخر لوقف تدفق الصوت فى الميكروفون عند حدوث مفاجأة، كأن يطرق الباب وقت الخروج على الهواء وغيرها من مواقف لابد لمذيع الهواء أن يلم بها.

هذه مقدمة لمواصفات من يرسل صوته مباشرة على الهواء فى غرفة صغيرة هو فيها الملك، لذلك قيل فى «أدبيات العمل الإذاعى» عن المذيع داخل الاستوديو "The King of The Studio". وها أنا أصبحت بعد رحلة عذاب مذيعة للهواء ضمن مجموعة من المذيعين هى الأشهر بين كل مذيعى الإذاعة، على اعتبار أن إذاعة القرآن الكريم تحظى بأكبر نسبة استماع إذاعة مصرية بل عربية. ومذيعو إذاعة القرآن تتوافر فيهم هذه الخصائص التى أفردتها، فهى تحظى بأكبر نسبة لحاملى الماجستير والدكتوراه وإن لم يكن شهادة أخرى بالإضافة إلى الشهادة التى عينوا بها، وكنت أنا من هذه المجموعة.

دخلت إلى هذا المجتمع فقبولت بالترحيب من معظم الناس ونزلت

على الهواء كمتدرب، وكانت أول فترة لي مع أخى وصديقى الأستاذ «أحمد همام»، هذا الإنسان بكل ماتحمّله الكلمة من معان، هذا المذيع اللامع ذو الصوت القوى المتمكن الذى فتحت له قلوب الناس عالم السياسة فأصبح نائباً فى مجلس الشعب الأسبق، ومازالت القلوب تحمله إلى مجلس النواب الحالى حبا واحتراماً وتقديراً لما يقدمه لهم من إخلاص فى قضاء حاجاتهم.

كانت أول فترة إذاعية لى مع الأستاذ أحمد همام فى أستوديو 18، وكدت وقتها أطير من الفرح، وكان المتعارف عليه وقتها أن تظل تعمل لسته أشهر حتى تنطق بشعار الإذاعة ثم بعبارتين ثم تقدم الأذان وتختمه حتى يستقيم عودك الإذاعى. وكانت اللببة الحمراء عندما تضىء لها رهبة، فمعنى ذلك أنك وجهاً لوجه مع ملايين تسمعك فى نفس اللحظة وكأنها تراك، لذا ما زلت أحترم جداً هذه اللحظة وأستجمع فيها ما عندى من استعداد لكى يصل صوتى نقياً إلى من يسمعونى فى أى مكان. وفى هذه الفترة كنت حريصاً أشد الحرص على أن ألتقط كالعصفور حبات الخبرة من كل من أعمل معه، وأتأمل كيف يُخرج اللفظ وكيف يُصيغ العبارة وكيف يتصرف فى المواقف الحرجة، وحتى كيف يكتب تقريره عما يكون قد شاب برنامجه من سلبيات.

وكنْتُ أترك نفسى للكبار من الأساتذة فى ذلك الوقت، مثل الدكتور «فوزى خليل» الذى كنت أحرص على أن يسمعونى وأن أقرأ أمامه وأن يصوب مايراه مما أقوله خطأ، وقد كان هو أحد أسباب خفص صوتى عند العمل أمام الميكروفون فى الأستوديو، وأدعى أنى أصبحت ضمن مدرسة فى إذاعة القرآن يمكن أن تُسمى «مدرسة الصوت الهامس

الخفيض المعبر» في إذاعة القرآن. وكانت فترتي معه حوارًا في قضية من القضايا حيث كان مثقفًا قارئًا، أهله شهادته الجامعية في الاقتصاد والعلوم السياسية لأن يكون أحد المثقفين والمفكرين، وكان أشهر مذييع إذاعة القرآن الكريم على الإطلاق وصاحب أشهر برنامج وهو «قبس من نور النبوة».

والشخصية الأخرى التي تعلمت منها الالتزام في الاستوديو والمحافظة دائمًا على الهدوء النفسى عند العمل في الهواء الدكتور «على طبوشة» - رحمه الله - ذلك الذى كان يبدو وجهه صارمًا لكنه كان شخصًا شديد الود عظيم الاحترام لمن يحدثه، وفي نفس الوقت كان إذا أخذ موقفًا من أحد فمن الصعب أن يأتلف معه، ومن حسن حظى أنه كان شديد الود معى، وكان كثيرًا ما يفتح معى موضوعات لكى نتحاور فيها طوال الفترة الإذاعية، وكان صاحب برنامج شهير وقتها هو برنامج «سفراء الإسلام». وكذلك الدكتور «عبد الله الخولى» صاحب الصوت الذى يعشقه مستمعو إذاعة القرآن الكريم وصاحب برنامج «بلاغة الرسول». إضافة إلى كثير من الزملاء الذين أحاطونى بسياج من العطف وسوار من المحبة وعقد من الود.

إلا شخصية واحدة! كانت تمثل لى عقبة يمكن أن تجهض ما حققته من أحلامى، وبالرغم من ذلك اعتبره من أجلّ من قدموا لى خدمة لولاها ما كنت فى مكانى هذا ولا مكانتى تلك، فهو الذى أدى اعتراضه على أداء عملى إلى أن أبحث عن وسيلة أكون بها أكثر أمانًا داخل أستوديو الهواء، وهو أيضًا من قدمنى عندما أيقن أننى قادر على القيام بعملى على خير وجه، وأصبحت له تلميذًا نجيبًا، بل هو الذى ساعد فى سفرى إلى دى لنقل أكبر مسابقة للقرآن الكريم فى العالم فماذا حدث.. هذا نقش جديد على حجر من أحجار الحياة.

الإذاعي الكبير الأستاذ إبراهيم مجاهد من الإذاعيين الذين تركوا أثراً ستظل إذاعة القرآن تذكره ما بقيت هذه الإذاعة، فهذا النوع من العاملين في مجال الإذاعة كان يعلم كل كبيرة وصغيرة في دولها، يعرف جميع التلاوات وجميع التسجيلات لكبار المتعاملين مع الإذاعة من كبار المتحدثين ومن ضيوف البرامج ومن القراء على جميع مدارسهم، الأحياء منهم ومن ذهبوا إلى ربهم راضين مرضيين. وكان متخصصاً في وضع خريطة البرامج والتلاوات ويعتمد عليه في ذلك. وهذه المهمة هي من أصعب المهمات في الإذاعة، لأنها تتطلب إلماماً بكل ما يحويه أرشيفها، وما تقرر أنه سيداع من القرآن ونسبته إلى باقى البرامج بحيث لا تطغى إحداها على الأخرى. وقد كان آخر من يغادر الإذاعة وأول من يأتى إليها، ولا تراه إلا منهمكاً في عمل. لذلك كله استحق أن يجلس على رئاسة شبكة القرآن بعد التحاقى بها وبعد أن أصبحت أحد أصواتها المعروفة، هذا بالنسبة لدوره في الإدارة التي كان يجيدها ويبدع فيها.

أما في مجال الاستراتيجية الإذاعية، فقد كان من أصحاب الاتجاه الإذاعي الكلاسيكى الرصين، الذى يلزم المذيع ألا يخرج عن المؤلف من العمل الإذاعى، فعليه مثلاً تنفيذ البرنامج الذى أمامه وليس له أن يزيد من عنده إلا إذا أمر بذلك، حتى ولو كان هذا الجديد يفيد من تصل إليهم الرسالة من خلال الراديو، وهذه مدرسة لها أعمدها في إذاعة القرآن الكريم عميدها هو الأستاذ «إبراهيم مجاهد».. وبالنسبة للبرامج، كان هو أيضاً عميداً لاتجاه مازال موجوداً في إذاعة القرآن الكريم، وهو

أن يقوم المذيع بتقديم ضيفه وقراءة العنوان الذى سيتحدث فيه أو حوله وفى الختام ينهى بشكر الضيف، هذا الاتجاه كان من رواده مجموعة من المذيعين ومقدمى البرامج وهم الأكثر، بخلاف اتجاه آخر كان له بصمة مع الضيف بحيث يتخذ من الحوار والمناقشة سبيلاً للوصول للمعلومة ومن ميكروفون الهواء سبيلاً للإبداع بقدر ما تسمح به الأعراف الإذاعية لإذاعة القرآن.

والأستاذ «إبراهيم مجاهد» كانت له معى قصة، أعترف قبل أن أحكيها أنه صاحب الفضل فى أن أبحث عن حل جذرى وناجع ومقنع لكل المشاكل التى قد تعترض طريقى فى أن أكون مذياعاً للهواء متمكناً من كل مفردات الاستوديو التى يستخدمها أى مذيع آخر سليم البدن تماماً، فقد جعلنى أبحث عن وسيلة أستخدامها بدلاً من اليدين اللتين يستخدمهما المذيع العادى، وبفضله أصبحت أول مذيع بهذا الشكل فى العالم يخرج صوته من أستوديو الهواء مباشرة ليصافح أذان الناس فى كل مكان تصل إليه موجات الراديو. فعندما تسلمت العمل لم يكن الأستاذ إبراهيم متحمساً لى، ولما قُبلت مذياعاً للهواء بامتحان رسمى أعلن عن رفضه الواضح بنظرات عينيه اللتين كانتا يملأهما الشك فى هذا الذى سيعمل مذياعاً وهو بهذا الشكل، وكنت أتجنب أن ألقاه أو أن تأتى عيناى فى الطريق التى تنظر فيه عيناه، ذلك فى الوقت الذى كان فيه الجميع يشجعنى، مما جعلنى أبحث عن حل، وكان ذلك فى فترة إذاعية صباحية جمعتنى به خلال فترة تدريبي، حيث يسمى المذيع الأقدم «سونيور» والمذيع الأحدث «جونيور» حسب العرف الإذاعى.

ففى هذه الفترة سألتنى بصراحة سؤالاً استنكارياً يحمل رفضاً لعملى محملاً بمسحة عطف وشفقة قائلاً: لماذا الهواء ولماذا لا تكتفى بالبرامج؟

فقلت: اللجنة وافقت على كونى مذيغاً للهواء.

فسكت لمدة ثم قال لى: وكيف ستتحكم بالزر الخاص بإغلاق الميكروفون وقت الطوارئ والزر الخاص بالتواصل مع الفنى فى غرفة الهندسة الإذاعية؟

فمددت إصبعى يدى الشمال إلى أحد الزرين.

فباغتني وقتها وقال: لو أنك أردت فى نفس اللحظة محادثة الفنى، فقلت هذا لا يحدث كثيرًا قال: وماذا تفعل إذا حدث؟

فقلت: هذا قليل جدًا، ووقتها سأتصل بالفنى عن طريق يدى الأخرى.

فنظر إلى وقد استقر على وجهه معنى عدم الرضا.

وقتها أثرت السكوت ولم أجب، لكننى ظلمت أبحث عن حل، لا بد أن أجد حلًا، وعندما كلمت والدى فى هذا الأمر أخذ يذكرنى بما حدث قبل ذلك وكيف تغلبت عليه، وأخذ يحثنى أن أبحث عن حل. بعد عدة أيام هدانى الله أن أذهب إلى هذا الرجل ذو البسمة التى تعلن عن طيبة قلبه والتى ترسم على محياه الأبيض الجميل وذو القامة المشوقة والصدر المفرد الذى يشى بالكرامة التى يتحلى بها الإنسان حين يكون متصالحًا مع نفسه ومع الناس، هذا وصف المهندس «محمد زعتر» الذى كان يشغل وقتها مدير التشغيل، أى المسئول هندسيًا عن أستديوهات الهواء، دخلت عليه وكان يعرفنى شكلاً ويعرف أننى مذيغ جديد فى أستوديو إذاعة القرآن الكريم فقابلنى بابتسامته التى ملأت وجهه فشجعتنى على الكلام، قلت له هل من الممكن أن أجعل الزر الخاص بإلغاء الميكروفون تحت قدمى بحيث أتحكم فيه كما يتحكم المذيع العادى، والزر الخاص

بالتواصل مع الفنى فى غرفته بجانب إحدى ركبتى، وبذلك أتحكام فى هذين الزرين ومن ثم أصبح بجميع الإمكانيات الخاصة بأى زميل آخر، فسكت هنيهة ثم قال بعد أن علت وجهه جدية توحى بالتفكير والبحث عن حل وقال: يمكن عمل ذلك لكن بعد موافقة الأستاذ «محمد الشناوى» رئيس الشبكة، فكلمت فى هذا أستاذى الأستاذ «عبد القادر الزنفلى» - رحمه الله - فدخل معى وحصلنا على الورقة التى تفيد بالأمان من عمل هذا التدخل الهندسى.

طرت بالورقة إلى المهندس «زعتى» الذى سلمها بدوره إلى صيانة الإذاعة ثم لهذا الفنى المسيحى الذى كان شديد الأدب معى وكان حريصاً على أن ينفذ مهمته على أكمل وجه وأحسن صورة وأتم حال، فقد استطاع الأستاذ «أنور» أن يجعل الزر الخاص بإغلاق الميكروفون فى علبة من الخشب صغيرة لكى أضع عليها كف رجلى الشمال ومن وسط هذه العلبة الخشبية يخرج زر التحكم فى الميكروفون، فصرت أتحكم فيه بدرجة أسرع من أى زميل آخر لأن رجلى تكون أسرع من سرعة اليد فى تدارك الموقف عند الطوارئ فى أستوديو الهواء. كما جعل الأستاذ أنور الزر الخاص بالتواصل مع الفنى عند ركبتى اليمنى بحيث تكون السرعة فى الاتصال بالزميل الفنى لا تقل عن سرعة اتصال أى زميل آخر. ظللت كلما رأيت الأخ الكريم «الأستاذ أنور» شكرته على هذا الإنجاز الذى جعلنى أكثر تحكماً فى الأستوديو من زميل له أربع أذرع وليس ذراعين فحسب!! والذى جعل «الأستاذ عبد القادر الزنفلى» ينادى على الأستاذ «إبراهيم مجاهد» ويقول له أمام الناس جميعاً: «تعال يا إبراهيم شوف رضا يقدر دلوقتى يتحكم فى الأستوديو أكثر من أى مذيع آخر»، فضحك وقال: هذا ما أردته وضحكنا جميعاً.

وقد وثق الأستاذ إبراهيم مجاهد في كمذيع هواء بعد ذلك ثقة كبيرة، فكان أول من أعطاني فترة إذاعية وحدى ثقة منه في قدراتي بعد أن تهيأ لي أستوديو الهواء.

وظللت أضع رجلى على هذه العلبة الخشبية أحافظ بها على قدسية أستوديو الهواء أكثر من ربع قرن، أرسل صوتى بشعار «إذاعة القرآن الكريم من القاهرة» سألقى به ربى شاكرًا على أن أجرى على نبراته معان هى أعظم المعانى وأطيبها، وشاكرًا على أن الآن القلوب لكى تيسر لى هذه المهمة المقدسة فى خدمة كتاب الله.

ولى مع الأستاذ إبراهيم مجاهد قصة أخرى هى التى فتحت الباب لنقل الإذاعات الخارجية التى ننقلها من المساجد الكبرى على الهواء، وهى إحدى الصور الإذاعية التى يجب أن يكون المذيع متقنًا لها باعتبارها فنًا خاصًا بذاته، إذ يستطيع المذيع أن يجعل المستمع يرى كل تفاصيل المكان من خلال وصف شائق وممتع ووافى وكأن المستمع يجلس فى المكان، فلما جاء دورى لم يسمح لى الأستاذ إبراهيم بل وقدم على من هو أحدث منى، فاعترضت عند الأستاذ سيد شرف وكان وقتها مدير إدارة المذيعين فى حين كان الأستاذ إبراهيم مجاهد المسئول عن جدول المذيعين وعن الإذاعات الخارجية، فسأله الأستاذ سيد شرف عن سبب رفضه فأبدى أسبابًا من وجهة نظره وحيهه، فقال إن الإذاعة الخارجية أمر خطير وكيف سيدافع عن نفسه إذا جاء من يعتدى عليه، فرددت أنه لم يحدث أى اعتداء على أى مذيع فى أى إذاعة خارجية قبل ذلك، وعمومًا لو حدث اعتداء سأدافع عن نفسى كما يدافع أى مذيع عن نفسه فأنا لست هملًا، فقال: كيف سيمسك الميكروفون فنظر إلى الأستاذ سيد

شرف، فأمسكت بالقلم وقلت كما أمسك بهذا القلم فرد الأستاذ إبراهيم وقال لى: «أنت عنيد فنظرت إليه نظرة تثبت ما قاله وكأنى أقول بعينى ما لم أستطع أن أقوله بلسانى. وخرجت من الإذاعة فى هذا اليوم متوجهًا إلى سوق العتبة واشتريت قاعدة بعمود صغير لكى تحمل الميكروفون فى الإذاعة الخارجية لكى أسد الثغرات التى ينفذ إليها لرفض تنفيذى للإذاعات الخارجية، وفوجئ الأستاذ سيد شرف والأستاذ إبراهيم مجاهد بهذا العامود الذى جعله يرضخ أخيرًا ويسمح بأن يخرج صوتى فى الإذاعات الخارجية فى مساجد مصر الكبرى، يصف فيها على مدى أكثر من ربع قرن ما يرى قلبى وما يعاينه عقلى وما تشدو به روحى، أصبه صباً وافياً فى آذان مستمعى الكرام.

فرحة الميكروفون وزلزال 92

هذه الحديدية العجيبة المعروفة بالميكروفون! تكون مستقرة على منصدة خشبية نسميها نحن الإذاعيون «الديسك» تكون مغطاه بطبقة من الإسفنج الخفيف الذى تلفه قطعة من الجلد حتى لا تصدر حركة الميكروفون على الديسك صوتًا. والجالس على المقعد أمام الميكروفون هو مذيع الفترة المكلف بتنفيذها على الهواء، وتكون أمامه لمبة حمراء تضىء حين «يعطيه» الفنى الميكروفون لكى يؤدى عمله فى البيان عما يريد توصيله للناس. وهذه الحديدية ذات الرأس الحساس الذى يستقبل الصوت على بعد نصف المتر تحوله إلى موجات تنقلها التكنولوجيا إلى آذان المستمعين فى كل مكان. ويفصل المذيع فى غرفته المعزولة لوح من الزجاج عن غرفة الهندسة الإذاعية التى توجد بها أجهزة تشغيل المواد

الإذاعية، ويقف على هذه الأجهزة فنى مدرب على تشغيلها والتعامل معها، ويكون الاتصال دائم بين الفنى والمذيع، فكل واحد منهما أمامه نفس البرنامج الذى ينفذه المذيع صوتيًا وينفذه الفنى هندسيًا، فكل برنامج له موعد ومدة ينبغى الالتزام بهما، بالإضافة إلى المواد المباشرة على الهواء كالنشرة الإخبارية أو الأذان لكل صلاة، ولا بد أن يكون هناك انسجام تام بين المذيع والفنى لأن ذلك هو قوام العمل الإذاعى الناجح.

هذا مافهمته فى بداية عملى فى أستوديو الهواء بعد أن أصبحت واثقًا تمام الثقة فى نفسى، بعد أن تحكمت فى الميكروفون تمامًا وبعد أن أصبحت متواصلًا مع الفنى الذى أعمل معه، وفتح لى أستوديو الهواء بابه على مصراعيه حيث كنت أنفذ ست فترات أسبوعيًا فى أوقات مختلفة، فيمكن أن أعمل فى الصباح ويمكن أن أعمل فى المساء ويمكن أن أختتم الإذاعة أو أبدأها، وكنا فى هذا الوقت نختم الإذاعة الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل ثم نعود فنفتح أبوابها على أذان مستمعينا على النقل لصلاة الفجر.

ولعملى المتواصل بدأ صوتى يصبح مألوفًا، وبدأت أبحث لنفسى عن طبقة للصوت تمثل شخصيتى الإذاعية التى أحب أن يعرفنى الناس بها، والتى تكون بصمة واضحة لمن يستمع إلىّ. عثرت على بغيتى بصوت من «منطقة القرار» قويًا هادئًا ورصينًا ولا تعلق فيه نبرات الصوت، فعندما تعلقو نبرات صوتى ويخرج عن منطقة القرار يختلف الأداء وأحس أن الذى يتكلم ليس أنا، لذا تدربت على هذه الطبقة حتى أصبحت علامة على شخصى عندما أنطق بشعار الإذاعة «إذاعة القرآن الكريم من القاهرة» محملاً بها فى نفسى من شعور بمسئولية التوصيل لكل من يسمعنى وشعور بالود أشحن به نبرات الصوت، حتى أن أحد المتعاملين مع الإذاعة وكان

مبتهلاً كبيراً خبيراً بالأصوات قال لى: «أحس عندما أسمع صوتك أنك بتططب على المستمع وأنت بتتكلم». نعم هذا شعورى وهذا ما يجب أن يكون بين المذيع وبين المستمع، أن يكون حريصاً في مهارة واحترام وحب على توصيل رسالته، بالإضافة إلى أن الشعار نفسه يحمل مفهوم الدعوة إلى الإسلام لأنه يشير إلى كتاب الإسلام المقدس القرآن الكريم، وأحس أيضاً أنها منة من الله وإن لم تكن مخلصاً فيها فلن تصل إلى قلوب الناس، لذلك كان الشعار شرف لى ولكل زملائي.

كنت سعيداً جداً في هذه الفترة، وكان بعض زملائي عندما أستلم منهم الفترة أو أسلمهم يتركون لى الميكروفون جزءاً من فترتهم فرحاً بى وإشادة بعملى ومجاملة رقيقة منهم، لقد أحاطونى بود ليس له مثل وفتحت لى قلوبهم. ومن ذلك الود والثقة أن الإذاعى الكبير الراحل «رياض فهمى» - صاحب الصوت المتفرد وكأنه يأتى من فضاء روحى شفاف - كان على موعد سفر فى عمل إلى السعودية، قبل أن يسافر طلبنى وقال إن برنامجه «مساجد لها تاريخ» من البرامج ذات الشعبية وإنه يعرض على تقديمه بعد سفره، وهذا البرنامج كان له أكبر الأثر فى تعريف الناس بى حيث كان يذاع أربع مرات فى الأسبوع.. ذلك بالإضافة إلى الكبار من المذيعين القدامى وقتها، كالكتور «فوزى خليل» الذى أدرك بثقافته الإذاعية أننى قد عثرت على طبقة الصوت المناسبة للهواء وكان دائماً ما يشنى عليها، وكذلك الدكتور «على طبوشة» الذى كان يترك لى الفترة كاملة وينظر إلىّ وأنا أرسل صوتى للميكروفون وهو يبدو مستمتعاً، ولعله كان يحاملى كرمًا منه وفضلاً أحمله له فوق رأسى وأرده له دعاء له فى مثواه عند ربه.

وكان لى زميل صوته قوياً معبراً يحمل قدرًا من الجدية، وفي نفس الوقت المرونة التي تجعله يأخذ آذان مستمعيه إعجاباً، وهو الأستاذ «عبد الستار محفوظ» الذي كان شخصية ذكية وغنية بالتطلع والطموح والنظر إلى المستقبل بالعمل الجاد المخلص، مما جعله يدخل امتحاناً أجرته الأمم المتحدة في مصر للترجمة من العربية إلى الإنجليزية، فإذا به يتفوق على أساتذة في كلية الآداب قسم إنجليزي وهو الحاصل على كلية التجارة، لكنه أتقن كل ما يتعلق باللغة الإنجليزية، فغادرنا وأصبح الآن من كبار مترجمي الأمم المتحدة في نيويورك. كان هذا الشاب وقتها يحبنى جداً وكنت أستمع بالعمل معه وكنت أنظر إليه عندما ينطق الكلمة وتعلمت منه الكثير.

وكان أحد المذيعين الرائعين يحمل اسم رضا، وهو الزميل ذو الأدب العالي المتفق على أخلاقه وأستاذيته الأستاذ «رضا خفاجي»، وكانت أحياناً تجمعنا فترة واحدة على الهواء فكانت تسمى «فترة الرضاءان» وكنت أقدم الفترة كالعرف الإذاعي المعروف وأقول «ومعكم من أسرة المذيعين رضا خفاجي ورضا عبد السلام» فأصبحت مما يتندر به مستمعونا.

وفي هذا الوقت كنت أسافر من قريتي في قويسنا إلى القاهرة، وفي فترات العمل الليلية كنت أضطر للمبيت في القاهرة في شقة حجزها صديق العمر وزميلي الذي دخل معي في نفس الوقت في أستوديو الهواء «عبد المنعم أبو السعود»، تقع هذه الشقة في شارع أبناء سوهاج في الطالبية بالهرم، وكان يأتي إليها الوافدون من أقاربه وزملائه تحت التدريب وقتها، فكانت تعج بكل هؤلاء. وأذكر أن سيارة الإذاعة كانت

تقلنا بعد فترة الحتام التى تبدأ فى التاسعة وتختتم الإذاعة فى منتصف الليل، قبل أن تصبح الإذاعة أربعاً وعشرين ساعة، كنا نرى القاهرة فى هذا الوقت من الليل بأنوارها وأشعة هذه الأنوار وهى ترمى على صفحة نيل مصر العظيم لترسم صورة رائعة لمن أراد أن يشفى روحه ونفسه بالجمال، كذلك كان منظر الشوارع الهادئة التى تنطلق فيها السيارة بسرعة البرق بديعاً، ويكون أبداع عندما تأتى السيارة لتأخذنا فى الثانية بعد منتصف الليل لنفتتح الإذاعة. وكان على ناصية الشارع أسطى «حسن» صاحب محل الكاوتشوك الذى كان لا يعمل إلا ليلاً، هذا الشاب الذى كان يعيش الإذاعة ونبت بيننا وبينه صداقة كانت كفيلة بأن يستضيف السائق على كوب من الشاي حتى ننزل إليه. وكانت السيارة تسلك شارع الطالبية، فنرى أمامنا شارع الهرم بصخبه الليلي الآثم فتطويه السيارة طياً، ثم نمر على منطقة الدقى حيث الهدوء الثرى الناعم، ونمر بعد ذلك على كوبرى قصر النيل لنلقى تحية الصباح على نعمة الله الكبرى هبة الله لمصر «النيل العظيم» ثم نجلس لنقول «إذاعة القرآن الكريم من القاهرة» ونبدأ البث.

وأذكر فى هذه الأيام أننا كنا نفعل كل شىء؛ كنت أقدم برنامج «مساجد لها تاريخ» وفترة إذاعية يومية ويمكن أن تكون فترتين إذا اعتذر الزميل الذى يتسلم منى، وكانت تحدث أحياناً إضافة فقرة لعرض البرامج كنت كثيراً ما أقوم بتسجيلها. وكنت على اتصال دائم بالأهل والوالد خاصة عن طريق التليفون الأرضى الذى كان الوسيلة الوحيدة وقتها.

وفى خضم هذا الزخم الذى لا ينتهى وفرحتى به، لم أتصل بالبيت لمدة ثلاثة أيام ولم يستطيعوا الوصول إلىَّ حتى فى اليوم الرابع، وكان

عندى فترة الضحى التى تبدأ فى الحادية عشرة صباحا، وأثناءها وجدت الفنى يبلغنى أن أحداً يسأل علىّ فى الاستعلامات، فعجبت ورفعت سماعة التليفون وقلت: آلو، فوجدت على الجانب الآخر صوت والدى يأتينى: «إيه بابى أنت فىن وحشتنا»، كانت مفاجأة، فتركت الأستوديو لزميل فى الفترة وقفزت على السلم حتى وصلت إلى صالة الاستعلامات المكتظة بالناس، لأجد أبى بجلبابه الأبيض الذى يبدو منه رأسه كملاك فى صورة البشر وبجانبه أخى حسن، فارتميت على صدر أبى، وكعاداته أخذنى بين ذراعيه وأحسست وقتها كأننى مازلت طفلاً أحتاج إلى هذا الحضن الذى يُشعرنى بالأمان وسلمت على أخى، وتعلمت ألا أنسى أبداً قلب أبى الذى يريد دائماً أن يطمئن علىّ.

وفى يوم 13 أكتوبر عام 1992 كان عندى فترة الظهيرة التى تبدأ من الثانية ظهراً وتنتهى فى الخامسة قبل المغرب، وكان العصر يؤذن له فى الثالثة إلا بضع دقائق، فجلست أمام الميكروفون وقدمت الأذان وختمته وقدمت القرآن الذى يُتلى بعد أذان العصر، وخلعت الشراب وذهبت للوضوء استعداداً للصلاة، كان يجلس معى فى الأستوديو زميلان وفى الاستراحة الملحقة بالأستوديو كان يجلس مجموعة من الزملاء، وبدأنا نتجهز للصلاة أثناء التلاوة التى تستمر لنصف ساعة نعود بعدها لمواصلة العمل أمام الميكروفون.

وأثناء دخولى من باب الأستوديو وكنت واقفاً وبجانبى زميل يستند إلى الحائط مقابل الباب، فإذا بالأرض تهتز وإذا بالزميل المستند إلى الحائط يفتح فاه ويقول - وقد امتلأت عيناه بالفرع ووجهه بالتوتر - «زلزال زلزال» فانتبهنا، وفى نفس اللحظة سمعنا صراخاً يصدر من

كل مكان حولنا، في الطريقة القريبة وفي أستوديو التسجيلات الخاص بإذاعة الشباب والرياضة، ووجدنا أنفسنا في هذه اللحظة نمسك ببعض البعض وأخذنا نطلق الشهادتين، واستمر الزلزال لمدة لا تقل عن دقيقة ونصف أو دقيقتين، وتحول المبنى كله إلى حالة من الهلع والخوف، وخرجت إلى الطريقة الطويلة فرأيت كثيرًا من الناس خاصة السيدات قد أغمى عليهم، والناس كل واحد يجرى يريد أن ينجو بنفسه، ورجعت إلى الأستوديو الذي لا أستطيع أن أغادره.

وبعد أن أنهيت من فترتي خرجت إلى ميدان التحرير، فوجدت كثيرًا من الناس في الميدان وقد ملك عليهم الخوف أنفسهم، كان يومًا لا أنساه حيث وجدت وجوه الناس في شدة الخوف ورأيت كثيرًا منهم وقد أخذوا أسرهم بعيدًا عن بيوتهم خوفًا مما أُطلق عليه وقتها «توابع الزلزال». وكانت نتيجة هذا الزلزال كبيرة حيث لقي حتفه من جراءه حوالى ثلاثمائة وسبعين شخصًا وأصيب أكثر من ثلاثة آلاف آخرين وتهدم الكثير من بيوت المساكين وخاصة في الأحياء القديمة كمصر القديمة وبولاق أبو العلا التي تقع خلف مبنى التلفزيون. كانت هذه الحادثة مما حُفر بعمق في ذاكرتي، عندما يستولى الخوف على قلوب الناس ويظهر في وجوههم فترى هذه الوجوه ذاهلة تدعو الله أن يرفع مقته وغضبه عن عباده المساكين.

برامج ومواقف

في هذا الوقت المبكر من علاقتي بالميكروفون من أستوديو الهواء، حيث فترة يومية لمدة أربع ساعات وقَلَّت بعد ذلك إلى ثلاث ساعات،

حتى يستطيع المذيع أن يلهم بكل أطراف العمل من حيث تقديم الفترات بمهنية وحرفية وحتى يبدو مرتاحاً ليست عليه أية ضغوط، خصوصاً أن هذه الحديدة المثبتة أمامه! لا تنقل الصوت فقط وإنما تنقل الإحساس والمشاعر ومن خلال ذلك تنقل شخصية المذيع، في هذا الوقت فكرت في أن أقدم برنامجاً يحمل فكرة خاصة بي أستطيع من خلاله أن أقدم لوئاً من الألوان الإذاعية التي تحمل فكرى وتحمل رؤيتى الخاصة، خصوصاً أن البرامج التي نقدمها في إذاعة القرآن الكريم تدور كلها حول القرآن بعلمه الكثيرة أو حول السنة والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامى. وفي هذه الفترة أعطاني الأستاذ «رياض فهمى» برنامجه «مساجد لها تاريخ» الذي كان يقدمه قبل سفره فزرت من خلاله - على الورق - جميع مساجد مصر والعالم الإسلامى الشهيرة، وهذا البرنامج لم يكن فكرتى ولا سعت إلىه لكنى استمتعت بالعمل فيه، حيث كان البرنامج يتعرض للمسجد من حيث إنشائه ومن والذي أنشأه وعمارته وما به من زينة وما به من فنون إسلامية أبدعها الفنان المسلم.

وقد شدد انتباهى من العصر العثمانى شخصية الأمير «عبد الرحمن كتخدا» الذى بنى كثيراً من مشاهد ومساجد أهل البيت فى مدينة القاهرة. دعنا قارئى الكريم نغادر بعض الوقت حجرات وطرقات ماسبيرو، بمتعتها ومشاكلها، لنحيا قليلاً مع هذه الشخصية العظيمة التى أعجبتى كثيراً وتركت بصمتها فى مسيرتى بالرغم من بُعد الزمان بيننا، ولتكن هذه الوقفة من خلال ما كتبه عنه الدكتور «عبد الرحمن زكى» فى كتابه «بناة مصر من ألف عام» فقال:

«عبد الرحمن كتخدا بَنَاءٌ عَظِيمٌ عَلَى الْهَمَةِ فِي أَيَّامِ الْعُثْمَانِيِّينَ، يُعْتَبَرُ فِي

مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وترصيعها بمبانيه. كان صاحب نفوذ قبل أيام على بك الكبير، وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن يشيد بها جمعه من ثروة مدرسة ومسجدًا وسبيلاً بالقرب من بركة الأزبكية، وفي يوم افتتاحها ملأ حوضاً كبيراً وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب المحلى بالسكر ليسقى الأهالى. وبني منشآت خيرية أخرى.

كان الأمير عبد الرحمن «كتخدا مصر» (محافظاً لها) في عام 1744 وقد عشق البناء، فأنشأ وجدد كثيراً من المساجد والأسبلة والأضرحة. وقد اشتهر عبد الرحمن بما أدخله من زيادات في الجانب الشرقى من الأزهر، ومن بينها ضريحه الخاص وجزء من المدخل وخمسون عموداً من رواق القبلة ومنبر ومحراب جديدان وشيد مئذنتين وبابى الشورية والصعايدة.

جمع عبد الرحمن كتخدا في أكثر مبانيه بين الجمال والفن، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع عند ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم. ولهذا السبيل ثلاث واجهات بها ثلاث فتحات عقودها من الرخام الملون و«تواشيحها» من الرخام الدقيق، موضوع عليها شبابيك نحاسية، ويعلو السبيل كتاب ذو مظلات وحواجز من خشب الخرط. ويتضمن السبيل كتابات تحتوى على اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء (1157هـ/1744)، أما حجرة السبيل فقد غشيت جدرانها بالقاشانى، وعلى جزء من جداره الشرقى رسم صورة الكعبة الشريفة.

وأنشأ الأمير عبد الرحمن عند باب الفتوح مسجدًا وصهرجيًا وكتّابًا، وفي مدخل الأزهر أعاد بناء المدرسة الطبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني فخامة

وبهَاء، كما أنه بنى المشهد الحسيني، وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب مسجداً وصهرجياً وحوضاً وسقايةً ومكتباً، وشيد مسجداً بجهة الأزبكية ومكتباً وحوضاً. وبنى مشهد السيدة زينب، ومشهد السيدة سكيئة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة والسيدة فاطمة والسيدة رقية وعَمَّر المدرسة السيوفية كما جدد المارستان المنصوري، وغير ذلك من المساجد والأسبلة.

ومن أجمل عمارته - دار سكنه بحارة عابدين، وكانت من الدور العظيمة المحكمة الإتيقان والبناء، لم تماثلها دار بمصر في حسنها وزخرف مجالسها وبابها من النقوش والرخام والقاشاني، وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعة متسعة بوسطها نافورة مفروشة بالرخام. وموجز القول أن عدد المساجد التي بناها أو جددها عبد الرحمن كتبخدا بلغ ثمانية عشر مسجداً، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والقناطر.. إلخ.

عظم شأن عبد الرحمن حتى استفحل أمر على بك الكبير، فأخرجه منفيًا إلى الحجاز وذلك في أول ذي القعدة عام 1178هـ (1764) فأقام بالحجاز اثنتي عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في عام 1190هـ (1776) بعد أن استولى عليه الهرم، فدخل إلى بيته مريضاً، فأقام فيه أحد عشر يوماً ثم مات، ودفن بالمدفن الذي أعده لجثمانه بجوار باب الصعايدة بالأزهر».

كان هذا أحد الأمثلة الرائعة في برنامج «مساجد لها تاريخ» الذي أضاء لمستمعينا جانباً رائعاً من حضارتنا الإسلامية، حين تتعاقب العقيدة مع العبادات مع الفن الإسلامي في المسجد، وتبدو فلسفة العمارة الإسلامية في الحوائط والقباب والمآذن التي شيدها وأقامها وزينها وجملها هؤلاء

البنائون العظام في تاريخ مصر، كهذا المعمارى البارع عبد الرحمن كتحدا. وهذا ما جعل الفيلسوف والمفكر الفرنسى «روجيه جارودى» فى تقديمه لكتابه «حوار الحضارات» يقول: إنه من أسمى الصور التى وعها عبر سفره فى مختلف أرجاء العالم، تلك الصور المضمخة بعبق الروحانية، مثل صور مساجد أحمد بن طولون والأزهر، ومسجد بيى خاتون فى سمرقند الذى أراد تيمورلنك أن يجعله أعظم معابد الدنيا، ومثذنة سامراء الملوية فى العراق والمسجد الجامع ومسجد عباس فى أصفهان. ويقول جارودى: إن كل الفنون فى البلاد الإسلامية تؤدى إلى المسجد، والمسجد إلى الصلاة.

وأكثر ماكان يجهدنى فى هذا البرنامج طريقة كتابته، حيث كان من يكتبه ينقل من المصادر دون استيعاب لما يكتب، مما دعانى وقتها إلى البحث عن المصادر، فحصلت على الكتاب العمدة فى هذا الشأن وهو موسوعة «موسوعة مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» لعميدة كلية الآثار الدكتورة سعاد ماهر التى تعتبر خبيرة فى العمارة الإسلامية، والكتاب كان خير شاهد على ذلك، وقد كنت أرجع إليه دائماً لأصحح ماكتبه كُتاب البرنامج، وكثيراً ما كان يحتاج الأمر أن أعيد كتابة الحلقات مرة أخرى.

لذا فإن هذا البرنامج هو الذى عرف المستمعين لإذاعة القرآن بى جيداً، لأن البرنامج هو الذى يصنع الشهرة والانتشار وليس العمل مذيغاً فى الهواء، لأن البرنامج له موعد محدد وله من ينتظره وله فكرته التى يرتبط بها المستمعون، أما الهواء فليس فيه هذه الميزات والخصائص، فالمذيع ابن فترته التى ينفذها فقط ثم يغدو.. صحيح أن الهواء يُكسب

المذيع الحساسية اللازمة للتعامل مع الميكروفون ويجعله أقدر على التعامل مع المواقف، لكن يبقى البرنامج هو مجال الإبداع الإذاعي.

وبعد فترة مع برنامج «مساجد لها تاريخ» قدمت فكرة لبرنامج يتحدث عن السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي لهذه الفترة المهمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، مضمونه عرض سيرة النبي ﷺ بداية من مولده والفترة التي نشأ فيها ﷺ في مكة طوال أربعين سنة ثم بعثته، والفترة المكية والفترة المدنية ما تشتمل عليه من مواقف وأحداث، وحياته ﷺ في جميع مراحلها، والفترة التي عاشها معهم في الجاهلية والقيم السائدة فيها، وماذا حدث بعد أن جاء الإسلام وكيف غير هذه المجتمعات، والغزوات والمعارك وأسبابها ونتائجها.. هكذا كانت الفكرة التي عرضتها وبينت أنها ستكون حديثاً مباشراً لمدة خمس دقائق يومياً، ووافقت عليه الإدارة، واختارنا له اسم «قطوف من السيرة». وفي هذه الأيام كان لا بد أن يقدم البرنامج اليومي اثنان من المذيعين أو مقدمي البرامج، فسعدت بأن أكون مع الأستاذ «عبد القادر الزنفلي» صاحب المواقف المضيئة في مسيرتي الإذاعية، فكنا نتشارك في تقديم البرنامج وكنت أكتب خمس عشرة حلقة كل شهر.

خلال الإعداد للبرنامج استمعت بالمصادر التي كنت أقرأها وأعرض منها أحداث السيرة النبوية، فجمعت تقريباً أهم الكتب التي تحدثت عن سيرة الرسول ﷺ منها ما قرأته من قبل، وهو كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، والذي نقلت عنه هذه الفقرة المعبرة في بداية حلقات البرنامج: «إن المسلم الذي لا يعيش الرسول في ضميره ولا يتبعه بصيرته في عمله وتفكيره لا يغنى عنه أبداً أن يحرك لسانه بمائة ألف صلاة

في اليوم والليلة» ويتميز كتاب الشيخ الغزالي بالمزج بين المواقف التي مرت في السيرة وما هو كائن في عصرنا الحديث. وكذلك كتاب الدكتور «محمد رمضان البوطي» الذي كان يعرض الرواية من روايات السيرة ثم يحلل المواقف تحليلًا وافيًا مبسطًا بقدر ما تحتمل الرواية، وكنت أختار منها ما يناسب لعرضه بشيء من التصرف حتى يناسب المستمعين في الإذاعة التي تعتمد على التخيل. وكذلك الموسوعة الرائعة الوافية «محمد رسول الله منهج ورسالة» للعلامة الكبير «محمد الصادق عرجون» الذي تناول في استقصاء رائع ووافي حياة الرسول ﷺ وكان أسلوبه يناسب العرض في الإذاعة. ذلك بالإضافة إلى اعتمادى على المصادر التاريخية الرئيسية (ككتاب «الطبرى» تاريخ الأمم والملوك، وتاريخ «ابن كثير» البداية والنهاية وتاريخ «ابن خلدون» بمنهجه المختلف عن الكتابين السابقين. وهكذا ظللت مع هذا البرنامج عدة سنوات حاز فيها شهرة واسعة في أرجاء مصر، وكان يذاع قبل صلاة الظهر مباشرة بتره المشهور (أى بمقدمة البرنامج) التي كان يقول فيها الشيخ سيد النقشبندى بصوته الملائكى الجميل:

بسم الله مولانا
بنت وهب أنجبت ولدًا
فكان خير خلق الله إنسانًا

قدمت بعد ذلك برنامج «مع الصحابة»، ولم تكن فكرتى، وإنما أرادت الإدارة وقتها أن توزع بعض البرامج التي تحتاجها الإذاعة على من تتوسم فيهم أن يقدموها بشكل يفيد المستمعين، فكان هذا البرنامج الذى ألقوه فى حجرى فسعدت به كثيرًا وفكرت ما هو الجديد

الذى يضيفه برنامج يتحدث عن الصحابة؟. وكان أحد الزملاء قبل بضعة سنوات قد قدم نفس الفكرة بطريقة تقليدية، حيث كان يُعرّف بالصحابى ومتى ولد ومتى أسلم وبلاؤه فى الدعوة ومتى لقي ربه كل ذلك فى حلقة واحدة. لكنى فكرت فى أن يكون التناول مختلفاً تماماً، حيث نختار مجموعة من الضيوف المتخصصين فى التاريخ الإسلامى الذين لهم صلة بالدعوة الإسلامية، بحيث يتحدثون الضيف عن حياة الصحابى من مختلف الوجوه؛ كونه قائداً أو فارساً أو فقيهاً أو معلماً وماهى إسهاماته فى مجاله الذى نبغ فيه. وإذا كان هذا التناول صعباً فإن الضيوف كانوا أعلاماً فى هذا المجال، على رأسهم الأستاذ الدكتور «عبد الشافى محمد عبد اللطيف» الذى أبدع فى هذا التناول الجديد تماماً لشخصية الصحابة.

وأذكر أننا سجلنا فى شخصية سيدنا أبى بكر - رضى الله عنه - حوالى خمسين حلقة، كل منها عشر دقائق، عرف الناس فيها أبى بكر القائد لدولة ما بعد الرسول وكيف حافظ عليها، وأثبت فى حروب الردة أنه كان على دراية كاملة بجغرافية الجزيرة العربية لأنه أرسل إلى كل مكان فى الجزيرة العربية جيشاً، فبلغت وقتها أحد عشر جيشاً، وقضى على الردة والمرتدين بأسلوب خلط فيه بين السياسى والعسكرى. كما تعرضت الحلقات لوصيته التى وصى فيها يزيد بن أبى سفيان بالالتزام بأهداف وأخلاق الحرب فى الإسلام. وبذلك أضافت الحلقات إلى شخصية أبى بكر أبعاداً لم أجدها فى كتاب آخر، إلا كتاب الدكتور «محمد حسين هيكى» «الصدىق أبو بكر» الذى أسهب فيه الرجل فى كل تفاصيل شخصية الصديق أبى بكر.

وفي شخصية سيدنا علي، أبان الأستاذ الدكتور «عبد الشافي عبد اللطيف» بالوقائع والشواهد - التي كانت طيبة عنده - فلسفة سياسة الإمام في المال العام وكيف حافظ عليه، وكيف أن هذه السياسة جعلت بني هاشم تثور عليه وكانت سبباً في بعض المشاكل في الوقت الذي كان عنده مشاكل كثيرة متعلقة بمقتل سيدنا عثمان، ومع ذلك ضرب المثل في كيفية المحافظة على المال العام. وفي حديثه عن «خالد بن الوليد» عرضت الحلقات شهادات العسكريين العالميين الذين أشادوا بخالد في معارك الصحراء، واستشهدت بكتاب اللواء «محمود شيت خطاب» الذي كتب كتاباً عن خالد بن الوليد كأحد أعظم العسكريين في تاريخ البشرية.. وكان من ضيوف البرنامج الآخرين الدكتور «محمد عبد العليم العدوي» - رحمه الله - الذي كان مهتماً بالتاريخ الإسلامي من حيث القيم التي يجب أن تُستلهم منه في سبيل إصلاح حياتنا المعاصرة. وأيضاً الدكتور «مصطفى عبد المجيد» الذي اهتم بالصحابة من وجهة النظر التي تبحث عما في هؤلاء من خصال لكي يغيروا وجه العالم في سنوات قليلة..

ثم قدمت برنامجي الذي أقدمه منذ حوالى أربع سنوات وهو برنامج «سيرة ومسيرة»، هذا البرنامج الذي نستضيف فيه الإعلام في جميع المجالات الفكرية والعلمية والفنية التي تتفق مع فلسفة إذاعة متخصصة في عرض الإسلام بمقرراته وقيمه، فكان هذا البرنامج نافذة واسعة لمجموعة كبيرة من العلماء والمفكرين والمبدعين.. وسوف أعرض في الباب الأخير الذي خصصته للفكر في حياتي من هذه السيرة للشخصيات التي تأثرت بها وتأثر بها المستمعون من ضيوف هذا البرنامج.

ومن الألوان الإذاعية التي شاركت فيها وأصبحت أحد نجومها،

هذا اللقاء المباشر مع المستمعين، حيث الميكروفون أمامي والناس شهود في المسجد سواء كان على الهواء أو كان مسجلاً، ويكون معي فريق عمل مكون من صوت شجى من الأصوات التى تنقل القرآن الكريم مشخصاً بمبناه ومعناه، وهذا الصوت يكون من أحد مشاهير القراء فى مصر أو على الأقل مجازاً من لجنة القراء التى تختبر هذه الأصوات وتفرزهم لتخرج إلى العالم أهم ما تتميز به مصر من قوتها الناعمة ممن أصبحوا من أكبر الدعاة إلى الله بأصواتهم الشجية النقية النقية الصافية، ومتحدث يكون مؤهلاً لمواجهة الجمهور والتأثير فيهم بما يحويه عقله من فهم وما يحمله لسانه من قدرة على نقل هذا الفهم إلى الناس بأسلوب يصل بسهولة ويسر لملايين يستمعون إلى الراديو، وفى نهاية هذا اللقاء يكون الدعاء والابتهاال لتلاميذ «النقشبندى» و«نصر الدين طوبار» الذى يتفنن صاحبه فى صيغ الدعاء والمديح من عيون الشعر العربى فى مدح الرسول ﷺ.

لقد كنت على شىء من التخوف بل والتردد فى الدخول إلى ساحة هذه الصورة الإذاعية، خاصة وأن الأمر تم باختيارى، خوفاً من استقبال الناس مما يمكن أن يسبب لى حرجاً، وهل أنا قادر على القيام بهذا العمل الإذاعى الذى يحتاج الجرأة والجسارة على مواجهة الجمهور، وفى ذلك يختلف تماماً عن مذيع الهواء الذى يجلس وحده أمام الميكروفون فى غرفة مغلقة ويختلف عن البرنامج الذى يجلس فيه مقدم البرنامج مع ضيفه أو ضيوفه يحاوره أو يحاورهم. أما فى هذه الحالة فإن المذيع يقف أمام جمع كبير يحدثهم وجهاً لوجه، وفى نفس اللحظة يستمع إليه مستمعوه عبر الراديو ينقل إليهم صورة كاملة عن المكان والزمان وعن الفقرات المقدمة، بأسلوب يكون شاهداً على بلاغة صاحبه وعلى إجادته فى

توصيل رسالته، ويعتمد على وعى المذيع وأسلوبه ومنطقه. أبديت استعدادًا للقيام بالمهمة، وقدمت بين يدي ذلك بأننى منذ كنت طالبًا فى الجامعة وأنا أصعد المنبر لخطبة الجمعة، لذا فإن مواجهة الجمهور لا تمثل مشكلة، بالإضافة إلى أنى قد حضرت بعض هذه الأمسيات مستمعًا.

تقرر أن أذهب فى أول أمسية لى إلى قرية تابعة للمنصورة اسمها «ميت الفرماوى». وكانت فى أكبر مسجد فى القرية، وتقرر أن تكون بعد خطبة وصلاة الجمعة، وكان القارئ معى فى هذه الأمسية من القراء الكبار وهو فضيلة الشيخ الشحات محمد أنور ولم يكن يعرفنى، فلما رآنى لمحت فى عينيه آثار عَجَبٍ يخفيه فى اختلاسه النظرات إلىَّ حتى لا يسبب لى حرجًا، وبعد أن انتهت الصلاة وضع فضيلته يده على كتفى وحيانى وضمنى إلى صدره وكأنه قد أشفق علىَّ من الموقف ثم شجعنى بأن الناس تنتظرنى، وقال لى وهو يرفع عينيه كلمة تدل على ما فى نفسه من حرص على شخصى؛ أيها الجواد انطلق.

أدرت جانبى إلى الكاسيت الذى كان معدًا والشريط فى مكانه وضغطت بإصبعى رجلى أمام عيون من يجلسون فى الصفوف الأولى على زر record التسجيل وز play التشغيل لكى يبدأ التسجيل، وبدأت بالتقديم أمام المسجد الذى امتلأ عن آخره بالذين حضروا صلاة الجمعة وبرواد المساجد الأخرى الذين جاءوا لكى يستمعوا إلى الأمسية، فما إن بدأت - وكنت قد زينت فى خزانتى اللغوية بداية أخاذة قوية - حرصت على أن تكون عيني أثناء الكلام فى عيون الجالسين أمامى لتكون كلماتى أكثر تأثيرًا ولكى أزيل بهذا التقديم كل ما يكون من آثار ولو قليلة لنظرة عجز تفرض نفسها على بعضهم. وماهى إلا عبارات قليلة حتى وكأن

خدرًا قد سرى فيمن يجلسون أمامي، قوامه الكلمة المنتقاة والأداء القوي والصوت الجهوري الذي يناسب المقام، وبقدر ما رأيت من نظرة عَجَب رأيت نظرات احترام وتقدير، خصوصًا من مَجْمَع الأدب البشري والاحترام الإنساني والحذب الجميل القارئ الشيخ الشحات محمد أنور الذي قدمته للتلاوة، فقام أمام الناس جميعًا واحتضنني لتكون صداقة وأبوة من هذا الرجل القرآني الذي أصر أن يقرأ في عقد قراني في المسجد الذي تربيته ونشأت فيه، وأصبح - وهو من أكبر مشاهير القراء في مصر في هذه الفترة - لا يرفض مطلقًا المشاركة في أمسية أقدمها ويكون سعيدًا جدًا بذلك.

وكما كانت أول أمسية انطلاقة قوية كان ما جاء بعدها على نفس المنوال والصورة، حيث تعلمت أن المذيع المسئول عن خيوط نسيج الأمسية من قارئ ومتحدث ومبتهل يحدد لهم الوقت، ولا يسمح لأحد أن يعبث أو يسيء إلى أحد منهم، ولا يسمح لأحد أن يخرج عن دوره، وإذا حدث شيء من التجاوز لابد أن يكون حازمًا وحاسمًا في اتخاذ القرار خصوصًا إذا كانت الأمسية على الهواء.

وأذكر أن بعض قراء القرآن الذين لم يتعرفوا عليّ ولم يعلموا أنني مذيع الأمسية كانت لهم مواقف لاتنسى، لأن شكلي قد لا يجعل من يراني لأول مرة يصدق أنني مذيع إذاعة. أحدهم دخل المسجد وكنا ننقل صلاة الفجر من مسجد «نصر الدين» بالهرم، وكنت أجلس مع الناس فجاء وسلم على الجميع ولم يسلم عليّ، ظنًا منه أن هذا الجالس هو أحد الذين يغشون المساجد لحاجة، وقتها غضبت ولكن كتمته قسرًا لأنني أستعد للخروج على الهواء، وقمت من مكاني وأخذت موضعًا

قريباً منه ووضعت الميكروفون أمامي وهو ينظر وقد أخذه العَجَب، وبدأت في التحضير مع الفنّي استعداداً للخروج على الهواء. سأل الشيخ الفنّي: مَنْ المذيع؟ فقال الفنّي - بلغة عامية - وكأنه يبكته: «أنت مانتاش شايف الميكروفون مع مين يامولانا، الأستاذ رضا عبد السلام مذيع إذاعة القرآن»، فأسقط في يد الرجل الذي جاء معتذراً، ولكنني لم أفوت الفرصة وأخذت حتى برد فعل أردته درساً لصاحبنا بأن قلت له: ألم تقرأ الآية التي تقول: «ولقد كرمنا بنى آدم...»، فاعتذر الرجل وظل يذكرها بعد ذلك كثيراً كلما التقينا.

وفي المقابل، هناك مواقف لا تُنسى لشدة إنسانيتها، كما كان مع القارئ «الشحات أنور» ومع المبتهل الفنان الكبير «محمد الطوخى» الذي لحقته في أواخر سنين عمره، الذي كان إذا دخل المسجد وعلم أنني المذيع فرد ذراعيه من بعيد حتى أصل إليه ويضمّني إلى صدره، وكان عندما أبدأ كلامي في الميكروفون ينظر لي نظرة إعجاب يعبر فيها عن قلب طيب يجب للإنسان أن يحيا كريماً طيباً دون أن تضربه عواصف ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

وعند نقل الأمسيات الدينية قد تنتج مشكلة يحس بها المستمعون، كهذا الذي حدث منذ أكثر من عشر سنوات، حين كنت أنقل احتفال الإذاعة بالمولد النبوي الشريف من مسجد رابعة العدوية بمدينة نصر. وبعد أن انتهى القارئ من قراءته وكذلك المتحدث ثم بدأ المبتهل في الدعاء، وجدت شاباً يأتي من بعيد وعلى وجهه علامات الغضب وفي عينيه أثر للبكاء ويبدو على جفنيه اللذين ذبول الحزن، فأرسلت إليه عامل المسجد وتابعت ماكان بينهما فرأيت الصوت قد ارتفع وبدأ يتسلل

إلى ميكروفون الإذاعة، وجاءنى العامل ليقول لى إن هذا الشاب فى عزاء والده بجانب فى دار المناسبات الخاصة بالمسجد وأن صوت الأمسية يشوش عليهم، وأضاف العامل أن الشاب يمكن أن يتهور، فأخذت قرارًا سريعًا وطلبت من المبتهل الانتهاء فورًا، وطيرت الميكروفون مكرماً إلى دار الإذاعة دون ضرر.

وأذكر هذا الموقف الذى لا أنساه عند نقل صلاة التراويح من مسجد عمرو بن العاص فى ليلة السابع والعشرين من رمضان، حيث كان يؤم المصلين الشيخ «محمد جبريل»، وكنت مع الأستاذ إبراهيم مجاهد فى هذه الليلة، وهو الذى بدأ التقديم وأعطانى الميكروفون بعد ذلك فحملته فى عضدى وكأنى أحمل عضوًا من أعضائى، وأرسلت لسانى يصف هذه الوفود الحاشدة والوجوه الخاشعة والدموع التى تنحدر خوفًا وطمعًا. وأذكر وأنا أختتم هذه الليلة وكنا بجانب الشيخ جبريل الذى أنهى دعاء المشهور وقد جثوت على الأرض والناس فوقى وأنا أحاول جاهداً أن أحفظ لكلمات الختام استقامتها الصرفية واللغوية بعد أن ألقونى على الأرض، لم يحس المستمعون بشئ إلا بالجلبة التى لا يستطيع أحد أن يمنعها فى مثل هذا الموقف. موقف شبيه حدث لى أيضًا بعد خطبة الشيخ «محمد العريفى» فى مسجد عمرو بن العاص، فقد هجم الناس على الشيخ وكنت بجانب المنبر، والناس التى تجمعت حولنا تصدمننا بأرجلها دون قصد، وقتها أشرت لمساعد الفنى أن يمسك الميكروفون بسرعة اقتضاها الموقف..

هذه برامج قدمتها فى إذاعة القرآن الكريم على مدى مسيرة طويلة، كنت فيها واحدًا من فريق يعمل على توصيل رسالة الدعوة طبقًا للقيم

الإسلامية، حسب الإمكانيات المتاحة وحسب هامش الحرية الممنوح والذي كان يتسع ويضيق حسب الظروف والأحوال، ومواقف عشتها أثناء عملي مذيّعاً للهواء كأول مذيّع في العالم يقف أمام ميكروفون في أستوديو للبث المباشر على الهواء مستعيضاً عن يديه بإمكانات لا تقل مطلقاً عن زملائه - بل تزيد - في التحكم في مفردات الأستوديو وفي نقل صوته عبر موجات الهواء، بثقة صنعها بنفسه في داخل كل من نصب نفسه وصيّاً على إبداع الإنسان وجعل من نفسه حائطاً يحول دون تنفيذ البشر لأحلامهم الممكنة، ولكن هيهات لهذا أن ينجح سعيه المعدوم أمام من أراد لنفسه أن تحيا متوشحة بتاج الفعل الناجح والعمل المنتج والسعى الدؤوب نحو إثبات الذات، في مجتمع يرى من فاتته يد أو رجل أو عين كأنه مات حتى ولو دبت نفسه الوثابة على أديم الأرض سعيّاً أو سبحت روحه لمن منحها حق الحياة أو نفذت بصيرته لتحكم سفينة الحياة رشداً وعقلاً وفهماً.

هذا المجتمع الذي يجبرنا على أن نعيش حياة نموت فيها ألف مرة مع كل موقف نريد فيه انتزاع الحياة، لكنه موت لكى نحيا حياة الكرامة الإنسانية حتى ولو شَجَّنا التعب أو أَلَمَّتْنا العوادي، حياة يعترف فيها المجتمع أن لنا وجوداً فيه عنده وما نريد أكثر من أن نعيش كما يعيش الناس. وإذا كان اختيار فليكن لمن يستحق ولمن يقدم ما ينفع به نفسه وما ينفع به المجتمع، لذلك كنت حاداً جداً وربما يعرف ذلك عنى كل من ربطتنا في الحياة علاقة قريبة، وقد يكون ذلك لكثرة ما تعرضت له في حياتي من ضياع لحق أو إهمال لذاتي أو محاولة لتزيين كلمات لا تسمن ولا تغني من جوع. وأعترف أن ذلك كان عبئاً شديداً على تفكيرى وسلوكى وعلاقاتى، حتى خَلَفَ مرض الضغط في سن صغيرة ومظاهرة دائمة للقولون العصبي على جسدى النحيل، كما خَلَفَ قلقاً يزيد وينقص تجاه ما هو كائن وما هو قادم يخبئه القدر. ولكنى راضٍ تماماً عن مسيرتى مع هذه الحديدية العجيبة التي

أبثها ما عندى من أمل فتبعته معان راقية وقيماً أصيلة وكلمات معبأة بالخير لكل من يصله صوتي عبر الراديو في أنحاء مصر والعالم.

سفير الإذاعة

إذاعة القرآن الكريم في الإعلام المصرى لها خصوصية قد لا تتوافر لأية وسيلة إعلامية أخرى، إذ تمثل ملتقىً إعلامياً للدول العربية والإسلامية، الذين يكون للخطاب الموجه إليهم تأثيره البالغ في إثراء قيم التعاون والترابط والاتحاد التى تستحيل فى الواقع لكنها تتحقق عبر موجات الراديو. لذلك كانت هناك مبادرة فى أواخر الثمانينات بنقل صلاة العشاء والتراويح من المسجد الحرام والمسجد النبوى الشريف بمكة المكرمة والمدينة المنورة. ولأن هذا النقل كان على الهواء مباشرة كان لابد لمن يُختار لهذه المهمة أن أن يتمتع بالإمكانات اللازمة للقيام بهذه المهمة الصعبة، إضافة إلى أن يكون مستعداً لبعض الأمور التى قد لا يعمل لها حساباً فى المملكة العربية السعودية، لذلك اختير للمهمة أكثر المذيعين كفاءةً ولياقةً من حيث اللغة والأداء، وكذلك كان لهم خبرة بالمجتمع السعودى إذ كانوا معارين هناك لعدة سنوات.

فى ظل هذه الشروط، ظل السفر محصوراً فى ثلاثة كبار فقط، هم الدكتور «فوزى خليل» - رحمه الله - والدكتور «على طبوشة» والأستاذ «إبراهيم مجاهد». وظل هذا الوضع قائماً إلى أن جاءت الدكتورة «هاجر سعد الدين» رئيسة لشبكة القرآن الكريم، فأرادت أن تغير هذا الوضع وأن تتيح الفرصة لغير هؤلاء الثلاثة. وقتها حاول البعض ثنيها عن الإقدام على هذه الخطوة ولكنها أصرت على موقفها، وكانت حجتها

أن جميع المذيعين تقريباً يمكن أن يؤدوا هذه المهمة بنجاح فلماذا يستحوذ عليها قلة منهم؟! .. صحيح أنهم خير من أنجبت الإذاعة لكن لابد من أن يكون هناك مشاركة خاصة وأن لها مردوداً مادياً ولها أيضاً - وهو الأهم - التقدير الأدبي الذي يحظى به من يجلس وأمامه الكعبة المشرفة أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض، وهو يصف للناس ما يرى وينقل لهم الصورة أمامه وكأنهم معه، وكذلك من المسجد النبوى الشريف وبجانبه بيت الرسول ﷺ وصاحبه أبو بكر وعمر، فما أعظمه من موقف.

واختارت الدكتورة هاجر لهذه المهمة زميلنا الولي الصالح الأستاذ «أبو بكر»، الذى كان هو الاختبار للتجربة التى تحملت نتيجتها. ويذهب أبو بكر وينطلق صوته براءة ليس لها نظير وبروحانية من توحّد في المعانى التى كانت تأتية وهو يرى الكعبة المشرفة وكأنها الملهمه، وأخذ يصف ما يرى ويصف في نفس الوقت مشاعره المتدفقة في تلك اللحظات، وجرت اللغة العربية على لسانه وكأنها ماء جار ينساب سهلاً عبر سهول النفس المشتاقة والروح الهائمة والعقل الذى يمسك بالدفة كالربان. وأصبح أبو بكر هو الباب الذى فتح علينا هذه النعمة السخية التى كانت مقصورة على كبار المذيعين.

ووضعت الدكتورة هاجر كعادتها معنا أسس العدل الوظيفى فكان لكل مذيع الحق في السفر، خاصة وأنها كان لها السبق الإعلامى في نقل ميكروفون إذاعة القرآن من مصر العريقة عربياً وإسلامياً إلى أنحاء كثيرة من الوطن العربى والعالم الإسلامى، فنقلت صلاة العشاء والتراويح من سوريا من المسجد الأموى في دمشق ومن مسجد الزيتونة في تونس ومن مسجد في إحدى دول البلقان التى كانت حديثة العهد بالاستقلال ومن

مسجد في إسبانيا الأندلس ومن الإمارات العربية المتحدة ومن المملكة المغربية، وكانت فترة نادرة للإعلام المصرى حيث استطاع التواجد بقوة في هذه الأماكن..

وجاء دورى في السفر، وكان إلى دبی في المسابقة الدولية للقرآن الكريم التى تقيمها إمارة دبی سنوياً، وكانت من السفريات التى ينتظرها الجميع، لأن فيها ضيافة من المسابقة وتهاً جميع الظروف لعمل المذيعين والصحفيين والمراسلين، وكنت أعرف أن الدور علىّ في هذه المسابقة فانتظرت ماذا سيحدث؟. وبعد يومين اتصلت بى الدكتورة «هاجر» تليفونياً وأخبرتني أن الدور عليك في هذه السفرية إلى دبی وعليك أن تجهز نفسك للسفر، وأسأل من سافر قبلك حتى يكون لديك المعلومات اللازمة سواء للمعاملة هناك أو لطبيعة نقل الرسائل وكيفية إرسالها.

كدت أطيّر من الفرح، وجلست أنا وزوجتى نجد حلّاً لكل مشكلة خاصة بملبسى بحيث لا أحتاج أحداً في هذا الأمر، واشترت الحزام الذى يُرَكَّب فى البنطلون بحيث أستطيع أن ألبسه كما أريد، وبالنسبة للملابس الداخلية وجدنا لها طريقة فيها بعض التعب لكنها منجزة. وأصبحت جاهزاً فى خلال يومين من حيث الأمور التى يمكن أن أحتاج فيها إلى أحد للمساعدة.. ولا أنسى موقفاً حيث قال عبد الرحمن ابنى وكان سنه حوالى أربع سنوات لأمه: يا ماما مين اللى هايلبس بابا ويقلعه؟! فردت عليه أمه وهى تحتضنه بما يطمئنه. وفى يوم الحصول على التأشيرة للسفر طلبتنى الدكتورة هاجر فى مكتبها، وسألتنى وهى متحرجة بلسان الأم الرؤوم الطيبة الحانية عن موضوع الملبس وأحسست أن عليها ضغطاً ما فأجبتها بما يطمئنها.

وسافرت إلى دبي، لأجد من ينتظرنى فى المطار من المسابقة، ووجدت شابًا من شباب قريتنا عَلمَ هو وأصحابه أننى سأكون هناك، فركبنا السيارة إلى فندق سفير فى مدينة دبی حيث كانت وفود جميع الدول المشاركة فى المسابقة من معظم دول العالم، وسكنت فى غرفة واسعة وحدى ومعى تليفون أستطيع أن أستقبل عن طريقه جميع الاتصالات من مصر.. وبمجرد وصولى أبلغتهم فى مصر، وكان يجب أن يتواصل معى مدير المذيعين، لكنه لم يعرنى أى اهتمام ووجدت من يستقبل منى الرسائل اليومية هو الأستاذ «إبراهيم مجاهد» وليس مدير التنفيذ المباشر لى، فلم أسأل وقتها وبدأت فى عملى.

كنت أكتب اسم كل متسابق ومن أى دولة وانطباعى عنه، وكيف أذى أمام لجنة الامتحان التى كان نائب رئيسها هو العلامة المصرى الكبير الشيخ «عبد الحكيم عبد اللطيف» الذى كنت أذهب إلى غرفته وأعرف منه ما خفى على جميع الصحفيين والمراسلين. وكنت بعد أن نعود من المسابقة أغلق على نفسى باب غرفتى وأكتب الرسالة، وكانت رسائل قوية من حيث المعلومة ومن حيث العرض الأدبى الذى كنت أراعى فيه الخبر والمعلومة وعرض الصورة كاملة وانطباعاتى الشخصية من خلال ما رأيت وعانيت. وقد وَجَدَت هذه الرسائل قبولاً لدرجة أن الدكتورة «هاجر سعد الدين» وقتها اتصلت بى قبل نهاية المسابقة بيوم واحد وصاحت بأعلى صوتها فى التليفون: شرفتنى يا رضا، فأحسست أن فى الأمر شيئاً. وفى نهاية المسابقة علمت بالنتيجة قبل إعلانها بقليل وعلمت أن الأول كان شابًا من تشاد.

وبعد إعلان النتيجة ذهبت إلى الفائز وكنا بالليل، فطرقت باب

الغرفة فوجدت زميله يرحب بي، فسألته عن هذا الذى فاز بالمركز الأول ودخلت الغرفة لأجد هذا الشاب يقيم الليل شكرًا لله على النجاح. وأجريت معه لقاءً لإذاعة القرآن الكريم، وكان مما سألته: ماذا تفعل بهذا المبلغ؟ وكان حوالى - على ما أذكر - 500 ألف درهم إماراتى، نظر إلى الشاب الذى تخلل نور الصلاة وجهه الأسمر فأصبح كأنه ياقوته من يواقيت جنة الأرض وقال: سأبنى بها مدرسة ومجمعًا إسلاميًا كبيرًا. فخرجت وقد امتلأت رضا بهذه النتيجة العادلة.

وكان الفائز الثانى شابًا من تركيا، وكان عندما يقرأ القرآن الكريم يجذب إليه كل من فى القاعة، فتشخص أبصارهم إلى هذا الأعجمى الذى يرجع صوته شجيًا بالقرآن الكريم. وعندما ذهبت إلى هذا الشاب الذى لأجرى معه حوارًا اعتذر لأنه لا يتكلم العربية إلا القرآن، فقلت سبحان من سخر القرآن للذكر لمن يذكر. وكان فى هذه المسابقة طفل إيرانى سنه عشر سنوات اسمه «مهيار»، حاز شهرة واسعة فى العالم كله بعد المسابقة، كان هذا الطفل يرد على كل سؤال يسأله الممتحنون فيجيب ثم يقول هذه الآية فى الصفحة كذا على اليمين أو الشمال وفى السطر كذا فى الصفحة فأبهر الجميع، فتسللت إلى غرفته لأحظى منه بقاء فاستقبلنى والده ورحب بى ولكن قال إن ابنه لا يتكلم العربية إلا القرآن، فكان هذا الطفل هو فاكهة المسابقة وهديتها.

وانتهت المسابقة التى أكرمت فيها دى زائريها سواء على مستوى المتسابقين أو المراسلين الصحفيين أمثالنا، وانتهت بتكريم سمو الأمير «محمد بن راشد آل مكتوم» للمتسابقين فى احتفال مهيب ولشخصية العام وقتها والتى كانت مؤسسة الأزهر الشريف فى هذا العام. ولأن المسابقة

تجربى فى العشرين الأول من رمضان كان لها عقب رمضانى خاشع تهل فيه بركات الشهر الكريم.. ومن المواقف التى لا أنساها أننى فى إحدى الليالى دخلت المصعد فرأيت الفنان «حسن يوسف» ومعه سيدة منتقبة، فعرفته بنفسى فسعد جداً، وعندما سمعتنى زوجته قالت نحن نسمع إذاعة القرآن وبرامجها، وكان الفنان حسن يوسف من المكرمين فى هذه المسابقة لأنه كان يذاع له فى نفس السنة وفى رمضان مسلسل عن حياة الشيخ محمد متولى الشعراوى.

رجعت من دى، وكان من الطبيعى أن أتصل بالرئيس المباشر لى وهو مدير التنفيذ، وما أن سمع صوتى فى التليفون حتى بدى عليه الإهمال الشديد لى، وأخذ يسخر من كلامى بعد أن قلت له إننى فعلت كذا وكذا، فعجبت من موقفه، لكنى أخذت حقى وقتها إذ قلت له إن الدكتور هاجر قالت لى شرفتنى، وانتهت المكالمة معه. لم أضع سماعه التليفون وإنما طرقت على التليفون برقم الدكتور هاجر سعد الدين التى هناأتى بما فعلته، وشكوت لها ما حدث من مدير التنفيذ، فقالت لى: إنها كانت تعلم أنه سيفعل ذلك معى. وذكرتنى عندما استدعتنى لتسألنى عن استعدادى للسفر وقالت إنه كان يطمع فى هذه السفيرة فلما حالفك التوفيق كان لابد أن يكون هذا موقفه منك، فلا تحزن.

والرحلة الثانية كانت للمملكة العربية السعودية لنقل فعاليات الحج، وهذه لها قصة تقول لكل مشتاق عليك باللجوء إلى الله بصدق ودع الأمور عليه. كنت تلميذاً للأستاذ الكبير الدكتور «عبد الحليم عويس» الذى كان شخصه عبارة عن قلب كبير يحمل للناس كلهم فيه حباً ووداً وأدباً جماً عرفته واقتربت منه، وكان هو من أبرز الوجوه لرابطة العالم

الإسلامى فى مصر، وقضى فى الرابطة مع مؤسسها سنين طويلة. طلبت من الدكتور عبد الحليم أن أحج مع رابطة العالم الإسلامى، فوعدنى، وكان ذلك قبل موسم الحج بكثير، وإذا به يتذكر بعد حلول أول ذى القعدة واتصل بى وذهبت إليه بجواز السفر وطماننى أننى سأسافر، وعلم كل من حولى أننى سأحج هذا العام. وأخذت الأيام تتوالى يوماً بعد يوم، وفجأة وجدت الدكتور «عبد الحليم عويس» يتصل بى يبلغنى بسفره وألا أفلق إذ أن التأشيرة سوف تأتىنى، وتركنى وسافر. كنت أذهب يومياً إلى القنصلية السعودية فى جاردن سیتی لأسأل، ويكون الجواب: التأشيرة لم تأت. فتسلل اليأس إلى نفسى وكدت أموت حزناً وكمدًا، لكن سلمت أمرى لله وأيقنت أن الأمر قد استحال ومع ذلك لى أمل فى ربى.

وفى ليلة، قمت قبل الفجر ووقفت بين يدى الله - سبحانه وتعالى - وبكيت وسألته أن ييسر هذا الأمر لى أو أن يكتب لى الرضا بما يقضى، وذهبت لصلاة الفجر، ثم ارتديت ملابسى إذ كانت عندى فترة إذاعية من الثامنة صباحاً إلى الحادية عشرة، وبعد أن انتهت ركبت تاكسى من أمام مبنى الإذاعة ووصلت عند الشباك الخاص بالتأشيرات وسألته هل هناك تأشيرات جديدة، وصلت خاصة وأن هذا آخر يوم وستغلق المطارات، فقال لى استرح فأدرت ظهرى، عندها سمعت صوتاً هادراً يأتى من داخل القنصلية من وراء شبكات الحديد «يارضا عبد السلام مبروك جات لك التأشيرة»، فخررت ساجداً على الأرض. ولكن شد انتباهى أن الذى ينادى كان كأنه يعرفنى، هذا واضح من لهجة النداء، فنظرت خلفى فوجدته زميلاً كان معى فى مدرسة الثانوى لم أراه من حوالى

خمس عشرة سنة، حكى لى قصة قد لا تحدث إلا فى الخيال. أخبرنى أنه دخل مكتب أحد زملائه، وأثناء وقوفه أمام المكتب رأى صورة لشخص يعرفه فتأمل فى الصورة، هذا رضا عبد السلام زميلنا، فأمسك بجواز السفر وسأل زميله عن سبب رجوع هذا الجواز، فقال السبب رقم يحتاج إلى تصحيح لذلك لابد من الاتصال بالسعودية، فأخذ زميل الجواز وصحح الرقم وأصبح صاحب الجواز جاهزاً للسفر، فشكرته وخرجت بسرعة، حيث كان آخر يوم فى السفر. ثم ذهبت لشركة الطيران وقلت للموظفة لاتقولى لى مافيش تذاكر، فقالت لى هناك تذكرة لمسافر لم يؤكّد حجزه وكأنها تنتظرك، فاتصلت بزوجتى وكانت المفاجأة المذهلة عندما أبلغتها أننى سأسافر فى طائرة الثامنة مساءً.

فى العاشرة من مساء ذلك اليوم كنت فى مطار الملك عبد العزيز بجدة، وفى منتصف الليل كنت أطوف حول الكعبة وأصلى ركعتين خلف المقام وأسعى بين الصفا والمروة وأملأ نفسى وروحى ووجدانى بماء زمزم العذب.. وفى الصباح، فى مؤتمر تقيمه رابطة العالم الإسلامى فى فندق بمكة، وجدنى الدكتور «عبد الحليم عويس» أمامه فى مفاجأة جعلته يقول لى كنت أعلم أنك ستأتى لأنى أعلم كم أنت مشتاق.

ونقلت فاعليات الحج يومًا بيوم، لكنى لم أكن أستطيع أن أنقل على الهواء لأن ذلك يتطلب أن أكون فى مهمة رسمية من الإذاعة، ومع ذلك تمكنت من النقل لإذاعة القرآن الكريم بصفة استثنائية، فنقلت كل الصور التى رأيتها فى هذه الرحلة النورانية خبرًا ومعلومة ومشاعرًا وزمانًا ومكانًا. وكانت من أعظم الرحلات فى حياتى، حيث كان الاختيار فيها من الله سبحانه وتعالى بعد أن انقطعت عنى الأسباب وتعلمت منها ألا

أقطع الأمل في شيء أبداً مادمت مؤمناً بأن لي رباً رحيماً، سبحانه إذا قال للشيء كن فيكون.

شخصيات لا تنسى في مسيرتى الإذاعية

هذه شخصيات كبيرة النفس عظيمة العطاء سخية ثرية، لها في نفس كل من تعلم على يديها أو تعاون معها أو اقترب منها كل التقدير والاحترام والتبجيل. سأبدأ بهذا العلم الإذاعي الكبير صاحب الصوت النقي اللامع ذو النبرة الواثقة واللهجة الحازمة، الأستاذ الكبير «عبد العال هيندى» من أفضل من قرأ نشرة الأخبار في الإذاعة المصرية. هذا الرجل الذى يرتفع عود جسمه الطويل في الفضاء شامخاً تظلمه هالة من كبرياء المعتر بنفسه في تواضع، وعيناه تسكنان وراء نظارته السوداء البسيطة، ووجهه تشرق منه بسمة القبول دائماً. هذا الأستاذ الكبير كنا تلامذة له في بداية دخولى الإذاعة، حيث كان يشرح لنا كيف تقرأ نشرة الأخبار وكيف تتعامل مع الأخبار على اختلاف درجاتها وأنواعها. ومن أهم الدروس التى تعلمناها من هذا الرجل ما تميزت به الإذاعة المصرية عن بقية الإذاعات فى المنطقة فى نشرة الأخبار وهو الحيادية عند قراءة الخبر بمعنى أنك يجب أن تكون أميناً عند قراءة الخبر فتقله بألفاظه ومعناه دون أن تنحاز لما فى الخبر، وأن تكون مهنيّاً فى تناولك، فتبدأ الخبر، وكأنك تريد أن تحكى حكايته دون أن يكون لك رأى ترسله من خلال أداك، أما بالنسبة للتعليق على الأحداث والتى كانت تتميز به الإذاعة المصرية هنا تأخذ مكان كاتب التعليق لأن هذا من قبيل الرأى. وكان - رحمه الله - له أدبه العالى معنا جميعاً، وأذكر أنه دائماً ما كان يشنى على

أدائي وينبهنى أننى متأثر بإذاعة لندن وأن الصاد كما قال تفلت منى قليلاً
 فيزيد صغيرها مما يخرجها إلى منطقة السين. وظل إلى أن توفى - رحمه الله -
 وهو بشموخه الإذاعى المعروف وبوجهه الذى كان يحتويننا نحن تلاميذه
 أدباً وعلماً وفناً إذاعياً.

«أبلة فضيلة» هذه التى صاحبتنا صغاراً وبشت فى نفوسنا صوتها
 الأمومى الرقيق لكى تعلمنا قيماً إنسانية رفيعة. هذه القائمة الإذاعية
 اقتربت منها ضمن دورة إذاعية، وكان أهم ما تعلمته منها فى هذه الدورة
 أن الإذاعى إذا صدق الميكروفون الذى أمامه فسوف يصدقه الميكروفون
 ويكون أميناً فى نقل كل ما يقوله للناس وسوف يستقر ذلك فى عقولهم
 وقلوبهم كما أراد. وهى التى قصت علينا كيف يُعد البرنامج وكيف يكون
 لمقدم البرنامج رأى فى الاختيار من خلال درايته بالفئات التى تسمعه
 والتى يستهدفها برسالته، ودلت على ذلك بما كان يكتبه الأستاذ «عبد
 التواب يوسف» الذى حضر معها محاضرتين أثناء هذه الدورة وأسهب
 فى كيفية الكتابة للطفل وفى شرح المواصفات اللازمة لذلك.

وحدثت مشادة لطيفة أثناء محاضرة الأستاذ عبد التواب يوسف إذ
 تطرق إلى حجاب المرأة وقال إن القرآن ليس فيه آية لوجوب الحجاب،
 وبعد أن انتهى طلبت الكلمة وشكرته أولاً ثم قلت: وليسمح لى الأستاذ
 عبد التواب أن أقول أن هناك آيتين واضحتين فى وجوب الحجاب فى
 سورة النور وفى سورة الأحزاب، هنا سألنى الأستاذ عبد التواب عن
 الإذاعة التى أمثلها قلت إذاعة القرآن الكريم، ودار بيننا نقاش هادئ،
 وبعد المحاضرة انتصرت لكلامى أمام الأستاذ عبد التواب يوسف الذى
 كان واسع الصدر وجادلنى بأدب لكنه لم يقتنع بما قلت!!

ومن تعلمنا منه جميعاً في إذاعة القرآن الكريم الدكتور «عبد الصمد دسوقي»، هذا الإذاعي الكبير الذى كان مديعاً كبيراً فى البرنامج العام، ثم بعد رحلة طويلة من العمل الإذاعي والأكاديمي جاء رئيساً لإذاعة القرآن الكريم فغير وجه الإذاعة بحسه الإذاعي وخبرته أمام الميكروفون وتدريسه الإعلام الأكاديمي. لقد أصبحت خريطة الإذاعة فى عهده تتألاً دائماً بكبار القراء فى ذروة أوقات الاستماع، وكان الأذان لا يذاع إلا بأصوات القراء الكبار أمثال الشيوخ «محمد رفعت ومصطفى إسماعيل والحصرى» وغيرهم من الأعلام، أما القراء الجدد فكان يتيح لهم التواجد فى الأمسيات على الهواء أو المسجلة. وكان يوظف إمكانات العاملين جميعاً خير توظيف، وكانت له بصمة فى توجيه المذيع أو مقدم البرنامج. وحدث أن جمع جميع المذيعين ومقدمى البرامج ليوصف أصواتهم وحتى يعطى كل منهم مايناسبه من عمل، وأذكر أنه أثنى على أدائى بالصوت المنخفض أمام الميكروفون، فكان يقول أحس أنك تجلس معى تحدثنى، وهذه ميزة أن يكون المذيع بعيداً عن التكلف. وقد ساهم فى طيران الميكروفون إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة كل عام لنقل صلاتى العشاء والتراويح فى العشر الأواخر من رمضان. وكان يتميز بشجاعته أمام المسؤولين الكبار..

أما هذه السيدة الوقور الدكتورة «هاجر سعد الدين» التى رأت إذاعة القرآن لعدة سنوات هى من أفضل سنوات عملنا فى إذاعة القرآن الكريم، حيث كانت تسير فىنا بالعدل والقسط فكان لا يُظلم أحد عندها. وكانت إدارتها بقدر الحزم الذى كانت تتمتع به، إلا أنها لا تخلو من إنسانية. ثم إنها من كبار الإذاعيين فى تاريخ الإذاعة المصرية ببرامجها

الشهير على موجات البرنامج العام والذي نقلته معها إلى إذاعة القرآن الكريم، وهو برنامج «رأى الدين». وفي عهدها حافظت على المنهج الذى سار عليه قبلها الدكتور «عبد الصمد»، وهى التى جعلت إذاعة القرآن الكريم تصل إلى أنحاء كثيرة من العالم، مشاركة لمصر مع هذه الدول العربية والإسلامية. وأذكر لها مواقف لا تُنسى معى كموقفها فى سفرية دى وما حدث منها تطبيقاً للعدل. وكانت كل أمنيته أن تكون الإذاعة فى أحسن صورة..

ومن الرواد الكبار الذين لحقت بهم وعملت معهم الأستاذ الكبير «عزت حرك» ذو الصوت المبحوح الجميل الذى كانت ترتاح إليه الأذن، صاحب برنامج «بريد الإسلام» والذى كان شديد الأدب مع كل الناس وكان قامة إذاعية سامقة. والدكتور «عبد الخالق محمد عبد الوهاب» الذى كان والدى - رحمه الله - ينتظر برنامج «من بيوت الله» الذى نقل لمصر كلها من خلاله أصوات القراء الكبار، وبث قيم الإسلام بكلمات من علماء مصر الكبار وقتها، وها هو ابنه الإذاعى النابغ «عماد الدين عبد الخالق» يكمل مسيرة العطاء التى بدأها والده..

وزملاء آخرون تعلمت منهم - كما أسهبت قبل ذلك - كالأستاذ «إبراهيم مجاهد» والدكتور «فوزى خليل». ومن زملائى الذين وفدت عليهم فى إذاعة القرآن وكانوا نجومًا وقتها هذا الصوت الرصين الهادئ الأستاذ «عبد القادر الزنفلى» الذى صحبته سنوات طوال فى برنامج «قطوف من السيرة». والزميل الدكتور «محمود خليل» صاحب الحوارات المشهورة التى قد يحتل فيها مكان ضيفه. والزميل «عادل عبد القادر» صاحب الثقافة الواسعة. والزميل «رجب خليل» الذى يجب أن

يرجع إلى إذاعاته الخارجية التي ينقل فيها الصلاة من المساجد الكبرى لكي يتعلم الجيل الجديد، وخاصة نقله لموسم الصلاة في رمضان من المسجد الأموي بدمشق والتي كانت شديدة الروعة والتألق. والزميل «أحمد همام» الذي خطفته السياسة من باب خدمة الناس لكن الإذاعة في دمه فقد حقق فيها. نجاحات كبيرة، منها نقله المشهور من المسجد الأقصى المبارك والذي كان حديث الإذاعة وقتها. وزميلنا «سعد المطعني» الذي عُرف ببرنامج الشهير «المصحف المعلم» الذي تعلمت منه مصر كلها كيف تقرأ القرآن الكريم قراءة صحيحة. وما زالت هذه الإذاعة تعطى عطاءً لا ينضب لأن معينه القرآن وسنة المصطفى ﷺ. وهامهم أبناؤها جيلاً بعد جيل يخلصون في رسالتهم الإعلامية في الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

الفصل الرابع

معركة الحب والزواج والأسرة

تمهيد واجب

قد تكون المواقف والأحداث في هذا الفصل - كما حدثت بتفاصيلها - نورًا وضياءً على الطريق لمن يسلكون نفس الدرب، وأيضًا لمن تكون لهم آراؤهم المعارضة في نفس الموضوع الذي يكون فيه طرف مثل وهم كثر في مصر وغيرها، وعليها تكون عبرة لمن ارتضى أن يكون حجرًا في مجرى نهر الأيام يعيقه أن يروى الظمأى بهاء الحياة. كما أرجو أن تكون هذه الأحداث قوةً وسندًا لمن يطالبون بحق الحياة دون المساس بحقوق الناس ومشاعرهم ودون أن يسعى في قطع الأرحام أو زلزلة القيم. إن هذا الشخص في مثل هذه المواقف يكون بين فكى رحي، فهو مطالب بالمحافظة على القيم وفي نفس الوقت يطالب بحقه في الحياة، فلا ضرر عليه ولا ضرار يسببه لغيره.

ولأن العقبة كانت كؤودًا جدًّا، فقد تسلحت برحابة الصدر ولين الجانب وسعة القلب الذى يسع الدنيا كلها، حتى أصبحت سلاسل

القفل وكأنها حرير ينسل الرضا والقبول بعد سنوات من الصبر الجميل الذى يتشح بالتعقل، حتى دانت ثمار القلوب وهدأت ثائرة النفوس وشفيت العقول من آثار خبث الإنسان لأخيه الإنسان، وإذا بمن أقام جدًّا للخصام واللدد يهدمه ويقيم مع حفيده ابن ابنته وابنى الدكتور «عبد الرحمن» جدار المحبة الدائمة والعرفان لمن خلق الإنسان.

فى نفس الشارع

كان الشارع الذى عشت فيه سنوات عمرى الأولى وفترات الصبا وبداية الشباب يمثل المجتمع المصرى فى نقائه وتعاطفه وتعاونه، وكان يمثل طبقات من هذا الشعب الكادح المسكين الذى يبحث كل منهم عن لقمة عيشه الحلال، وكنت لهؤلاء جميعًا ابنهم الذى كانوا يحبونه ويعتبرونه واحدًا من أسرهم.. ففى هذا الشارع كان صديقى الترنزى الذى كان يحمل عنى عناء البحث عن ملابس جاهزة وكان يقوم بخياطة كل ما يلزمنى من ملابس مناسبة، حيث كان المتعارف عليه بالنسبة لمثل أن يتدلى الكم من اليد القصيرة، ولكنه صنع لى الكم المناسب الذى سار عليه بعد ذلك كل من حاك لى ملبسًا أرتديه، وكان يرفض أن يأخذ مقابلًا عن عمله لأنه يفعل ذلك لأخيه. وأيضًا أخوه الذى كان يحملنى فى قلبه حبًّا ولا يستطيع أحد أن يقترب منى سواء فى لعب الكرة أو فى أى مكان أوجد معه فيه. والسيدات فى هذا الشارع كانت كل واحدة منهن تعاملنى كما تعامل أولادها تمامًا. وكل هؤلاء كنت أبادلهم حبًّا بحب وكنت شديد الأدب معهن طوال حياتى التى عشتها معهم بعد ذلك، لدرجة أن واحدة منهن كانت جارتنا اللصيقة طلبت وهى على

فراش الموت رؤيتي، فأخبرني ولدها الطيب فطرت إليها أُقبل رأسها فأفاقت وأنا بجوارها فحمدت الله، وبعد ساعات قليلة أسلمت الروح إلى خالقها، رحمها الله.

وكان من سكان هذا الشارع زوجتي التي كتب الله في القدر أنها رفيقة العمر وصاحبتي في الحياة، تعيش مع أسرتها التي تتكون من والدها الذي كان يعمل موظفًا في الإدارة الصحية في مدينة قويسنا، وأمها ست البيت وجدتها لأمها. وكان بيتهم كمعظم بيوت القرية يشقى فيه الأب لكي يضمن لأفراد أسرته حد الكفاف والعيشة الكريمة، خاصة وأنها كانت أكبر أولاده وبناته. منهم بنتان غيرها وثلاثة أولاد ذكور. وكانت علاقة الأسرتين طيبة كبقية البيوت التي تجاورنا، خاصة وأن أمي ثم خالتي بعدها كانت معاملتها طيبة مع الجميع، وهذه عادة أهل الريف، ولم تنشأ بيننا علاقة إلا بعد ما دخلت المرحلة الجامعية.

كنت وهي في فترة الثانوية العامة أدرس لها ولزميلاتها دروس النحو والبلاغة، فوقعت عيني على صفات أبحث عنها في هذه البنت، ولكني ظلت فترة مترددًا لأكثر من سبب؛ أولاً أن قضية الزواج كانت مما يمثل لي قلقًا عندما أطرحه على نفسي، خاصة أنني كنت قد وصلت إلى درجة من الوعي والنضج الفكري يجعلني أواجه نفسي بالحقائق مجردة بعيدًا عن التمني أو محاولة التسلق لجبال وهم لا أثر له في واقع الناس، جبال يمكن أن أسقط منها على واقع لا يرحم.

وكانت لي في بداية عملي في الإذاعة بعض العلاقات التي كانت يمكن أن تثمر عن ارتباط عاطفي في هذه الفترة المبكرة، وأعترف أنني قد شغلت فترة من الوقت بعلاقة من هذه العلاقات كان فيها الطرف الآخر

يجرّكه عقل راشد وقلب يتحسس الخطى وعينان تفضح ما فى القلب من مشاعر، ولكنى لمحت فيها التردد، وبقدر ما كانت تقترب أحياناً كانت تبعدّها حسابات أدركها تماماً، وكنت ألحظها فى نقاشنا حول مسؤوليات الرجل والمرأة والطموح الذى تتمناه كل امرأة وإثبات ذاتها، لكن المحير فى الأمر أنها كانت بعد هذا الكلام ترسل عينيها برسائل يعرفها كل من عرف لغة العيون عندما تشخص للمنازلة فى ساحة الوجد الجميل وأيضاً عندما تتحدث عنى وعن قدرتى. ولكن لما راجعت حساباتى وطرحت الأمر للمناقشة بينى وبين نفسى وجدته لا يصلح لالى ولا لها، وأخذت رأى صديق واحد كان يتابع هذه العلاقة فشاركنى الرأى، وعند وقت معين أصدرت قراراً بالعودة من ساحة الوجد والحب إلى ساحة الصداقة، وأرسلت رسائللى التى التقطها عقلها الفطن الذكى فظللنا أصدقاء إلى أن رحلت فى دنيا الله.

وكان دائماً ما يدور بينى وبين إخوة وأصدقاء أكبر منى سنّاً حوارات حول هذا الموضوع. كان رأيهم أن الأمر طبيعى وأنت قد أنجزت نجاحاً فى حياتك وأن هذا جواز المرور لهذه المرحلة المهمة فى حياة أى إنسان، وأنت تتمناك أية بنت تتقدم إليها، وكنت أعتبر هذا من باب المجاملات الرقيقة. وكنت أخالف من يقول هذا الكلام حتى ولو لم أصرح، لأنى أعرف نفسى وأعرف أن من تقبل الزواج لا تتزوج قصص النجاح ولا تتزوج السمعة، وإنما ستعيش مع هذا الشخص الذى يجب أن تعلم أنه مختلف عن كثير من الناس وأنها قد تتحمل عبئاً أكثر من أى زوجة أخرى بحسب الصورة القائمة.

لذلك كان همى فى البداية أن أبحث عن سمات أساسية لا بد من

وجودها لكى أفكر فى الموضوع. أن تكون شخصية مقبولة عندى أحس عندما أراها بشىء يشدنى إليها، وأن تكون متدينة، وأن تكون من أسرة طيبة، وأن تعلم قبل أن تأخذ القرار بكل ما يتعلق بحياتنا معًا بحيث تكون قادرة على أن تأخذ قرارها، وأن تعلم أن عليها أعباءً تزيد على أى زوجة أخرى. لذلك فقد ترددت كثيرًا فى أن أفتح معها الموضوع، وكيف أكلّمها فيه لأعرف رأيها وبعد أن تكون على دراية تامة بما هى مقدمة عليه، دون أن تشغلها شهرتى التى كانت فى كل مكان وقتها، ودون ضغوط من أحد عليها للقبول أو الرفض. فظللت مترددًا فترة طويلة من الوقت. ولم يكن أحد من أسرتى يعلم شيئًا عن الموضوع وإن كنت أعلم أن هذه القضية تشغل بال والدى كثيرًا، فهذا البناء الإنسانى الذى صنعه على عينه يريد أن يطمئن عليه فى بيت يواصل فيه مسيرة حياته القادمة بعد تخطى كل العقبات الكبيرة التى مرت به فى حياته.

هدانى على أن أقدم لهذا الموضوع، خاصة أننى يمكن بسهولة أن أكلّمها وهى تمر فى أى وقت بلا حرج. فقدمت للموضوع بأن رددت عليها السلام مرة ثم ناديتها وسألتها عن أخبار الدراسة - وكانت فى أحد المعاهد - ثم قلت لها: إننى أريد أن أتكلّم معك فى أمر مهم، فسألت ماهو؟ وألحت أن أقول لها، فاعتذرت وقلت لها: قريبًا، وظللت عدة أيام أحرص على ألا ترانى. وفى اليوم الذى قررت أن أفتح الموضوع معها جلست عند دائرة من المقاعد الحجرية كانت تلف باب بيتنا الخلفى، وجاءت ووقفت كعهدها وسألتنى ماذا أريد، فحاولت أن أكون متناسكًا وكأنتى أربط على نفسى رباط السكينة وقلت: أنا أريد أن نتزوج وأريد أن أعرف رأيك حتى نتقدم إلى الأسرة وأنت تعرفيننى جيدًا تعرفين حياتى

وتعرفين كيف أعيشها، سأحتاج زوجة ستقدم أكثر من الذى تقدمه أية زوجة أخرى، لكن فى نفس الوقت سنقيم بيتاً معاً نحاول أن نرضى فيه ربنا سبحانه وتعالى، إمكاناتى قليلة لكن المستقبل أماننا، وإن شاء الله تكون حياتنا جميلة وينعم الله علينا فيها. فرأيت وجهها وقد أضاءته فرحة المفاجأة ووضعت وجهها فى الأرض، هنا قلت لها: إن مادعانى أن أبدأ بالكلام معك هو حرصى على أن أبين لك أن حياتك معى ستحتاج جهداً مضاعفاً، وبقدر هذا الجهد سأكون ممتناً شاكراً ساعياً لأن أرد لك هذا الجهد ودّاً وحبّاً واحتراماً، وأريد أن تفكرى كثيراً وأن تضعى ماقلتك لك هذا نصب عينيك وأن تأخذى رأى من تثقين فيه.

ذهبت، وانتظرتُ حتى ترجع لى بالرأى الذى انتهت إليه. وجاءت، لتعلن موافقتها الصريحة، وقالت إنها قد فكرت وأنها أخذت القرار، وأنها قد أبلغت أمها وجدتها لأمها وأنها قد وافقا وفى شدة الفرح، لكنها أبدت بعض التخوف الذى لم أشأ أن أسأل عنه وقتها. كان لازماً علىَّ أن أفتح الموضوع، فاخترت خالتى التى حلت محل أمى فى البيت ففاتحتها، وبمجرد أن كشفت عن الاسم حتى كادت تطير فرحاً، لأن القناة كانت محل تقدير من الشارع كله وكانت هادئة الطبع تبدأ كل من تقابله بالسلام منذ صغرها، وليست جلابة لمشكلة مع أحد أبداً. حجابها فوق رأسها منذ الصغر. وقالت خالتى كنت أريد أن أعرضها عليك لكن الحمد لله، بقى أن يعرف أبوك، قلت سأفتح معه الموضوع قريباً، وأنا أعلم كيف أفتح معه موضوعاً مصيرياً كهذا، خاصة أنه أبصر الناس بنفسى وروحي وإحساسى ويقرؤنى قراءة دقيقة ويعرف كيف أفكر.

لا أناقش اختيارك ولكن..

كنت أعرف أن هذا الموضوع يمثل اهتمامًا كبيرًا لوالدي - رحمه الله -، فقد كان يرسل رسائل تصلني، يمدح فيها من ستكون زوجة لي، ويأخذ في تعداد أوليات ابنه ويفتخر بها أمامي وأمام الناس، وكان يفتح هذا الموضوع على سبيل أنه مما يقتضيه الحال مع كل إنسان في حياته. لذا لما فاتحته - وأذكر هذا اليوم - أخبرته أنني أريد أن أحدثه في موضوع مهم جدًا، وكان قد وصلته الرسالة من خالتي إذًا فلديه علم.

سرنا سويًا إلى قطعة أرض زراعية يملكها أبي خارج زمام قريتنا بموازة الطريق الزراعي الذي يمر على حدود القرية، وكان في حديثه معي يتبسط حتى كأنه يكلم نفسه فقال: ماهو الموضوع الذي تريد أن تكلمني فيه؟ فقدمت مقدمة عن حاجتي الآن للزواج والاستقرار فقد أكرمني الله بهذه الوظيفة المحترمة وهأنذا أصبحت مديعًا في إذاعة القرآن الكريم وحققت ما أتمناه وأريد الزواج لأنه يمثل حالة من الاستقرار ثم إنه بمثابة اطمئنان على النفس، خصوصًا أن من وقع عليها الاختيار فيها المواصفات التي أريدها، وقد أخبرتها بكل شيء وأنني سأحتاج إليها في بعض الأمور التي قد يكون فيها شيء من التعب، وبينت لها في وضوح أنها سوف تبذل جهدًا أكثر من أي زوجة أخرى.

كان أبي يستمع بإنصات ويهز رأسه وكأنه يبدى موافقة على ما يسمع، وعندما انتهيت أضفت: والأمر لك وما رأيك.. هنا نظر والدي إليّ وقد علا وجهه الرضا وقال: أنت بالذات من بين إخوتك لأناقش اختياره وخاصة في هذا الموضوع، لأنني أعرف كيف تفكر وأعرف أن طريقة تفكيرك ستهديك إلى السلامة في الرأي. فالبنت لا غبار عليها بل هي شهادة كل من عرفها أو تعامل معها متفق على أخلاقها ودينها وهذا

أهم مافي هذا الموضوع، ولكن لأخفى عليك أننى لست على ثقة من تفكير والدها لأننى لم أعامله عن قرب، ويُعرف عنه أنه عصبى، ومثل هذا الرجل يمكن التأثير عليه بسهولة خصوصاً أنه يعمل في مؤسسة حكومية تثار فيها هذه المسائل الشخصية التى تجعل الشخص ريشة في مهب ريح أصحاب الآراء غير الحكيمة. وقتها كان ردى على والدى - رحمه الله - أنك قد ظلمت الرجل، ولكن ماقاله والدى حدث بالحرف الواحد بل بالطريقة التى قالها هذا الرجل المجرب، والأيام حبلى بما سيكون عليه وما صدر منه.

قابلته والدى في المسجد وقال له إنه سيزوره اليوم، فرحب والدها بعد أن أخفى شعوراً بالعجب من هذه الزيارة، وذهب أبى وحده وكلمه في الأمر. أريد يد ابنتك فاطمة لابنى رضا، وأنت تعلم رضا، فرد الرجل مباشرة - كما حكى لى أبى - ابنك لا يُرفض هذا شرف للبلد عندنا وأنا أحبه، وقد كان الرجل كبقية الشارع بل القرية كلها علاقتى به طيبة جداً. فعلت صوت زغرودة سمعتها خالتى في بيتنا، فأطلقت زغرودة، واشترط والدها أن تكمل ابنته تعليمها في المعهد الذى دخلته بعد الثانوية العامة وبقي على انتهائها منه سنة، فوافق الجميع وأصبح رضا خطيباً للآنسة فاطمة.

وعندما ذهبت في زيارة بعد ذلك كان استقبالا لطيفاً من الجميع، إلا أننى لاحظت من والدها بعض الفتور فلم أعر ذلك اهتماماً، وفي الزيارات الأخرى لاحظت أن هذا الفتور دائرته تتسع ولاحظت أن الوجوه في البيت قد علاها الغضب من شىء ما.. اتضح لى أنه ليس بسببى لأن المعاملة معى طبيعية من الجميع، سوى أبيها الذى رسم على جبهته خطوط تعبر عن الضيق ووضع على وجهه غلالة من الغضب تبدو في ثنايا وجهه، فرجعت

إلى البيت أشكو لخالتي التي كانت همزة الصلة بينى وبينهم، فقالت إن الرجل نقض الاتفاق وكل من فى البيت يعارضونه أولهم ابنته، وهى تحاول إقناعه بجميع الطرق. فقلت ينبغى أن أعرف الحقيقة من صاحبة الأمر، وكنت أقف على أول بيتنا أمام الجميع معها عندما تمر، وكان هذا يبدو شيئاً طبيعياً، فحكّت لى أنه كان موافقاً وسعيداً فى أول الأمر، وبعد عدة أيام انقلب تماماً وأصبح معارضاً لهذا الموضوع، وأخذ يهدد أنه سيخلع يده من هذا الموضوع، فباغتته حماته: ألم تعط وعداً للرجل؟ ولماذا قلت له هذا الكلام؟ وماذا تغير فى هذه الأيام القليلة؟ وأصبح البيت كأنه جمر نار بين فريقين، فريق يمثل الرجل وحده وفريق آخر تمثله خطيبتى وأمها وجدتها، أما أخوها فلا رأى لها.

وكانت تأتينا الأخبار التي كانت تحصل عليها خالتي التي بذلت جهداً لا يطيقه بشر، فكانت تقابل الرجل وتبتسم فى وجهه ظناً منها أنه قد يعدل عن رأيه، وكنت أغضب غضباً شديداً وأطلب منها راجياً ألا تفعل ذلك، وكانت تقابل خطيبتى وتحاول أن تشد من أزرها، فكانت تطلب من خالتي أن يكون عندى شيء من الصبر، وأنها لن تتخلى عن هذا الموضوع، وأنها قد بذلت جهداً مضميناً معه حتى تطمئنه وردت على كل تساؤلاته. فقد قالت له إننى قد سألت قبل موافقتى أنه لا يحتاج فى البيت إلا أشياء قليلة تفعلها أى زوجة، ثم هو لا أحد مثله خلقاً وديناً وهو يعيش معنا لم نسمع عنه مشكلة أبداً، ومع ذلك وبعد هذا الكلام أهانها ولم يستمع إليها ولا إلى والدتها وجدتها اللتين كانتا متعاطفتين جداً معها.

وبعد عدة أيام عرفنا السبب فى تغير الرجل بهذا الشكل المفاجئ والذي أعلن فيه عن رفضه القاطع. جاء إلى أبى هذا الرجل الذى يمشى على

الأرض هوئاً، هذا الرجل الراضى الطيب الحاج «لطفى محروس» الذى كان يعمل فى الإدارة الصحية مع هذا الذى نكص على عقبيه الراضى الموصد بابه عنا، وقال الرجل إن السبب فى تحول والد الفتاة هو طبيب الصحة الذى يعمل معه وبعض الموظفين، هؤلاء لا يعرفون رضا وحكموا عليه دون أن يعلموا شيئاً عنه، وحاولت أنا ومن يعمل معى من القرية طمأنته فلم نستطع، بل قال له طبيب الصحة وبعض السيدات اللاتي يعملن معه: ابنتك كيف تزوجها لهذا..... وحاول الحاج لطفى أن يقول لهم مَن هذا الشخص الذى تتكلمون عنه؟ وختم الرجل كلامه بأنه يرى أن يهىء لقاءً مع طبيب الصحة فى مكتبه يكون رضا موجوداً فيه، خاصة وأن والدها قد تعب مع الناس الذين يلومونه على موقفه خاصة، الذين يعرفون رضا جيداً.

فى هذه الأثناء، وخلال نقاش حاد بين الرجل وابنته وزوجته خرج منه قسم طلاق فخاف على نفسه، وذهب مع أحد أصدقائه إلى شيخ مدينة قويسنا ومفتيها ومرجعها فضيلة الشيخ «حفظى»، هذا الرجل النورانى الذى فقد البصر فقامت البصيرة موئلاً للفهم والفتنة والذكاء ومخزناً للفضيلة والأدب، وكان الشيخ الجليل يعرفنى جيداً حيث كان والد أخى وزميل الدراسة وصديقى «أيمن حفظى»، ذهب إليه الرجل لكى يستفتيه، وكان يجلس مع الشيخ حفظى وقتها مفتش فى المعاهد الأزهرية الذى كان يعرفنى جيداً. ذهب والد خطيبتى لكى يسأل الشيخ عن يمينه الذى أقسم به على زوجته هل يقع أم لا؟ فرد الشيخ وما سبب هذا اليمين؟ فحكى له، وأثناء الحكاية سأله الشيخ عن بلده، فقال كفر الشيخ إبراهيم فصرخ فيه الشيخ الجليل: أنت تتكلم عن ابنى رضا المذيع فى إذاعة القرآن الكريم،

وأخذ يعطى الرجل درسًا في كيفية النظر إلى الإنسان خصوصًا أن الشيخ نفسه كفيف وجاءه يسأله وغضب عليه الشيخ حفظى بعد أن أجابه. ثم تكلم الرجل الذى كان بجوار الشيخ حفظى وقال: «اسمع أنا عندى بنت لم تتزوج، والله العظيم لو وافق رضا على الزواج منها لزوجته وأعطيه شقة خصصتها لكل بنت من بناتى، وختم الرجل كلامه بسؤال: «بنتك رأيها إيه؟» فسكت والد الفتاة ولم يرد، فأردف الرجل حرام عليك.

وقصة أخرى لسيدة وقور طيبة كانت تعتبرنى ابناً من أبنائها، وكان زوجها معلمًا فاضلاً فى المدرسة لكنى لم أحظ بشرف التعليم على يديه، وكان شديد الطيبة، أخذت زوجها وذهبت إلى طبيب الصحة التى علمت دوره فى الموضوع وقالت له كلامًا أعلقه عقدًا من الفضل على صدرى وتاجًا من الوفاء فوق رأسى. حيث قالت له بلغة عامية صادقة: «رضا ده مش ابن أبوه وأمّه بس رضا ابنى وابن كل واحد فى كفر الشيخ إبراهيم، أنت متعرفش رضا عايش أزاي ويعمل إيه، أنت متعرفش رضا بيشتغل أيه، رضا ده كل الناس بتسمعه فى الدنيا كلها».. قالت هذا الكلام وقد أحمر وجهها غضبًا وتركت المكتب وتركت وكأنها تعلن له عن رفضها لما سمعته من دوره الخبيث.. وأصبح هذا الموضوع حديث القرية وحديث زملائى فى العمل الذين عرضوا بل عقدوا العزم على اختيار مجموعة منهم لكى يقابلوا الرجل، وحرصًا عليهم وحتى لا تتسع الهوة شكرتهم واكتفيت منهم بالدعاء بأن ييسر الله هذا الأمر.

عملية زواج متعسرة

لا يستطيع أحد أن ينكر على رجل فى مكان الأب أن يخاف على حياة

أو مستقبل ابنته، التى يرى أنها قد تتعب فى حياتها مع هذا الشخص الذى يراه قد لا يكون مناسباً لها وقد يحتاج إلى أشياء تحيل حياتها إلى سلسلة من الأعباء الثقيلة. لكن الأمر يختلف عندما تكون الفتاة راشدة وعاقلة وتستطيع الاختيار بعد أن وَضَحَتْ لها الصورة كاملة بجميع أبعادها، وبعدها وقعت كل هذه الأحداث أمامها، ومع ذلك تعقد العزم على أن ترتبط بهذا الشخص بالرباط المقدس، بل وتحاول أن تزرع الاطمئنان فى قلب والدها الذى أغلق عقله تماماً على الرغم من أنه قد وافق فوراً عند أول لقاء وكلام فى الموضوع مع والدى.

ولأننا فى شارع واحد فقد كانت الأخبار سهلة التداول والتداول، وأصبح البيت كله ضد الرجل يحاول إقناعه... وما يستثير العجب أن الرجل لم يفك ارتباطه مع الوالد لأن طرفنا مازال يحاول بشتى الطرق أن يرضيه ويحاول أن يحيطه بهالة من السكينة يُبطل بها ما يسمعه من طبيب الصحة الذى أعمل فيه سمه. وكانت فترة عصيبة حقاً، حيث كنت أنا وأبى نعانى جنوح الرجل الذى بدأنا نسمع كلاماً يتطایر منه لا يليق.

وجاء عرض الحاج «لطفى محروس» لكى نعرض قضيتنا أمام المحرك الخبيث من تحت المنضدة التى يجلس عليها الرجل ليملى عليه، فذهبت إلى مكتب الطبيب مع والدى وجلس معنا والد خطيبتى، وجلس أمامنا هذا الطبيب ممتلىء الجسم الذى لم أرتح إلى قسما ت وجهه ولا إلى بدايات حديثه الملتوية. وقد أدرك أبى خصال الرجل ففرش أرض الجلسة بالرياحين الجميلة عندما رسم صورة للمجتمع الذى نشأنا فيه وترينا على قيمه، وأن هذا الشارع أسرة واحدة وأن كل من فى هذا الشارع إخوة وأن جميع الأولاد والبنات فيه إخوة وأخوات، وأن هذا الرجل - وأشار

إلى والد خطيبتى - هو أخ أصغر لى وهو يعلم أننى أخ أكبر لكل من يسكن هذا الشارع، فتحركت رأس الرجل رغماً عنه لأنها الحقيقة ثم ذكر بكلام مغلف بالمودة والرفق أن ابنة هذا الرجل - وأشار إليه - هى من أكثر البنات أدباً وديناً وخلقاً والكل يعرف ذلك، وأن ابنى هذا - وأشار إلى - لا يقل عنها لأدباً ولديناً ولا خلقاً ويعرف كل الناس هذه الحقيقة، وقد اختار كل منهما الآخر، وعرضت هذا الموضوع على صاحب الشأن فرحب ترحيباً شديداً وقال بوضوح إن ابنك هذا لا يرفض وهو إلى الآن من بعد هذه الموافقة الصريحة لم يرفض، ولكن لأننا فى شارع واحد وجدنا ناراً متقدة يصيبنا لهبها صباح مساء، وأن ما دعانى إلى أن أتى إلى هذا المكان أننى أعلم صلتك القوية به وتأثيرك عليه، وأنا حريص وابنى على إتمام هذا الموضوع برضاه وبمباركته، هذا ابنى مذيع بإذاعة القرآن الكريم وهو قادر على أن يتكلم عن نفسه.

بدأت كلامى من حيث انتهى والدى: أنا أعمل كذا وقادر على بناء أسرة بفضل الله، اخترت من تشاركنى حياتى حسب مأملاه على دينى وعقلى وحسب ظروفى التى تراها، والتى أحتاج فيها من يساعدنى نعم، ولكن دون أن أرهق من حولى فأنا أستطيع القيام بمعظم مايقوم به الشخص العادى، إضافة إلى أننا وكل من حولنا يعلم باختيار كل منا للآخر للاتفاق فى كثير من صفاتنا، والكل يعلم ذلك، وفى النهاية الأمر لها ولوالدها لكننى سأنتظر وسأحاول فعل كل شئ لكى يتم زواجى منها إذا أراد الله.. رأيت الحاج «لطفى محروس» يشخص بصره على وجهى وأنا أتكلم، ويتجول فى وجهى الدكتور ووالد خطيبتى وكأنه يريد أن يرى ردة الفعل على وجهيهما بعد هذا الكلام الذى يرد على كل

الأسئلة ويشفى كل علل النفس التى سدت نوافذ البرهان، وآثرت أن تعيش وحدها وليذهب كل من عداها إلى الجحيم. ثم تكلم الطبيب بكلام ملتو يحاول أن يحيل الموضوع إلى تحن منا، فقاطعه والدى وقال - فى كلام صريح - نحن متمسكون بالموضوع لكن لو صدر من هذا الرجل رفض صريح هنا يُغلق الموضوع تمامًا، فلم يتكلم الرجل.

وبعد أن خرجنا من عند صاحبنا ذى الجسم الممتلئ أيقنت ومعى أبى أنه حائط يستند إليه الرجل، لكن ما توقعه الوالد قد حدث، أنه هو نفسه الذى دفع سيارة القبول أن تتحرك بل تسرع فى سبيل إتمام هذا الموضوع الذى أصبح حديث المجالس.. وأذكر أن الذى تحمل عبئاً ثقيلاً فى هذا الموقف هو الأخ الكبير الحاج «أحمد صفى الدين» صاحب الأيادى البيضاء على كثير مما حدث فى القرية من إنجازات والشريك الأول فى كل مواقع الخير ومواطن الصلح فى قريتنا الصغير. هذا الرجل هو الذى تولى قيادة العملية القيصرية لهذا الزواج، فقد ذهب بنفسه إلى والد خطيبتي ويسر له كل شىء، ولأنه كان يعلم عنى كل دقائق حياتي فقد طمأنه وأخذ يرسم له صورة لما ستكون عليه حياة ابنته التى يتمنى لها السعادة فى حياتها واتفق معه على موعد عقد القران، وعمت الفرحة البيت وأصبح الجميع فى انتظار ذلك اليوم.

وفى غمرة هذه الفرحة نكص الرجل على عقبيه! وإذا بالحاج «حافظ الفلاح» عميد القرية الطيب يدعو والدى لجلسة لهذا الموضوع فى بيته. جلسنا فى هذه الليلة فى الغرفة التى تطل على الميدان الذى ينظر فيه المسجد بقبته إلينا وكأنه شاهد على أحداث هذه الجلسة. جلس صاحب البيت وعلى يمينه وشماله يجلس عليه القوم الكبار الذين دعاهم الرجل،

وجميعهم بينى وبينهم علاقة ود أبوية ووشيجة من أدب واحترام وتوقير لكل واحد منهم يعرفها جيداً.. وبدأ والد خطيبتى بسؤال يشعل فتيل العراك فى نفسى ويدفعنى لرد قد لا أستطيع أن أربط معه على نفسى برباط الجأش، حيث قال ناظراً إلى كل الجالسين أمامه: «حد فيكم يرضى يجوز به بنته؟»، فتجهزت للرد فنظر إلى والدى بنظرات حادة حاسمة هددنى فيها بالطرد من الغرفة فأمسكت زمام نفسى وكأنى أمسك برباط فرس يريد دفع الصائلين عليه.

ارتفعت أصوات كل الحاضرين، حتى قال أحدهم بمعنى رائع: «مشكلتك أن رضا قد وقع اختيار ابنتك عليه وهو راضى بهذا الاختيار، فلماذا تمنع أنت؟ ورضا لو ذهب لأى أب منّا فى هذه القرية أو فى أى مكان سيبين لابنته ما بينته أنت وهذا ما يفعله أى أب، ويين رضا ووالده كل الأمور التى يمكن أن تكون خافية عليها، لذلك فالأمر لا ينتهى إلى ما انتهيت أنت إليه»، ثم تكلم والدى لكى ينقى صورتى وصورة خطيبتى من كل ما يجرحها وينقذ الرجل وقال: «هذه أقولها لأول مرة: ابنته مثل ابنتى تماماً وأنا أتوجه بهذا الكلام إلى قلب هذا الرجل؛ أن ابنته قد جاءتني ورجتني أن أحاول إقناع والدها، وأنها تريد أن ترضيه وأنها لا تتصور أن تكون زوجة لأحد آخر غير رضا، وأنا هنا أتعهد أمامكم ومعى ابنى أن تكون حياتها حياة سعيدة، وأسألونى بعد الزواج لأنى أعرف ابنى جيداً، وأعرف أيضاً هذه البنت الطيبة الملتزمة ابنة هذا الرجل الذى اعتبره أخواً أصغر لى وهو يعلم ذلك، أما السؤال الذى بدأ به كلامه فيكفى هجمة الحاضرين العاقلة عليه».

وطلب أحد الحاضرين أن يسمع منى، فكان كلامى يدور حول

مسئوليتي عن نفسي في كل مراحل حياتي، وضربت مثلاً بحالى الآن، فذكرت أنني من الحادية عشرة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر اليوم كنت مسئولاً عن بث أشهر إذاعة في مصر، أتولى فيها إدارة هذا الاستوديو من حيث الخروج على الهواء ومن حيث تقديم البرامج وتنظيمها ومن حيث كتابة التقارير اللازمة التى تُعرض على أكبر مسئول في هذه الإذاعة، هذه المسئولية لا تُعطى إلا لمن يستحقها وهم حوالى عشرين مديعاً أنا - بفضل الله - واحد منهم؛ ألا يستطيع مَنْ وصل إلى هذا المكان والمكانة بهذا التاريخ الطويل من المواقف والأحداث أن يقيم بيتاً.. هنا انطلق الكلام من كل جوانب الغرفة بالتحية التى أزالته عن الرجل شيئاً من عبوس وجهه المرسوم والذي كان يظهر في حدة نظراته وغلق شفثيه ونزول نظارته عن عينيه قليلاً، فبدا وقد أخذ جلسته وفتح مغاليق وجهه ورفع نظارته. فبادره الحاج «حافظ» بالتهنئة وكأنه قد انتهاز الفرصة فرد عليه، وحدد يوم عقد القران في المسجد في يوم الخميس القادم فوافق الرجل، وكنا في أول الأسبوع وانتهى هذا اللقاء بهذه النهاية السعيدة التى كانت نتيجتها انفراحة بعد حكمة الوالد التى بدت في كلام يقيم جسراً للتواصل ومرفئاً للراحة بعد أيام التعب.

فرحة المسجد والذقن الطويلة

هكذا أيامى في الحياة صعبة ثقيلة، الفرح والسعادة فيها كأنها ومضات في غرفة مظلمة، ولكن ماعاقنى ذلك يوماً، قد يكون ساءنى وقض مضجع الروح والنفس، ولكن مالانت لى قناة أبداً ولاخُفضت لى هامة ولاذلت لى نفس، ولسان حالى هذه السطور الشعرية الثلاثة:

النور فى قلبى
وقلبى فى يدى ربى
وربى ناصرى ومعينى

ورغم ضجيج المناوئين والمعارضين ورغم الدعاوى التى تريد أن تسلبنى حق الحياة كما يحيا البشر، رغم كل هذا ينبلج صبح الهداية ونور القلوب الوضيئة وضياء الأرواح الجميلة، ويشرق كل هذا مع شمس الحقيقة التى يتساوى فيها البشر جميعاً، هؤلاء الذين لولا هذه الشمس ما كانت لهم نعمة الحياة.

اكتمل كل شىء وكانت الشقة التى سأسكن فيها فى موقع رائع، حيث كانت تطل على غيطان قرينتنا الجميلة، وأرى من شرفتها طريق مصر إسكندرية الزراعى، ومنظر بديع حين تلم الشمس خيوط أشعتها على الحقول الخضراء وتنسحب فى هدوء، حيث يأتى الليل بقبته السماوية المزينة بالنجوم وحين يحل الهدوء والسكينة المكان.

وأذكر كم كانت فرحة كل من لهم صلة بى، وأذكر هذه الليلة التى تجمع فيها الإخوة والأصدقاء فى هذه الشقة التى تتكون من ثلاث غرف وصالة ومطبخ وحمام، وكانت فى الدور الثانى لمالك من أهل البلدة، وظللنا فى هذه الليلة جالسين فى الشقة نتبادل حكايات الصبا وكيف دارت بنا الأيام فى قلبها بمن يعيشون على سطحها.

وجاء يوم عقد القران والزفاف وحدث ما لم يكن متوقعاً، أخذ والد خطيئتي دراجته فى الصباح أمام دهشة كل من رآه من أهل بيته ومن الناس، وسحبها عدة أمتار ونظر إليهم نظرات غاضبة زاد من تأثيرها عليهم ذقنه الطويلة وكأننا فى جنازة ميت، وتركهم وانصرف إلى عمله.

وأثناء مروره على واحد من قرابة أبى وقف الرجل أمام دراجته وسأله متعجباً: كيف وفرح ابتنتك اليوم؟ فقال عبارتين؛ الأولى أنها ستنجب أولاداً مثله، والثانية لا يستطيع القلم أن يتحمل ثقل ألفاظها ومعانيها، فهو كما سلبه حق الإنسانية يريد أن يسلبه حق الرجولة، ولم يكن هذا الرجل حكيماً، حيث جرى إلى أبى وحكى له ما حدث، ولأول مرة أرى أبى بهذا الغضب فقال: لا نرضى ظملاً له ولا لابنته، هى تذهب إليه كما تريد فى أى وقت تشاء، لكن بعد هاتين العبارتين لا يدخل بيتك.. وأحسست أن والدى قد أحس أن الأمر قد وصل إلى درجة لا بد فيها من موقف، وأحسست بمدى غضبه فلم أناقشه. وذهبت لكى أعد نفسى ليوم العمر الذى ينتظره كل شاب فى مقتبل الحياة.

وجاء معظم زملائى فى إذاعة القرآن الكريم لحضور عقد القران، وجاء كل من أعرفهم فى قريتى، حتى امتلأ المسجد عن آخره. وأمسك بالميكروفون الزميلان الأستاذ «أحمد همام» والدكتور «عبد الله الخولى» وأبدعا فى تصوير العلاقة التى تجمعنا معاً فى إذاعة القرآن كإخوة يدركون معنى الصداقة والأخوة، مع قفشات الدكتور عبد الله الخولى مع الوالد ومع الحاضرين فى المسجد، بحضور قارئ من أشهر قراء مصر وقتها والذى أصر على المشاركة لما كان بينى وبينه، حيث كنت أحبه جداً ويبادلنى هذا الشعور الزاخر بكل أنواع الاحترام والأدب؛ القارئ الشيخ «الشحات محمد أنور» والمبدع الفنان المبتهل الشيخ «محمد الهلباوى» الذى كان بيننا مودة خالصة، لقد نشرا بصوتها الفرحة فى كل أرجاء المسجد والأهم فى أرجاء النفوس الطيبة التى شهدت هذا العرس فى المسجد لكى تحوطه البركة وتعلوه المنة وتزينه عناقيد الرضا والقبول.

وأذكر أن الأستاذ الكبير «عبد القادر الزنفلي» أخى الكبير الغالى قال كلمة بمثابة عقد من لؤلؤ الكلمات وياقوت المعانى ودرر المشاعر، علقته ومازلت على عنقى فضلاً لهذا المعلم الكبير. وقام هذا المخلص الذى توحد مع الإخلاص وتزين بالالتزام وتجمل بالأخلاق الأستاذ الكبير «شاكر سلام» الذى لطالما وقفنا خلفه وهو يرتل القرآن غضاً طرياً كلماته تخرج فى يسر ومعانيه تسكن فى أناة فى سويداء القلب؛ فأخذ الميكروفون وألقى كلمة بليغة رائعة كانت تعبيراً عن فرحته الشديدة، لأنه كان يعلم المعاناة كيف كانت طوال هذه الفترة العصبية.

وكان مسجد سيدى إبراهيم بن أدهم قد امتلأ عن آخره، ودخل علينا خصمى الذى أهمل حلاقة ذقنه كمداً طوال فترة معارضته للزيجة، فأضافت إلى تجهمه تجهماً، ثم حانت لحظة المصافحة لهذا الرجل ذى الذقن الطويلة لإتمام هذه الزيجة المتعسرة.. فجلس المأذون أبى ليؤدى عمله، ومددت يدى اليمنى حيث يعرف كل أبناء البلد أننى أمد يدى لتصافح من يمد يده أمامى. والعيون كلها مصوبة على محراب المسجد حيث يجلس أبى والرجل على يمينه وأنا على شماله، ومددت يدى فتلقفها الرجل بسرعة وأمسك بها، وكان أبى قد أعد منديلاً لهذه المناسبة فوضعه على الكفين وقال لصهرى: قل زوجتك موكلتى ابنتى فاطمة البنت البالغة العاقلة الرشيدة على كتاب الله وعلى سنة رسوله وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان وعلى الصداق المسمى بيننا، فقال الرجل هذا الكلام وراء أبى، ثم نظر إلّى وقد لمعت فرحة لمعت فى عينيه وقال لى قل: وأنا قبلت زواجها لنفسى على كتاب الله وعلى سنة رسوله وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان وعلى الصداق المسمى بيننا فرددها خلفه. ثم نظر إلى الرجل وقال ووجهه مستبشراً بنور الفرحة قل: بارك الله لك فيها فقالتها الرجل.

قمت إلى والد زوجتي قبل أن يهجم الناس وسلمت عليه وتعانقنا حتى أصابني خشونة ذقنه الطويلة الشاهدة على ما في نفسه، ثم اتجهت إلى والدي الذي كان يضع دفتر الزواج في حقيبته الجلدية، ثم استلمني والتفت يداه حول عنقي وأخذ يشمني ويقبلني وأنا بين يديه كطائر صغير بين جناحي أمه الرؤوم وأطال تقبيل رأسي. وأصبح المسجد ساحة للتهاني، وكل واحد ممن يهني له معي حال: فمنهم من يعانقني ومنهم من يرفعني إلى أعلى ومنهم من يرسل عينيه في عيني وكأنه يقول لي هاقد تزوجت أخيراً بعد هذا العناء الطويل، ومنهم من يرفع صوته بكلمات المرح الخفيف. وكانت لحظات لا تُنسى.

وأحاطني إخوتي وأصدقائي وصحبوني وزوجتي حيث جلسنا جلسة في ميدان بجانب بيتنا الريفي القديم، كل منا يجلس على كرسى، وأخذت الأغاني المعروفة في هذه المناسبات تتردد، وجاء المهنتون والمهنتات من كل مكان. ثم أخذتنا سيارة إلى أستوديو الشرق في مدينة قويسنا فأخذنا «لقطة العرس» التي أصبحت شاهدة على هذا اليوم. ثم وصلت السيارة إلى باب الشارع الذي سيكون محل السكن فنزلنا ودخلنا شقتنا، وبقي على الباب إخوتي جميعاً وخالتي ينظرون إلّى في فرح ممزوج بقلق رأيتهم في العيون وفي صفحة الوجوه فتعانقنا وسلموا جميعاً على زوجتي وانصرفوا، وأغلقتنا باب الشقة.

ياااالله هل تزوجنا حقاً، نظر كل منا للآخر، هل انتهى هذا الطريق الطويل. وبدأت بما أعرفه من سنة النبي ﷺ بالدعاء المعروف في هذا الموقف «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه» وصلينا معاً ركعتين وقضينا ليلة من أجل

ليالى العمر، حيث جمعنا حب وألفت بين قلوبنا إرادة الحياة واستشرفنا مستقبلاً نريد أن نحياه طافت بنا ذكريات الأم كأنها صور سريعة ماتلبث أن تدور بها شاشة العمر ترى لتحل مكانها صور الزفاف الجميل.

ومن أول ليلة حددنا كيف تكون حياتنا وكيف نحافظ فيها على أنفسنا طاعة لله وأملاً في رضاه. وقبل الفجر بقليل وجدت من يطرق على الباب برفق، ففتحت فوجدت ياسر أخى أرسله أبى ليطمئن على فطمأنته تماماً، وأرسلت معه رسالة تحيب عن الكلام الذى قاله والد زوجتى والذى جعل والدى يرسل أخى فى هذه الساعة للاطمئنان، وكانت رسالة بالوجه عندما يرتسم على قسماته سيما الرضا وينطق بالفرح.. ومن الطرف التى لا تُنسى أننا بعد أن تناولنا الطعام كنا نريد أن نشرب مشروباً ساخناً فها وجدنا أثراً لعود كبريت فى الشقة، فلما جاء أخى طلبت منه الرجوع بعلبة كبريت فأصبحت علامة على هذه الليلة نتندر بها إلى اليوم.

ورقة أخى محمد والموقف الصعب

ما تمنيت أن يحدث هذا الموقف ولا أردته ولا سعت إليه، هذا الموقف الذى وقفت فيه أمام صهرى - والد زوجتى - بعد زواجنا بيوم واحد. سبب هذا الموقف أنه فى يوم الزواج عندما جاء هذا الرجل الذى كان من قرابة والدى وأبلغه بما قاله صهرى أقسم والدى ألا يدخل بيتك بشرط ألا تمنع ابنته عنه أبداً فى أى وقت تذهب كما تشاء. ففكرت وكان الوقت ضيقاً جداً فأمسكت بورقة وكتبت فيها رسالة إلى والد زوجتى بدأتها بأدب شديد وكان موضوعها؛ إن كلامك الذى قلته لفلان وصل أبى ونسأل

الله أن يوفقنا وألا ترجع ابنتك إليك إلا للزيارة، ولأنى أعرف حدود الله وتربيت على ذلك فسوف لا أمنعها عنكم أبداً لأن هذا حقها وحقكم وقد تعلمت أن أؤدى ما على من حقوق. أما أننى سأنجب أطفالاً مثلى فليتهم يكونون مثلى لهم إرادة وعزيمة مثل أبيهم، أما ماقلته أنت فقد سألت عنه فلم أجد له أثراً فيما يقوله العلم فليس كل من وُلد بلا يدين يُنجب أولاداً بلا يدين، هذا عن معرفة علمية وسؤال لمتخصصين، وعموماً هذه أمور لا يعلمها إلا من ينفخ الروح فى الإنسان ليحيا. فأرجوك ابنتك ستزورك وقتما تشاء هى أو أنت ولاداعى للزيارة فى شقتى لأنها ستفسد ما بينى وبين أبى. ومعدرة سوف لا أبيع أبى وهذا مستحيل عندى، وذاك حظى معك فى الدنيا ولعل الله يحدث بعد ذلك فرجاً.. وأعطيت الورقة لأخى محمد الذى كان يصغرنى ببضع سنوات وشدت عليه ألا يعلم أحد وقلت له بعد دخولى الشقة مباشرة اذهب وأعطه هذه الورقة ولا تقف لحظة واحدة، ففعل محمد ما أمرته به تركها له وراح.

يقول والد زوجتى وهو يحكى فيما بعد: «قرأت الورقة وأعدت قراءتها مرة بعد مرة، ثم ذهبت إلى الأستاذ عبد الله حامد هذا الرجل القريب من رضا وصديق والده وله فى شئون الناس رأى يُسمع كما هو معروف فى الريف، فقال الأستاذ عبد الله بعد أن قرأ الورقة اذهب لابنتك ورضا عنده أخلاق ومتربى ولا يمكن أن يفعل ما كتبه فى هذه الورقة».

وتردد الرجل فى أن يأتينا فى اليوم التالى وكان يوم الجمعة، ثم جاء وطرق الباب، فقممت لأفتح الباب فوجدته أمامى وبجانبه ابنه الكبير والذى يليه واللذان لم يكن لهما وجود فى كل هذه المواقف والأحداث، ففطرت إليه وقد ملكت على الدهشة أركان نفسى وأسقط فى يدي، فلم

أكن أتصور أن هذا الموقف سيحدث وكانت هذه الثواني اختباراً صعباً ودقيقاً ماذا أفعل؟ وإذا فعلت كيف؟ وإذا دخل كيف يكون موقف أبى؟ لكن في هذه اللحظة تغلب عندي ما قاله الأستاذ عبد الله حامد فقلت: اتفضلوا، وأمسكت بمقبض باب غرفة الضيافة على شمال الصالة التي أراد أن يجلس فيها، وقلت له اتفضل هنا في إشارة إلى أنها ضيافة، ووقفت على الباب وأنا أثبت بسملة جامدة على قسماث وجه حائر وأغلقت عليهم الباب. ناديت زوجتي وأخبرتها بوجودهم دون أن يظهر لها ما في نفسي من قلق وتركبتها معهم وأغلقت الباب، وقلت بيني وبين نفسي أن الموضوع سيمر.

لكن المخبرات الطفولية البريئة نقلت الخبر، حيث كان أحد إخوتي الصغار عندي وقتها وذهب ليعلم الخبر، فإذا بالجرس يهدر في أنحاء شقتي الصغيرة ففتحت الباب فوجدت أخى حسن يقف على منتصف السلم وعلى وجهه قلق ووجدته مرتبكاً لم يستطع أن يتكلم حتى علا صوته سائلاً عن سبب قلقه، ثم دفع الكلمات من فمه كأنه يقذفها وقال: أبوك تحت فذهلت ونزلت على السلم بسرعة وورائي أخى حسن، وحاولت أن أخرج من الموقف بأن أتصنع أنني طبعى وعلا صوتى بالترحيب، فوجدت أبى كتلة من الغضب يقف أمامى، ولم يتكلم إلا بعبارة واحدة تلك التى يمكن أن يتغاضى عن كل شىء إلا هذه. قال أبى: «أنسيت أنه قال إنها سترجع لى بعد الزواج بعدة أيام ووقتها سوف.....» وتركنى وأطلق لرجليه طريق السير الغاضب وذهب، ووقفت وجهى فى مقابل وجه أخى حسن الذى قال لى: عليك أن تتصرف لأنى لم أجده بهذا الشكل فى حياتى.

لعل هذا الموقف الذى وقفه والدى يبدو غريباً على شخصه المتسامح، لكن الرجل أحس أن الشجرة التى زرعها وسقاها ورعاها حتى بدت قوية مزدانة بفروعها المورقة الخضراء ومثمرة بأجل ما يكون من عناقيد الثمر يأتى من يهزها بعنف ويحاول أن يحرمها أن تستنشق روح الأمل وماء الحياة، وما جعله يخرج عن طور التسامح أنه قد سلك كل المسالك لكى يرضى صاحبنا فلم يفلح معه شئ، وما دفعه ودفعنى للتمسك بهذا الموضوع هى زوجتى التى جاءت إليه لتعلن رأيها وقد كانت صريحة فى حفظ مكانة والدها رغم ذلك. ولكن العبارة التى نطق بها الرجل كان لابد لها من موقف يحس معه أنه اقترف إثماً بل كبيرة فى حق ابنه الذى لم يخرج منه إساءة طوال هذا الطريق الطويل. كان والدى طوال الفترة السابقة الصعبة يلتمس للرجل الأعذار، ويحاول أن يجعل الأمر فى مجال الاختلاف بين المعارف الذين يعملون حساباً للجيرة والقربى والعلاقات الاجتماعية، وخصوصاً أنه يفرض رأيه على ابنته العاقلة المشهود لها بالتعقل والتدين وصواب رأى، ثم بعد ذلك كله يتفوه بكل هذه الكبائر الكلامية ويهرف بكل هذا الإثم الإنسانى ويخرج هذه الإهانة الصريحة، وتكتمل الصورة بشكله العابس يوم العرس أمام الناس.. لكن مع ذلك كله كان أبى - هذا الرجل العظيم - هو من أرسل حبل الوصال مرة أخرى بإرادته، لكى يُرضى من وقفت موقفاً يجعلنا جميعاً أنا وأبى وكل من يحبنا ونحبه نشكرها عليه..

كان لابد أن يكون لى موقف حكيم. فالرجل يجلس فى بيتى مع ابنته، فانتظرت حتى فُتح باب الغرفة ثم خرجت، وقفت بجانب زوجتى وهى تودعهم ونزلت أمامهم على السلم حتى سَمِعْتُ صوت غلق باب الشقة

حتى لا تسمع ما أقول - حتى لا أخرج مشاعرها - ثم قلت له، وبدأت بالنداء عليه بكلمة يا عمى: أرجوك لاداعى للخرج فالكلام الذى قلته لفلان قد وصل لوالدى بالحرف الواحد لذلك أرسلت إليك الورقة، فأرجوك ابنتك ستزورك كما تريد أنت وكما تريد هى، ولعل الأيام تداوى ما بيننا أرجوك لاداعى للخرج.. فنزل الرجل على السلم دون أن يتكلم وذهب مباشرة إلى الأستاذ «عبد الله حامد» الذى عرف ما حدث فكان رده: ألم أقل لك إن رضا لن يغلق فى وجهك الباب، ولكن الذى حدث هو عقاب لك على ما فعلت به وما قلته فيه، وطمأنه أن الغد يحمل دائماً الجديد مما يسعد.

وبعد أسبوع واحد أخذت زوجتى بنفسى ووقفت على باب شارعنا القديم لتدخل على أسرتها لأول مرة بعد الولادة المتعسرة لهذا الزواج. وظللنا على هذا الحال حتى جاء عبد الرحمن فى الشهر الحادى عشر لزوجنا، وبعده بعدة أشهر تجهزت وزوجتى للعمرة، فأمرنى والدى نفسه - هذه النفس الكبيرة والروح العالية - أن أذهب إلى والد زوجتى فى بيته وأزوره قبل السفر، وحدث ما أمرنى به واستقبلت استقبالا طيبا، وكانت سعادة زوجتى لاحد لها، وكانت سعادتى لها وبها لا توصف، وأحسست أنى قد رفعت عنها حملا ثقيلا كان يشقيها دون أن تستطيع له بياناً. وكان ميلاد عبد الرحمن بالنسبة لهم فرحاً كما كان لنا، وكان جده لأمه سعيداً جداً به، ولا يمر يوم عليه دون أن يراه، ولعله كان يعتذر بهذه المعاملة للابن عما فعله بأبيه.

عبد الرحمن .. من غرفة الولادة إلى طب الأزهر

أفنان .. ذواتا أفنان

زينة الحياة الدنيا ومتعتها وروحها الجميلة، هكذا الأولاد الذين يجعلون للحياة معنى جميلاً وللعيش مذاقاً رائعاً وللدنيا شكلاً مختلفاً. فالإنسان عندما يعيش وحده لنفسه فقط تكون متعته قليلة مهما كثرت حقيرة مهما عظمت لأنه هو وحده الذى يعيشها، لكن عندما يكون له من يحمل اسمه ومن زرع حبه فى قلبه ومن توطن وده فى نفسه ومن تغلغت روحه فى روحه، هنا شعور مختلف لا يحس به إلا لمن يعرف معنى الأبوة، تلك التى تُحيل الإنسان إلى مهمته الخالدة فى الدنيا وإلى نعمة العطاء التى يكون بها الإنسان مستحقاً لمعنى الإنسانية.

وقبل أن أتحدث عن تجربتى مع عبد الرحمن منذ ولادته وحتى باب كلية الطب، أقف قليلاً عند حياتى عندما تزوجت، وكنت وقتها فى نهاية ديسمبر 1994. كان راتبى فى الإذاعة حوالى مائتى جنيه أدفع منها خمسة وسبعين جنيهًا إيجار شقة والباقى لكل مستلزمات حياتنا ولسفرى الذى كان وقتها خمسة أيام فى الأسبوع. فكنت أركب القطار باشتراك سنوى خاص بالموظفين، وأمشى من أول شارع الجلاء مروراً بقسم الأوبكبة والقللى ثم بمبنى الأهرام ثم بشارع 26 يوليو حتى أصل إلى أول شارع التليفزيون، فأتجه يميناً وعلى شمالى هيلتون رمسيس، كل ذلك حتى أوفر أجرة الأوتوبيس، وأرجع بنفس الطريقة لأستقل القطار. وكنا نمشى بنظام صارم فى المصاريف حتى ينتهى الشهر الذى كنا نتنظر على شوق نهايته، وكانت خالتى تعرف هذه الحالة فكنا تحت عينيها دائماً تغدق علينا من نعم بيت أبى العامر دائماً بالخيرات.

ظللنا هكذا حتى بحثت عن عمل خارجي، فكنت أذهب إلى استوديوهات الأشرطة التي كنت أعرف بعض أصحابها لأسجل لهم مقدمات أشرطة القرآن لكبار القراء، وأحصل مقابل هذا على مبالغ قليلة كانت تساعد في أعباء حياة تمشي أولى خطواتها على الأرض. وأذكر أنني جاءني تليفون أثناء تنفيذي لفترة على الهواء لشخص عرفني بنفسه وبدا شديد الأدب، وكان صاحب شركة للإنتاج الإعلامي اسمها «مروج» وقال: إنه يتابع إذاعة القرآن منذ فترة طويلة وقد وقع الاختيار عليك لتؤدي التعليق الصوتي على برنامج عن الإعجاز اللغوي والعلمي للقرآن الكريم باسم «المعجزة الخالدة»، وظللت أكثر من شهر أسجل هذا البرنامج في استوديوهات خارجية، ولقي شهرة كبيرة عندما نزل في الأسواق، وأخذت فيه أجرًا ألفي جنيه كانت كفيلة بأن توسع علينا بعضًا من أمور الحياة. خاصة وأنه بعد شهرين من الزواج نبتت في أرض الرحم الخصلة نبتة لبشر قادم أعلن عن ظهوره، فكان فرحًا غامرًا وتمنيت وقتها أن تكون بنتًا ولكن ظهر على شاشة الطبيب أنه ولد.

وهناك في عيادة الطبيب قبل أن نرجع سميته عبد الرحمن، وفي ليلة مولده كان اغتيال رئيس وزراء الكيان الصهيوني «إسحاق رابين»، وكنا نجلس في الصالة وتناوب الأخبار وزوجتي في الغرفة معها خالتي والداية المجربة الحاجة «دولت» ذات الوجه الراضى والبسمة المشرقة واليد الخبيرة والكلمة الشافية، التي شهدت لحظة مولدى منذ أكثر من ثلاثين سنة، وشاءت الأقدار أن تكون أول من تتلقى على يديها أول مولود لي، وقد أصبحت خبرتها مضرب المثل.. فعندما جاءت وكشفت قالت إن الأمر طبيعي وأن الأمور تجري في مسارها وأن الولادة ستكون صباح

اليوم التالي، وكان معروفًا عنها أنها إذا شعرت بأى شيء غير طبيعي كانت تستعين بطبيب وتقوم بالاتصال به.

وكنّا في يوم 4 نوفمبر 1995، وسهرنا أنا وأبى معظم الليل، وذهبت الداية ثم رجعت في الصباح والكل منتظر، وما بين الضحى والظهيرة بدأت آلام الولادة يُعَبَّر عنها بالصراخ والتنهدات المختلطة بالدعاء، حتى سمعنا صوت عبد الرحمن لتسكت كل الأصوات لصوته وفي هذه اللحظة كنت قد أعددت نفسى بالوضوء لكى أستقبله بالصلاة بمجرد أن أسمع صوته. وهذا ما حدث، فبمجرد أن أعلن عن نفسه كبرت تكبيرة الإحرام وبدأت في ركعتين شكرًا لله، حتى إن أحد إخوتي اعتنقنى من ظهري لما رآنى قد دخلت في الصلاة، وبكى أثناء الصلاة شكرًا لمن وهب سبحانه. ودخلت بعد الصلاة فرأيتة محمولاً على يدي خالتي التي حملت عنا كل شيء، ولمحت يده تضربان في الهواء بأصابع خمس في كل منهما، تعلنان أن الله يهب اليد والأصابع الخمس لمن ليس له يد ولا أصابع خمس، وترد على من نطق زورًا وغشى فجورًا وتألّى على من خلق فسوى وقدر فهدى.

وهنأت زوجتى التي تحول وجهها بعد التعب وراحة وفرحًا غامرًا، ولا أنسى هذه الأيام حيث كنت في منتهى السعادة، وأحسست أن هذا الموهوب ليس لى في وجوده كائنًا حيًا عاقلًا أى فضل وإنما الفضل فيه لله سبحانه وتعالى. ورجعت بى الذاكرة في سالف الأيام عندما كنت هذا الطفل الذى كان محفوفًا بالرفض بل بتمنى الموت من الناس حوله، فإذا هو يخرج منه هذا الولد الساكن كملاك من بشر، يُصدر لحناً شجيًا كأنه يغنى للحياة، ثم هذا الحب الذى انفجر فى قلبى عندما رأيتة، وهذا

الجذب الروحي الذي أحسسته، وهذه الرغبة في شمه كلما اقتربت منه، وهذه المتعة في النظر إلى قسَمات وجهه الصغير، والأمان الذي أحسه عندما أُسلم إصبعي الصغير في كفه الوثير فيضغط بأصابعه عليه وكأنه يقول هذه يدي يدك وهذه أصابعي الخمسة أصابعك وهذا عهد بيني وبينك. وكنت أقضي وقتاً طويلاً معه، وبدأنا نتعلم كيف نحافظ عليه في هذه السن الصغيرة مستعينين في هذا بأصحاب الخبرة من الأهل الذين كانوا موثلاً لنا في كل الملمات.

وفي سن صغيرة أصبح عبد الرحمن ابن أبيه في شقاوته التي لا تطاق كما كان أبوه، وكان مضرب المثل في تحركاته التي لا تهدأ أبداً، لدرجة وصلت إلى حد الخطورة، حيث كان يمثل هو وابن عمه فريق المخاطرة التي لا يتصورها بشر. ففي أحد هذه المخاطر فوجئ الجميع أنهما قد تسلقا عمود من أعمدة الإضاءة وكان على شكل سلم حتى وصلا إلى آخر درجة موصلة إلى أسلاك الكهرباء، وهنا وقف الجميع ينتظرون ماذا يحدث، حتى خرج والدي - رحمه الله - مع أحد إخوتي وأمرهما بأن يلزما أماكنهما وصعد هو وأخى حتى ضمنا نزولهما بأمان. هنا أدركت في عبد الرحمن لمحة المغامرة وحب الاستطلاع، فكنت أراقبه بعناية. ولكني أعترف بخطأ كنت دائماً أقع فيه عند التعامل معه، لقد كنت أعفو كثيراً لكن عندما أعاقب يكون العقاب شديداً، لدرجة أنني عندما أتذكرها الآن يخفق قلبي وأسأل نفسي وهل كانت الرحمة قد نزعت من قلبك؟

ولما وصل إلى سن المدرسة، لم يكن في ذهني أن يدخل الأزهر لكن في هذا الوقت تصادف سؤال لاثنين ممن كنت أثق تماماً في رأيهما: الأستاذ الدكتور «عبد الشافي عبد اللطيف» أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة

الأزهر الذى شرح لى أن الطالب الأزهرى يجمع بين الحسنين، فهو يدرس العلوم الشرعية والقرآن ويدرس أيضًا العلوم الأخرى كالكيمياء والطبيعة والرياضيات، ونفس هذا الكلام قاله لى الإذاعى الكبير الزميل الدكتور «فوزى خليل» ودل على ذلك بولديه جهاد وأنس اللذين كانا طالبين فى كلية طب الأزهر. واشترط الاثنان أن يكون هناك اهتمام شديد بالدراسة لأن المواد كثيرة فيجب أن يكون مقبلاً عليها. وأذكر أننى قد صليت صلاة الاستخارة فوجدت نفسى مهياً نفسياً للتقديم له فى المعهد الأزهرى.

فى هذا المعهد، ذقت أنا وعبد الرحمن الأمرين من معاملة بعض المدرسين، الذين كانوا - للأسف - يفتقدون أبجديات التعامل مع أطفال مطلوب منهم أن يحفظوا القرآن الكريم ومطلوب منهم أضعاف ما هو مطلوب من أقرانهم فى التعليم العام، فكان الإهمال والرعونة هى السمة السائدة فى بعضهم. وأذكر أننى تمسكت بعقاب مدرس القرآن الذى كان معروفًا عنه أنه يضرب الأولاد «بالشلت» وفعلها مع عبد الرحمن ابنى، وكنت أول مرة أعرف هذا الموضوع فذهبت إلى المدرسة فإذا بى أفاجأ بأن الأستاذ المحترم يدخل الفصل بالسيجارة وأنه لم يكن حاصلًا على مؤهل عالى، لكل هذا فقد اعتمدت على نفسى فى تدريس المواد الشرعية والقرآن وعلى الدروس الخصوصية فى المواد العلمية، وتعبنا معًا فى هذه المسيرة التى كانت رغم تعبها ممتعة، ومازالت آثارها عند عبد الرحمن فى المواد الشرعية واللغة العربية التى مثلت عنده زادًا كبيرًا فى حياته.

أما دخوله كلية الطب فهذه قصة نجاح تستحق أن تروى، ذلك أنه كان متفوقًا فى دراسته نتيجة لهذا الاهتمام الذى نعيشه معًا، إلا أنه كان

يتتابه أحياناً بعض الفتور الذى ينعكس على بعض نتائجه فيحتاج لمن يشجعه ويحفزه. لذا عندما جاءت هذه السنة الفاصلة قمت بتجهيز غرفته من جديد، مكتب جديد خاص به وإضاءة جديدة وشكل مختلف واهتمام غير عادى. وكان قد وعدنى بأن يؤدى ما عليه وكنت أراقبه من قريب، فوجدته لا ينام إلا قليلاً وإذا ناديته مرة واحدة لإيقاظه يفزع، وإذا تأخرت قليلاً فى ذلك يلومنى ويعتب علىّ. وكنت متابعاً له فى المواد الشرعية واللغوية، حتى إننى أذكر أنه لم يفقد فيها جميعاً إلا ثلاث درجات، وكان أساتذته فى المواد العلمية يدبجون فيه قصائد شعر. ما فعلته معه هو أننى قد هيات له جوّاً مناسباً تماماً ثم حاولت أن أستخرج ما عنده من قدرات أعلم يقيناً أنها مخزونة لديه، ثم نفخت فيه روح التفوق والنبوغ التى أعرف مكانها فى شخصيته، وعشت معه الحلم الذى كنا نأمله، فكان هذا الحوار بينى وبينه فى مصيف بالإسكندرية قبل النتيجة ببضعة أيام.

رضا: بعد مراجعتك للامتحانات كم تتوقع النتيجة؟

عبد الرحمن: أتوقع 93٪ حتى 95٪.

رضا: يعنى لا أطمع فى 97٪ لنطمئن على دخولك كلية صيدلة؟

عبد الرحمن: أنا عملت الى علىّ وتعبت وربنا يسهل.

رضا: أشهد بذلك، وعلى فكرة أى نتيجة بعد الذى رأيته منك أنا

راضى بها تماماً.

وبعد هذا الحوار بحوالى خمسة عشر يوماً كنا نستعد أنا وأمه للخروج إلى عزومة أخى فى رمضان، فجاءنى جرس التليفون المحمول فنظرت

فرأيت اسم هذا الشاب الذى يعمل فى كترول الشهادة الأزهرية وكان قد وعدنى أنه سيشرنى بالنتيجة قبل أن تُعلن. فبمجرد أن قرأت الاسم قلت يارب والنبي لاتخذلنا، فسألتنى زوجتى فقلت لها نتيجة عبد الرحمن، فتركت كل ما فى يديها وتسمرت بجانبى، وفتحت التليفون ورحبت به وقلت خيراً، فقال لى مبروك عبد الرحمن جاب 96 ونصف فى المائة، فحمدت الله وقلت لزوجتى فإذا بها تصرخ بالحمد لله وتنهمر عيناها بالبكاء، ولم أستطع أن أمنع نفسى فنزلت دموعى وخررت ساجداً لله، وجاء أهل البيت على صراخنا السعيد فانطلقت زغاريد الفرح بصراخ السعادة. ومازال الرجل معى على التليفون فقال هذا المجموع يضاف إليه درجات المستوى الخاص إذا حصل عليه، فى هذه اللحظة جاء عبد الرحمن الذى خر ساجداً بمجرد أن عرف وأصبح مجموعته بعد المستوى الخاص 98٪ ليكون طالباً فى كلية طب الأزهر، ولتكون آية على أن من يعرف نفسه ويقدر إمكاناته ويجيد استغلالها لابد أن ينجح، وهذه سنة من سنن الله فى الخلق.

أما «أفنان»، زهرة البيت التى يفوح عطرها فى بيتنا، أبتى التى اخترت اسمها من القرآن الكريم حيث كنت قد توقفت عند هذه الآية التى يصف فيها الله - سبحانه وتعالى - الجنة من خلال صورة رائعة:

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۝﴾ .

فأسرنى الاسم، فعزمت لو أن الله وهبنى بنتاً سأسميتها أفنان.

ورأيت أن الاسم لابد أن يتوافر فيه عدة سمات؛ أولاً أن يكون له معنى، ثم ألا يكون غريباً بحيث لا يكون سبباً فى فى سخرية أو استهزاء، وأن يكون معبراً عن ثقافة يتنمى إليها صاحب الاسم، لذلك فقد اخترت

هذا الاسم القرآني. والذي تصادف أن ابني اسمه عبد الرحمن، وابنتي اسمها أفنان هذه الكلمة التي لا وجود لها في القرآن إلا في سورة الرحمن وكأننا بهذين الاسمين نستجلب الرحمة من صاحب البركات والرحمات سبحانه.

وأذكر ليلة مولدها في الثالث والعشرين من شهر يونية 1999، وقبل صلاة الفجر كانت زوجتي تحاول أن تُخرج من بطنها روحاً أراد الله لها الحياة، وحوّلها النساء في صالة بيتنا الجديد الذي انتقلنا إليه منذ فترة قصيرة، والصرخات تتعالى والأنفاس تخرج بصعوبة والطلق في أنحاء البطن يعلن عن قرب ميلاد جديد. وأنا واقف بين يدي ربي أدعوه أن يخرج الروح من الروح بإذنه، وأسمع الشيخ محمد الهلباوي بصوته في الإذاعة وهو يقدم تواشيح الفجر على الهواء يأتيني من ميكروفون المسجد الذي يملأ الآفاق، يارب، فأردد معه يارب ثم أذن لصلاة الفجر فذهبت للصلاة في المسجد وسجدت لله داعياً أن يكتب السلامة للأم وللمولودة، وعدت إلى البيت، وسمعت وأنا على درجات السلم صوت «أفنان» تعلن عن بداية حياتها على الأرض وترسم على وجوهنا بسمة الأمل والتفاؤل لأمنية كنت لطالما تمنيتها، أن تكون لى بنت هبة من الله ونسمة رقيقة أحتمي بطيفها العليل من قيظ قسوة البشر. ولأن الاسم لم يكن مشهوراً فقد أخذ فترة حتى اعتاد عليه المحيط الذي نعيش فيه.

تحتاج البنت في التعامل معها إلى لين ورفق، لأنها ذات طبيعة مختلفة تتسم بنوع من الرقة، فلا بد أن يُراعى ذلك، فلم تجد منى ما وجد عبد الرحمن من شدة. وهي في المقابل لم تكن بهذه الحالة من الشقاوة التي كانت عند عبد الرحمن بل كانت هادئة الطبع. ولم أكن معها بنفس القدر

من الاهتمام في الدراسة الذى اتبعته مع عبد الرحمن وإن كنت قد وفرت لها ما وفرت له لعبد الرحمن. ومن المهم جدًا أن يقرأ الأب أبناءه جيدًا بحيث يستطيع أن يتعامل معهم. ففى حالة أفنان أدركت أن الضغط الشديد يمكن أن يخلف عكس المطلوب، بمعنى أن الإمكانيات العقلية تكاد تكون متساوية مع أخيها أما المهمة والقدرة على العمل والنظرة إلى المستقبل وما يتطلبه من عزيمة ومضاء فهناك فرق واضح، لذا فقد راعيت ذلك وإن كنت متابعًا متابعة جيدة دون أن أتدخل مباشرة حتى لا يحدث حالة من عدم الثقة فى النفس، إلا إذا كان حل مشكلة أو لفك حالة من التعقيد النفسى أو الدراسى، لذلك فقد كان هناك فرق ليس قليلًا فى المستوى الدراسى والنتيجة بين الاثنين.

لكن لأنى كما قلت أعرف إمكانيات كل منهما، فقد رأيت فى أفنان مشروعًا لإعلامية ناجحة، إذ هى تتمتع بالقبول والرضا بمجرد مطالعة الوجه وتتمتع بالوعى اللازم وبالمناقشة المنطقية وبالحوجج عندما تكون هناك قضية للأخذ والرد، ولو أضيف إلى كل هذا الدراسة المنهجية للإعلام إذاً يمكن أن نكون إزاء شخصية إعلامية محترمة، لهذا فقد قدمت لها فى كلية الإعلام جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، عليها تكون شخصية من الشخصيات التى تضىء طريق الناس بالحقيقة، وتسهم فى بناء مجتمع قوامه الصدق والإخلاص، هذه الرسالة التى تتم عبرها وعبر كل من يعرف قدسية للكلمة ودورها فى رقى المجتمعات.

فجيعة النفس والروح .. موت أبى

رحلة الحياة، تلك التى عشتها معه، كان هو فيها الروح التى تدفع

روحي للحياة، كان هو الأمان والأمان من كل ما تخاف منه النفس، كان حافظ السر لكل خبيثة من خبايا نفسى وروحي، كان وطناً أعيش في أرجائه، وشجرة للظل من حر جنایات البشر، وكرمة للهدوء من كل الصخب، ونسمة علية تهب كى تمنح الأيام بصمة الأمل، وحاملاً للسيف لمن تسول النفس له الاقتراب من ضيعة الأمانى فى بنايات حلمى المعد للحياة.

«أبى» الذى حملنى على يديه عندما ولدت وكان ثابتاً ثبات جبل وصلى ركعتين للحياة.. أبى الذى راعانى صغيراً وبث فى أنحاء نفسى وأرجاء عقلى أنك المسئول دائماً أمامى عن الإنسان داخلك دون أن تقول يَدَى.. أبى الذى فتح باب الفصل لكى أعلق القلم فى أسنان رحلتى الطويلة رغم الصدود ممن أراد أن يغتال فى نفسى الحياة.. أبى الذى عاش قلباً محتوينى وجفن عينه ملاذاً لى من الهموم وكف يده مصدرًا للحنان فى حياتنا معاً، كان أبى وأخى وصديقى الذى أكلمه فى كل شىء، كان طبيباً لنفسى ومرشدًا أميناً فى كل مراحل حياتى.

قبل وفاته بعدة أيام ذهبنا سيرًا على الأقدام لقرية بجوار قرينتنا لاستخراج ورقة من المجلس المحلى واستغرق الطريق أكثر من نصف ساعة، وكانت متعة تحتوينا حينها يجمعنا طريق ونتكلم، وكنت أنصت إليه لأنه كان حكاةً ممتعًا وكان كل ما يقوله ينتصر فيه لقيمة أو مبدأ. وفى هذا اليوم حكى لى كيف كان حريضًا طوال حياته على ألا يدخل إلى بطوننا لقمة حرام، وحكى قصة له عن موقف مع شخصية حاولت إرغامه على الحرام وكانت ذا سطوة لا تُدفع لأنه كان يرأسه، فتجاسر أمامه وقال فلتفعل ما تريد لكن لن أطعم عيالى لقمة حرامًا، فلم يرغمه

على أن يشاركه في شيء، فوقع هذا الشخص ذو السطوة وهنا حامت الشبهة حول والدى وظل عدة أيام كما يقول لا ينাম، إلا أن الله قيض له من يدافع عنه وهو سائق السيارة الذى شهد بأنه لم يكن له اشتراك بأية صورة في هذا الذى يفعله صاحب السطوة، وقال له هذا الرجل وهو مدان في النهاية أعرف أن الله سوف ينجيك واعدرنى في محاولة اتهامك.. وكأنه كان يحكى لى عن سبب رضاه عن نفسه وعن تحريره الحلال رغم كثرة العيال والحاجة أحياناً.

وقبل وفاته بعدة أيام، كنت عائداً من فترة تنفيذ على الهواء وقابلته مصادفة في مدينة قويسنا، وسرنا سوياً لقضاء الحاجات الخاصة بالبيت وطلب منى أن أذهب لكن لأنى أعلم أن يريد أن نكون معاً بقيت معه حتى قضى كل ما يريد ورجعنا سوياً، فتحدث معى عن عملى - وكنت مديعاً لم يمر على أمام الميكروفون سوى سنتين - قائلاً: «عندما أسمع صوتك أشعر أننى مرتاح ليس لأنك ابنى» فقد كان لا يفوت سماع أية فترة من الفترات التى أنفذها على الهواء.

كانت متعته في اللعب مع عبد الرحمن وباقي أولاد أخوتى والجلوس معهم، وفي الليلة التى سبقت وفاته، وكان ذلك في يوم السابع من يونية 1998، جاءه أحد الناس لكى يخرج له قسيمة زواج من المحكمة وظل معه، لفترة ثم انصرف وأنا جالس معه، فنادى عبد الرحمن ابنى فى صالة البيت وكان أبى يجلس على أريكة من الخشب ارتكن إلى قائمها الأيمن وظل يداعب عبد الرحمن. كانت سنه ثلاث سنوات وكانت متعته المفضلة، ولما قاربت الساعة الثانية عشرة قمت ووقفت على أول درجات السلم وهو مازال يداعب عبد الرحمن، فطلب منى الجلوس فقلت له

عندى امتحان غداً، وكنت وقتها أمتحن في كلية الدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فاعتذرت له ودعائي وصعدت درجات السلم، ولم أكن أعرف أن هذه آخر مرة أراه أو أتحدث إليه وهو حي. ونزلت من البيت في الصباح، وكانت عادتي أنني عندما أنزل بعد الفجر بقليل قبل شروق الشمس أسمع صوته يرتل القرآن والباب مفتوح، فأملأ نفسي تقى من وجهه التقى التقى وينفحنى بنفحة من دعائه.

في هذا اليوم نزلت، وكانت الشمس قد طلعت فوجدت الباب مغلقاً فقلت له يكون قد أخذ شيئاً من الراحة فلم أفتح الباب، وسلكت طريقي إلى الامتحان ومعى صديقي الشيخ محمد عثمان الذي كان يدرس معى في كلية الدعوة الإسلامية وتركني في مدينة قويسنا لأمر ما، وبعد أن رجعت إلى البلد ونزلت من السيارة التي ألقيت بي في شارع سكة المزلقان الطويل وجدت كل من يراني يطيل النظر إليّ، وبدأت أشك في أن أمراً ما حدث، ونظرت في نفسي لماذا ينظرون إليّ بهذا الشكل، حتى اقتربت من البيت، فصادفني واحد من أهل البلد من الشباب سلم عليّ من بعيد وأسرع في خطوته وبدأ في عينيه قلق ظاهر، وبدأت أقرب أكثر من البيت حتى كان بيني وبينه حوالى مائتى متر وجدت أحد أقارب أبى يستقبلنى ولم يستطع أن يتكلم فسألته ماذا حدث، فرأيت عينيه تنهمر بالدموع فصرخت فيه ماذا حدث؟، فرد الجار المقابل لنا - وقد جاء لما وجد الأول لم يستطع الرد - وقال: كان في الغيط، فقلت من؟، في هذه اللحظة كنت أمام البيت والكل كان ينتظر وصولي، فخرج أخى ياسر من شرفة بيتنا المطل على الشارع وهو منهار تماماً والدموع تملأ وجهه وهو يقول: «أبوك يارضا أبوك يارضا»، فلم أستطع أن أستوعب وكأننى في كابوس مخيف،

ووجدت في انتظاري كم كبير من الناس، فقد صرح لهم حسن أخى الأكبر أنه لن يفعل أى شىء حتى يأتى رضا، وبعد أن سمعت من ياسر الخبر كأنى لم أصدق حتى دخلت البيت وسمعت ولولة النساء الثكالى، ورأيت الصلاة وقد امتلأت بالناس الذين صوبوا إلى أعينهم فى مشهد عرفت وقتها أن الموت قد زارنا فى أعز ما لدينا.

أحسست أن جسمى كله قد تفكك من بعضه، ووجدتني أقع على الأرض وكأن كل عضو فى مكان وأنظر إلى الناس وكأنها خيالات تمر أمامى، وغبت عن الوعي لدقائق، وسألت ماذا حدث؟ فقد كنت أجلس معه حتى منتصف الليل. فقالوا إنه ذهب أمام الجميع إلى قطعة الأرض الزراعية التى يملكها والتى يقضى فيها وقته أحياناً، ونزل ليرى تدفق المياه على رأس هذه القطعة من الأرض على مرأى ممن حوله من المزارعين وجلس على مقربة منهم. وبعد عدة دقائق وجدوه وقد مال بجنبه على الأرض، فأسرعوا إليه فوجدوه قد أسلم الروح وكانت المفاجأة صاعقة. وبعد أن سمعت منهم تمالكت نفسى وأشفق على البعض أن أدخل عليه. ولكن دخلت فوجدت أبى وجه مستريح فيه سلام وأمان وسكينة وهو نائم نومته المعروفة، فقبلته من جبهته وأطلت لمس جبهته التى طالما سجدت لربها وركعت، وقبلت يديه المضمومتين على بعضهما ثم وضعت الغطاء وقد رجعت إلى نفسى.

أشفق على بعض أقاربى أن أحضر تجهيزه، فقلت لن أتركه لحظة واحدة حتى القبر فدعونى. ولا أنسى هذه اللحظة التى رفعوا فيها قماش الكفن قليلاً حتى يغيب رأس أبى فى الكفن الأبيض ليذهب إلى ربه، وقتها ظللت أبكى لمدة طويلة. وكلما تذكرت هذه اللحظة خفق قلبى لكنى تمالكت نفسى ووقفت أمام الناس فى المسجد فى صلاة الجنازة،

وأنا أعلم أنه لم يكن يوماً مديناً لأحد لا مادياً ولا معنوياً، ولكن قلت هذا أبى لو كان هناك لأحد دين عليه فنحن أبناءه نسد عنه، ورجوت الناس وأنا أبكى أن يخلصوا له الدعاء. ووقفت على شفير القبر أودع هذا الرجل الذى لولاه ما كنت وما كان أحد من إخوتى. وظللت لعدة أيام وأنا ذاهل كيف أعيش دون أن أراه، وقتها أحسست باليتم الحقيقى وأحسست عندها بشىء من الخوف من شىء ما.

ولم ينقذنى من هذه الحالة إلا أن وضعت برنامجاً لنفسى قمت به فى التقرب لله والالتجاء إليه وقراءة القرآن، حيث كنت أقرأ القرآن معظم أوقات النهار، وأعدت قراءة كتاب لابن القيم بعنوان «الروح» هذا الكتاب الذى يتحدث عن الروح الإنسانية كيف خلقها الله وخصائصها وكيف تلتقى الأرواح وأنواع الأرواح وماذا يحدث للروح عند النوم وكيف تلتقى أرواح الأحياء والأموات، هذا الكتاب أنقذنى فى هذه الفترة. وكنت أذهب بين الحين والآخر إلى قبر أبى فأعود حزينا، لأن القبر كان يذكرنى بعنف بحقيقة الموت لذا فأنا ممن يُقلون فى زيارة المقابر، ولكن أخذت على نفسى عهداً ألا أنسى أبى ولا أُمى فى عبادتى ودعائى. فبين الحين والآخر أقرأهما القرآن كاملاً، وفى رمضان لكل واحد منهما ختمة خاصة به وعمره خاصة لكل منهما فى كل عمره أذهب فيها إلى مكة المكرمة.

مات أبى الذى كنت أحس دائماً أننى أستند إليه عندما تدهمنى الدنيا، وطالما كنت أخاف من هذا اليوم الذى يترك الدنيا وراءه، وكان إذا زارنى هذا الخاطر أطرده حتى من خيالى. وإذا كان أبى قد مات فإنه سيعيش معى فى كل لحظة من لحظات حياتى، يعيش معى روحاً تدفعنى، وقيماً حُفرت فى نفسى، وقوة فى مواجهة الشدائد والصعاب، وأملاً منقوشاً

بالصبر والعمل الدؤوب على صفحة العمر التى عشتها معه. وإذا كانت
لى بعد الموت أمنية من ربى فهى أن أرى وجه أبى وأملاً عينى من طلعتة،
وكما كان لى أبا فى الدنيا يكون لى أبا فى جنان الخلد مع المتقين. وقد كتبت
قصيدة فى حياته بعنوان «أبى» عبرت فيها عن خوفى من هذه اللحظة:

يتصفح ذاتى
يقرونى أوراقاً بجميع الأحبار الصور الأحجام
يعرفنى صمتاً يتكلم
أتمد فى أحداق عيونه
يغمض عينيه على جسدى
أرهف سمعى
أشحذ عقلى
ألمح نوراً
دقات القلب تنادى
ولدى
تتخللنى
تعمل فى نفسى آهة حزن من أيام تأتى يتركنى
تفتح عينيه الحانيتين أصابع خمس
وبروعة حس تقذفنى فى بؤرة قلبه
أبت..
الحلم الباقي من عهد الأحلام الوردية
مذ كنت صغيراً
شهر أغسطس 1990

الجزء الثالث
حياتي وفكري

رحلتى مع القرآن

بدأت رحلتى مع القرآن منذ بواكير العمر وفى سنواته الأولى حيث كانت الكتاتيب بشكلها القديم مازالت موجودة، يجلس الشيخ بين الأطفال، وتبدأ هذه الطريقة فى التعليم الشفهى الذى يرتشف فيه المتعلم من معلمه اللفظ بعد أن يتذوقه ويجريه على روحه ونفسه ثم ينطق به كما سمع ويردد حتى يحفظ. وكنت تسمع دويًا كدوى النحل فى هذه الكتاتيب، وكنت أيضًا تجدد السلوكيات التى تخرج من الأطفال تعبر عن سنهم الصغيرة، فهم فى النهاية أطفال فى سن لا بد أن تصدر منهم هذه الأفعال التى تجعل الحلیم يخرج عن حلمه أحيانًا.

وأول من جلست أمامه لأحفظ القرآن هذا الرجل الذى كان لا يترك المصحف يغادر يديه ولا عينيه ليل نهار فضيلة الشيخ «عبد الرحمن يوسف»، الذى حفظت على يديه أول ما حفظت من القرآن، الأجزاء الأخيرة، ولكن كان حرصه الشديد على أن نحفظ القرآن جعلنا نفلت من يديه ونبتعد عنه شيئًا فشيئًا، إذ كان يريد ونحن فى الإجازة الصيفية التى ننطلق فيها بعد سنة دراسية طويلة أن نترك كل شىء لحفظ القرآن، فكان إذا رأى أحدًا منا يلعب ينظر إليه فى عتب شديد، وإذا جاء بعد ذلك

عنفه. والرجل كان يفعل ذلك حباً في القرآن وأملاً في أن نحفظه، خاصة وأنه كان شديد التعلق بالقرآن وكان دائماً ما يخاف أن يفلت منه. ولكنه في الحقيقة استطاع أن ينجح مع ابنه الذي أصبح طبيباً بعد ذلك الدكتور «حسن عبد الرحمن» الذي كان مثلاً للتفوق في جميع المجالات ومنها أنه حفظ القرآن الكريم في سن صغيرة، وكان ممن يشار إليهم كمثال يُقتدى به حيث أصبح طبيباً للعيون يجرى الله على يديه شفاء الخلق.

وبعد الشيخ عبد الرحمن تنقلت بين مجموعة ممن حفظت عنهم جزءاً كبيراً من القرآن، هذا الرجل الطيب الوقور صاحب الصوت الذي كان يستحق أن يكون صوتاً إذاعياً الشيخ «محمد مرسى» - رحمه الله - الذي صادفته وقتها وكان يحكى لى حكاياته الجميلة ورحلته في حفظ القرآن، وأن الذي حفظه القرآن كان عمه الشيخ «عبد الرحمن»، ولكن بعد أن ذاق معه حلاوة الحفظ وذاق أيضاً مع الرجل مرارة المعاملة، ولكنه احتمل كل ذلك من أجل أن يستقر نور القرآن في قلبه. هذا الرجل حفظت حوالى نصف القرآن على يديه، لكنه لم يكن يهتم بالتجويد ومع ذلك فقد كنت أقرأ قراءة صحيحة.

وبعد قليل كان لقائى بالشيخ «عبد الفتاح شوشة» الذى غزا قلبى بحب حفظ القرآن، حيث كانت جلساتنا معه نوعاً من السياحة العقلية والروحية والخلقية، وكان تحفيظ القرآن عنده رسالة متكاملة فيها حفظ الكلمات وتقصى المعانى والوقوف عند المشاهد القرآنية، والبكاء بين يدي الآيات كان يكمل صورة صاحب الرسالة في تعليم القرآن الكريم وليس في تحفيظه فقط. هذا الرجل القرآنى كان يعمل في البوليس في رتبة من رتب المعاوين الكتبة، وكان يركب دراجته ويطلق صوته خافتاً لا يسمعه

إلا من اقترب منه، وكان من يراه يظن أنه ينظر إليه ولا يلقى السلام حتى اشتكى الناس فلما نقلت له شكوى الناس قال إننى ساعتها أرى الطريق ووجوه الناس بعيناي أما لسانى وقلبى فمع الله فى قراءة القرآن. وكان جسمه ضعيفاً ولكن عندما أن يقرأ القرآن تشعر كأن صوته شلال هادر من الطهر الخالص الذى يتلبس بالمعنى فيخرج فى خشوع نادر لا تجد له مثيلاً، لدرجة أنه قرأ سورة المائدة كاملة فى ركعتين ذات ليلة بهذا الصوت الذى يتصف بالقوة والخشوع مشعشعاً بالبكاء أحياناً. وأذكر أول مرة أجلس معه - وكنت فى نهاية الإعدادى أو أوائل الثانوى - وكنت قد حفظت حوالى نصف القرآن على يد الشيخ «محمد مرسى» وكان قد دخل المسجد وهو ينفذ يديه من ماء الوضوء وكبر وصلى ركعتين، فذهبت إليه وجلست أمامه فعجب الرجل فلم يشاهدنى قبل ذلك، فوضع يده على كتفى وربت بهما بابتسامة عطف ثم انشغل عنى لكى أقوم من أمامه بلطف، فقلت له إننى أريد أن أقرأ عليه مما أحفظ، ولأنه كانت سعادته الكبرى عندما يجد أحداً يحفظ القرآن فانفجرت أسارير وجهه وأبدى شيئاً من العجب فقال إقرأ، فرتلت أول «سورة طه» فطار الرجل فرحاً ونظر لمن جاء من الناس بعد ذلك وكأنه يريد أن يعرف من هذا الولد، هنا دخل أبى - رحمه الله - فحكى له القصة ومن هذا اليوم كنت تلميذاً نجيباً لهذا الرجل الذى تعلمت منه القرآن تلاوة وأدباً ومعاني وأخلاقاً، حيث كنا نذهب إليه وبعد أن يرتل كل منا اللوح الخاص به يختم هو بصوته بربع من القرآن يختاره ثم يختار منه بعض الآيات ويفتح مغاليق الروح والنفس لكى نعيش هذا المعنى الذى يصل إليه بفطرته النقية وعقله الواعى ونفسه التقية الورعة. وأذكر أنه - رحمه الله - رتل مرة آخر سورة هود ووقف بعض الوقفات فيها وخاصة عند هذه الآية:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُيَ ظِلْمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

ثم بكى الرجل. وتصادف أننى فى هذا الوقت كنت أحفظ سورة هود وكنت قد صححت عليه ربعا من أولها على أن نرجع إليه بعد ثلاثة أيام لكن لنقرأ عليه ما حفظناه، فجلست أمامه لكى أقرأ عليه الربع فإذا بى أقرؤها عليه كاملة فعجب الرجل، فقلت له وهل بعد الكلام الذى قلته عنها فى اللقاء السابق أتركها، لقد وقعت فى قلبى وما رأيتنى أحفظ سورة من سور القرآن أسهل حفظاً من هذه السورة العظيمة التى قال عنها النبى ﷺ «شيبنى هود وأخواتها». وتعلمت منه التعمق فى معانى القرآن وإشراك الروح بها من فيوضات على فهم القرآن، وخاصة عندما يسكن الإخلاص قلب قارئ القرآن ولا يبتغى بقراءته سوى رضا الله سبحانه وتعالى، لذلك بعد هذه السنوات الطوال وجدت نفسى أحن إلى طريقة هذا الرجل فى الوقوف عند معانى القرآن وملازمة الباب حتى يفيض الله بنعمة الفهم التى لا تأتى إلا بما كان عليه هذا الرجل وأمثاله الطيبون.

لذلك هذا غيض من فيض كتبته عندما وقفت عند عتبات رحمة الله الفياضة فى فهم بعض السور والآيات:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾...

عندما تقرأ فى الجزء السابع من القرآن وتتأمل آياته وتتدبر كلماته ومعانيه تجد جيشاً من المعانى وسبيلاً من المفاهيم التى تعيد المسلم قارئ القرآن إلى حائط الإيمان القوى محتماً به ومستنداً إليه. ففى بداية الجزء فى «سورة المائدة» تحذير من اليهود والذين أشركوا والتاريخ شهد بصدق

القرآن، فسواء قبل نزوله أو إلى يومنا هذا وهم على دربهم سائرون في حيز هزيمتنا وضعفنا.

ثم تأتى هذه الآية التى تشرع لحقيقة إنسانية واجتماعية فى دنيا الناس؛ أن الخبيث لا يمكن أن يعدل الطيب ولا يساويه ولا يطاوله ولا يغالبه، فالطيب ما ينفع الناس والخبيث ما يضرهم ما يقتلهم ما يشردهم ما يستبيحهم.

ثم يأتى هذا الحكم العقلى والمنطقى والشرعى والطبيعى والإنسانى ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.

ثم تأخذنا الآيات فى هذا الجزء إلى قصة المائدة وجولة مع يقين الأنبياء الكرام والى انتهت بهذا الدعاء ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم يدخل بنا الجزء السابع إلى عالم «سورة الأنعام» لنقف عند هذه الآية التى تنقل إلى الإنسان إشارات لعلم الله - سبحانه وتعالى - ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

يبدأ بالغيب، هذا المستتر المخفى الذى ينتظره الإنسان فهذا لا يعلمه ولا يطلع عليه ولا يعلم سره ولا يدرك كنهه ولا يستطلع أمره إلا واحد - سبحانه وتعالى - ثم التعبير بكلمة «مَفَاتِحُ» - بالجمع - فى أيها الإنسان اعلم أن الغيب مخبوء عند رب كريم فاعمل خيرا تجده مخزون بالخير فى هذا الغيب، ويعلم كل ما يدب على الأرض منذ أن خلقها ويعلم ما

في البحر الذي يحيط بالأرض في أعماقه وسطحه وعلى شواطئه، يعلم الحركات والسكنات، يعلم الخطوات والزفريات والشهقات، ويعلم كل ورقة سقطت أين ومتى وكيف، ويعلم الحبة لا يراها أحد في الدنيا غيره عندما تسكن باطن الأرض ثم يأتيها أمره فتخترق الأرض لتشم عير الحياة وتصبح ساقاً وأوراقاً وثماراً لا يعلمها إلا الله.

ألا ما أجمل وما أعظم وما أروع اللفظ القرآني ألا ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.

﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾

ما أن وضعت قدمي في السيارة التي تقلني إلى القاهرة حتى أخرجت الموبايل وفتحت المصحف الإلكتروني على الجزء الرابع وبدأت القراءة، وأنا أحب كثيراً أن تلامس الآيات بنورها الإلهي مقلتي عيني ووالله كأنها لهما شفاء ولروحي دواء ولنفسي رواء.

وبدأت أقرأ فطالعتني هذه الآيات من «سورة آل عمران» مُشَيِّدة ببناء بلاغي في غاية الروعة والبيان ومدعمة بالنداء تارة وبالأمر تارة وبالبشارة للمؤمنين والزجر للمشركين والكافرين تارة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ

إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

فها هو النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ...﴾ والأمر المباشر الداعي إلى الالتئام والوحدة والتعاون والتآزر والأخوة بالاعتصام، وما أعظم اللفظ وما أجمله، فهو مخزون بالبلاغة القرآنية لأنه يعنى الوحدة فى ظل الاعتصام، ثم الاعتصام بحبل الله الذى لا يقطع ولا يلى ولا يزيغ ولا يباع ولا يشتري. ثم كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ يامن تخاطبون بهذا الدين فى شتى مناحى الأرض أينما كنتم.

ثم يأتى التحذير من فرقتهم الأهواء وشتمهم العوادى والفتن وألقت بهم الشياطين على جانبى الطريق المستقيم ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا....﴾.

وتنتهى الآيات بالسواد يُدهن به وجوه الظالمين المستكبرين الكذابين وبالبياض والألق والفرحة والحبور والسرور يطبع كل هذا على وجوه المؤمنين المتقين الخاشعين المخبتين العدول ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ هذا هو الطريق، الاعتصام والوحدة.

ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.

﴿...لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا...﴾

كلما تأهبت لقراءة الجزء العاشر من القرآن ارتسمت فى ذهنى هذه الصورة المتفردة فى التاريخ، التى يقف فيها الاستكبار والطغيان والجهل والغرور أمام باب الغار لكى يسكتوا صوتاً يحى الإنسانية بعد أن أهانوها بالقهر ويرفع الكرامة بعد أن أذلوها بالسجود لحجر أو لصنم، هذه

الصورة التي صاغها القرآن في «سورة التوبة» بلاغة مشخصة مشاهدة معانية كأنك تراها تشاهدها.. تعاينها.. تعايشها.. وهذه الآيات جاءت بعد عشر سنين من الهجرة وفي غزوة تبوك غزوة العسرة جاءت لتقول إن النصر له أسبابه له عدته له رجاله له مواقفه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٢٨﴾ إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ إِلَّا نَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا بِاللهِ مَعْنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾

تبدأ الآيات موجهة الخطاب إلى الفئة المؤمنة التي أصابها بعض الوهن من وعورة الطريق وصدود الرجال وقلة الزاد وشظف العيش ﴿.. مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ...﴾ مالكم ماذا حدث، هذا الخطاب المبطن بالتشجيع والتحفيز المبدوء بالعتاب الرقيق الموشى بهذه الصورة لمن لا يستطيع أن يقف على قدميه حتى يقع.

ثم يأتي التحذير في الآية التي تليها ﴿إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا...﴾ لأن سنن الله ليس فيها محابة ولا مجاملة لأحد حتى ولو كانوا

اتباع رسل، ثم يذكرهم بهذا الموقف بعد أن مر عليه عقد من الزمن أن الله ناصره ومؤيده نصرتم أم لم تنصروا.

ثم يرسم القرآن هذه الصورة التي يقف فيها أصحاب القلوب المقفلة والعقول الموصدة والنفوس الشرهة الخبيثة التي تحالفت مع الشيطان لكي يطفئوا نورًا جاء ليضيء الكون ويغمر الأرواح ويحيى النفوس، لكن أنى لهم وقد أدى صاحب النور ما عليه ولم يترك للفشل طريقًا ليصل إليه وأخذ الأسباب كما يأخذها البشر وعلم أن له إلهًا يؤيد عباده وينصر رسله. وهنا تنطلق منه عبارة الأمن والأمان ﴿لَا تَحْزَنْ إِرَٰكَ ٱللَّهِ مَعَنَا﴾ طريق المصلحين وهدى الحائرين ومرفا المتعبين وآمال المستضعفين ونوال العابدين وسبيل الواصلين ونهج الأولياء المتقين ووعيدًا للطغاة الظالمين المستكبرين.. إن الله معنا

لا تحزن إن الله معنا
ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.
﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾.

في الجزء التاسع عشر نقرأ من «سورة الفرقان» هذه الصورة الواضحة الجليلة النقية الصافية الضافية لعباد الرحمن، التواضع سمة فيهم والإنفاق عطاء واجب رضائي عليهم، وحفظ النفس البشرية وصيانتها ديدن لهم، وشهادة الزور مستحيل عليهم هؤلاء الذين اصطلحوا مع الأخلاق وخاصموا الشقاق والنفاق وخلصوا إلى ربهم.

ثم ندخل إلى فضاءات «سورة الشعراء» وقصة موسى وفرعون وهذا الحوار الذي أثبت فيه موسى لفرعون أنه مرسل من ربه وأن الآيات معه حاضرة وقوية ونافذة، وكانت العصا أظهرها حيث تحولت حية وأكلت باطل السحر والسحرة وأكلت معه مكانة فرعون وجبروته وطغيانه، وإذا

بالسحرة الذين كانوا أَعوانًا للباطل منذ لحظات يصبحون أَعوانًا لموسى وللحق الذى يدعو إليه، وقالوا لفرعون عندما توعدهم بالويل والثبور قالوا بلسان المسلم لربه المستسلم لقضائه المؤمن بعدله الراضى بقضائه: ﴿لَا ضَيْرٌ لَّنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ وتنشط آله فرعون الإعلامية على السحرة الذين اهتمدوا ولأتباع موسى وأخذوا يعبرون عن غيظهم وحقدهم ﴿وَلِيَهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ﴾ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ، ففر موسى ومن معه من القتل والبطش وسار هو ومن معه وراءهم فرعون بجحافل الشر وقوى الباطل وجهاعات المصالح وخزائن المال الحرام وعقول الهوى الجامح.

﴿فَلَمَّا تَرَىٰ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٦١) قَالَ كَلَّا إِن مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۖ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۖ ﴿

مضوا وراء موسى ومن معه، وأصبح البحر أمامهم وفرعون وراءهم وحتماً سيلحق بهم، ولأن موسى مرسل من ربه ويعرف سنن الله فى الخلق، ويعلم أن الباطل قد يزهو حيناً لكنه لا يبقى ولا يظهر ولا ينتصر أبداً وأن فرعون قد قتل وظلم وطغى وتجبر، هنا موسى امتلاً باليقين وغُدَى بالثقة فى ربه وفى سنن ربه التى ليس لها تحويل ولا تبديل وهنا قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ يا الله معى ربي فمعى النصر والنجاة والعون والفوز والسودد، معى الراحة والطمأنينة والسرور والخبور وإذا بالبحر طرق يابسة، وإذا بموسى ومن معه على الجانب الآخر آمنين مطمئنين وإذا فرعون وهامان وجنودهما يذيقهم البحر معنى الغرق ويذهبون عبرة للظالمين.

اللهم جنبنا الغرق في الدنيا وميادينها وارزقنا النجاة في الدنيا والآخرة.

ألا ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.

«وَسِيقَ»... شتان بين الأولى والثانية

في الجزء الرابع والعشرين أنت أمام بقية «سورة الزمر» و«سورة غافر» و«سورة فصلت»، وفي «سورة الزمر» تجد آيات تزلزل كيانك وتهدي روعك وترزع الأمن في آن واحد، كيف؟ بما تعرضه من صور لمن تخاصموا مع الحق وصادقوا العداوة وائتلفوا مع الشر وذهبوا مع الداهيين إلى جهنم، ومن ثم عندما تقرأها تحمد الله على البراءة منهم والطلاق البائن من أخلاقهم واختيارك الإيمان من هذه الصور في هذه الآيات ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حينما تقرأ هذه الصورة المشخصة لمن لا يريد الله ولا منهجه ولا أخلاقه التي أرادها لعباده، عندها تعرض قلبك على جهاز أشعة الإيمان وتضع نفسك في اختبار التقويم الأخلاقي في هذا الكتاب الكريم، وحينها تطمئن على رشادة المقصد وحسن النية وسلامة الطوية.

وفي نهاية السورة ﴿وَسِيقَ﴾ كلمة قيلت للفريقين لكن شتان بين من في جهنم يلقي أنواع العذاب ومن في الجنة يرفى في نعيم لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. شتان بين من سيق لكفره وعناده وطغيانه وظلمه إلى جهنم ثم باعترافه بكلمة ﴿بَلَى﴾ عندما سئلوا

عن الرسل الذين أنذروهم وحذروهم ومع ذلك عادوهم وخاصموهم وعاندوهم بل وقتلوهم كما فعل بيحيى الذى قدمت رأسه وهو نبي لبغى !!! فكان الجزاء ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الذين أذلوا العباد والبلاد.

شتان بين: ﴿وَسِيقَ﴾ كما رأينا و﴿وَسِيقَ﴾ الثانية التى تصور موكباً واحتفالاً ربانياً وملائكياً بمن أخلصوا بالقلب وأنابوا بالسريرة وتابوا بالنفس وأصلحوا بالعمل أى اتقوا، والصورة مفرداتها زمرة المؤمنين وجماعة الملائكة المرحبين قائلين ﴿... سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾، فكان الرد ممن أعد لهم النعيم ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾، ثم هذا الختام الرائع والصورة الجميلة واللوحة الأخاذة المؤثرة والكلمات الواضحة الواصلة المبينة:

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الحمد لله رب العالمين الحمد لله رب العالمين
ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.

وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ

فى الجزء الخامس والعشرين وفى سورة تضع قواعد أساسية فى آية واحدة منها مبدأ من أهم مبادئ قيام الدولة فى الإسلام وهو نفسه اسم

السورة «الشورى»، وهى المنهج الذى يجب أن ترسخ معالمه وتثبت أركانه وتنظم آلياته بحيث لا يستبد بالناس مستبد ولا تستعبدهم آلهة مزعومة من البشر، بل تكون الكلمة الأخيرة فى حياتهم وأحوالهم ومعاشهم ومآلهم لهم هم بالتشاور بينهم وبين من يحكمونهم. لذلك فالآية جاءت فى معرض حديث السورة عن الذين آمنوا، فهم الخُلص الذين ينفضون عن أنفسهم دنس كبائر الإثم ولا يغشون الفواحش، وإذا هجمت عليهم وحوش الغضب وجحافل الأذى قتلوها بالعفو والصفح الجميل والكلام الطيب، وهم الذين لانت قلوبهم وصفت سرائرهم وارتاحت ضمائرهم لنداء الله بالاستجابة الراضية والرضا الدائم والسكينة الملازمة والأمن والأمان والطمأنينة والسلام.

ثم تأتى العبارة المرشدة والكلمات المؤصلة والمعنى المنشئ للعلاقة المثلثية بين الحاكم والمحكوم: ﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...﴾، أى لاستبداد ولا طغيان ولا خسف ولا عصف من الأول، والتزام وانتظام وطاعة فيما لا ظلم فيه من الثانى، وكل عصر له آلياته فى تطبيق المبدأ، بحيث يكون الحاكم خادماً للناس الذين يأتون به وهم الذين يلقون به أثراً من آثار تاريخ مضى. والأمر شورى أى بالتشاور الحقيقى بآليات كل عصر من العصور وبأساليب النجاح المطلوبة لقضية المجتمع الأولى وهى أن الناس أحرار وليسوا عبيداً وليسوا عددًا وليسوا حجراً.

ومن أسف ورغم ورود هذه الآية الحاكمة المؤصلة المنشئة فى كتاب يقرؤه المسلمون، إلا إنهم أبعد الناس عنها وأعدى الناس لها وأبرأ الناس منها.. هذه الآية، التى حكمت بلاداً ليس لهم بالإسلام صلة فسادوا وأصبحت لهم سطوة وأقاموا بها دولة فيها العدل شارة والحق علامة

بهذه الآية حتى أصبح رجل أسود ابن رجل أفريقى مهاجر رئيساً لأكبر دولة في العالم.

الشورى ترتفع بها الأمم وتسود بها الدول ويسعد في ظلها الناس..
هى الشورى نظام من يريد دنيا نافعة حاكمها عادل ومحكمها راضٍ
بالعدل والقسط، وكلاهما يصنع الرأى لكى يسعد الحاكم والمحكوم:
﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

لكى يسعد الحاكم والمحكوم

ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.

ويشاء الله أن يكون عملى فى الدنيا الذى يسره الله لى هو أن أكون
خادمًا لهذا الكتاب العظيم، وأن يكون الشعار الذى لطالما أعلنته للدنيا
كلها محمولاً على موجات الأثير هو اسم هذا الكتاب العظيم وهو «إذاعة
القرآن الكريم»، وأدعو الله أن يفتح لى أبواب جنانه بما قد يكون منى من
إخلاص وتجرد فى هذا العمل من خدمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهنا لابد أن أذكر أن فى هذه الرحلة من تعلقت نفسى بهم لأنهم عاشوا
للقرآن وبالقرآن، عاشوه التزامًا وأخلاقيًا وأدبًا ومعاملة ودعوة، أذكر
منهم هذا الرجل الذى كان عندما تسمعه يقرأ القرآن تحس بأنه يصور لك
الآيات بصوته الهادئ الرصين المفهم المفسر الذى يأخذك فى عالم من النقاء
والصفاء وأنت فى غاية الراحة والهدوء النفسى، الأستاذ «شاكر سلام»،
الذى كان بالإضافة إلى ذلك خطيبًا بارعًا يهز أعواد المنابر، وكم كانت لنا
معه لقاءات حيث كنا نقف وراءه فى الصلاة فى رمضان ونتمنى من قراءته

الهادئة الصحيحة المعبرة للقرآن ألا ينتهى، وكنت ومازلت أعتبره فى مقام الأب خاصة أنه يحمل بين جنبه قلباً طيباً رقيقاً وكأنه قلب طفل لم تعركه الحياة. ومن عرفتهم يعيش مع القرآن قلباً وروحاً وأدباً وخلقاً وذوقاً رفيعاً فضيلة الشيخ «سيد أبو زيد» هذا الرجل الذى يشرق وجهه الأبيض بنور القرآن الكريم وتنطق ثنياه بالتواضع والتقوى ويخرج منه كلم القرآن فى سلامة وصحة وألق لكى يشهد له عند ربه، هذا الرجل تشعر عندما تلتقيه وهو الأستاذ الكبير الذى كان يدرس القرآن وتجويده فى المدينة المنورة أنك أنت الأستاذ وهو التلميذ، حقاً كما نسميه نحن تلاميذه «الرجل القرآنى» قرأت عليه جزءاً كبيراً من القرآن الكريم وكدت أحصل منه على إجازة، لكن يكفينى أننى التقيت وجهه الملائكى فأخذت منه رشفة من علم وأدب القرآن الكريم.

تسلف

الإنسان كائن اجتماعى يتأثر ببيئته التى ينشأ فيها، والبيئة التى عشت فيها أول حياتى كانت بعيدة عن «التسلف» بمعنى التشدد فى أمور تحتل أكثر من رأى. وهذه البيئة كانت متدينة من حيث الطبيعة، فالتعاون بين الناس نوع من التدين وإغاثة الملهوف نوع من التدين والوقوف مع المظلوم ضد الظالم نوع من التدين والجلسات العُرفية التى تعيد الحقوق إلى أصحابها هى عين التدين.

وكذلك كانت المرأة فى الريف محتشمة، تعرف أن من مقتضيات دينها أن تسبغ ثيابها على نفسها، وكانت الجلالية الواسعة بالسفرة التى تسع أكثر عند منطقة الصدر هى اللباس الذى يتفق مع كل ما يأمر به الدين

من حشمة. ولا أنسى أُمى - رحمها الله - عندما كان يطرق على الباب طارق وتكون مكشوفة الرأس تصرخ وتقول: «انتظر يا بنى حتى ألبس الإيشارب أو الطرحة».

هذا هو الدين المتأصل فى المجتمع المصرى وخاصة فى الريف الذى قضيت فيه طفولتى وشبابى، فالدين بالنسبة إلى هذا المجتمع هو القيم التى يعيش بها ويتعامل مع الناس وفقاً لما تمليه عليه هذه القيم، ومن ثم فكل ما كان يصدر من سلوكيات وتصرفات أو أغلبه كان كذلك.

ولكن فى منتصف السبعينات فى المرحلة الثانوية، بدأت مرحلة جديدة من التفكير، هذه الفترة الزمنية التى انتشر فيها بعض دعاة السلفية الذين قدموا الدين بطريقتهم الخاصة التى تنقلب فيها الأولويات. فما هو سنة كاللحية والثوب القصير يتحول إلى المطلب الأول، وما هو أجدى للمجتمع وأنفع للناس لا يهم بل يصبح فى ذيل هذه الأولويات. وكما قال الشيخ: «محمد الغزالى» رحمه الله «لقد نجح بعض الفتیان فى قلب شجرة التعاليم الإسلامية فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعها أو جذوراً، وجعلوا الأصول المهمة أوراقاً تتساقط مع الرياح!»، وأصبح الدين هو هذا الشكل الذى انصبت دعوتهم إليه، وغُلّف هذا بدعاوى تجعل من يناقش أو يحاور خارج عن الدين أو على الأقل مبتدع.

عشت هذه الفترة حيث كنت أتابعهم وأطلقت لحتى، وظل أبى يحاول أن يقنعنى بأن هذه اللحية من السنة التى يمكن تركها لأنها قد تسبب لك ضرراً من ملاحظات أمنية، وكانت آنذاك كل من يظهر عليه أى من مظاهر التدين يكون له ملف فى الأمن، فلم أكن ألتفت إلى ذلك وكنت أصر وقتها على رأى. ولكن - والحمد لله - لم تستمر معى

هذه الفترة كثيرًا، وإن كنت قد أفدت منهم عندما كانوا يتحدثون في الرقائق؛ قيم الإخلاص والتواضع وخفض الجانب والعبادات كقيام الليل، حيث تعلمت منهم أن أكون عابدًا قانتًا لله تعالى وأن أخلص في عبادتي لله سبحانه، ومازلت أحن إلى قيام الليل بين الفينة والأخرى. وهذه لاشك تحسب لهم، ويحسب لهم أيضًا أنهم لم يكونوا جماعة مغلقة لا تسمح لأحد أن ينفذ إلى داخلها، وينظرون إلى المجتمع بل العالم كله أنه ينتظر أستاذيتهم، بل كان لكل منهم طريقة في العرض، لكنهم جميعًا متفقون على ذم الدنيا والزهد فيها والإعراض عنها. وقليل منهم من كان عالمًا بحق، وإنما هم دعاة التف حولهم يريدوهم الذين يستمعون إليهم في حالة من الانبهار التي تستحيل معها المراجعة لما يقول أو المناقشة أو الحوار لأن كلام الشيخ لا يرد عندهم.

هذا التيار الذي يستدعى زمانًا مضى، يريد أن يعيش الناس فيه قسرًا على الرغم من وجودهم فعليًا في زمان ومكان آخر، بالرغم من أن هذا الدين العظيم يصلح لكل زمان ومكان، وأن أحكامه الثابتة والمتغيرة صالحة للتطبيق في مختلف الأزمنة والأمكنة وليس في زمن البداوة ولا مكان الصحراء.

لذا تجدهم هاجموا بشدة أكابر علماء الأمة، الذين راجعواهم في آرائهم، فشنوا هجمة شرسة على «الشيخ محمد الغزالي» وخاصة في كتابه الأخير «السنة بين أهل الرأي وأهل الحديث». وهاجموا «الشيخ الشعراوي» لصوفيته وظلوا ينددون به في مساجدهم. وهاجموا العالم الرباني الدكتور «عبد الحليم محمود» لأن الرجل فهم الدين بشكل لا يروق لهم ولا لفهمهم. وفي الحقيقة لو أنهم قالوا: «رأينا في هذه القضايا كذا ورأى

غيرنا كذا» لكان الأمر يبدو مقبولاً، ولكن للأسف هم يقولون - أو معظمهم يقولون حتى لانظلم المعتدلين منهم - «رأينا صواب لا يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ لا يحتمل الصواب»، وهذا مايؤدى إلى القطيعة بينهم وبين كثير من فئات المجتمع.

ورأى فى هذا الموضوع أنهم يمثلون اتجاهًا فى الرأى يجب أن أحترمه ما دام لم يحمل سلاحًا ولم يرهب المجتمع، حتى ولو كنت مختلفًا معهم فى الرأى، وحتى ولو لم يقبلوا برأى، وكثير منهم كذلك للأسف.. والعجيب أنهم يأخذون على الشيعة عدم مراجعة آيات الله عندهم، وهم يفعلون نفس الشيء ولكن بأسماء وعناوين أخرى، وقد جاءت ثورة يناير فدهست بحقيقتها السلمية كل دعاواهم التى كانت ردًا للمبارك ورجاله بعدم جواز معارضته بأى نوع من أنواع المعارضة السلمية.

ثم أعطيت نفسى بعد ذلك لمن ينظر إلى الدين نظرة علمية ومن يقدم الأسس التى يجب أن تبنى عليها النظرة إلى الدين من غير تشدد ومن دون أن تقلب الأولويات. فالسلف هم من أخذنا عنهم هذا الدين العظيم ولولاهم ماوصلنا هذا الدين، فمن هذه النقطة نحن جميعًا سلفيون، بمعنى أننا خلف عن سلف هذه الأمة وليست السلفية كما يدعيها هؤلاء باعتبارها اتجاه فكري أو سياسى أو نزعة من نزعات الفكر. وما جعل السلف متهمًا عند بعض الناس أو فى العالم كله هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم المتحدثين الرسميين والحصريين عن السلف.

ونقل هنا نصين رائعين حول هذا الموضوع، نص مكتوب للعلامة الكبير الشيخ «محمد أبو زهرة» يتحدث عن معنى السلف والسلفية، والنص الآخر كان ضمن لقاء أجرته مع العلامة الأستاذ الدكتور «محمد السيد الجليند» عن معنى السلف والسلفية.

فالعلامة محمد أبو زهرة يقول في ص 180 من كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية»:

«ينظر هؤلاء السلفيون إلى الوجدانية على أنها الأساس الأول في الإسلام، وذلك حق لا مجال فيه للريب، ويفسرون معنى الوجدانية تفسيراً في جملته يتفق وما يقرره المسلمون أجمعون، ولكنهم يفترضون أن أموراً تنافي الوجدانية لا يقرهم جمهور المسلمين عليها؛ فهم مثلاً يعتقدون أن التوسل لله بأحد من عباده الذين مضوا إلى ربهم منافٍ للوجدانية، ويعتقدون أن إقامة زيارة الروضة الشريفة مستقبلاً لها منافٍ للوجدانية، ويعتقدون أن إقامة شعائر حول الروضة الشريفة منافٍ لذلك، وأن التوجه بالدعاء إلى الله مستقبلاً ضريح نبي أو ولي منافٍ للوجدانية، ويعتقدون أن ذلك مذهب السلف الصالح وأن غيره بدع تقدح في معنى التوحيد».

ثم يقول شيخنا الغزالي بعد أن يورد رد ابن الجوزي عليهم في ص 184 من الكتاب:

«ونرى هنا أنه يجب أن نذكر أن ادعاء أن هذا هو منهج السلف موضع نظر، وقد رأينا رأى ابن الجوزي عندما شاع ذلك في عصره». هذا كلام العلامة «محمد أبو زهرة».

أما كلام الأستاذ الدكتور «محمد السيد الجليند»، فهو يقدم صورة أخرى من خلال دراساته المستفيضة للإمام ابن تيمية ومفهوم السلف، وكان ذلك في حوار معي في برنامج «سيرة ومسيرة». قال: «ليست السلفية مذهباً وليست فرقة وليست اتجاهًا سياسيًا، وإنما هي قواعد وأصول ورثها الصحابة عن الرسول ﷺ. ولفظ السلف ربما لم يظهر إلا في أواخر القرن الثاني الهجري حين شاع الوضع للأحاديث ونسبتها زوراً إلى النبي ﷺ، فظهر المحدثون بمنهجهم الرائع في تنقية الأحاديث

مما فعله الوضاعون، فسموا بالمحدثين الذين يتسبون عن طريق السند إلى سلف الأمة، والذين حذوا حذوهم سمووا بالسلفيين لم يكن لهم مذهب ولا فرقة ولا مبادئ ولا قواعد وضعوها من عندهم، وإنما هي اتباع ونقل أمين لما كان عليه الرسول وصحابته. أما ما يقال الآن عن السلفية والسلفيين فهي اجتهادات من بعضهم الذين قرأوا البعض وتركوا البعض، منهم من اهتم بالحديث وعلومه ومنهم من اهتم بالسياسة وكلهم يدعى نسباً للسلف، فإذا غربلت ما معهم من البضاعة وجدت ماهو صحيح يشكرون عليه وما هو زائف منسوب زوراً إلى السلف فيذم ويحذر منه.. ومن أخطر ما ينسب إلى السلف قضية التكفير وقضية التطرف وقضية الغلو وقضية تكفير المجتمع وتكفير الحاكم، وهذه أمور ماكان أبعد سلف الأمة عنها».

وتبقى هذه الفترة من حياتي مهمة، حيث كانت تجربة ثرية من تجارب التعامل مع الدين والتدين، خرجت منها بعقلي الذي لا يقبل إلا مايقنع به وبالفطرة السليمة. أخذت منها الإقبال على الله - سبحانه وتعالى - وقيام الليل، وتركت التشدد فيما لا يستحق التشدد فيه، وتركت النظرة الأحادية التي تجعل من رأبي وكأنه منزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وللأسف هذه النظرة سائدة عند أفراد التيار الإسلامى عموماً أو معظمهم، في حين أن الله سبحانه وتعالى يقول في آية من آياته ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ يَتَاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة سبأ: 24) ويقول في آية أخرى: ﴿... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة النمل: 64).

خطب الجمعة وكلية الدعوة الإسلامية

في المرحلة الثانوية والجامعة، كان لى عالمي الخاص حيث كنت وحدي

في هذه الغرفة على سطح البيت، والتي كان ينتصفها مكتب قديم كبير وبجانبه سرير أنام عليه، وكانت هذه صومعتي ومسجدي ومكتبتي. وفي هذه المرحلة بدأت القراءة في الكتب الدينية، ومهد لهذا حفظي للقرآن الكريم، فكلما حفظت كلمة تساءلت وسألت عن المعنى وعن المرامي والأهداف وعن القصص وعن الأحكام. فبدأت بشراء الكتب من مصر وفي القليل، وأذكر أن من أول الكتب التي اشتريتها «تفسير ابن كثير» وأذكر أنني قد اشتريت نسخة بسبعة جنيهاً وكانت نسخة ورقها أصفر - مازالت عندي في مكتبتى إلى الآن - وأذكر أنني عندما حصلت عليه قرأت تفسير معظم ما كنت أحفظه من هذا الكتاب، خاصة أنني قد اعتليت درجات المنبر في أوائل فترة الجامعة. وأذكر أول مرة أخطب في الناس كانت وأنا في السنة الثانية في كلية الحقوق، وكانت في شهر رمضان وبعد صلاة الفجر في موعظة قصيرة، وأذكر أنها كانت عن عدل سيدنا عمر، وبمجرد أن انتهيت منها حتى فتحوا لي باب المنبر على مصراعيه.

لقد كانت هذه الكتب هي الزاد الذي كنت أنهل منه في هذه المهمة، وكانت نافذة أطل منها على مجموعة من العلوم. فعلم التفسير قرأت فيه معظم كتب التفسير؛ التفسير بالأثر كابن كثير والقرطبي، والتفسير العقلي الفلسفي كفخر الدين الرازي في «مفاتيح الغيب» الذي كنت مفتوناً به، والتفسير اللغوي كالزمخشري، وهذا التفسير الذي اعتبره من أهم كتب التفسير قاطبة وهو «تفسير الطاهر بن عاشور» «التحرير والتنوير» الذي حوى فيه الرجل التفسير بالأثر والتفسير اللغوي والقراءات، إضافة إلى بعض النكات واللمحات التي لا تجدّها إلا عنده، وهذا مادعاني للبحث عن الرجل فوجدته عالماً كبيراً ليس في التفسير فقط بل كان مرجعاً في علم المقاصد، وله كتاب مهم في هذا الموضوع. وأعجبنى كثيراً كذلك تفسير الألوسي.

وقرأت في هذه الفترة وخاصة بعد انتهائي من الجامعة مباشرة - حيث كنت خاليًا من أية اهتمامات دراسية كانت تكبلني - «سيرة ابن هشام» كاملة، وكنت قد اشتريتها من معرض الكتاب في إحدى السنوات، وكانت تستوقفني فيها بعض الروايات التي كنت أبدى فيها اعتراضى. فمثلاً أذكر رواية من الروايات أن امرأة عرضت لعبد الله والد النبي قبل زواجه من آمنة ورأت بين عينيه نور فأرادت أن يقع بها فرفض لأنه لا يفعل هذا الفعل وهو الزنا، ولما تزوج من السيدة آمنة رجع إليها وأراد هو أن يقع بها فرفضت وقالت: لقد ذهب النور الذى بين عينيك، فقلت في نفسى كيف يرفض الزنا ويرجع ثانية ليطلبه هو نفسه!!

وقرأت كتاب «البداية والنهاية» كاملاً، حيث الأحداث والمواقف في التاريخ الإسلامى الذى يجب عند قراءته أن نعلم أنه تاريخ لبشر يصيبون ويخطئون وليس تاريخاً لملائكة، وأنه يجب أن نميز بين الدين كدين مُنَزَّل من عند الله - سبحانه وتعالى - وبين من ينتسبون إلى هذا الدين، ولأن هذا التاريخ تاريخ بشر فستجد فيه صفحات مضيئة مشرقة لأناس أجسامهم أجسام بشر وقلوبهم قلوب ملائكة أبرار كفترة الخلافة الراشدة، وصفحات سوداء قاتمة تتراقص فيها الشياطين على أنغام الهوى البغيض والتعصب الأعمى للسيادة، حتى ولو اقتضى الأمر تتبع آل بيت النبوة بالتقتيل والتشريد كواقعة مقتل سيد الشهداء «الإمام الحسين» ومبعوثه «عقيل بن أبى طالب» في مشهد لطح وجه التاريخ بدم أظهر الخلق بعد الأنبياء. وكذلك بداية الدولة العباسية التى قامت على أنهار من الدم ومن عجب أنك ترى رغم كل هذا الدم. فى كل من هاتين الدولتين الأموية والعباسية صفحات تدعو للفخر فى تاريخ الإنسانية كلها، كفترة

خلافة عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - وخلافة الرشيد حيث كانت الحضارة الإسلامية في أوجها وفترة وهكذا صفحات التاريخ فيها كل شيء مما يعرفه البشر.

لكن على كل من يقرأ هذه الكتب أن يحذر من الفخ المنسوب على صفحاتها من الكذابين والوضاعين وأصحاب الأهواء الذين دسوا رواياتهم الكاذبة لكي يشوهوا وجه هذا التاريخ ووجه بعض الفترات بالذات. وحسبى أن أنقل ما قاله عميد المؤرخين «الإمام والمؤرخ ابن جرير الطبرى» في مقدمة موسوعته في التاريخ «تاريخ الأمم والملوك» قال فيها صراحة: «وليعلم الناظر في كتابى هذا أن اعتمادى في كل ما أحضرت ذكره فيه - مما شرطت أنى راسمه فيه إنما هو على الأخبار التى أنا ذاكرها فيه - والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها، دون أن أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بأخبار الماضين منه وما هو كائن من أبناء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهداهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابى من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما سينكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل أن لا يعرف له وجهًا من الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قِبلنا وإنما أتى من بعض ناقله إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدّى إلينا».

وهذا الكلام يقرر به الطبرى أنه جمع جميع الروايات التى وصلت إليه، وكما قال: «دون أن أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه»، وهذا ينطبق بالطبع على باقى من كتب في التاريخ غير

الطبرى. لم أدرك هذه الحقيقة إلا بعد القراءة لهذه الكتب والتي رسمت صورة لاتليق حتى لبعض مواقف الصحابة في الفتنة التي وقعت في آخر عهد سيدنا عثمان وفترة خلافة سيدنا علي، حتى قرأت الكتاب الذى أنصح بقراءته كل من أراد أن يعرف الحقيقة بالأدلة الدامغة وهو كتاب «العواصم من القواصم» للقاضى «أبى بكر بن العربى» الذى أضاء النور فى هذه المرحلة الصعبة من مراحل التاريخ الإسلامى وأعطى بحق الصحابة ما يستحقونه من تبجيل واحترام بتحقيقه البارع وإيراده للأخبار الصحيحة فى هذا الشأن، وكشفه لتزييف الأخبار التى اعتمد عليها وخاصة مما رواها «لوط بن يحيى أبى مخنف الشيعى» والتي شوهت كثيرًا من مواقف ليس التابعين فقط بل الصحابة أنفسهم.

ومن قرأت لهم فى هذه الفترة وعشت معهم للإمام «ابن القيم أو ابن قيم الجوزية» والذى كان اسمه «شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب» وسمى بابن القيم لأن والده كان قميًا على المدرسة الجوزية بدمشق فاشتهر بذلك اللقب. قرأت له مجموعة من كتبه فى ذلك الوقت، منها كتاب «زاد المعاد» الذى يتحدث فيه عن الفقه والسيرة والحديث فى أربعة أجزاء. ومن الكتب التى أبهرتنى من كتبه كتاب «الروح» هذا الكتاب الذى أسهب فيه بروايات وقصص ورؤى حول أسئلة يجب الإنسان أن يعرفها وأن يجد إجابة عنها، مثل هل الموت للروح أم للبدن؟ وهل تتلاقى أرواح الأحياء والأموات؟ وهل يعرف الأموات بزيارة الأحياء؟، وكنت أرجع إلى هذا الكتاب كثيرًا.

ومن الكتب المهمة التى قرأتها للإمام «ابن القيم» وتعتبر من أهم كتبه كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين» الذى تحدث فيه بإسهاب

عن الفتوى ومن له حق الفتوى والذي تولى الإفتاء في جميع العصور، ومما ذمه في مقدمة الكتاب: «ثم خلف من بعدهم خلوف فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون، وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً، كل إلينا راجعون، جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون ورءوس أموالهم التي بها يتجرون. وآخرون منهم قنعوا وقالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. والفريقان منحرفان عما ينبغي اتباعه من الصواب، ولسان الحق يتلو عليهم ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب».

ومن كتب ابن قيم الجوزية التي تركت أثراً في نفسى كتابه «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» وهو كتاب أقرب إلى كتب الصوفية، حيث عمد ابن القيم إلى كتاب أبو إسماعيل الهروي «منازل السائرين» فشرح كلامه في أحسن بيان، معقّباً على ما فيه مما رآه مخالفاً للسنة أو مطمئناً لمن يريد أن ينال من الإسلام. وقد اشترت الكتاب وقرأته كاملاً، وفيه يقول محقق الكتاب: «مدارج السالكين موسوعة أخلاقية ومرجع أساسى فى تهذيب النفوس وطب القلوب، وحادى للروح إلى معارج الحى القيوم، سلك فيه ما يشبه نهج الصوفية لكن بضوابط الشرع الحنيف والقواعد السنية».

ويجب عند قراءة هذه الكتب التراثية أن يراعى الزمن الذى كُتبت فيه والأجواء التى أحاطت بهذا الزمن، حتى لا تُظلم هذه الكتابات وحتى لا يُتهم الإسلام بأنه غير مواكب للعصر والتحديات التى تواجه الإنسان فى كل عصر من العصور.

وفى منتصف التسعينيات، علمت أن جامعة الأزهر تتيح للحاصلين

على شهادة جامعية من التعليم العام التقدم للحصول على ليسانس دعوة إسلامية أو أصول دين، فالتحقت أنا وأحد أصدقائي بكلية الدعوة الإسلامية كدراسة منهجية للدين، وبالفعل كانت دراسة منهجية للعلوم الإسلامية كعلم التفسير وعلم الحديث وأصول الفقه والنحو والصرف، وبالإضافة للدراسات الدينية درسنا «كتاب شذور الذهب» لابن هشام وكذلك معظم ألفية ابن مالك بالإضافة إلى مقررات الأدب التي كانت تختار من عيون الأدب نثرًا وشعرًا. وانتهيت من الدراسة عام 1999، وكانت هذه شهادة الليسانس الثانية في حياتي بعد ليسانس الحقوق عام 1987.

أدب وشعر

منذ أن تعلمت القراءة كانت تشدني الكلمة، بمبناها ومعناها بجرسها برمزا بفحواها، كانت تلازمني، تقض مضجعي، تناديني أناديها، وكنت أعلقها في فناء النفس وأحملها في ثنایا الروح، لأن البدء كانت الكلمة، والإيمان بالله كلمة، والطاعة لله كلمة، والسلام كلمة تسرى في قلوب الناس فيضحى الكل في ضيافة الكلمة.

وكانت لي مع الأدب والشعر حياة طويلة من بداية صلتی بالأنشيد في سنوات عمري الأولى، ثم في المرحلة الإعدادية والثانوية التي كنا قد تعرفنا فيها على مدارس الأدب والشعر. أذكر في هذه المرحلة أننا قد تعرفنا على مدارس الشعر المختلفة وخاصة مدرسة الشعر الجاهلي وما فيه من متعة مشعشة بالصعوبة في الوصول إلى المعنى، ومازلت أذكر معلقة امرئ القيس، هذا الشاعر الجبار وهو يصور الليل والخيل في أبداع صورة:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا إِنَجَلِي
وَقَدْ أَغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا
مِكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا
كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَلٍ

فقرأت كثيراً من هذا الشعر رغم صعوبته، وكنت أستعين وقتها بمعجم «مختار الصحاح» وكنت قد اشتريته لأننى وجدته لا غنى عنه لكى أعرف المستغلق من المعانى والألفاظ.

ومن وقفت عنده من الشعراء الجاهليين «عنتره»، وأعجبني منه نصوص الحكمة المنتقاة من شعره وفصول الشجاعة النادرة، فمثلاً من شعر الحكمة الرائعة عنده يقول فى قصيدة منها:

لَا يَحْمِلُ الْحَقْدَ مَنْ تَعْلُو بِهِ الرُّتَبُ
وَمَنْ يَكُنْ عَبْدَ قَوْمٍ لَا يُجَالِفُهُمْ
لَيْنٌ يَعْيِيوَا سَوَادَى فَهَوَى نَسَبُ
إِنَّ الْأَفَاعَى وَإِنْ لَأَنْتَ مَلَامِسُهَا
وَمِنْ إِبْدَاعِهِ فِي شِعْرِ الْحِكْمَةِ:

وَلِلْحِلْمِ أَوْقَاتٌ وَلِلْجَهْلِ مِثْلُهَا
نَهَيْتَكَ عَنْ طَبْعِ اللَّثَامِ فَإِنِّى أَرَى
تَقُومُ بِهَا الْأَحْرَارُ وَالطَّبِيعُ يَغْلِبُ
وَلَكِنْ أَوْقَاتِى إِلَى الْحِلْمِ أَقْرَبُ
الْبَخْلَ يَأْتِى سَنَا وَالْمَكَارِمُ تَطْلُبُ

لكن مع ذلك أخذت عليه أن مشكلته في حياته كانت سواد بشرته، ولم يقيمها ثورة من أجل كل العبيد كما فعل «اسبارتاكوس» وأنه يريد أن يسعد بعبلته وتسعد به كما يقول:

لَعَلَّ عِبَلَةً تُضْحِي وَهِيَ رَاضِيَةٌ عَلَى سَوَادِي وَتَمَحُ صَوْرَةَ الْغَضَبِ
لكنه يبقى من أعظم شعراء العربية قاطبة.

وعندما دخلنا الجامعة في مدينة طنطا كان لهيئة الكتاب معرض دائم في أشهر ميادين طنطا وهو ميدان الساعة، هذا المعرض الذي اشترت منه معظم مقتنياتي في الأدب والشعر. وكنت أختار عند الشراء الأعمال الكاملة دائماً، وما اشتريته ديوان «حافظ إبراهيم» كاملاً وقرأته كاملاً، والشوقيات لأحمد شوقي، ثم اشترت ديوان المتنبي بشرح العكبري وقرأته رغم صعوبته، لأنك عندما تقرأ للمتنبي ثم تعرف معنى ما قرأت تحس بإبداع من تسلم درع الشعر العربي قاطبة ومن دانت له اللغة في الحكم والصور البلاغية، حتى قال:

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعْتُ كَلِمَاتِي مِنْ بِهِ صَمَمُ
أَنَا مَلَأَ جَفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

وما يستوقف أي قارئ للمتنبي كم الحكم المتضمنة في شعره والتي أصبحت علامة عليه، على الرغم من أن معظم شعره كان للمدح أو للقدح، لكنه يبقى دائماً أعظم شاعر في العربية. ومن حكمه - كما يقول العلامة الكبير الدكتور «حامد طاهر» - التي أصبحت تجري على الألسنة وكأنها مثل شعبي:

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فإن تجد
لا يسلّمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى
ذا عفةٍ فلعله لا يَظلمُ
حتى يُراقُ على جوانبه الدُمُ
وكذلك:

ذو العقلِ يشقى في النعيمِ بعقله
وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ ينعُمُ
وكذلك:

أعزُّ مكانٍ في الدنيا سَرَجٌ سابِجٌ وخَيْرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ
وهناك الشاعر الفارس الشجاع النبيل «أبو فراس الحمداني»
الذي نشأ في كنف ابن عمه «سيف الدولة الحمداني» وولاه ولاية من
الولايات، وأسرّه الروم ثم افتداه ابن عمه، ثم أُسرَ للمرة الثانية، ثم
قُتل في النهاية بمؤامرة من مولى لابن عمه. وقد عبر في قصائد رائعة عن
مأساته، منها قصيدة إلى ابنته يقول فيها:

أبني تي لا تحزني كلُ الأنامِ إلى ذهابِ
أبني تي صبراً جميلاً للجليلِ من المصابِ
نوحى على بحسرةٍ من خلفِ ستركِ والحجابِ
قولي إذا ناديتني وعيت عن ردِ الجوابِ:
زئِن الشبابِ أبو فراس لم يُمتع بالشباب!

وقصيدته التي خلدتها أم كلثوم بصوتها «أراك عصي الدمع»، سأختار
منها بعض الأبيات التي لم تغنها أم كلثوم وهي أروع مما غنته، تدل على
علو نفسه وأخلاق الفروسية عنده:

يقولون لي: «بعت السلامة بالردى» فقلت: أما والله مانالني حُسْرُ
 وهل يتجافى عني الموتُ ساعة إذا ما تجافى عني الأسرُ والضُرُّ؟
 هو الموت فاختر ماعلا لك ذكره فلم يمتِ الإنسان ماحيى الذكرُ
 وإن مِتْ فالإنسان لا بد ميت وإن طالت الأيامُ وانفسح العمرُ
 تهون علينا في المعالى نفوسنا ومن خطبَ الحسنة لم يغلها المهرُ

وفي هذ الفترة أيضاً حصلت على أعمال المتنبي الثانى فى شعر العربية،
 «أحمد شوقى» المعروفة «بالشوقيات» وكانت متعة لاحد لها حيث قرأت
 المجلدين. وكنت أقف عند الإسلاميات التى أبدع فيها شوقى وكنت
 أحفظها عن ظهر غيب وخاصة القصائد التى غنتها أم كلثوم، وما أجمل
 الكلمات وما أجمل صوت أم كلثوم فى تصويرها لقصيدته الخالدة «سلوا
 قلبى» وإن كانت لم تغن بعض أبياتها مثل:

ولا ينيك عن خُلُقِ الليالى	كمن فقدَ الأحبة والصَّحبا
أخا الدنيا أرى دنياكَ أفعى	تُبَدِّلُ كُلَّ آوَنَةٍ إهابا
وأن الرقْطَ أيقظَ هاجعاتٍ	وأترع فى ظلال السلم نابا
ومن عجب تُشَيِّبُ عاشقيها	وتفنيهم وما برحت كِعبا
فمن يَغْتَرَّ بالدنيا فإنى	لبستُ بها فأبليتُ الثيابا
لها ضحكُ القيانِ إلى غبي	ولى ضحكُ اللبيب إذا تغابى
جنيتُ بروضها وردًا وشوكًا	وذقت بكأسها شهدًا وصابا
فلم أر غيرَ حكمِ الله حكما	ولم أرَ دون بابِ الله بابا

وكنـت أعجب وقتها من بعض القصائد التى لا أفهم لماذا يهاجم فيها شوقى بعض الأعلام أو يمدح بعض الشخصيات، كما فعل فى مدحه لكـمال أتاتورك حتى إنه قارنه مع الصحابى الكبير خالد بن الوليد فى قصيدته التى مطلعها:

الله أكبر كم فى الفتح من عجب
يا خالد الترك جدد خالد العرب

فعرفت بعد ذلك أن مدحه لكـمال أتاتورك كان عندما انتصر فى موقعة سالونيك، ولكنه عندما عرف خديعته كتب قصيدته الرائعة التى يرثى فيها الخلافة بقوله:

عادت أغانى العرسِ رجَعَ نواحٍ وُنِعيتَ بين معالمِ الأفراحِ
كُفُنْتُ فى ليل الزفاف بثوبه وُدِفِنْتُ عندَ تَبَلُّجِ الإصباحِ
ضجّت عليكِ مآذِنٌ ومنابرٌ وبكتِ عليكِ ممالكُ ونواحِ

وقرأت له مسرحياته الشعرية وكنت أحفظ كثيراً من «مسرحيته مجنون ليل» كمناجاة قيس لجبل التوباد فى هذه القطعة التى كان يغنيها «محمد عبد الوهاب» فيزيدها بهاءً وروعةً، التى يقول فى مطلعها:

جبلُ التوباد حياكُ الحيا وسقى اللهُ صباناً ورعاً
فيك ناغينا الهوى فى مهدهِ ورضعناه فكنتَ المرضعاً
وعلى سفحِكَ عشنا زمناً ورعينا غنمَ القومِ معاً

وتنتهى هذه المقطوعة الشعرية من المسرحية بهذه الحكمة:

قد يهونُ العمرُ إلا ساعةً وتهونُ الأرضُ إلا موضعاً

وفي فترة الجامعة، حيث كنت نهماً للقراءة في الشعر والأدب كنت أزور أحد أصدقائي وكان مهتماً بالأدب والشعر وهو الأستاذ «أحمد عبد العزيز»، فوجدت عنده بضعة كتب لناقد لبناني عن مجموعة من الشعراء، منهم «أبو القاسم الشابي» و«بشارة الخوري» الملقب بالأخطل الصغير، فأخذت هذه الكتب وقرأت الدراسة النقدية للشاعرين وكيف تأثر الشابي بثقافته العربية وكذلك بشارة الخوري، ولكن الشابي كان أعمق، إذ كانت تجربته الشعرية ثرية متدفقة، ومازالت تسكن هذه الكتب مكتبتى إلى الآن. قد ترك أبو القاسم الشابي هذا الشاعر العبقري - الذى مات فى الثلاثينيات من عمره - شعراً سيظل علامة فى تاريخ الشعر العربى، ومن أعظم ما قال دحراً للاستبداداً ورفعاً لقيمة الإنسانية متمثلة فى إرادة الشعوب:

إذا الشعبُ يوماً أراد الحياة
ولا بد ليلى أن ينجلي
ومن لم يُعانقه شوقُ الحياة
كذلك قالت لي الكائناتُ
ودمدمتُ الريحُ بين الفجاج
إذا ما طمحت إلى غاية
ومن لا يحب صعودَ الجبال
وقد غنى «محمد عبد الوهاب» قصيدة «الصبا والجمال» للشاعر

«بشارة الخورى» الذى كان يلقب بالأخطل الصغير أو شاعر الحب والهوى وعمل بالسياسة وأنشأ حزباً سياسياً فى لبنان، وأختار لك أبيات تقطر وطنية على الرغم من أنه معروف برومانسيته ورقته، وهذه الأبيات من قصيدة وطنية له عرضها الكتاب بعنوان «يا جهاداً صفق المجد له» منها:

يا جهاداً صَفَّقَ المجدُ له	ليس الغارُ عليه الأرجوانا
شرفٌ باهتٌ فلسطينُ به	وبناءٌ للمعالى لايدانى
إن جرحاً سأل من جبهتها	لثمته بخشوعِ شفتانا
وأنينا باحت النجوى به	عربياً رشفته مقلتاننا
يا فلسطينُ التى كدنا لما	كابدته من أسى ننى أسانا
نحن يا أختُ على العهدِ الذى	قد رضعناه من المهدِ كلانا
يثربُ والقدسُ منذ احتلنا	كعبتنا وهوى العرب هوانا

وكان ممن أقبلت عليهم شعراء الشعر الحر وقرأت لهم جميعاً، فقرأت الأعمال الكاملة «لصلاح عبد الصبور» وخاصة ديوان «الناس فى بلادى»، وأيضاً الشاعر «محمد إبراهيم أبو سنة» الشاعر المظلوم ضمن فئة شعراء الشعر الحر الذى لم يلق شهرة تليق به وكنت أحفظ بعض قصائده وأرددها كقصيدته الرائعة «البحر موعدنا» والتى كنت أسميها أنا «جازف» والتى يقول فيها:

البحر موعدنا
وشاطئنا العواصف،

جازف،
 فقد بُعد القريب
 ومات من ترجوه
 واشتد المخالف،
 لن يرحم الموجُ الجبانَ
 ولن ينال الأمنَ خائف،
 القلب تسكنه المواويل الحزينة
 والمدائن للصيارف،
 خلت الأماكنُ للقطيعة
 من تعادى أو تخالف؟
 جازف ولا تأمن لهذا الليل أن يمضى
 ولا أن يُصلح الأشياءَ تالف،
 هذا طريق البحر
 لا يَفْضى لغير البحر
 والمجهول قد يَخْفَى لعارف،
 جازف،
 فإن سُدَّت جميع طرائق الدنيا
 أمامك فاقتحمها لا تقف
 كي لا تموت وأنت واقف

وقرأت «أمل دنقل» ذلك الشاعر الجنوبي الذي أعتبره من أكبر
 الشعراء الذين استلهموا التراث في رسم صور شعرية لامثيل لها، منها
 هذه الصورة لزرقاء اليهامة:

أبى لا مزيد!!

أريد أبى.. عند بوابة القصر

فوق حصان الحقيقة

منصبا من جديد

ولا أطلب المستحيل ولكنه العدل

وقصيدته الخالدة التى كان يخاطب فيها الرئيس السادات «لاتصالح»
بافتتاحيتها التى لا أظن أن لها مثيلاً فى التشبيه العبقري الذى بدأ به القصيدة:

لا تصالح..

ولو منحوك الذهب

أثرى حين أفقأ عينيك

ثم أثبت جوهرتين مكانها..

هل ترى..؟

هى أشياء لا تشتري

وفى فقرة رائعة منها يقول:

إن سهماً أتانى من الخلف

سوف يبيئك من ألف خلف

فالدّم - الآن - صار وساماً وشارة

لا تصالح

ولو توجوك بتاج الإمارة

إن عرشك سيف

وسيفك زيف

إذا لم تزن بذؤابته لحظات الشرف

واستطبت الترف

وله قصيدة وهو في مرضه الأخير وهو في المستشفى، شفاقة كلون
النهار، عميقة بقدر عمق نفس تجهزت للقائها المرتقب مع الله يقول فيها:

في غرف العمليات
نقاب الأطباء أبيض
لون المعاطف أبيض
تاج الحكيمات أبيض... أردية الراهبات
الملاءات
لون الأسرة.. أربطة الشاش والقطن
قرص المنوم.. أنبوبة المصل
كوب اللبن
كل هذا يشيع بقلبي الوهن
كل هذا البياض يذكرني بالكفن

وفي هذا الفترة لم أترك شاعرًا إلا وقرأت له، سواء من الشعر العمودي
أو الشعر الحر، وكنت مهتمًا جدًا بالشعر.

وكانت لى محاولات مهمة في مجال كتابة الشعر، لا أستطيع أن أقول
إنني كنت شاعرًا، ولكن كانت محاولات تنبئ عن موهبة يمكن أن تخرج
شاعرًا يقول شيئًا، لكن توقفت التجربة على أعتاب مشاغل الحياة وإن
ظلت الصلة كائنة بيني وبين الشعر على أنها تروحية في ظل حر أيامنا.
من هذه المحاولات كتبت إلى «سناء محيدلى» شهيدة الجنوب اللبناني
وأول من نفذت عملية فدائية ضد الجيش الإسرائيلي وكان سنها سبعة
عشر عامًا، وطلبت في وصيتها أن تُسمى «عروس الجنوب» فكتبت عنها
بعنوان «مد اليدا»:

مد اليدا
قَبِّلْ وجهَ الردى واحضنيه
لملمى ثوبِ العروبة طرّزيه
بأحرف مبعثرة
ولتكتحل عيناكِ بالرصاص والقصاص ولتشرب الدما
نخبا على صدر الأمير
واتركيه ياسنا
يغزل الليل ثوباً يرتديه
يقتلُ الصبح في بطنِ السما
الصبحُ جاء واهناً
في الدروب ينكسر
لاتخزنى الصبح جاء
فلتلبسى ثوب الزفاف

وهذه زفرة من زفرات الحب لوطن أحبه وأعشقه، أعبّر بالكلمات
عن هذا الشعور المتدفق السَّيَّال الذى ملك على جوانب نفسى حين
كتبت:

صباحُ الخير يا وطنى
يا وطنى صباحُ الخير
أقول بكل حروف النور يا وطنى... أحبك
أردد بين العين والقلب يا وطنى... أحبك
أجريها على شفّتى وفى ذرا قلبى وأعماق وجدانى... أحبك
فى صحوة الفجر

في غبشة الليل
وفي الأسحار يا وطني ... أحبك
أطرز بها ثوبى
أعلقها عقدًا من الماس في عنقي
وأستلقى
على صدرك الحانى
أشاهد روعة الحلم
دعيني أقول بكل حروف النور يا وطني ... أحبك
وفي تجربة الزواج والحب القاسية التى حكيتها بما تضمنته من تعب
وعنت، كانت هذه الصورة الشعرية بعنوان «تحتضن الإنسان»:

محفورًا اسمى فى إصبع يدها اليمنى
بحنين القلب المخبوءة فيه الكلمات
تلفنا الموائد، المدائن، البشر
نرقبُ نقطة السقاء من فم الزمن
نعدو عدوَ طفلين لم يعرفا غدر الزمن
أتبوأ مقعد تلميذ
أتعلم من عينيها أكتب شعرًا
أرسم صورتها بالكلمات
من قبضة يدها
أتحسس أجنحة، تخلق، تزرع
فى روعة حب يجمعنا
وفؤاد أرقبه ينبض فى المرأة

تندحرج فوق لسان القلبِ الكلمة
تتوقع في دنيا الآه
لكن.. تمشي فوق لهيب الأشواك
تبحث عن أحرفها الثكلي
تبغى قلباً..
تحتضن الإنسان
وأنا..
أحتضنك بين هدير الصامت ووشوشة الحلم
أحتضن الإنسان

1990

وهذه قصيدة كنت قد كتبتها لقصة عايشتها لبنت أعطت الحب
والإخلاص ولم تجد إلا الجحود ردًا على ما قدمت، فكانت هذه القصيدة
بعنوان «انتصار»:

دمعتان
دمعة للعلا
ودمعة لاستباحة الظلام للنهار
وأنت ترقبين مقلتيه انكسار في انكسار
زهوُر خديك تلفظه
طائرُ القلب يرتضيه باستكانة الذبيح
شروقٌ وجهك ينطفئ
وأنت ترقبين مقلتيه
فكنت نورسا حزيناً

تداعبُ الهموم وجنتيه
وأنت ترقبين مقلتيه
يُطل من نوافذ الضمير ديدبان
يفوح الأقحوانُ من رضاب روعة الحياة
ينام في دروبك الوضيئة الأمل
فصحت لمن يريد الذبح لا
لن أموت
واغرورقت عيناك من دموع الانتصار

1990

وكثيرٌ من هذه المشاعر التي ترجمتها معان وكلمات في هذه المحاولات كنت أعبر فيها عن مواقف عشتها في حينها، ولا أستطيع أن أدعى أنني شاعر، وإنما هي تعبير صادق عن مرحلة مهمة من مراحل الحياة خاصة، وقد تعددت مقاصدها وتنوعت اهتماماتها بين الشخصي الذاتي والقومي والديني، وهي تعبير أيضًا عن تفاعل حقيقى بينى وبين المجتمع سواء من الناحية الذاتية الشخصية أو من النواحي الأخرى التي كانت مثارًا لاهتمامى.. وهذا يعبر من ناحية أخرى عن انفتاح على العالم ونتيجة طبيعية لتربية وتشئة قامت على أنك مسئول وأنت شخص عادى، مطالب بأن تعيش الحياة بكل ما فيها ومطالب بأن تبحث في نفسك عن قدرات ومواهب قد تساعدك في رحلتك، ليس من الناحية المادية فحسب ولكن في الدفع المعنوى الذى يحس فيه الإنسان أنه ذو فاعلية لنفسه وللناس..

وفي هذه الأوقات كنت أيضًا مهتمًا بالحياة الفكرية والثقافية، وكانت

جريدة الأهرام وسيلتى حيث كانت فى عهدى الذهبى، وكنت أقرأ فيها للممثلين لجميع التيارات الفكرية. فكنت أقرأ للمفكر اليسارى «لطفى الخولى». وأقرأ للمفكر الإسلامى فهمى هويدى مقاله يوم الثلاثاء من كل أسبوع حيث كان قوياً فى الأسلوب والحجة، لا أنسى رده على المستشار «محمد سعيد العشماوى» وعلى غيره من مفكرى اليسار. والمقال الأسبوعى للفيلسوف الدكتور «زكى نجيب محمود» الذى كنت أجلس وحدى عند قراءته حيث كان يحتاج إلى تأمل وتدبر، وكان فى هذا الوقت يتحدث فى معظم مقالاته عن القيم التى يجب أن يحرص عليها الإنسان فى حياته، وكان يتناولها من وجهة نظر فلسفية وغالباً ماكان ينتهى إلى قيمة إسلامية، وهى نفس فكرة كتابه المهم جداً «قيم من التراث». وكنت أنتظر العمود اليومى لـ «سلامة أحمد سلامة» ذلك الكاتب المحترم الذى كان يتسم بالموضوعية والتجرد والثقافة الواسعة. و«أنيس منصور» الذى كان كل يوم يأخذك فى موضوع مختلف فى شتى أنواع المعرفة. وصندوق الدنيا للكاتب «أحمد بهجت» الذى كان يطرح ما عنده بأسلوب سهل وبعبارات بسيطة لكنها معبرة، فمرة يتكلم فى الدين ومرة فى الأدب وأخرى فى الأمور الثقافية أو الاجتماعية. والأستاذ نجيب المستكاوى فى الرياضة حيث لم يكن ناقداً فقط بل كان ناقداً رياضياً وأديباً بارعاً.

وكنت أتابع السياسة من خلال مجلة روز اليوسف التى كان يبدع فيها «عادل حمودة وإبراهيم عيسى ووائل الإبراشى» وتحقيقاتهم الجريئة التى كنت أتعرف منها على وجهة النظر اليسارية فى السياسة

والفكر والفن، فكانت بمثابة نافذة أطل منها على المجتمع في هذه الفترة.

مرحلة الشيخ الغزالي

من بداية فترة الجامعة بدأت أتعرف على هذا العالم الفذ الذي أعتبره ممن يمكن أن ينطبق عليه حديث النبي ﷺ عن المجدد للدين كل مائة عام وهو الشيخ «محمد الغزالي». فالرجل حياته كلها سلسلة من الدفاع بعلم ومنطق سليم وعقل وقاد ولسان قوى وفكرة حاضرة وكلمة مكتوبة ومنطوقة عن هذا الدين، الذي بدا بين فريقين أفرغاه من مضمونه الحقيقي.. بين من نظر إلى الدين على أنه مجموعة من المظاهر والصور والأشكال وانبرى يُكفّر كل من عارضه أو يبدعه، والفريق الثانى الذى لا يريد الدين فاعلاً فى دورة الحياة فأراد أن يسجن الدين بين جدران البيوت أو فى ساحات المساجد فحسب، فأطلق شيخنا الغزالي لسانه وجنانه على الفريقين فى مشروعه التجديدى للإسلام الذى يقوم على رفع الغطاء عن المفهوم الحقيقى لهذا الدين العظيم، باعتباره محرّكاً أصيلاً للإنسان إلى حيث تكون سعادته وإلى حيث تكون ريادته، ليس بما كان عليه الأجداد ولكن بما يمكن أن نتجّه نحن من فكر وعمل.

قرأت معظم كتب الشيخ الغزالي فى فترة الشباب، فترة الجامعة وما بعد الجامعة. ومن أول ما قرأت له كتاب كتبه وهو لم يزل طالباً فى كلية أصول الدين عام 1948 - قبل ثورة يوليو فى فترة الملكية - وهو كتاب «الإسلام والاستبداد السياسى» يتحدث فيه عن تجربة شخصية لفترة اعتقاله من

النظام الملكي، ويقول في نهاية فصل من فصوله بعنوان «مكمن الداء»: «إن تنظيف العالم الإسلامي من الغرور والغش والادعاء ومن السرقة والنهب والاستعلاء كفيل باجتثاث جذور الاستبداد وإراحة الدين والدنيا من ويلاته».

وأذكر أنني قد قرأت للشيخ الغزالي كتابين استعرتهما من أحد الأصدقاء كان قد جلدتهما في مجلد واحد وهما كتاب «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام» وكتاب «قذائف الحق». تناول في الكتاب الأول العهد القديم وما حوته نصوصه بموضوعية وبقراءة تحليلية تبين للقارئ مدى البون الشاسع لحديث القرآن والعهد القديم عن الله والأنبياء وكيف أن من وصفه القرآن من الأنبياء، وهو «لوط عليه السلام» أنه من المتطهرين قد صوره العهد القديم من التوراة بأنه زنا بابتتيه وانجب منها، يتضمنه التلمود من دعوة صريحة للقتل ولسفك الدماء. وفي كتاب قذائف الحق، تناول بعض الأمور الخاصة بحرية المرأة وحذر ممن يريدون للمرأة أن تتحرر على طريقتهم، وبين أن الإسلام قد ضمن للمرأة حرية كاملة في التعليم وفي الوعي وفي الوصول إلى المناصب.

ومن كتبه التي درستها بعمق وإحاطه أثناء إعدادى برنامج «قطوف من السيرة» كان كتاب «فقه السيرة». وكان الكتاب يتناول الحدث من السيرة ثم يسقطه على واقع المسلمين، وأذكر هذه العبارة البليغة التي كتبها في مقدمة هذا الكتاب يقول فيها: «إن المسلم الذي لا يعيش الرسول في ضميره ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره لا يغنى عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم واليلة».

وله كتابان شكلا عندى النظرة إلى العقيدة والأخلاق غير الصورة

التي كان بعض الدعاة يُعَقِّدها ويجعلها أمر صعب ويكاد يكون مستحيلًا، الكتاب الأول «عقيدة المسلم» والكتاب الثانى «خلق المسلم». ففي الكتاب الأول يبدى رؤيته فى عرض العقيدة فيقول: «وقد كنت أرقب ما تخلفه دروس التوحيد من كتبه المقررة، فما كنت أرى فارقاً يذكر لدى السامعين بينها وبين شروح المعادلات الجبرية، فكلاهما ترويض للعقل مبتوت الصلة بالفؤاد، فكأن الطالب يذكر طائفة من الأدلة على الوجود الدائم «واجب الوجود» ولا يستشعر فى قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال أو يختلج فى بدنه عرق من الرغبة أو الرهبة نحو من سواه وألهمه فجوره وتقواه.. أفهكذا تدرس العقيدة؟!» ثم يناقش فى الكتاب مسائل العقيدة كوجود الله من خلال الآيات القرآنية الشاهدة على ذلك، ومن خلال الكون الذى نعيشه وقضية القضاء والقدر والنبوات.

ويعتبر كتاب «خلق المسلم» من أهم كتبه، ويقول عنه فى مقدمته إنه الحلقة الثانية من كتاب عقيدة المسلم، تحدث فيه فى البداية عن الخير والشر ثم تحدث عن الأخلاق التى تعتبر تطبيقاً للعقيدة، واستعان فى ذلك بأحاديث النبى فى هذا الشأن.

ومن الكتب التى يمكن أن تصنفها بالكتب ذات المنزع الروحى كتاب «الجانب العاطفى فى الإسلام» وفى هذا الكتاب استوقفنى شرحه لبعض حكم «ابن عطاء الله السكندرى» بأسلوبه الذى لا يعدم البلاغة ولا الفصاحة ولا الجمال فى اختيار اللفظ والمعنى؛ فمثلاً يعلق على الحكمة التى تقول: «ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه» فيقول: «لا تحسبن القدر يجرى وفق هواك: إن وراء الواقع الذى نهَّش له أو نضيق به حِكْماً علياً تجعل

الحوادث تسير ولا صلة لها برضانا وسخطنا، وخير للمرء أن يتهم هواه من أن يسخط على الزمن».

والكتاب الممتع الذى يعتبر دستور حياة هو كتابه «جدد حياتك» الذى يعلق فيه على كتاب «دع القلق وابدأ الحياة» للمفكر والكاتب الأمريكى «ديل كارنيجى». ويقول فى مقدمة الكتاب صراحة: أردت أن أرد كتاب كارنيجى إلى أصوله الإسلامية، لا لأن الكاتب الذكى قد نقل شيئاً عن ديننا، بل لأن الخلاصات التى أثبتها بعد استقراء جيد لأقوال الفلاسفة والمربين وأحوال الخاصة والعامة تتفق فى وجوه لا حصر لها مع آيات ثابتة فى قرآننا وأحاديث ثابتة عن نبينا ﷺ. وكان منهج شيخنا الغزالى فى الكتاب أن يعرض ما قاله ديل كارنيجى ثم يعلق عليه، فمثلاً يقول ديل كارنيجى:

1- «سل نفسك ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لى.

2- ثم هىء نفسك لقبول أسوأ الاحتمالات.

3- ثم اشرع فى إنقاذ مايمكن إنقاذه».

ثم يعلق الشيخ الغزالى فيقول: وهذه خطة يوصى العقل والدين معاً باتباعها، وفى أدب العرب ذخائر لا تحصى عن شجاعة الرجال فى استقبال المحن وعن حرصهم على الخروج منها مخرجاً لا يخذش المروءة والشرف.

وكثيرة هى كتب هذا الرجل التى اقتنيتها أو استعرتها للقراءة حتى كان كتابه الأخير «السيرة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» الذى كان صفقة على وجه المتشددين فيما لايجوز فيه التشدد، ولكمة فى وجوه من أرادوا التخلّى عن عقولهم فى فهم هذا الدين العظيم، وصيحة من عالم

يرى هذا الدين محتطاً من جماعات تريد أن تسجن هذه السعة التي تجعل حياة الناس أكثر حرية دون أن يكون هناك خروج على أصوله وقواعده. ففى هذا الكتاب تحدث عن مسائل خاصة بالنساء وخاصة النقاب، الذى قال فيه بعدما أورد عشرة أدلة على أنه ليس من تعاليم الإسلام سواء من القرآن أو السنة فقال:

«وبعد هذا السرد نسارع الى التنبيه بأن المجتمع الإسلامى بما شرع الله له من آداب اللباس والسلوك العام هو شىء آخر غير المجتمع الأوروبى بشقيه الصليبي والشيوعى، فإن هذا المجتمع أدنى إلى الفكر المادى البحت وأقرب إلى الإباحة الحيوانية المسعورة..

إن الملابس هناك تُفَصَّل للإثارة لا للستر، وللتزين للشارع لا للبيت، والاختلاط لا يعرف التصون أو تقوى الله، والخلوة ميسورة لمن شاء، والقانون لا يرى الزنا جريمة ما دام بالتراضي!! وتكاد الأسر تكون حبراً على ورق..

إن الإسلام شىء آخر مغاير كل المغايرة لهذا الاتجاه الطائش الكفور، فهل أحسننا نحن بناء المجتمع القائم على حدود الله؟

إننا قدمنا للإسلام صوراً تثير الاشمئزاز، وفي خطاب لأحد الدعاة المشاهير قال: إن المرأة تخرج من بيتها للزوج أو للقبر! ثم ذكر حديثاً: إن امرأة مرض أبوها مرض الموت فاستأذنت زوجها لتعوده فأبى عليها! فلما مات استأذنته أن تشهد الوفاة وتكون مع الأهل عند خروج الجنازة فأبى... قال الخطيب: فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال لها: إن الله غفر لأبيك لأنك أطعت زوجك!! أكذاك يُعرض ديننا؟ سجنًا للمرأة تقطع فيه ما أمر الله به أن يوصل؟..

وجاءتني رسالة من طالبة منعها أبوها من الالتحاق بالجامعة، قالت:
إن أبانا يقول لي ولأخواتي البنات: «إن الله دفنكم أحياء، فلا أترككن لما
تردن من خروج»!. هذا فهم الأب الأحمق لآية: «وقرن في بيوتكن ولا
تبرجن تبرج الجاهلية الأولى...».

وفي مسألة الفنون والغناء قال كلامًا كثيرًا ومهمًا، وسأختار منها
حوارًا بينه وبين أحد طلابه في مكة المكرمة أراه رأيًا له يجب أن يعرفه
كل مسلم، قال:

«وأذكر أنني عندما كنت مدرسًا بمكة المكرمة، جلست سأمًا في بيتي
يومًا أعانى من بعض المتاعب، فقلت: أتسلى عن همومي بشيء، وفتحت
الراديو وسررتي أن كانت به أغنية أحبها.

وما كدت أمضي مع الأبيات والألحان حتى طرق الباب طالبٌ
أشرف على رسالته!. وخيل إليَّ أنني استطيع السماع مع وجوده، ولكنه
أقسم عليَّ أن أغلق الراديو!.

ورأيت إكرامًا له أن ألبى رغبته، وأكملت وحدي بعض كلمات
الأغنية:

أين مما يُدعى ظلامًا يا رفيق الليل أين؟

إن نور الله في قلبي! وهذا ما أراه!

وصاح الطالب: ما هذا؟ قلت له: كل يغني في الأنام بليلاه، إنني
أعنى شيئًا آخر!

قال: أما تعلم أن الغناء حرام كله؟ قلت له: ما أعلم هذا...!

ثم أقبلت عليه بجد أقول له: إن الإسلام ليس دينًا إقليميًا لكم وحدكم، إن لكم فقهاً بدويًا ضيق النطاق! وعندما تضعونه مع الإسلام في كفة واحدة، وتقولون: هذه الصفة لا ينفصل أحدها عن الآخر، فستطيش كفة الإسلام وينصرف الناس عنه.

وهذا ظلم كبير لرسالات الله وهداياته!!

قال: كيف؟ قلت له: تستطيعون إعلان حرب شعواء على الغناء الوضع، وستجدون من يؤيدكم من أهل الأرض! أما الزعم بأن الإسلام حرب على الفن كله خيره وشره فلا!

إن أهل القارات لهم غناء يجتمعون عليه، فميزوا الخبيث من الطيب ثم دعوا لهم ما يستحبون.

وكتبت الأستاذة المهدية «مريم جميلة» فصلًا عن الإسلام والفنون في كتابها «الإسلام في النظرية والتطبيق» وذكرت أن الأوروبيين يحترمون احترامًا بالغًا «بتهوثن» و«باخ» في الموسيقى و«فردى» و«واجنر» في الأوبرا و«شكسبير» في المسرح.. إلخ. ويلقبونهم بالسادة العظام، ويعتبرون تكريس الحياة لأي فرع من هذه الفنون الجميلة من أشرف المقاصد وأكثرها جدًّا!!

قالت: وإذ عرفت موهبة شخص ما بالتفوق الفنى - وغالبًا ما يقع ذلك بعد سنوات من رحيله - حسب في زمرة العظماء الخالدين. ويحقق الروائيون التقليديون خلودهم الفنى عندما تطبع كتبهم مرات ومرات وتمتدح على أنها أعمال أدبية عظيمة يلزم كل طالب في المدارس أن يدرسها.

ويخلد مؤلفو الموسيقى السمفونية والأوبرا بأداء إنتاجهم مرارًا

وتكرارًا في قاعات الاحتفالات العظمى في المدن الكبرى، كما يكرم أعظم المغنين والعازفين بتسجيل أعمالهم على الأشرطة والاسطوانات.

قلت لنفسى: ما المنهاج الإسلامى الذى أقدمه لهذه الأوساط؟ هل أطلب منهم إلغاء الفنون الجميلة جملة وتفصيلاً؟

علامَ أعتمد في هذا الطلب؟ على جملة من الأحاديث الواهية والموضوعة لا وزن لها في مجال التمحيص العلمي؟.

إننى عندما أفعل ذلك أكون كأبى العلاء المعرى الذى قال لكل إنسان:

عَدَوْتَ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالِدِينَ فَالْقَنَى لَتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ؟
فَلَا تَأْكُلْنَ مَا أَخْرَجَ الْمَاءُ ظَالِمًا وَلَا تَبِغْ قُوَّتًا مِنْ غَرِيضِ الذَّبَائِحِ
فلما التقى الناس به واستمعوا إليه رأوه نباتيًا يعرض الأمور الصحيحة عنده على أنها ترك أكل السمك واللحم!

إننى أطلب من الأوروبيين وغيرهم ترك التجسيد والتعديد لإصلاح عقائدهم، فهل أضع عائقًا أمام هذا الإصلاح الخطير بدعوتهم إلى ترك الغناء والموسيقى؟ فما يكون موقفى من قوله تعالى في كتابه المصون: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَدْرَأَيْكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوْنَ ۖ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (سورة يونس).

أستطيع أن أحرم نحت التماثيل، أستطيع أن أحرم كل صورة عارية،

أستطيع أن أحرم الرقص مفردًا ومزدوجًا، إن هذه فنون رديئة وليست فنونًا جميلة...

أستطيع أن أبرز الضوابط الإسلامية لسلوك الأفراد مهما كانوا عباقرة، فالعبرى فى أى علم أو فن يجب أن يستشعر نعم الله عنده، وأن يكون أتقى لله وأحفظ لحدوده، وأرعى لحقوقه من الآخرين».

وللأسف هذا الكلام هوجم عليه الرجل وارتفعت الحناجر على المنابر وفى غير المنابر نيلاً منه وسوء أدب معه.

وما أوردته من أمراض للمجتمع دفاعاً عن هذا الدين الذى أصبح مطية لبعض المنتفعين به على غير ما يريد الله - سبحانه وتعالى - وهى مسألة شاعت فى المجتمع المصرى، ما يشيع عن تأثير الجن فى الإنسان حتى قالوا إنه يدخل داخل الإنسان ويتكلم بلسانه، مما يروج له من فقد عقله منهم أو من يريد أن يسرق أموال الناس بهذه الطريقة، وهنا شَخَّصَ الشيخ الغزالى هذا المرض المستشرى فكتب فى هذا الكتاب وفى مفتتح كلامه عن هذا الموضوع وقال:

«طرق بابى رجل يقول إنه بحاجة الى عونى، فقمتم لاستقباله وأنا متعب، ودهشت لمراه، فقد كان عملاقاً بادية الصحة، ولم تكن عليه سياء الفقر!..

وبدأنى بالحديث من غير مقدمات! قال: إنه مسكون...!! واستعدت ما قاله، فكرر شكواه مؤكداً أنه مسكون! قلت من سكنك؟ قال: جنى عات غلبنى على أمرى...!!

فقت وأنا أضحك: لماذا لم تسكنه أنت؟ إنك رجل طويل عريض؟ فسكت حائرًا..

وأخذت أتأمل في ملاحظه وحالته العامة ثم قلت: ما أظنك مريضاً بالصرع، أتعتريك نوبات ما؟ فلم يزد على القول بأنه مسكون..

إن عدداً كبيراً من النساء. وعدداً قليلاً من الرجال يجيئني بمثل هذه الشكاة، وكنت أبذل شيئاً من الجهد في تثبيت القلق وتسكين الحائر وإعادة الاستقرار النفسى والفكرى إلى هذا وذاك..

وشعرت بأن الأزمات الروحية والاضطرابات العصبية من وراء الادعاء بأن الجن تحتل هذا الجسد أو تحتك بهذا البائس، وربما استعنت ببعض الرقى والتلاوات والنصائح لجعل أولئك المرضى أحسن حالاً، وأن تبيد أوهامهم شىء يطول.

وتحدث معى بعض أهل العلم الدينى، وكأنهم رأوا إنكارى على أولئك المرضى، وقالوا: لماذا ترفض فكرة احتلال الشياطين لأجسامهم؟

كان جوابى محدداً: لقد شرح القرآن الكريم عداوة إبليس وذريته لآدم وبنيه، ويين أن هذه العداوة لا تعدو الوسوس والخذاع ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وليس يملك الشيطان في هذا الهجوم شيئاً قاهراً، إنه يملك استغلال المغفلين فحسب: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُهُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (سورة الإسراء).

وقد تكرر هذا المعنى في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴿سورة سبأ﴾.

إن الشيطان لا يقيم عائقًا ماديًا أمام ذهاب إلى المسجد! ولا يدفع سكرانًا في قفاه ليكرع الإثم من إحدى الحانات! إنه يملك الاحتيال والمخادعة، ولا يقدر على أكثر من ذلك...

قال لى أحدهم: هذا صحيح، لكن ما أوردته لا ينفي أن بعض المردة قد يساور بشرًا مسلمًا وينال منه..! قلت: وأنا ضجر: هل العفاريت متخصصة في ركوب المسلمين وحدهم؟ لماذا لم يشك ألماني أو ياباني من احتلال الجن لأجسامهم؟

إن سمعة الدين ساءت من شيوع هذه الأوهام بين المتدينين وحدهم. إنكم تعلمون أن العلم المادى اتسعت دائرته ورسد دعائمه، فإذا كان ما وراء المادة سوف يدور في هذا النطاق فمستقبل الإيمان كله في خطر. فلنبحث علل أولئك الشاكين بروية، ولنرح أعصابهم المنهكة، ولا معنى لاتهم الجن بما لم يفعلوا...!!».

ولقد أصاب الرجل ما يصيب من يكون شجاعًا في عرض نتاج العقل في النظر والاجتهاد، لذا فهو يعبر عن ذلك في صدر الطبعة السادسة لهذا الكتاب حيث قال فيها:

«وقد شتمنى بعض الناس فوجدت الإعراض أولى! ومن من الأنبياء لم يُشتم؟ فليتأس أتباعهم بهم في الصبر والتجاوز..!»

قالوا: الإله ذو ولد! قالوا الرسول قد كهنا! ما نجا الله والرسول معًا من لسان الورى، فكيف أنا! لكن الشتم الذى أوجعنى اتهام البعض لى بأنى أخاصم السنة النبوية!!

وأنا أعلم أن الله ورسوله أحبَّ لىَّ مما سواهما، وأن إخلاصى للإسلام يتجدد ولا يتبدد، وأنه أولى بأولئك المتحدثين أن يلزموا الفقه والأدب..

فغايتى تنقية السنة مما قد يشوبها! وغايتى كذلك حماية الثقافة الإسلامية من ناس قليل فيهم: إنهم يطلبون العلم يوم السبت، ويدرسونه يوم الأحد، ويعملون أساتذة له يوم الاثنين، أما يوم الثلاثاء فيطاولون الأئمة الكبار ويقولون: نحن رجال وهم رجال!!

وهكذا بين عشية وضحاها يقع زمام المسلمين الثقافى بين أدعياء ينظر إليهم أولو الألباب باستنكار ودهشة.

وإذا كان هؤلاء لم يرزقوا شيوخاً يروّونهم، أو أساتذة يثقفونهم فسوف تربيهـم الأيام والليالى وما أحفلها بالعجائب...!!!».

ومازلت أقول إن تأثير هذا العالم الربانى ذى العقل النابه والقلب النورانى واللغة القوية الموحية والبرهان الساطع هو أعظم التأثيرات التى شهدتها عقلى وفكرى، لدرجة أننى كنت أبحث عن أية شاردة أو واردة عنه فى فكره وعلمه. وأذكر أننى قد حضرت له مناظرتين، أولهما كانت فى دار الحكمة فى أواخر الثمانينيات من القرن الماضى وكانت بينه وبين الدكتور فؤاد زكريا، والثانية كانت بينه وبين فرج فودة، والحقيقة أننى الآن عندما أنظر إلى هذه المناظرات أجد أنها لم تكن ذات فائدة ترحبى لمن يستمعونها أو يشاهدونها، ذلك أن طابع الفوز والخسارة هو الذى كان يحكمها آنذاك، وكنا نذهب إليها وكأننا نذهب لمشاهدة معركة حربية وليس لمشاهدة حوار عقلى بالعقل والفكرة. لأن الأجواء وقتها كانت توحى بذلك.

لكنى بعد المناظرة مع الدكتور «فؤاد زكريا» قرأت كتابه الذى أنصح بقراءته كل من يريد أن يتعرف على كيفية التفكير العلمى وهو كتاب «التفكير العلمى». وأيضًا كتابه «حكمة الغرب» فى جزئيه، والذى عرض فيه لتاريخ الفلسفة الغربية. وبعد قراءة هذه الكتب بالإضافة إلى مقاله الأسبوعى فى الإهرام كنت أختلف معه فى شىء وهو الخاص بالترويج للعلمانية وأتفق معه فى أشياء كثيرة بعد ذلك؛ كطريقة التفكير الصحيح والتفكير العلمى الذى يؤدى إلى نتائج سليمة. وهكذا مع كل المختلفين، تقبل منه وترد وتناقش وتجاوز وتختلف لكن فى جو من الاحترام والتقدير.

سيرة ومسيرة.. فى رحاب عقول مصر الكبيرة

فى هذا البرنامج «سيرة ومسيرة» التقيت مع مجموعة من المفكرين الذين يحمل كل منهم رؤية علمية أو فكرية فى الإصلاح، بل ويمثل كل منهم حالة نادرة من التفوق العلمى أو الفكرى كل فى مجاله، يمكن أن تتفق أو تختلف مع الطرح لكن لا يمكن إلا أن تُعجب بقصة النجاح الرائعة لكل منهم ذلك لأنها رحلة مع التعب والسهر والقراءة والبحث حتى وصل كل منهم إلى هذه المكانة.

وسأبدأ بشخصية الدكتور «محمد فريد المليجى» هذا الرجل الذى اصططح مع الإيمان بالله فتألفت روحه مع التقى، خاضع اليأس وصادق الأمل وعانق التفاؤل ورجم الفشل وزامل النجاح، يجلس على كرسي متحرك منذ حوالى ستين سنة، فقد أصيب فى طفولته بشلل رباعى لم يترك إلا يدين تتحركان. وبعد سفره إلى ألمانيا فى نهاية الخمسينيات للعلاج عاد

ليكتب منظومته في الإرادة الحية والعزيمة الفذة والنجاح المبهر، ويكون متفوقاً على نفسه وعلى عجزه وعلى نظرات التئیس والتقنيط، ويحتل المراكز الأولى في كل مراحل تعليمه.

التحق بكلية الصيدلة التي يتصور البعض أنها عصية على مثله، وأصبح معيداً وحصل على الماجستير والدكتوراة وأجرى الأبحاث اللازمة، حتى أصبح أستاذاً ورئيس قسم الصيدلة الصناعية وصاحب فكرة إنشاء أول مركز للكمبيوتر في كلية الصيدلة جامعة القاهرة، والذي عُمم بعد ذلك في بقية كليات الصيدلة في مصر لنجاحه المبهر بفضل هذا النابه العبقري. ثم انتقل عميداً لكلية الصيدلة بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، لترك فيها أثراً لايمحى من العلم والأخلاق والأدب والحنان الأبوى لطلبته.

عند زيارتي له في جامعة مصر، كان أهم ما استشعرته فيه هو هذا الرضا عن الله سبحانه، حتى لتخال أن وصف الله سبحانه للمؤمنين: «رضى الله عنهم ورضوا عنه» قد نزل فيه هو، فهو دائماً في تمام الرضا، فهو راض عن ربه وراض عن نفسه وراض عن حوله ممتناً لهم، ويظن دائماً أنه مقصر في شكره لله وهو اللاهج دائماً بتمتات شكره وصيغ حمده سبحانه!!

أذهب إليه لأملأ نفسي من معين الرضا عنده، وأنهل من فيض أخلاقه وأقترب من سياج إيمانه الذي شيده بقلبه النقي النقي.

ومن ضيوف الآخرين من هذا البرنامج في مجال التربية كان العلامة الأستاذ الدكتور «سعيد إسماعيل على».

الذى أنشأ أول قسم للتربية الإسلامية في كليات التربية على مستوى العالم العربى والإسلامى، وأسهب معى فى البرنامج فى الكلام عن هذا الموضوع. من خلال كتابيه اللذين يجب أن يكونا العمدة والمرجع فى هذا الموضوع الكتاب الأول «القرآن الكريم دراسة تربوية»، والكتاب الثانى «السنة النبوية دراسة تربوية». ثم استصفنا تلميذه العبقري الأستاذ الدكتور «مصطفى رجب» أستاذ التربية والمفكر الكبير والشاعر الذى حصل على رسالتين للدكتوراه درس فيهما الأدب والتربية والدين، وأصبح مبرزاً وعالمًا كبيراً فى هذه المجالات، وله رؤية فى نظام للتربية والتعليم يختلف تمامًا عن هذا النظام الذى لا يراعى تربية ولا ينشئ متعلمًا.

والشخصية الثانية العلامة الكبير الأستاذ «الدكتور محمد السيد الجليند» أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، صاحب مجموعة من الكتب ترفع اللثام عن قضايا الفلسفة وتعطى للفلاسفة المسلمين حقوقهم من حيث العطاء الحضارى للإنسانية كلها وللعرب والمسلمين خاصة. وهو دائماً ما يقول فى مؤلفاته: «بحثنا ماذا قال ابن سينا فى الفلسفة ولم نبحت ابن سينا الطبيب والكيميائى والفلكى، وقرأنا الرازى فيلسوفاً ولم نقرؤه طبيباً ولا فلكياً ولا عالماً، وعرفنا ابن رشد الفيلسوف المتكلم ولم نعرفه عالماً بالطب والكيمياء والعلوم «الطبيعية»».

وقد انتصر الدكتور الجليند فى كتاب من أهم كتبه للإمام ابن تيمية ضد الفلاسفة، والكتاب بعنوان «قضية التأويل عند ابن تيمية» وقال إن ابن تيمية اعتمد على القرآن فى أمور السمعيات فى حين أن الفلاسفة

قد حذو حذو الفلاسفة الغربيين في هذه الأمور، مما دعا واحداً من علماء المسلمين وهو «أبو حامد الغزالي» إلى تكفير بعض الفلاسفة، وفي ذات الكتاب أثبت بأكثر من عشرين دليلاً من كلام «ابن تيمية» نفسه أنه لم يكفر أحداً من أهل القبلة وأن من يدَّعون أنهم يُقتلون من جماعات التكفير باسم ابن تيمية هم كاذبون لم يقرؤوا ابن تيمية قراءة صحيحة، وأشهد أنني قد تأثرت كثيراً بهذه الشخصية المفكرة صاحبة العقل الوافر في الإبداع والتفكير شخصية الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليلند.

وبقيت شخصيتان لا بد أن أتكلّم عنهما. شخصية الفيلسوف الذي قرأ القرآن وحفظه في طفولته وقرأ التراث العربي والإسلامي قراءة واسعة ثم درس الفكر الغربي والفلسفة الغربية، فجمع بين الاثنين، وها هو يضع تصوراً للنهضة العلمية والفكرية من خلال مجموعة من الكتب، الأستاذ الدكتور «محمد عثمان الخشت» رئيس جامعة القاهرة، الذي عرفته وهو نائباً لرئيس جامعة القاهرة وقرأت كتبه في «فلسفة الدين» وتصوره للفلسفة والدين وكيف ننظر إلى هذا الفرع المهم من فروع المعرفة والذي أصبح أحد أهم أعلامها الآن.

وسأتوقف عند كتابين من أهم كتّاب د. الخشت لكي أنقل منهما مايمكن أن يكون خير تعريف بهذه الشخصية النابهة وهذا الفيلسوف الذي قال عنه الأستاذ الدكتور حسن حنفي: «كأن روح الفارابي تبعث من جديد».

فمن كتابه «أخلاق التقدم» نورد هذه المقطعات لنرى إلى أي حد وضع هذا الكتاب الأسس العملية والنظرية لتقدم حقيقى وصل إليه

غيرنا بمنهج يعرفه كل من يريد أن يكون في ركاب الدول المحترمة، ومن هذه الفقرات:

يكتب الفيلسوف أ. د محمد عثمان الخشت في ص 93 من الكتاب قائلاً: «ويبدو أن هذا - من وجهة نظري - قَدَر كل دين، عندما ينسى أتباعه في عصور الانحلال والتراجع الطبيعة الأصلية والمقصد الحقيقي له. ولهذا نجد بعض الأنبياء كانوا يدركون خطر تحول الدين عن أصله إلى شكليات، ويخشون من البدع التي تفقد الدين جوهره، وتتحوّل فيه الوسائل إلى غايات والنوافل إلى فروض والشكليات إلى أركان. ويتجلى هذا بوضوح مع محمد ﷺ، شريطة أن نفهم أن تحذيره كان من البدع في مجال العبادات، وليس من الإبداع في مجال الحياة. ولذا فإنه في الوقت الذي حذر فيه من الأولى دعا إلى تجديد الدين في جانبه المتعلق بالحياة، بغية تخليص الدين من العنصر التاريخي ذي الطابع المؤقت الجزئي والعرضي، مع الأخذ في الاعتبار «السنة» أو «العبرة» بما هو دائم وكلّ وجوهري على ما يتجلى من المفهوم المطروح في القرآن. ولا شك - من وجهة نظري - أن الدين ينحرف عن طبيعته النقية ويغيب مقصده الكلي ويفقد مضمونه نتيجة خيانة أتباعه وتغليبهم للمصلحة الذاتية، فيحولون الدين إلى سلطة ومؤسسة وكهانة تحت ضغط الصراع الاجتماعي أو السياسي أو حتى صراع الإيديولوجيات. لكن هذا لا يسحب البساط - من وجهة نظري أيضًا - من تحت أقدام الدين الأصلي، ولا يلغى مشروعيته، ولا يقضى على ما هو دائم وكلّ وأخلاقي ونبيل فيه».

وفي نهاية الفصل الخامس المعنون «أخلاق التقدم والحد الأدنى الأخلاقي» ص 127 يقول «إن مجتمعا فيه كثير من القوانين، لكن الناس

تحتال عليها، لأنه لا توجد أخلاق حقيقية، رغم أن من المفترض أن الناس يؤمنون بالله، لكن حتى الإيمان يحتالون عليه ويبررون أفعالهم بطريقة غريبة من أجل تحقيق مطامعهم الخاصة التي تعيق التقدم العام! فعندما يعمل كل فرد من أجل مصلحته الضيقة التي تتعارض مع مصلحة الجميع لا يمكن أن تأمل أى دولة في التقدم، لاسيما إذا كانت هذه فلسفة الفرد بصرف النظر عن موقعه كمواطن عادى أو صاحب منصب أو من أهل السلطة!

وتبقى بضعة تساؤلات جوهرية: كيف يمكن صوغ واجبات هذه الأخلاق في مصطلحات محددة؟ وعلى أية أسس يتم إصدار أحكام معيارية ملموسة يخضع لها الجميع دون استثناء بسبب المال أو السلطة؟ وهل يجب على المرء البدء من الصفر مع الاحتكام إلى العقل النقدي المستقل؟ أم يمكن للتقاليد الدينية والأخلاقية العظيمة طرح نقاط التقاء من أجل صوغ أخلاق تقدمية؟

للإجابة عن هذه التساؤلات يقول الدكتور «محمد عثمان الخشت» في كتابه (ص 133) «الجهاد الأكبر» هو أعمال أخلاقيات التقدم وحمايتها عن طريق تطبيق القانون بصرامة ورفض الاستثناءات وإعادة القواعد إلى أصولها، بعد أن تحول الكسل إلى حق والرشوة إلى إكرامية والتشدد مع البعض إلى «إعمال للقانون» والتساهل مع البعض الآخر إلى «إعمال روح القانون». فيجب أن يسود مبدأ «لكل حسب عمله» إذا أردنا ارتقاء أول درجة من سلم التقدم، حتى نفلت من إसार أصوات الغوغاء والكسالى ومحدودى المهوبة والمهملين ممن يطالبون بالمساواة الميكانيكية التي تلغى الفروق الفردية. أخلاق التقدم تعنى تطبيق القانون ووجود

بيئة تنافسية عادلة، وإعلاء ثقافة الإنصاف وإجلال العمل والإنجاز وإصلاح النفس قبل إصلاح الآخرين.

ويستكمل الإجابة (في ص 139) بعنوان «الإرادة المتسقة مع ذاتها» إذ يقول: «بدون فذلكة إن جماع أخلاق التقدم، بل كل أخلاق، مبدأ بسيط، إذا طبقناه سوف يتقدم مجتمعنا بلا شك، لأن هذا المبدأ البسيط سوف يقضى على الغش والتدليس والاستهتار والرعونة والإهمال وكل مظاهر أخلاق الفهلوة التى تقوم على إجادة أساليب الخداع واللف والدوران. إن هذا المبدأ هو: عامل الناس كما تحب أن يعاملك الناس.. أو بصياغة أخرى: لا ترضى للناس ما لا ترضاه لنفسك.. أو بصياغة ثالثة: حب لغيرك ما تحب لنفسك.. أو بصياغة رابعة: افعل للغير ما تحب أن يفعله الغير لك.. أو بصياغة فلسفية: يجب أن تكون إرادتك متسقة مع نفسها».

وفى كتابه «تطور الأديان» الذى بحث فيه الديانات الأرضية والسماوية وأبدع فى بيان أن التوحيد بمعناه الإسلامى الخالص يختلف عن التوحيد الملغز فى الديانة المسيحية وعن التوحيد ذى الصبغة القومية كما عند اليهود، وهو يقول فى ذلك بعد استعراض الديانات السابقة للإسلام:

«أما الإسلام فيرفض كل الصور الأبوية لله، وينزهه عن مشابهة البشر أو أى شىء آخر؛ فهو: الأحد الذى لا نظير له، وهو الصمد الذى لم يلد ولم يولد، وهو ليس له كفواً أحد، سبحانه وتعالى عما يصفون! مع العلم أن فرويد لم يتحدث عن الإسلام مباشرة، لكن تحليلاته للدين بعامة تنسحب عنده على أى دين. وهو ما نجزم بخطئه؛ لأن الإسلام رفض كل الصور الأبوية لله، مثلما صور الإله الابن (ص 66).

ثم يضيف إلى ما يتميز به الإسلام من خصوصية قائلاً:

لقد اشتمل الدين الذى يمثل الطور الملائم للإنسانية ناضجة على تحول فى منطق الاستدلال، من منطق الأسطورة إلى منطق الواقع، ومن منطق الحس إلى منطق البرهان العقلى، ومن الاستدلال بخوارق الطبيعة إلى الاستدلال بنظام الطبيعة، ومن منطق الحواة إلى منطق عدم التناقض، ومن المعجزات الحسية إلى المعجزة البيانية، ومن المعجزات المؤقتة إلى المعجزة المستمرة، ومن الكتاب الذى يلتمس دليلاً من خارجه إلى الكتاب الذى يلتمس دليلاً من داخله، ومن توحيد غامض يعتمد على التسليم إلى توحيد مطلق مستند إلى الاستدلال البرهانى، ومن منطق «آمن ثم تعقل» إلى منطق «تعقل ثم آمن» (ص 35).

أما الشخصية الثانية فهى شخصية الأستاذ الدكتور «عمرو شريف» أستاذ ورئيس أقسام الجراحة الأسبق بكلية طب عين شمس، الذى سلك فى حياته طريقاً للوصول إلى الأمان النفسى والتفوق العلمى والإبداع الفكرى وخدمة المجتمع الذى يعيش فيه وخدمة دينه وبلوغ حالة من الرضا النفسى يجب أن ننهأ عليها. فهو أخذ طريق «العلم» فى معرفة الكون والإنسان، مهتدياً بالوحي السماوى، دون أن يوضع العلم فى مقابل الوحي كما يفعل بعض المهووسين بموضوع الإعجاز العلمى ولكن له رؤية ثابتة فى هذا الأمر.

يتبنى د. عمرو شريف إن الوحي منطق التسليم والتصديق لثبوته وعدم تطرق الشك إليه، أما العلم فهو متغير بطبعه، فدع أهله يعملون بمنطق التغير الذى لا يُتَصَوَّر العلم بدونه ودعه يصل إلى منهاه، ولا تخف على الدين لأنه متعلق بنفس الإنسان وبروحه، وليكن عندك اليقين

أنه لا خوف على الدين، من العلم ولكن الخوف من أن تقيد العلم بمنطق الدين وهذا لا يفيد العلم ولا يفيد الدين.

ومن هنا أنتج الدكتور «عمرو شريف» للمكتبة العربية مجموعة من الكتب الرائعة في العلم والفكر، من أهمها «رحلة عقل» وكتاب «خرافة الإلحاد»، و«أنا نتحدث عن نفسها» وغيرها، سنتحدث عنها بالتفصيل في كتابنا الذي سيصدر قريباً بعنوان «سيرة ومسيرة».

وسأنتهى تناولى لشخصية الأستاذ الدكتور «عمرو شريف» ببعض فقرات من كتابه الممتع عن سيرته الذاتية بعنوان «أصدقاء وظلال»:

وإذا أردت اصطلاحاً جامعاً لتوجهاتى الحالية فستجدينها تدور حول مفهوم من كلمة واحدة «التعقل» وليس هذا خروجاً من حقيقة الإسلام بل هو عين حقيقته. ألم يأمرنا الله - عز وجل - في قرآنه الكريم بإعمال العقل قرابة الخمسين مرة (ص 89).

وقال عن والده ودوره في حياته النفسية: «كان والدى رجلاً فاضلاً محترماً بمعنى الكلمة، وكان رجل دولة، تعلمت منه احترام النفس وفرض احترامه على الآخرين. وكان مثلاً للرجل طاهر اليد، الذى ربى أبناءه من حلال، وكان شديد التواضع. أذكر عندما مرض يوماً، وجاء فراش مكتبه إلى المنزل ليعرض عليه أوراقاً عاجلة عرفنى والدى رئيس مجلس الإدارة بالرجل وأشار إليه قائلاً: عم أحمد زميلى فى الشركة. أحسب أن تواضع والدى الجلم هو أول ما سيوضع فى ميزان حسناته يوم القيامة، والله أعلم» (ص 261).

وعن مشروعه الفكرى يقول بعنوان «ملاحم مشروعى الفكرى»:

«باختصار، يدور هذا المشروع حول العلاقة بين العلم والفلسفة والدين، وكيف أن هذه الثلاثية تصل بالإنسان إلى خالقه عز وجل، ومن ثم فالعلاقة بين هذه الثلاثة علاقة تكاملية وليست تعارضية ولا حتى جدلية. كذلك إذا كان القرآن هو «كتاب الله المسطور». فالوجود هو «كتاب الله المنظور» وعلينا أن نتعلم قراءته لندرك من خلاله أدلة الوجود الإلهي والتوحيد، وما يسر الله أن نطلع عليه من أسمائه الحسنی وصفاته العلی. ويهدف هذا المشروع إلى هدف رئيس، وهو تجديد الفكر الديني، بعد أن أصبح عاجزاً عن ملاحقة العصر، كما يهدف إلى تجديد الفكر العلمی..... ويتفاعل هذان المشروعان التجديديان ليحققا المنهج الإسلامی الأصيل في الدعوة والذي يتماشى مع هذا العصر ويتجاوب مع وعد الله عز وجل ﴿سَرِّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (سورة فصلت).

هكذا كان هذا البرنامج نافذة أطل منها على العلم والفكر والدين، ونقدم من خلاله صورة لمفكرين ومبدعين وفلاسفة كان أول المستفيدين منها بحق هو شخصی المتواضع، لذا فقد أتحمل المشاق في الوصول إلى هذه العقول الكبيرة التي سأنشر فكرهم قريباً، بعد الانتهاء من عرض تاريخ هذه النقوش على أحجار حياتي من خلال هذا الكتاب، الذي أتمنى أن يكون إضافة إلى السير الذاتية التي تعرض للإنسان الذي كرمه الله ويجب أن يكرم نفسه بالأخلاق القويمة والسيرة الحسنة والإحسان في كل شيء.

خاتمة..

في خاتمة الرحلة، أتوقف لأنظر كيف مضت وكيف سارت وجهتها عبر الأيام، تتخطى العقبات وتمهد لها أقدارُ الله سبيلَ الحياة بعد الرفض والصد، وبعد أن يظن الناس ألا مفر وألا مخرج، فتُفتح حينئذ الأبواب وتُشرع النوافذ ويتنصر الإنسان داخلي، ليستقر يقين في نفسه أن فرج الله آت مع العمل والدأب والتعب، وهذا هو الطريق إذا أردت أن تحيا كريماً عزيزاً وأن اليأس غير مصرح له بالدخول أو حتى الظهور. لكن في نفس الوقت الطريق صعب والسبيل غير ممهدة، فعليك أن تعلم هذه الحقيقة.. وفي وقفات قليلة أقول هذه حياتي:

مع أبي وأمي

منذ شاء الله أن أولد وحتى رحلا، كانت أُمي تلك السيدة ذات الفطرة السليمة والنفس الطيبة والسيرة الحسنة والأدب الجم بمثابة الراح التي أعطتني الأمن والأمان، وسكبت في نفسي من روحها معنى أن أكون إنساناً كاملاً، لى ما لكل طفل، لا فرق بينى وبين إخوتى وبين جميع الأطفال. لا أنسى حرصها الشديد على ألا أبدو في شكل يدعو الناظرين

إلى العطف والشفقة. شربت من معين وجهها البشوش وكلمتها الشافية وبسمتها الحانية. وإن كنت قد زللت معها في بداية المراهقة، لكن عزائي أنها رحلت وكان آخر ما سمعت تفوقى ونجاحى ووضع يدها اليمنى تمررها تحننا على ظهري، وطمأنة القدر لقلبها على ابنها الذى ظن الناس أن مثله فى الدنيا يضيع، وذهبت إلى حيث يؤتى المجاهدون أجرهم.. أمى المجاهدة أشهد أنك أدت ما عليك وأرسل لك دعوة من ابن يعرف للأمر حقها: أن تكونى فى رحمة الله فى جنة الخلد..

أبى، هذا الرجل الذى لولاه ما كنت شيئاً.. هذا الرجل الذى آمن بى إنساناً له حق الحياة، فخاض المعارك ونادى بأعلى صوته فى ساحات كثيرة؛ ساحة الحياة وساحة التعليم وساحة العمل وساحة الزواج، وبالرغم من أن الكثير من الأذان كانت صماء، فإنها لإصراره سمعت وأصاحت، ولانت القلوب بعد العنت والتعب الطويل.. فكان رفيقى فى هذه الرحلة الطويلة منذ لحظة الولادة، وثباته وقت إعلان الضعف من الجميع ومنذ ضم قلبه إلى قلبى وقربه منى كأنه أنا وكأننى هو، ومنذ المقابلة الحاسمة مع وكيل وزارة التربية والتعليم وحتى ميكروفون الإذاعة، مروراً بالكتابة بإصبعى القدم ثم بالكتابة بالفم، ثم بمسألة الزواج وما كان فيها من تجاوز كان فيها حائط الصد اللين الهين الرفيق الرقيق، وصدقَ حدسه ونجحت رحلة الزواج. وكنت أرى ذلك قبل أن يرحل فى معاملته مع ابنى عبد الرحمن، وكأنه كان يقول هذا نتاج الخير هذا نتاج الإصرار على قيمة الحياة للإنسان.

أبى الذى كان روحاً تسرى فى كيانى ومازالت رغم الرحيل، لأن القيم لا تموت وأبى كانت روحه فى شخصى قيمة لا تموت ولن تموت.

وكما قلت إذا قدر لي بعد الموت أمنية من ربي فسأطلب أن أضع رأسي على صدره وأن يلف ذراعيه حول جسدي وأن أُقبَّلَ جبهته التي لطالما سجدت لخالقها ومولاها.. أبي هذا ولدك الذي أضأت له الطريق وفتحت له السبيل، يعرف الفضل لك ويحمل في قلبه حبًا ليس إلا لك، وعلى لسانه دائمًا أبدًا: رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا.

زوجتي وأولادي

بعض الناس لا تجد كلامًا من اللغة يستطيع ترجمة الشعور بالامتنان والشكر.. زوجتي التي اخترت فيها جمال الروح والأدب الجم والدين القويم، وكانت رحلة قاسية حتى جمعنا بيت واحد وضممتنا حياة هائلة. ومنذ أول يوم وهي موطن راحتي وملاذ أمني، منذ أول يوم وأنا أعيش حياة أريدها أحبها، لا أتصور حياة غير هذه الحياة تحمل عني كل شيء من هموم دنيانا التي نعيشها. تقوم من نومها على وجهها الرضا ولو هدها التعب، لا أخرج من البيت وأنا في هذه السن حتى تَمَلِّي مني عينيها خوفًا من أن يكون هناك شيء يلفت النظر أو يدعو إلى مصمصات الشفاه.. عشرون سنة مرت ولاتناديني باسمي أبدًا، ولكن نداء الذوق الرفيع والأدب الجم، ولا تتحدث مع أحد عني إلا بلقب التكريم. هذه زوجتي، يداي في هذه الدنيا، يداي اللتان أعيش بهما حياتي معها ممتنًا حافظًا لها كل تقدير، وفي قلبي يسكن حبها وعلى لساني شكرًا وامتنانًا.

ولداي «دكتور عبد الرحمن وأفنان»، زهرتاي وريجاتاي في الدنيا، هبة الله العظمى وزينة الحياة الدنيا.. عبد الرحمن.. منذ مولده جاءني الشعور الذي لم أحس به في حياتي، معنى أن تكون أبًا، وهذا الطوفان الجارف

من المشاعر التي يملأ الله بها قلبك تجاه هذه المخلوق الذي ينتسب إليك، خاصة في حالتى تلك التى كانت الحرب فيها على استحقاق الحياة كما يعيشها الناس لذلك كانت فرحتى به لا توصف. فهذا ابن لمن أردتم أن تسلبوه حق الحياة، يدب على أديم الأرض طفلاً، أضعه في عيني، وأفرد له وأفتح له قلبي. وتمر سنوات عمره ويرى أن أباه خير معلم له في الحياة، فيدرك منه أن من يعمل ومن يخلص لا بد أنه موفور النجاح عظيم التفوق.. فكان الخبر قبل الإفطار في رمضان عبد الرحمن رضا عبد السلام دخل كلية طب الأزهر، والآن على أعتاب إجازة الكشف على الإنسان روحاً وجسداً، وما أعظمها من نعمة.

«أفنان».. لى صديق عمر كان له أب ممن يمشون على الأرض هوناً، وكان رجلاً قرآنياً سمى ابنته أفنان فأعجبني الاسم «أغصان ندية طرية ذواتا أفنان». فكانت أفنان ريحانة البيت وزهرته الأقحوانية المشاكسة، كنت أتمنى دائماً أن تكون لى بنت، وها قد حقق الله أمنيته بهذه اللوحة الإنسانية الجميلة تريد أن تكون في نفس الطريق الذى سلكه والدها، تحمل قدرات لمشروع مذيعة ناجحة.

دائماً ما كنت أدعو لهما أن يكونا من عباد الله الصالحين، ولم أكن أدعو لهما إلا بهذا الدعاء لأنه بالصالح يكون كل شىء.

إخوتى وأصدقائى

بيتى الذى نشأت فيه بين إخوتى، كل منهم كان ساعداً وعوناً وموثلاً وحيباً، كنت بالنسبة لهم جميعاً أخاً مميزاً لا يستطيع أحد أن يمسه وكنت واحداً مثلهم فى البيت، وكانوا يدركون ذلك، وكانوا وقت أن يحسوا

بالخطر يقترب منى تراهم وقد تغيرت ملامحهم إلى الغضب حتى أكون في أمان. وإلى الآن وأنا بينهم أحس بكرم الله على مثلى أن لى إخوة بهذه القلوب الطيبة النقية المخلصة، كل منهم يحمل فى نفسه تقديرًا أحسه وألمسه، لذلك فإننى أشرف بأن أكون خادمًا لهم ماحييت. خادمًا يقدر قيم الإنسانية فى قلوب هؤلاء الملائكة الطيبين.

وأريد أن أقف عند عتبة شخصيتين كان لهما يد علىّ أولاهما، خالتي التى حلت محل أمى بعد رحيلها، هذه التى كانت أمًا لى حملت عنى أعباء الحياة، ولا أنسى لها مواقف رائعة كانت فيها أمًا رؤوما فى زواجى ومع ولدى وفى كل مواقف حياتى. حقًا كما قال النبى الكريم «الخالدة أم» وهى كذلك، ولا أستطيع مهما فعلت أن أوفى حقها فهل يستطيع الابن أن يوفى حق أمه عليه.

وثانيهما هذا الملاك من البشر، أختى التى اسمها على اسم بنت من بنات النبى «رقية» هذه النفحة الربانية التى كانت أمل أمى أن تراها، فلما جاءت ذهبت الأم وبقيت رقية تسكن فى قلوبنا جميعًا نحن إخوتها السبعة. كانت قبل زواجها تترك كل شىء إذا دخلت البيت لكى ترى ما يريحنى أولًا.. كانت ومازالت وستظل متربعة على قلبى وفى حسى، أختًا عزيزة كريمة بوجهها الذى تتخلله الطيبة ونفسها التى تسكنها القناعة وروحها الجميلة، وابناها اللذان يملآن الدنيا فرحًا وسعادة ومرحًا، هذان اللذان يسكنان فى قلبى دائمًا.

أصدقائى وزملائى، هؤلاء صحبة الحياة رفقاء الدرب.. فى كل مرحلة من مراحل الحياة، كانت لى صداقات كثيرة لأصدقاء لهم من الاسم نصيب الصدق والإخلاص والتفانى، لا أنسى هؤلاء الأختيار فى

كل مرحلة، لا أنسى أصدقاء الطفولة والصبا الذين كانوا يحملونني حباً ووداً في قلوبهم تلك الصغيرة، ولا أنسى حدثي في بعض المواقف التي يكون الرد عليها بالحلم، لا أنسى مواقف المدرسة والخوف على شخصي من أن يصيبني أذى من أى نوع، لا أنسى أننى ما حملت حقيبتى يوماً وما طلبت طلباً من أحدهم إلا خف لتليته، لذا فإننى معهم محباً مقدراً ممتناً، يعرف كل واحد منهم عنى ذلك وسأظل ممتناً لهم ما حييت «فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان».

هذه حياتى

هذه حياتى مولوداً منذ نزلت بصعقة المفاجأة وهول الموقف الرهيب..
هذه حياتى آية لمن تمنى من لا قلب له ألا تعيش فعاشت تنقش
النقوش على أحجار الحياة..

هذه حياتى روحاً ونفساً سكنت فى مهدها أُمى وأبى قلباً وعطفاً
وصدرًا وثيرًا وحدثاً ودفئاً..

هذه حياتى طفلاً بلا جناحين مجهول الطالع، يطرق على أبواب قدر
الله الذى يفتح للسالكين إليه الدرب، فيحبو ويقف ويسند الظهر المتعب
على جناب فضل الله، فتستحيل الوهدة سلماً للصعود والترقى..

هذه حياتى تلميذاً مطروداً من رحمة البشر الناقمين عليه نعمة الحياة،
يمسك بين فكاه القلم ليكتب درساً لمن عجزوا عن رؤية العدل الإلهي
فى خلقته..

هذه حياتى مديعاً يسبح صوته فوق موجات الهواء، يعلن أن صاحبه

خاصم العجز وصادق في الطريق وجه السلامة وبث للمستحيل لحن
التوافق والقبول..

هذه حياتي زوجًا يحمل طوقًا من الفضل لمن سهرت عمرًا على بابه
تنتظر النداء..

هذه حياتي أخًا يحمل في قلبه حبًا لإخوة له أسكنوه في غرف القلوب
وقاسموه فرحة الوصول ومسرة اللحظات السعيدة الهائلة، وواسوه عند
هجوم قلوب من تتر البشر وذئاب الكائنات القاسية..

هذه حياتي صديقًا لمن صادقوا الود وعَلِمُوا الإخلاص كيف يكون
في بسمة حانية أو كلمة شافية، وراحوا يسكنون قلبي الذي أحب مهجهم
النقية الطاهرة..

هذه حياتي.

الحمد لله رب العالمين

